ج . م . روبرتس



موجز تاريخ العالم

(الجزء الثاني)

ترجمة

فارس قطان

موجز تاريخ العالم

(الجزء الثاني)

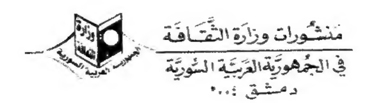
ج. م. روبرتس

موجز تاريخ العالم

(الجزء الثاني)

ترجمة

فارس قطان



موجـــز تــاريخ العالم / ج. م. روبرتس ؛ ترجمة فــارس قطان . -
دمشق : وزارة الثقافــة ، ٢٠٠٤ .- ٢ ج ؛ ٢٤ سم . -
(تواريخ ؛ ١).

١- ٩٠٩ ر و ب م ٢- ٩٣٠ ر و ب م ٣- العنوان
٤- روبرتس ٥- قطـــان ٦- السلسلة
مكتبة الأســد

تـــواريـــخ
«١»

٨

عصر الاكتشافات والمواجهة:
صنع عالم واحد

المبادرة الأورُبية

لنتمهَّل قليلاً- عند عام ١٠٠٠ للميلاد- لأن هذا التاريخ كان ذا معنى خاص عند أهل القرون الوسطى، فضلاً عن أنه رقم مدور يسهل تذكره. مع اقتراب الألفية من نهايتها صار كثير من الناس في أوربا المسيحية يعتقدون أنها سوف تجلب نهاية العالم ويوم الدينونة. وكان بعضهم في الحقيقة راغبين بقدوم نهاية العالم ومؤهبين لملاقاة خالقهم، إلا أن أكثرهم كانوا يعيشون في عالم ليس فيه ما يبعث على الأمل أو التفاؤل. فقد كانت أوربا في ذلك الزمان بلادًا فقيرة، ومازالت تحرر نفسها من الشعور بأنها محاصرة من الهون والأفار والفايكنغ والعرب، ولم يكن للقانون والنظام وجود في أراضيها. أما في حوالى عام ١٥٠٠ فكانت الصورة قد بدأت بالتغيُّر. صحيح أن أوربا كانت فقيرة بعد -بالمقاييس الحديثة- ولكنها كانت أوفر ثروة بكثير مما كانت عليه -قبل خمسة قرون- فكانت مدنها أكبر وأوسع ازدهارًا، والتبادل والتجارة -فيما بينها- أكثر نشاطاً، والأعمال الفنية والأدبية فيها أكثر وفرة، كما كانت حكوماتها أحدث وأكثر فعالية، ونظرتها للعالم الخارجي

نظرة جديدة. وإنه لتكثر فيها الدلائل على الاندفاع والمغامرة والشوق لبلوغ آفاق جديدة.

النهضة

تطلق تسمية النهضة Renaissance أحيانًا على ازدهار الفنون والآداب بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر، وهي بالأصل كلمة فرنسية معناها «البعث» أي الولادة من جديد. وقد شعرت جميع البلاد الأوربية الواقعة إلى الغرب من روسيا بتأثير تلك النهضة بدرجات مختلفة، وساهمت أكثرها فيها بقسط ما. إلا أن مركزها وقلبها الحقيقي إنما كان في إيطاليا، فقد عاشت في مدنها بين عامي ١٣٥٠ و١٤٥٠ أعداد من الأدباء والفنانين والعلماء والشعراء هي أكبر منها في أي بلد آخر، وكانت أوربا كلها تقصد إيطاليا لكي تتعلّم منها وتحاكي الأشياء الجميلة التي برع الإيطاليون في ابتكارها، وكان هؤلاء بدورهم يتطلّعون إلى الماضي الكلاسيكي لليونان وروما.

تكمن جذور النهضة في إعادة اكتشاف جزء من ماضي أوربا كانت قد حجبته الحضارة المسيحية أثناء العصور الوسطى، فقد مجّد المصور رافايلّو فلاسفة اليونان العظام في لوحاته، وراح الكتاب الإنسانيون يحاكون أسلوب الخطيب والكاتب الروماني شيشرون من أجل أن يضفوا الأناقة والجمال على لغتهم اللاتينية، والحقيقة أن بعث الآداب الكلاسيكية هو الذي أعطى النهضة اسمها. ولكن يبقى الدليل الأبرز على إنجازات النهضة هو فنّها، فقد خلّفت لنا في التصوير والنحت والحفر والعمارة والموسيقى والشعر أعدادًا هائلة من الإبداعات الجميلة التي صاغت أفكار الناس عن معايير الجمال لقرون طويلة. وقد بلغ هذا الفن ذروته في أواخر

القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، وهو العصر الذي ظهر فيه عدد من الرجال العظام منهم مِيكل آنجلو النحات والمصور والمعماري والشاعر، ورافايلّو المصور والمعماري، وليوناردو دا ڤينتشي المصور والمهندس والمعماري والنحات والعالم. وكان أهل عصر النهضة يعجبون بأمثال هؤلاء من ذوي البراعات العديدة، الذين أعطوا الناس فكرة جديدة عن قدرة الإنسان على الإتقان والتفوُّق وبيَّنوا عظمة مواهبه الدنيوية أعظم مما كانت تعلّمه الكنيسة. وإن للفنان ميكل آنجلو لوحة تصوِّر خلق آدم أبي البشر، وتراه فيها بصورة بطل عملاق يفوق في قوته وحدّة تعبيره خالقه نفسه، الذي يمده بالحياة من خلال سبابته.

كان أدباء النهضة أول من بدأ باستخدام تعبير «العصور الوسطى» – بل «العصر الوسيط»، لأنهم كانوا يتحدَّثون عنها في البداية بصيغة المفرد – لوصف ما يقع بينهم وبين الماضي الكلاسيكي الذي كانوا واعين لأهميته وعيًا كبيرًا. إلا أن الحقيقة الأهم في حياة الأوربيين لم تكن قد تغيَّرت كثيرًا في عام ١٥٠٠، وهي أن الدين مازال قلب حضارتهم، بل إنها –الآن– قد كست نفسها بثوب الدين وتظاهرت للعالم بأشكال دينية أيضًا. إن أول كتاب طبع في أوربا إنما هو الكتاب المقدَّس، فكان يطبع في عام ١٥٠٠بترجمات ألمانية وإيطالية وفرنسية – أما النسخة الإنكليزية فلم تظهر حتى عام ١٥٢٦– وكانت أعداد الناس الذين يقرؤونه في ذلك الزمان أكبر مما كانت في أي عهد سابق. وبعد سقوط القسطنطينية شعر الكثيرون من الأوربيين أنهم المسيحيون الوحيدون في العالم –إذ لم يكونوا يعرفون عَن أهل موسكو إلا القليل القليل– فكانت هذه الفكرة تحرِّك مشاعرهم، وربما، كانت تدفعهم إلى اعتبار أوربا مركز العالم، مثلما كانت أورشليم ذات يوم.

الاكتشافات

يفسر هذا التغيُّر في الأجواء مجيء العصر الذي سمي «عصر الاكتشافات»، وهي في الحقيقة اكتشافات اقتصرت على الأوربيين- تقريبًا منذ القرن الخامس عشر فما بعد- كانت خريطة العالم لبطليمُس قد وصلت إلى الغرب في عام ١٤٠٠، ثم طبعت ونشرت من جديد في عام ١٤٧٧ فأعطت الأوربيين أفكارًا جديدة، ولكن المعلومات التي توافرت في ذلك الحين قد سبقت بطليمُس بأشواط بعيدة، خاصة من ناحيتين اثنتين: أولاً بسبب اكتشاف أراض في الغرب وراء المحيط الأطلسي لم يكن بطليمُس على علم بها، وثانيًا بسبب إمكانية الوصول إلى آسيا عن طريق الدوران بحرًا حول أفريقيا. وكان للتقدم التقني في مجالي بناء السفن والملاحة أهمية كبيرة في تلك الاكتشافات، ولكن التقنيَّة وحدها لا تكفي لتفسير روح هذا العصر، فالصينيون كانوا يعرفون البوصلة المغناطيسية -منذ زمن بعيد- وكانوا قد بنوا سفن اليَنْك الشراعية الكبيرة العابرة للمحيطات، بينما كانت مراكب الدَّهْو العربية تجوب عرض المحيط الهندي، كما قام سكان جزر المحيط الهادي البعيد برحلات طويلة وغامضة في قوارب الكَنُو المفتوحة، وكانوا ذوي مهارة كبيرة في شؤون الملاحة. ويبقى السؤال الأساسي: لماذا كان الأوربيون هم الذين وحدّوا الكرة الأرضية من خلال مغامراتهم البرية والبحرية الطويلة، والتي امتدت حتى استكشاف القطبين الشمالي والجنوبي في القرن العشرين؟ لماذا لم يسبقهم العرب أو الصينيون إلى الأمريكتين؟ الحقيقة أننا لا نستطيع أن نجيب على هذا السؤال بجواب واحد بسيط، بل كانت هناك عوامل كثيرة تراكمت وتضافرت فيما بينها، ويفضَّل ألا نعطي آيًا منها الدور الحاسم في إنجازاتهم تلك.

من الواضح أن تحسُّن تصميم السفن وبنائها كان عاملاً هامًا في تحضير أوربا لدورها العالمي الجديد. كان الأوربيون يستخدمون القائم الكَوْثَلي -الدفة الخلفية- في عام ١٣٠٠، كما تحسّنت الأشرعة أيضًا فصارت السفن أسهل قيادة وآمن وأسرع. وفي عام ١٥٠٠ كان المركب الثخين الّذي استخدمه بحارة العصور الوسطى في شمال أوربا قد زال وحلّ محلّه مركب صغير ذو ثلاث صوار وأشرعة مختلطة بعضها عرضاني وبعضها طولاني، وهذا هو التصميم الأساسي للسفينة الشراعية التي سوف تسود البحار - طوال ثلاثمئة وخمسين سنة- وقد حصلت أيضًا تطورات هامة في الملاحة، فقبل قرون عديدة كان بحارة الفايكنغ البارعون يقومون برحلات طويلة في المحيط بعيدًا عن مرأى اليابسة، لأنهم كانوا يعرفون الإبحار على خط عرض ثابت مهتدين بارتفاع الشمس عن الأفق عند منتصف النهار لكي يبقيهم على مسارهم. ثم وصلت البوصلة في القرن الثالث عشر إلى المتوسط وبدأ البحارة باستخدامها - ولعلها أتت من الصين، ولكن ما من دليل مباشر على ذلك- وفي عام ١٢٧٠ نجد أول إشارة لاستخدام الخريطة في سفينة، وقد سهلت الخرائط معرفة الأوربيين بالجغرافية وانتشار تلك المعرفة بصورة متسارعة خلال القرنين القادمين.

إن لقصة الاكتشافات هذه ناحية أخرى شكّلتها مجموعة من الدوافع الجديدة. منها دافع هام جدًا هو دافع الربح والأمل بالمكاسب التجارية، إذ كان من المعروف أن الذهب والتوابل تأتي من جنوب الصحراء الكبرى، فربما أمكن اكتشاف مصدرها إذن؟ ثم كان هناك فشل الحملات الصليبية وعودة الإسلام للبزوغ والتقدُّم في شرق المتوسط والبلقان والهند أيضًا، ولو أنه كان ينسحب في إيبريا، وإن تزايد الخطر العثماني قد حفّز أحلام الأوربيين بإيجاد طريق للالتفاف حوله أو حلفاء يمكن الاستفادة منهم ضده. ولا تنس أيضًا دافع الحماس الديني

والرغبة بالتبشير بالمسيحية، لأن المستكشفين الأوائل كانوا رجالاً من العصور الوسطى يرون العالم بمنظار ديني، فكانوا يأملون بإيجاد الكاهن يوحنا* Prester John ملك إثيوبيا المسيحي، الذي تتحدث عنه الأساطير، فضلاً عن رغبتهم بهداية الناس وضمهم إلى كنيسة المسيح. وكان هناك أخيرًا دافع الفضول. ولكن مهما كان الدافع الأقوى في كل حالة من الحالات، فإن النتيجة كانت في المحصلة تزايد اهتمام الأوربيين الغربيين برحلات المغامرة واستكشاف المحيطات في القرنين الثالث عشر والرابع عشر.

البرتغاليون

كان من أبرز المهتمين بتلك المغامرات الاستكشافية الأمير هنري شقيق ملك البرتغال، وقد سمي لاحقًا «هنري الملاح»، ويبدو أن ماء البحر يجري في عروق البرتغاليين كما هي الحال لدى رجال جنوب غربي إنكلترا. إن ساحل البرتغال بأكمله واقع على المحيط الأطلسي، ومن مرافئه الصغيرة كانوا يرسلون المئات من المراكب من أجل صيد السمك والمتاجرة. وعليها تدرَّب البحارة الذين نقلوا المستوطنين الأوربيين الأوائل إلى الأطلسي، وكان أكثرهم من البرتغاليين – وعدد قليل منهم إسبانيين – الباحثين عن الأراضي في جزيرة ماديرا وأرخبيل الكناري. وحتى في مغامراتهم التجارية كان البرتغاليون مضطرين للتطلع إلى الأطلسي أيضًا، لأن إسبانيا كانت تطوِّقهم على البر كما أن الجنويين والبنادقة كانوا يستأثرون بتجارة المتوسط لأنفسهم ويمنعونهم عنها بشراسة. وقد قاد البرتغاليون حملات صليبية لهم في المغرب ولكن من دون أن يحرزوا تقدُّمًا هامًا فيها.

---

* زعم بعضهم أنه كان يحكم في الشرق الأقصى، وسموه «ملك الهند» – المترجم.

كانت رعاية الأمير هنري لعمليات الاستكشاف هذه أشبه برعاية الأبحاث العلمية في أيامنا. وقد نظَّم الحملات نحو الجنوب على امتداد ساحل أفريقيا، ففي عام ١٤٣٤ دار البرتغاليون للمرة الأولى حول رأس بوجدور، وبعد عشر سنوات ثبَّتوا أقدامهم في جزر الآزور، وكانوا قد بلغوا الرأس الأخضر على ساحل أفريقيا. وفي عام ١٤٤٥ وصلوا إلى السنغال وسرعان ما بنوا لهم حصنًا فيها. ثم عبروا خط الاستواء في عام ١٤٧٣ وبلغوا طرف أفريقيا في عام ١٤٨٧، أي رأس الرجاء الصالح. وكانت بانتظارهم غنيمة عظيمة، هي تجارة التوابل عبر المحيط الهندي التي طالما احتكرتها مراكب الدَّهْو العربية، إلا أن وجود تلك التجارة قد مكَّنهم من الاستفادة من البحَّارة العرب- وعند نهاية القرن تقريبًا كَلَّفَ ملك البرتغال مواطنه القبطان ڤاسكو دا غاما بإيجاد طريق إلى الهند، فأخذ هذا معه بحارًا عُمانيًا من شرق أفريقيا وأبحر صوب الشرق إلى أن رسا بسفينته في كلكُتا على الساحل الغربي لشبه القارة، وكان هذا في أيار (مايو) من عام ١٤٩٨.

عصر الاكتشافات الكبرى

١٤٤٥	البرتغاليون يرسون في جزر الرأس الأخضر
١٤٥٥	المرسوم البابوي يعترف باحتكار البرتغاليين لاستكشاف أفريقيا.
١٤٦٠	وفاة الأمير هنري «الملاح».
١٤٦٩	ألفونسو الخامس ملك البرتغال يبرم عقد إيجار باحتكار تجارة أفريقيا الغربية مقابل الاستمرار باستكشافها.
١٤٧٩	إسبانيا توافق على أن تتمتَّع البرتغال بحقوق احتكار التجارة مع غينيا.

١٤٨١	تأسيس حصن في إلمينا -في غانا الحالية- كقاعدة لتجارة البرتغال مع أفريقيا.
١٤٨٢	البرتغاليون يصلون إلى الكونغو.
١٤٨٨	بارتولوميو دياز يدور حول رأس الرجاء الصالح.
١٤٩٢	كريستوف كولمبس يصل إلى جزر الهند الغربيّة.
١٤٩٤	معاهدة توردسيلاز تعطي إسبانيا الحقوق الحصرية بالاستكشاف إلى الغرب من خط شمالي جنوبي عبر الأطلسي. والبرتغال تأخذ حقوقًا مشابهة إلى الشرق من الخط نفسه.
١٤٩٦	أول رحلة استكشاف للإيطالي جون كابوت، بتفويض من هنري السابع ملك إنكلترا.
١٤٩٧	كابوت يصل إلى نيوفوندلند في رحلته الثانية.
١٤٩٨	ڤاسكو دا غاما يصل إلى كلكُتا بعد أن اكتشف الطريق البحرية إلى الهند.
١٤٩٩	الفلورنسي أمِريغو ڤسبوتشي يكتشف أمريكا الجنوبية تحت علم إسبانيا.
١٥٠٠	البرتغالي بيدرو ألڤاريز كابرال يكتشف البرازيل.
١٥٠٧	استخدام تسمية «أمريكا» للدلالة على العالم الجديد.
١٥٠٨	كابوت ينطلق بحثًا عن الممر الشمالي الغربي.
١٥١٣	بالبوا يعبر مضيق دارين ويصل إلى المحيط الهادي.
١٥١٩	البرتغاليان فرديناند ماجلان وخوان سيباستيان دل كانو يبحران غربًا بحثًا عن جزر التوابل.
١٥٢٢	دل كانو يعود إلى إسبانيا بعد أن أتم الدوران حول الكرة الأرضية.

العالم الجديد

قبل ست سنوات من هذا التاريخ كان البحار الجنوي كريستوف كولُمبُس قد خطا خطوة أخرى أعظم -حتى من تلك- لقد طلب في البداية من ملك البرتغال أن يدعمه في رحلة استكشاف كان يعتقد، بناء على جغرافية بطليمُس، أنها سوف تسمح له ببلوغ قارة آسيا عن طريق الإبحار غربًا عبر المحيط الأطلسي، ولكن الملك لم يستحب لطلبه. ثم نجح في عام ١٤٩٢ في إقناع الملكة الكاثوليكية إيزابلاّ ملكة قشتالة بأن تمنحه دعمها، وهذا ما مكّنه أخيرًا من أن يستهل رحلته. وبعد ٦٩ يومًا رست سفنه الصغيرة الثلاث في جزر البَهاما، وبعد أسبوعين اثنين اكتشف كوبا وسماها هِسپَنيولا، ثم عاد في العام التالي بحملة أفضل تجهيزًا بكثير واستكشف الجزر التي تعرف -منذ ذلك الحين- بجزر الهند الغربية (الأنتيل). لقد اكتشف كولمبس في الحقيقة العالم الجديد من دون أن يعلم - واستخدمت هذه التسمية للمرة الأولى في عام ١٤٩٤ - وإن قفزته في الظلام قد بدّلت تاريخ العالم. كان البحارة البرتغاليون قد أبحروا بشجاعة ومهارة كبيرتين ولكن بصورة منظّمة حول قارة معروفة ونحو هدف معروف أيضًا، أما كولمبس فقد وقع على قارتين كاملتين لم يكن أحد يعلم بوجودهما من قبل ولا كان أحد ينتظر اكتشافهما، لهذا فقد كانتا «جديدتين» حقًا. وفي عام ١٤٩٥ ظهرت أول خريطة تبيِّن اكتشافاته، وكانت كوبا فيها بشكل جزيرة وليس كجزء من بر آسيا -وكان قد جعل رجال طاقمه يقسمون على ذلك- ولكن كولمبس رفض الاعتراف باحتمال وجود قارة جديدة، وظل حتى آخر يوم في حياته متشبثًا بفكرة أنه إنما اكتشف الجزر القريبة من قارة آسيا.

إن لهذه القصة تتمة هامة -لا بد لنا من ذكرها هنا- ففي عام ١٥٠٢ انطلق رجل إيطالي في مركب برتغالي من ساحل البرازيل الحالية وأبحر -حتى نهر بلات جنوبًا- وقد بيَّنت رحلته هذه بصورة جازمة أن ثمة قارة كاملة إلى الجنوب من منطقة الكاريبـــي حيث تمت أولى الاكتشافات الكبرى. هذا الرجل الإيطالي كان اسمه أمِريغو فسبوتشي، وتكريمًا له قام عالم جغرافي ألماني -بعد خمس سنوات- بتسمية القارة الجديدة على اسمه، فصارت تدعى أمريكا. وقد استخدمت التسمية نفسها بعد ذلك للدلالة على القارة الشمالية أيضًا.

وهكذا كان الاستكشاف آخر القوى العديدة والمعقَّدة التي أدَّت بالأوربيين إلى رؤية علاقتهم ببقية العالم بطريقة جديدة. ثم إنهم بعد أن اكتشفوا العالم راحوا يعملون على تغييره وتبديله أيضًا، وكانت تدفعهم ثقة عظيمة بأنفسهم تتزايد مع تزايد نجاحاتهم وتراكمها الواحد فوق الآخر. إن الاكتشافات الكبرى التي أحرزوها بحلول عام ١٥٠٠ قد وضعتهم على عتبة عصر جديد سوف تزداد قوتهم فيه نموًا وتوسّعًا حتى بدت وكأنها لا حدود لها. وإن العالم لم يأت إليهم، بل خرجوا هم وأخذوه بأنفسهم، وقد بلغوا في ذلك نجاحًا أكبر بكثير من أجدادهم الصليبيين. ومن أجل أن نفهم أسباب نجاحهم هذا وطريقة حدوثه ينبغي علينا، الآن، أن نلتفت إلى العالم الذي كانوا يكتشفونه ونعرف قصته. وقد كان ذلك العالم أيضًا ثمرة تواريخ طويلة، ولو أن قصتّها مختلفة جدًا عن قصة المكتشفين والفاتحين.

أفريقيا قبل الأزمنة الحديثة

إن الأفارقة والعلماء المختصّين بشؤون أفريقيا يسهبون دومًا في الحديث عن أهمية هذه القارة في مرحلة ما قبل التاريخ، والحقيقة أن أكثر الأدلة التي بين يدينا عن حياة البشريات الأولى إنما أتتنا من أفريقيا، وفيها تبدأ قصة الإنسان. فإذا كان أوائل البشر قد ظهروا هناك فعلاً، فإن نسبة كبيرة من الناس اليوم هم بالأصل أفارقة، وإذا لم تنشأ البشرية وتتطوّر في أي مكان آخر بصورة مستقلة بل انتشرت من تلك القارة، فإننا جميعًا أفارقة في المحصّلة. ولكن أفريقيا بالرغم من ذلك لم تؤثّر فينا من أية ناحية هامة، وإن ثقافات العالم الكبرى لا تدين لها إلا بالقليل -فيما عدا بعض الحالات القليلة في الأمريكتين الشمالية والجنوبية- وتبقى مساهمة هذه القارة في رأس المال الثقافي للحضارة دون مساهمات القارات الأخرى. وقد انتقل محور ما قبل التاريخ مع قدوم العصرين الباليوليتي الأعلى والنيوليتي مبتعدًا عن مهده الأفريقي، ورغم حدوث الكثير من التطوّرات الهامة في تلك القارة بعد ذلك فإن الحقبة الكبرى التي أثّرت فيها تأثيرها الخلاق على بقية العالم كانت قد ولّت. لقد كان وادي النيل مهد الحضارة الأفريقية الوحيدة التي كتب لها شأن كبير خارج القارة، ولكن أهميته تظل دون سومر أو بحر إيجة، كما أن ثقافة مصر لم تمتد كثيرًا خارج حدودها الجغرافية. فإذا استثنينا مصر وجدنا أن هذه القارة لم تُقدِّم الشيء الكثير للعالم طوال الشطر الأعظم من العصور التاريخية -وحتى الأزمنة الحديثة جدًا- فيما عدا مواردها الطبيعية. لقد حلّت بشعوب أفريقيا أشياء كثيرة، ولكن

القارة نفسها لم تكن مصدر أفكار أو تقنيَّات غيَّرت الحياة في بقاع أخرى، بل إن أهم التغيُّرات التي جرت في تاريخ أفريقيا نفسها قد تمت بفعل قوى أثَّرت عليها من الخارج.

ولا نعلم تمامًا لماذا كان دور أفريقيا في الحضارة ضعيفًا -حتى في الأزمنة الباكرة- ولكن يبدو أن تغيُّر المناخ في فترة ما قبل التاريخ كان عاملاً أساسيًا جعل الحياة في تلك القارة حياة صعبة وشاقة. لقد بقيت الصحراء الكبرى -حتى حوالى عام ٣٠٠٠ ق.م- تؤوي حيوانات مثل الفيل وفرس النهر، ولو أنها اختفت فيها - منذ زمن بعيد- كما كانت موطنًا لشعوب تعيش على رعي البقر والخراف والماعز. وفي تلك الأيام كانت الصحراء والوديان القاحلة التي تراها اليوم سهوبًا عشبية خصبة تقطعها وتصرّفها أنهار تجري جنوبًا حتى نهر النيجر، وشبكة أخرى يبلغ طولها ١٢٠٠ كم تصب في بحيرة تشاد. وفي الهضاب التي تنبع منها تلك الأنهار كانت تعيش شعوب تركت لنا سجلاً عن حياتها بشكل رسوم ونقوش في الصخر، وهي مختلفة جدًا عن فن الكهوف الذي ظهر في أوربا في زمن سابق، لأن الكهوف الأوربية لم تصور إلا حياة الحيوان ونادرًا ما صورت البشر. أما الآثار الأفريقية فتشير إلى أن الصحراء الكبرى كانت في ذلك الحين مكان التقاء لشعوب زنجانية، وشعوب أخرى يسميها البعض «شبيهة بالأوربية» Europoid -وربما كان هؤلاء أجداد البربر- فضلاً عن الطوارق وهم من الشعوب الحاميّة. ويبدو أن أحد تلك الشعوب قد شق طريقه من طرابلس (الغرب) مع خيوله وعرباته وربما تغلَّب على شعوب الرعاة، كما يبدو أنهم ليسوا من العائلة الهندية الأوربية. إلا أن وجودهم، مثل وجود الشعوب الزنجانية في الصحراء الكبرى، يثبت أن نباتات أفريقيا كانت

فيما مضى مختلفة جدًا عنها في الأزمنة اللاحقة، لأن الخيل بحاجة للرعي. ولكن بحلول الأزمنة التاريخية كانت الصحراء الكبرى قد جفّت، ومواقع الشعوب المزدهرة قد هُجرت، والحيوانات قد رحلت.

الشعوب الأفريقية

ثمة صعوبة أخرى في تقييم مكان أفريقيا الصحيح في التاريخ، هي أنها لم تترك إلا القليل من السجلاّت المدونة، باستثناء مصر. إننا نجد في سجلات الحكومة المصرية بعض الإشارات إلى أجزاء أخرى من القارة، كما تزودنا السجلاّت الرومانية والبيزنطية بمعلومات أوفر، ولكنها تكاد تكون مقتصرة على شمال أفريقيا والسودان. أما عدا عن هذا فليس بين أيدينا إلا الأساطير وروايات المسافرين، وذلك حتى ظهور الإسلام. وعندما كتب المؤرخ الإغريقي هيرودوتُس عن أفريقيا في القرن الخامس ق.م لم يكن لديه أشياء كثيرة يقولها عما يقع خارج مصر، ولم يكن على كل حال قادرًا على قراءة سجلات هذا البلد. كانت أفريقيا عنده محدَّدة بنهر النيل، وقد اعتبر أنه يجري جنوبًا بصورة موازية للبحر الأحمر – تقريبًا– ثم ينحني غربًا على طول حدود ليبيا. أما إلى الجنوب من النيل فكان يعتقد أن هناك الإثيوبيين في الشرق، وفي الغرب صحارى لا سكان فيها، ولم تكن لديه أية معلومات عنها، ولو أنه سمع عن شعب من الأقزام الذين يمارسون السحر. إن وصفه الطبغرافي هذا منطقي بالنظر إلى مصادر المعلومات التي كانت متاحة في أيامه، ولكنه في الواقع لم يلم إلا بثلث الحقيقة الإثنية أو ربعها. كان الإثيوبيون مثل السكان القدامى في مصر العليا –الصعيد– ينتمون للشعوب الحاميّة، التي

تشكّل واحدة من ثلاث مجموعات عرقية في أفريقيا يقول علماء الأنثروبولوجيا الحديثون إنها كانت موجودة عند نهاية العصر الحجري. أما المجموعتان الأخريان فهما أجداد شعب البُشمان الحالي، الذي يقطن الأراضي الشاسعة الممتدة من الصحراء الكبرى حتى رأس الرجاء الصالح في أقصى الجنوب، والمجموعة الزنجانية التي صارت لها السيادة في النهاية على غابات وسط أفريقيا وغربها، ومازال العلماء مختلفين حول أصول مجموعة رابعة هي مجموعة الأقزام، وحول مدى تميزها عن المجموعات الأخرى.

وإذا حكمت على ثقافات الشعوب الحاميّة والحاميّة الأولى من خلال ما بقي من أدواتها الحجرية فإنك تجدها الأكثر تقدُّماً في أفريقيا قبل قدوم الزراعة. وقد بزغت الزراعة بصورة بطيئة إلا في مصر، وسوف تستمر أنماط الحياة ما قبل التاريخية المعتمدة على الصيد وجمع الطعام إلى جانب الزراعة -حتى الأزمنة الحديثة- ولكن زيادة إنتاج الغذاء أدت بمرور الزمن إلى نمو عدد السكان، وقد غيَّر هذا الأمر أنماط السكان في أفريقيا، فمكّنت الزراعة من ظهور المستوطنات الكثيفة في وادي النيل، وكانت هذه هي المقدِّمة الضرورية لحضارة مصر، كما أن الزراعة قد زادت -خلال الألفين الثانية والأولى ق.م- من أعداد السكان الزنجانيين إلى الجنوب من الصحراء الكبرى، أي في الأراضي العشبية التي تفصل بين الصحراء والغابات الاستوائية، ويبدو أن الزراعة انتشرت عن طريق امتدادها باتجاه الجنوب وليس عن طريق اكتشافها في أماكن عديدة. وقد وجدت في السهوب مع مرور الزمن محاصيل مغذّية ومناسبة لظروفها الاستوائية وتربتها مثل أنواع الدخن -الجاورس- والأرز، بينما ازدهر القمح والشعير في وادي النيل. أما

مناطق الغابات فلم يكن بالإمكان استغلالها إلى أن وصلت إليها نباتات أخرى مناسبة لها من جنوب شرقي آسيا ثم من أمريكا؛ إلا أن هذه التطورات كلها إنما حدثت في حقبة ما بعد الميلاد.

الحديد

لقد زاد قدوم التعدين من تباعد التيارات الثقافية ضمن القارة. يبدو أن النحاس كان يُشغل في الصحراء الكبرى في أواخر الألف الثانية ق.م، ويحتمل أن تكون خاماته أُخذت من المناجم الواقعة اليوم في موريتانيا والسنغال؛ وبحلول القرن السادس ق.م كان استخراجه جاريًا في كاتانغا. أما الحديد فقد جاء إلى أفريقيا أول ما جاء من شعوب آسيا الغربية عبر مصر عند نهاية الألف الثانية. ولكن سوف -يمضي وقت طويل- قبل أن يبدأ شغل الحديد هناك، وعندما حدث هذا كان في بعض أنحاء القارة أول مهارة تظهر في التعدين، فالحقيقة أن بعض الأفارقة قد انتقلوا من العصر الحجري إلى عصر الحديد رأسًا من دون المرور بعصر البرونز أو النحاس. وقد بدأ صهر الحديد في نيجيريا العليا الحالية في القرن الخامس ق.م، وربما أتت تلك التقنيَّات بالأصل من المدن الفينيقية الواقعة على ساحل شمال أفريقيا عابرة الصحراء الكبرى.

كان للحديد أثر عظيم جدًا، ويبدو أن أحد تأثيراته الأولى كان في مجال السياسة. وقد تمّ أول استغلال للثروات المعدنية في أفريقيا على ما نعلم في مملكة كوش، الواقعة على القسم الأعلى من النيل عند التخوم التي بلغها نشاط المصريين، وهي أول وحدة سياسية مستقلة وصلتنا أخبارها بعد مصر. فبعد أن ضم المصريون منطقة النوبة إلى بلادهم وضعوا حاميًات لهم في الإمارة السودانية الواقعة إلى

الجنوب منها، إلا أنها أصبحت مملكة مستقلّة بحلول عام ١٠٠٠ ق.م تقريبًا، وكانت متأثّرة تأثرًا عميقًا بالحضارة المصرية. وكان سكانها على الأرجح من العرق الحامي، وكانت عاصمتها في نَبَتَة تحت الشلال الرابع مباشرة. وفي عام ٧٣٠ ق.م كانت مملكة كوش هذه قد بلغت من القوة ما مكّنها من فتح مصر نفسها، وقد حكم خمسة من ملوكها كفراعنة وعرفوا في التاريخ بالسلالة الخامسة والعشرين أو السلالة «الحبشية» (الإثيوبية)، ولكنهم عجزوا عن إيقاف التراجع في مصر، وعندما هاجمها الأشوريون زالت منها سلالة كوش. وقد استمر تأثير الحضارة المصرية في مملكة كوش، كما غزاها فرعون من السلالة التالية في بداية القرن السادس ق.م. وبعد هذا راح الكوشيون بدورهم يدفعون حدودهم نحو الجنوب، ومن خلال تلك العملية مرت مملكتهم بتغيُّرين هامين، فقد ازداد الطابع الزنجاني فيها -وتُظهر لغتها وأدبها ضعف النـــزعة المصرية- كما بدأ الحديد يلعب دوره في رسم مصائرها. وامتدت أراضي كوش إلى مناطق جديدة تحتوي على خام الحديد وعلى الوقود اللازم لصهره أيضًا -بكميات كبيرة قياسًا إلى التقنيات المعروفة- وكان الكوشيون قد تعلّموا فن الصهر من الأشوريين في القرن السابع، فصارت عاصمتهم مرو الآن مركز التعدين في أفريقيا. وإن الأسلحة الحديدية قد أعطت الكوشيين ميزة على جيرانهم مثل التي كانت للشعوب الشمالية على مصر في الماضي، كما أن الأدوات الحديدية قد وسّعت مساحة الأرض القابلة للزراعة. وعلى هذه الإنجازات سوف تبنى ثلاثة قرون من الازدهار والحضارة في السودان، ولو أنها مازالت بعيدة عن العصر الذي نتناوله الآن.

قبل الحقبة المسيحية كان شغل الحديد قد انتشر إلى الجنوب من الصحراء الكبرى حتى وسط نيجيريا، وقد استغرق حوالى ١٢٠٠ سنة لكي يصل إلى

السواحل الجنوبية الشرقية. ولا ريب أنه ساعد على انتشار الزراعة إلى أنحاء من أفريقيا كانت غير قابلة للزراعة أو لا يمكن الوصول إليها، فساعد بالتالي على نمو عدد السكان، ولو بصورة وئيدة وغير مباشرة -فحتى عند بداية الحقبة المسيحية كان عدد سكان أفريقيا كلها على الأرجح أقل من عشرين مليونًا- لأن الأفارقة كانوا يميلون للزراعة بصورة متنقّلة، فيزيلون النباتات البريّة في منطقة ما ويستنفدون تربتها ثم ينتقلون إلى أرض جديدة. كما أنهم لم يكتشفوا المحراث ولا استخدموه إلا بعد زمن طويل، وربما كانت الأمراض التي تصيب الحيوان من الأسباب التي منعتهم من تربية الحيوانات اللازمة لجره، وتكاد تكون مرتفعات إثيوبيا هي المكان الوحيد في أفريقيا الذي كانت تربى فيه الأحصنة.

كان شغل الحديد وتطوُّر تقنيّات الزراعة -مثل قدوم محاصيل غذائية جديدة من آسيا عند بداية الأزمنة المسيحية- من أولى الأشياء الكثيرة التي استوردتها أفريقيا، والتي مكّنت من نمو جماعات سكانيّة كبيرة بعيدًا عن وادي النيل وساحل المتوسط. لقد بقي جنوب أفريقيا يعيش في العصر الحجري حتى وصول الأوربيين، ولكن حتى هناك مكّنت الابتكارات الجديدة للمرة الأولى من التغلُّب على العوائق والحواجز الهائلة التي طالما وضعها المناخ وطبيعة الأرض والأمراض في طريق الحضارة. وكانت هذه بداية قصة طويلة من استيراد التقنيّات من الخارج، وهي قصة -تمتد حتى الأزمنة الحديثة- عندما جاءت إلى أفريقيا أشياء كثيرة مثل الطب والسدود المولّدة للكهرباء ومكيفات الهواء وغيرها. إلا أن أفريقيا الواقعة إلى الجنوب من الصحراء الكبرى قد بقيت لزمن طويل مرتبطة بأسلوب الزراعة المتنقّلة، وظلّت متأخرة في مجالات صنع الفخار وطحن الحبوب والنقل لأنها لم تعرف العجلة، كما أن أجزاء كبيرة من القارة لم تتعلّم الكتابة حتى الأزمنة الحديثة.

الانقسامات الثقافية الباكرة

ليس بين أيدينا مصادر مكتوبة عن أفريقيا ما عدا السجلاّت التي دوّنها العرب وأقباط إثيوبيا، ولكن يمكننا مع هذا أن نميِّز التيارات الأساسية في تاريخ هذه القارة من دون عناء كبير، ويمكن اليوم تقسيم الخريطة الثقافية لأفريقيا بصورة - تقريبية جدًا- إلى شمال إسلامي وجنوب غير إسلامي -ولا ينطبق هذا التقسيم إطلاقًا على انقسام أفريقيا إلى شطر زنجاني وشطر غير زنجاني- وخارج هذا المخطط تقع مرتفعات إثيوبيا التي تسكنها شعوب غير زنجانية تتحدّث اللغة الأمهَرية. نحن نعلم أن الإثيوبيين أطاحوا بمملكة كوش في حوالى عام ٣٠٠ ق.م، وفي القرن الرابع الميلادي سوف تصبح إثيوبيا واحدة من أولى الممالك المسيحية في العالم، عندما تنصّر حكامها عن يد أقباط مصر المسيحيين. ولكن اتصالهم المباشر ببقية العالم المسيحي لم يستمر إلا لبرهة قصيرة بعد ذلك، لأن غزو العرب لمصر قد وضع بينهما حاجزًا من الإسلام. وبقيت إثيوبيا بعد هذا لقرون طويلة الأمة المسيحية الوحيدة في أفريقيا، والمجتمع الوحيد غير المسلم الذي يعرف الكتابة. إلا أن علاقتها بالعالم الخارجي قد بقيت علاقة ضئيلة، حتى خمسة أو ستة قرون مضت.

في تلك الأثناء كانت الجماعات المسيحية المغاربية في شمال أفريقيا، والتي تأسَّست في الأزمنة الرومانية قد زالت أمام المد الإسلامي، ولم تبق منها أعداد كبيرة إلا في مصر. وانتشر العرب عن طريق الفتوحات العسكرية في كافة الساحل الشمالي، وأسلموا شعوب البربر والمغرب أثناء تقدُّمهم. أما في الغرب فكانت اتصالات قبائل البربر بالشعوب الزنجانية اتصالات قديمة العهد، وهذا ما ربط غرب أفريقيا بعالم المتوسط بعلاقات اقتصادية -منذ الألف الثانية ق.م- ولو

أن العلماء مازالوا مختلفين حول المعنى الحقيقي لهذه العلاقات. وبعد فتوحات العرب في الشمال انتقل الإسلام عبر الصحراء الكبرى عن طريق قوافل المستكشفين والتجار العرب الباحثين عن مصدر الذهب والعبيد، لأن هذه البضائع كانت قد بدأت تُعرف في الشمال. وبحلول نهاية القرن الحادي عشر كان الإسلام قد ترسَّخ في وادي النيجر وغرب أفريقيا، وفي الشرق كانت الصومال أيضًا قد أضحت بلدًا مسلمًا.

غانا ومالي

كان وصول الإسلام ذا أهمية عظيمة لدى المؤرِّخين، لأن الرحالة العرب هم الذين تركوا لنا أولى الدلائل المكتوبة المباشرة والمبنية على معاينة حقيقية لأفريقيا السوداء. وقد صدمتهم بعض الأشياء التي شاهدوها، مثل عري الفتيات في أفريقيا، ولكنهم دونوا أيضًا الكثير من الأشياء المفيدة. ويحدثنا هؤلاء الرحالة عن وحدة سياسية في غرب أفريقيا كانت تحمل اسمًا نألفه اليوم أيضًا، هي غانا. ويبدو أن غانا كانت مملكة تحكمها سلالة من البربر –منذ القرن الرابع– ومن الواضح أنها أصبحت بلدًا هامًا منذ أن طُردت منها هذه السلالة في القرن الثامن، وقد وصفها أحد الكتاب العرب «بأرض الذهب». وكان الذهب يأتي من أشانتي والسنغال إلى تجار غانا، ثم يمرره هؤلاء بدورهم إلى القوافل العربية التي تشق طريقها نحو الشرق الأدنى، حاملة معها أيضًا الملح والعبيد. وكانت غانا في أوسع نطاق بلغته تمتد من المحيط الأطلسي حتى القسم العلوي من نهر النيجر، ويبدو أنها ازدهرت من القرن الثامن حتى منتصف القرن الحادي عشر الميلاديين، وأن حكومتها كانت تدين لحكامها البربر السابقين الآتين من الشمال، ولكن العلماء مازالوا مختلفين حول

مدى هذا الدين. وقد عاد الحكم على كل حال إلى أيدي البربر في القرن الحادي عشر على عهد ملوك من المغرب الإسلامي.

وتحطَّمت غانا في النهاية على يد دولة أخرى هي مالي -وهو اسم آخر أحيته دولة حديثة في أفريقيا- فكانت هذه واحدة من الدول التي حلَّت محلَّها بعد تفكّكها. كانت مالي مملكة إسلامية وأكبر بكثير من غانا، وقد غطَّت كافة حوض السنغال. وكان ملكها على درجة كبيرة من الغنى، حتى قيل إنه كان يملك عشرة آلاف حصان في إسطبلاته، وقد سبَّبت ثروته قدرًا كبيرًا من الإثارة في العالم العربي عندما قام برحلة حج إلى مكة في عام ١٣٠٧. ولكن هذه الإمبراطورية تفكّكت بدورها في القرن الخامس عشر، عندما صارت التجارة عبر الصحراء الكبرى تحت سيطرة إمبراطورية أخرى هي إمبراطورية السونغهاي، الذين استمرت سيادتهم -حتى نهاية القرن السادس عشر- وفي ذلك الحين كان غرب أفريقيا إلى الجنوب من الصحراء الكبرى بأكمله -تقريبًا- تحت حكم زعماء وملوك مسلمين، ومازال قسم كبير منه كذلك اليوم أيضًا. وقد تم اعتناق أفريقيا السوداء للإسلام من قمة المجتمع نحو قاعدته، واستمرت ممارسات وثنية كثيرة بعد زمن طويل من تحوُّل هذه البلاد الرسمي إلى الإسلام. أما إلى الجنوب من ذلك فلم يتغلغل الإسلام إلا حيث كان العرب على تماس بالمناطق الساحلية، وإن قصة جنوب أفريقيا أصعب منالاً حتى من قصة شمالها.

جنوب أفريقيا

كانت الحركة الأساسيَّة في تاريخ الجنوب عبارة عن هجرات طويلة قامت بها عند بداية الأزمنة المسيحية -تقريبًا- شعوب تتحدث لغات البانتو. وقد أتى هؤلاء من شرق نيجيريا ثم انتشروا عبر حوض الكونغو وفي القسم الأكبر من أفريقيا

الجنوبية، ووضع انتشارهم هذا نمطًا من الاستيطان مازال مستمرًا، حتى اليوم، ولو أنه ازداد تعقيدًا بالهجرات اللاحقة. وقد بلغ بعض أولئك المهاجرين في النهاية الساحل الشرقي، حيث عادت أفريقيا السوداء للاتصال بالعالم العربي من جديد. وكان التجار الوافدون إلى الساحل من البحر الأحمر والخليج الفارسي -منذ القرن الثامن فما بعد- يسمون شرق أفريقيا «بلاد الزنج» -ومنها أتت تسمية زَنجبار في زمن لاحق- وقد أسَّسوا المدن الساحلية التي ابتدأت بنشر حياة المدن في هذا الجزء من أفريقيا، وكانوا يشترون الذهب والنحاس والحديد من السكان. وربما وصل إلى تلك البلاد زوار من إندونيسيا أيضًا، لأن بعضهم كانوا قد استقروا في مدغشقر وجلبوا إليها أنواعًا جديدة من النباتات الغذائية من آسيا. أما الاتصالات غير المباشرة بالعالم الخارجي فقد امتدت إلى بلاد أبعد حتى من هذه، إذ وجدت منتجات صينية في شرق أفريقيا، كما قيل إن أغنياء كانتون في القرن الثاني عشر كانوا يملكون أعدادًا كبيرة من العبيد الأفارقة.

وليس من السهل أن نعرف الكثير عن طريقة إدارة ممالك جنوب أفريقيا، فهي لم تكن تعرف الكتابة، لذلك لا يمكن أن تكون لها إدارات بل كان ملوكها يحكمونها على الأرجح ضمن حدود التقاليد والعادات المتبعة؛ وكانت بعضها كبيرة ولكن لم تكن فيها ديانة بلغت درجة هامة من التطوُّر. ويحدثنا البرتغاليون -عند نهاية القرن الخامس عشر- عن إحدى تلك الممالك التي كانت واقعة على القسم السفلي من نهر الكونغو، وتسمى مملكة الباكونغو. وقد أرسل حكَّامها في طلب المبشرين الدينيين، كما أرسلوا سفارة إلى لشبونة ورحبوا بالأوربيين. وعُمِّد ملكهم باسم ألفونسو الأول في عام ١٤٩١ - ولكن العلماء

مازالوا مختلفين حول ما إذا كان ارتدَّ إلى الوثنية من توه أو عاش ومات كملك مسيحي مثالي- إلا أن عصرًا جديدًا كان في ذلك الحين يقرع الأبواب، فقبل ثلاث سنوات كانت أنظار البرتغاليين قد وقعت على رأس الرجاء الصالح، وسوف يكون الأوربيون هم المحرك النهائي لأكثر التطوُّرات الحاسمة في تاريخ أفريقيا.

وسرعان ما ذكر البرتغاليون اكتشاف دولة أخرى كبيرة في شرق أفريقيا تحكم منطقة واسعة من وادي زِمبابوِه. كانت هذه الدولة تتبع أساليب ثقافة أبكر منها -في البلد التي سميت لاحقًا روديسيا- أطلق عليها علماء الآثار اسم الثقافة الآزانية، وقد تركت آثارًا لأعمال متقنة قامت بها في مجالات استغلال المناجم وحفر الأقنية وبناء الآبار. وقد ابتدأت هذه النشاطات استغلال الثروة المعدنية في هذه المنطقة، وهي عملية مازالت مستمرة حتى اليوم. وبفضل توفُّر الذهب قامت مملكة لا بد أن تكون استمرت أربعة قرون على الأقل وتركت آثارًا -من القرن الخامس عشر على الأرجح- هي الأدلة الوحيدة على وجود أبنية كبيرة من الحجر في جنوب أفريقيا. وتقع أشهر تلك الآثار في «زِمبابوِه الكبرى» حيث كانت توجد عاصمة ملكية ومدفن تعود أبكر أبنيتها إلى القرن الثامن، ولو أن أعظمها قد بنيت على الأرجح في القرن السادس عشر أو السابع عشر. وهي مكوَّنة بالإجمال من حوالى ٨٠ هكتارًا من الحظائر المسيّجة يحيط ببعضها أسوار ضخمة وأبراج مشيَّدة بأحجار مقصوصة ومرصوفة بدقة كبيرة من دون ملاط. وعندما اكتشف الأوربيون زِمبابوِه لم يصدِّقوا أن بإمكان الأفارقة الإتيان بشيء على هذه الدرجة من الإتقان والعظمة -مثلما ظن علماء

الآثار ذات مرة أن الميقينيين هم الذين بنوا آثار ستونهنج في إنكلترا- ولكن بات من الواضح -الآن- أنها أعمال أفريقية. إن آثار زِمبابوه الكبرى، مثلها مثل الأشغال البرونزية الجميلة التي وجدت في بينان، تظهر القدرة الفنيَّة التي تتمتَّع بها أفريقيا السوداء، ولكنها تظهر حدودها أيضًا.

في عام ١٥٠٠ كان العرب والمسيحيون قد أتوا بالكتابة وغيرها من تقنيَّات الحضارة المتقدِّمة إلى بعض أكثر ثقافات أفريقيا تطوُّرًا؛ ولكن القسم الأكبر من القارة كان بعد سليماً من أيديهم، ولن تؤثِّر اتصالاتهم بقسمها الداخلي الواقع إلى الجنوب من الصحراء الكبرى إلا بعد عام ١٥٠٠ بزمن طويل. إلا أن الاتصالات القائمة كانت -منذ ذلك الحين- كشفت عن وجهها القبيح. فقد كان النخاسون العرب يعملون منذ قرون في جمع أرتال الرجال والنساء والأطفال السود من حكامهم الطيّعين لكي يسيروا بهم عبيدًا إما شمالاً إلى وادي النيل والشرق الأدنى، أو إلى الساحل حيث تنتظرهم قوارب الدهو لتحملهم إلى عُمان وفارس والهند بل حتى إلى كانتون. وعلى الساحل الغربي كان البرتغاليون في عام ١٤٤١ قد قبضوا على أناس سود وأخذوهم إلى بلادهم، وكانوا يسمونهم مسلمين — وهي تسمية غير صحيحة - وبعد عام واحد أقيمت أول سوق للعبيد الأفارقة. وربما كان البرتغاليون قد أخذوا بحلول عام ١٥٠٠ حوالى ١٥٠,٠٠٠ عبد أسود من أفريقيا، وإن السجلات الأوربية التي تسمح لنا بتخمين أعدادهم هي أفضل من السجلات العربية.

الأمريكتان قبل وصول الأوربيين

إن تاريخ الإنسان في الأمريكتين أقصر بكثير منه في أفريقيا، أو في أي قارة أخرى ما عدا أوستراليا -فمنذ حوالى ثلاثين ألف سنة- عبرت شعوب مغولانية إلى أمريكا الشمالية عن طريق البر آتية من آسيا، وهكذا كان سكان هذه القارة دومًا من المهاجرين؛ ثم تغلغل هؤلاء نحو الجنوب رويدًا رويدًا على مدى بضعة آلاف من السنين. وتضم الأمريكتان أشكالاً متنوِّعة وكثيرة من المناخات والبيئات، وتدل الحفريات الأثرية على أن أنماط الحياة التي نتجت عنها كانت -أيضًا- على درجة كبيرة من التنوُّع، وكانت مبنيَّة على الفرص المختلفة المتاحة في مجالات الصيد وجمع الطعام وصيد الأسماك. وقد توصَّل بعض سكان أمريكا الأوائل إلى معرفة الزراعة بصورة مستقلَّة عن العالم القديم، ولكن العلماء مازالوا مختلفين حول زمان حدوث هذا التطوُّر، ولو أنه قد حدث على كل حال بعد اكتشاف الزراعة في الهلال الخصيب. وقد بدأت زراعة الذرة في المكسيك في حوالى عام ٥٠٠٠ ق.م، ولكنها بحلول عام ٢٠٠٠ ق.م كانت قد تطوَّرت في أمريكا الوسطى إلى نبات شبيه بالذرة التي نعرفها اليوم، فصار بالإمكان -عندئذ- أن تنشأ جماعات مستقرة وكبيرة. وإلى الجنوب بدأت تظهر البطاطا والمَنْيهوت -وهو أيضًا جذر نباتي غني بالنشاء في نفس الوقت تقريبًا- وبعده بزمن قصير بدأ انتشار الذرة من المكسيك نحو الجنوب. ولكن التغيُّر كان في كل مكان بطيئًا ومتدرِّجًا، وأبطأ منه في حالة الشرق الأدنى، ولم يتوصل إلى الزراعة في القارة الشمالية قبل وصول الأوربيين إلا

عدد قليل من الأمريكيين، ولو أنهم كانوا متأقلمين تمامًا مع حياة الصيد وجمع الطعام. وكان الهنود يعيشون في السهول حياة سعيدة إلى أن جاء الأمريكيون البيض وخرَّبوا مواطنهم، كما تمكّن شعب الإسكيمو من البقاء والاستمرار في ظروف قاسية للغاية.

أما في الجنوب فقد أدت الزراعة بمرور الزمن إلى ظهور الحضارة. ولكن الحضارة الأمريكية كانت دومًا مختلفة عن الحضارات الأخرى بسبب انعزالها الطويل عنها. وربما زار بعض أهل بولينيزيا وغيرها من جزر المحيط الهادي الساحل الغربي لأمريكا، ولكن لم يبد -حتى الآن- أي تأثير هام لهم على الثقافة في الأمريكتين. والحقيقة أن بعد أمريكا عن مراكز الحضارة الكبرى كان هو الأمر المميز لتطوُّرها. لقد انتشرت معرفة شغل المعادن من بلاد الرافدين إلى مصر القديمة، كما انتقلت المسيحية من المتوسط إلى الصين عن طريق آسيا الوسطى، ولكن لم يكن ثمة اتصال مستمر بين الأمريكتين وأي من مراكز الحضارة الكبرى إلا بعد عام ١٤٩٢. أما مستوطنات الڤايكنغ في غرينلند ولابرادور في القرن التاسع فقد اختفت قبل ذلك بزمن طويل، وربما قضى عليها الإسكيمو.

لذلك تتَّصف حضارات أمريكا بملامح خاصة ومحدَّدة جدًا. ولا ريب أن أبرز تلك الملامح -كاعتمادها على الذرة مثلاً- كان سببها الإمكانيات المتوفرة في المناطق التي نشأت فيها وجغرافيتها ومناخاتها التي دفعتها باتجاهات معينة دون غيرها. وقد كانت هناك ثلاث مناطق رئيسية، هي جبال الآندس على الطرف الغربي من أمريكا الجنوبية، والغابات الاستوائية الكثيفة في أمريكا الوسطى أي في شبه جزيرة يوكاتان وغواتيمالا وهُندوراس، ووادي المكسيك في الشمال. وقد كانت آخر حضاراتها حية بعد عندما وصل الأوربيون الأوائل، لذلك وصلتنا بعض

أخبارها، من خلال، ما رواه مكتشفوها عما وجدوه فيها، فضلاً عما تكشفه لنا آثارها الباقية. ومن خلال تلك الصورة يمكننا أيضًا أن نستشف بعض الأمور عن الحضارات السابقة لها.

ثقافة الأولميك

إن أول حضارة أمريكية يعترف بها هي حضارة الأولميك التي ظهرت على الساحل الشرقي للمكسيك، وكانت على درجة كبرى من الأهمية. يبدو أنها كانت تتمحوَّر حول عدد من المواقع الاحتفالية الهامة ذات الأهرام الكبيرة المبنية من التراب، وقد وجدت فيها تماثيل عملاقة وأغراض صغيرة من حجر اليَشْب المحفور تمثِّل أجسامًا مختلفة. وكانت حضارة الأولميك ذات طابع فريد جدًا، ويبدو أنها سادت قرونًا عديدة بعد عام ٨٠٠ ق.م عبر كافة أمريكا الوسطى حتى السلڤادور الحالية جنوبًا. ولكنها ما زالت تحتفظ بأسرارها الغامضة، وقد ظهرت فجأة ومن دون طور سابق في منطقة من المستنقعات والغابات، وهذا ما يعسر تفسيره من الناحية الاقتصادية. فنحن لا نعلم كيف نشأت الحضارة من هذه الأرض الشحيحة، بينما احتاجت في البلاد الأخرى إلى وديان الأنهار الكبرى الخصيبة. ولكننا نعلم أن آلهة شعب الأزتيك، الذي أتى لاحقًا وكان مسيطرًا على المكسيك عندما وصل إليها الإسبان، كانت متحدِّرة من آلهة الأولميك، كما أن حضارة الأولميك قد ابتكرت أشياء كثيرة ظلّت لها أهميتها الكبرى في حياة أمريكا الوسطى، مثل صنع التماثيل العملاقة وتخطيط المدن وحفر الأشياء الصغيرة من حجر اليشب. وربما كانت أشكال الكتابة التصويرية الأولى التي ظهرت في أمريكا الوسطى تعود في أصولها إلى أزمنة الأولميك أيضًا، ولو أن أبكر ما بقي منها يعود إلى ما بعد زوال

ثقافتهم بقرن واحد -تقريبًا- أي إلى حوالى القرن الرابع ق.م؛ وإن زوالها هذا لا يقل غموضًا عن ظهورها. وإذا ابتعدنا أكثر إلى الجنوب، أي إلى البيرو، وجدنا فيها ثقافة تسمى ثقافة شافين -على اسم موقع احتفالي كبير لها- استمرت أكثر بقليل من حضارة الأولميك في الشمال، وبلغت هي الأخرى مستوىً عاليًا في شغل الحجارة، كما انتشرت بقوة ونشاط قبل أن تزول وتتلاشى بصورة غامضة.

المايا

ورغم أهمية هذه القفزات نحو الحضارة بفضل ما حملته للمستقبل، فإنها في الحقيقة قد حدثت بعد ظهور الحضارة في بلاد أخرى بآلاف السنين. عندما رسا الإسبان في العالم الجديد بعد حوالى ألفي سنة من زوال ثقافة الأولميك وجدوا أكثر أهلها يعملون بالأدوات الحجرية، ولكنهم وجدوا -أيضًا- مجتمعات حيَّة غنية -وبقايا مجتمعات أخرى سابقة لها- كانت قد أنجزت تحفًا عظيمة في مجالات البناء والتنظيم تفوق بكثير ما أنتجته أفريقيا -مثلاً- بعد تراجع مصر القديمة وانحسارها. من تلك الحضارات حضارة المايا، التي كانت قد تجاوزت ذروتها -منذ زمن بعيد- عندما وصل الأوربيون. إن الجزء الأكبر من المنطقة التي ازدهرت فيها حضارة المايا -أي شبه جزيرة يوكاتان وهُندوراس وغواتيمالا- غير ملائم لاستقرار البشر، ويبدو أنه كان دومًا على هذه الصورة، ورغم وجود بعض المناطق الجبلية والمعتدلة فيه فإنه بالإجمال منخفض ومغطى بالغابات الاستوائية التي تعجُّ بالحشرات والحيوانات الشرسة وترتع فيها أشكال وألوان من الأمراض. في هذه البيئة الفظيعة بنى شعب المايا معابد وأهرامًا تكاد تعادل في ضخامتها معابد مصر وأهرامها، والأعجب من هذا أن مواردهم كانت تعتمد على زراعة بدائية تنتزع الأراضي

للزراعة عن طريق اقتلاع النباتات البرية وحرقها، وربما كانت هذه في الحقيقة هي الطريقة الأنسب لظروف الغابات الاستوائية وتربتها الخاصة، وهي بالطبع ذات مردود ضعيف. ويبدو أن ثقافات كثيرة في أمريكا الوسطى كانت تشترك بالآلهة نفسها، وكانت هذه مأخوذة عن عصور أقدم، كما يبدو أنها أعطت كلها أهمية كبيرة لوضع التقاويم الزمنية وصيانة مواقعها الاحتفالية الكبيرة والعناية بها. ولكن ثقافة المايا تظل أوقع تلك الثقافات أثرًا في النفس.

تعود بعض بقايا حضارة المايا إلى الألف الثانية ق.م، ولكن أولى آثارها الهامة تعود لحوالي عام ١٠٠ ميلادي، أما أهم مراحل إبداعها فتقع بين عامي ٦٠٠ و ٩٠٠. ولم تخلف حضارة المايا آثار مدن لأن أهلها كانوا يعيشون في قرى صغيرة، ولكنها تركت لنا معابد وأهرامًا ومدافن وبلاطات وبقايا من مراكز كبيرة للاحتفالات الدينية. وكانت ديانتهم تسعى لإبهار الناظر وإشعاره بمدى بعده عن الآلهة وبأهمية رجال الدين الذين يرتقون أدراج تلك الأهرام الشاهقة لكي يخاطبوها. ويبدو أن مجتمع المايا في هذه الحقبة الكلاسيكية كانت تحكمه طبقة من المحاربين النبلاء، ومن الكهنة الذين يتناقلون مناصبهم بالوراثة. وكانت الديانة عبارة عن أداء الطقوس والاحتفالات بما يتناسب مع التقويم الموضوع على أساس الأرصاد الفلكية. وقد لفتت هذه الحقيقة أنظار بعض العلماء حتى اعتبروها أفضل دليل على المستوى الرفيع الذي بلغته ثقافة المايا، لأنها كانت ترتكز على معرفة واسعة بالحساب. فقد كان المايا يحسبون الأرقام بالعشرينات، وكان لديهم نظام للعد يشبه نظامنا لأن الرمز الواحد فيه قد يدلُّ على قيم مختلفة بحسب موقعه، كما في الأرقام ١٠، ١، ١,٠، ٠,٠١ وهكذا. وكان لدى زعمائهم الدينيين فكرة عن الزمان

أوسع مما نجده عند أي حضارة أخرى على أيامهم، وكانوا يعتقدون أن الماضي يعد بمئات الآلاف من السنين، بل لعلهم توصَّلوا إلى فكرة أن الزمان ليست له بداية. وقد بقيت لنا ثلاثة من كتبهم، وهي مدونة على ورق مصنوع من لحاء الشجر ومطوي بعضه على بعض. وتتحدث هذه الكتب عن طقوسهم وهي تعطينا فكرة عن ماضيهم، أما بقية القصة فلا بد لنا من لملمتها بما بين يدينا من وسائل، مثل التأريخ بطريقة الكربون المشع، وعلم الآثار، والنقوش الحجرية المحفورة بكتابة تصويرية بدأ العلماء الآن بفك رموزها. وتشير الأدلة المجمعة إلى أن الكتابة كانت تستخدم لأغراض أخرى أيضًا، ولكن لم تكتشف أي كتب عن التاريخ أو عن التنبؤ بالغيب.

لقد أبدع شعب المايا في مجالات خاصة دون غيرها، فقد كان لديهم حرفيون مهرة وكانوا يصدرون مصنوعاتهم الجميلة المحفورة في حجر اليشب إلى أنحاء أمريكا الوسطى، إلا أنهم لم يكتشفوا العجلة، قط، ولا عرفوا استخدام القوس في البناء، أما آلتهم فقد بقيت في مرحلة من الفجاجة البدائية. ولكنهم مع هذا تمكَّنوا من تشييد تلك المواقع الكبرى المخصصة للاحتفالات الدينية، وقد بذلوا في سبيلها موارد هائلة من دون أن تكون ثمة فائدة إقتصادية ترتجى منها أو أن تنتج عنها اكتشافات ثانوية في مجال التقنية. وقد بدأت حضارة المايا بالتراجع -منذ القرن العاشر- ونحن لا نعلم مدى الضغوط التي كانت خاضعة لها، ولكننا نعلم أنها أصيبت بزلزال أو انفجار بركاني كبير أدى إلى هجر الكثير من مواقعها المركزية، ثم غزتها شعوب من سهل المكسيك كانت تستخدم المعادن. وقد هجرت أعظم مراكزها، أي مدينة تشيتشين إيتزا، في القرن الثالث عشر، ويبدو أن مجتمع المايا تفسَّخ إلى عدد من

الدويلات الصغيرة المبعثرة، ولو أن آخر معاقلهم في يوكاتان لم يسقط بيد الإسبان -حتى نهاية القرن السابع عشر- إلا أن حضارة المايا قد آلت إلى نهايتها، و لم تُخلّف للمستقبل أي تقليد أو تقنية هامة، بل إن كل ما تركته هو سلسلة مذهلة من الآثار، ولغة مازال يتحدث بها اليوم مليونا نسمة.

بيرو الإنكا

كانت البيرو عشية وصول الأوربيين إلى الأمريكتين أكثر مواقع الحضارة تقدّماً وتطورًا في نصف الكرة الغربي بلا منازع. وكان أهلها في ذلك الزمان قد تبنّوا تقنيات أخذوها عن شعوب سابقة لهم وزادوها تطويرًا، فكانوا يستخرجون الذهب والفضة من المناجم ويشتغلونها بمهارة فائقة، وكانوا يستخدمون في زراعتهم معازق ذات شفرات برونزية -ولو لم يكن لديهم محاريث أو حيوانات للجر- وكانوا يشيدون الأبنية بمهارة كبيرة باستخدام كتل صخرية ضخمة ومقصوصة بعناية تامة بحيث يتثبّت بعضها ببعض من دون استخدام الملاط. كما أنهم برعوا في حياكة النسيج، ويعتبرهم بعض الدارسين أمهر الشعوب فيها في ذلك العصر. وكان لديهم أيضًا جرّاحون بارعون قادرون على القيام بعمليات جراحية صعبة وخطيرة على المرضى بعد تخديرهم أو تنويمهم. وكانوا يحتفظون بالسجلاّت، ولكن ليس عن طريق الكتابة بل عن طريق استخدام شِفرة مكوّنة من عقد يصنعونها في حبال ملونة تسمى كويبو. إلا أن أبرز ملامح مجتمعهم إنما كان تنظيمه العجيب. كان هذا المجتمع قد بناه بالفتوحات شعب يسمى شعب الإنكا، وكان مركزهم في مدينة كوزكو -منذ حوالى عام ١٢٠٠- (وترجع اللائحة التقليدية لأباطرة الإنكا إلى هذا التاريخ)- ولكنهم صاروا بحلول نهاية القرن الخامس عشر يدّعون حكم منطقة تبلغ مساحتها

حوالى ٧٢٠,٠٠٠ كم^{٢} تمتد من شمال الإكوادور حتى وسط التشيلي، وهو إنجاز هائل بالنظر إلى الصعوبات والعقبات الكثيرة الناجمة عن طبيعة الأرض، ولو أنهم في الحقيقة لم يبدؤوا بالتوسُّع بصورة سريعة إلا قبل ذلك بحوالى سبعين سنة.

كانت هذه الإمبراطورية خاضعة لزعيم الإنكا الذي يحكمها بصورة طاغية مستبدَّة ولشعب الإنكا الذي يشكل الطبقة المسيطرة فيها. وكانت أنحاء البلاد تتصل بعضها ببعض بواسطة شبكة من الطرق يبلغ طولها حوالى ١٦,٠٠٠ كم وتقطعها سلاسل من السعاة النشاط الذين لا تعيقهم تقلُّبات الطقس مهما كانت، كما بنيت على امتدادها أماكن استراحة للمسافرين في مهمات رسمية، وجسور معلَّقة لعبور الممرات الضيقة حيث تقتضي الحاجة. وكان السكان مجمعين في وحدات مكوَّنة من عشر أسر، ولم يكن يسمح لهم بالسفر أو الارتحال عن جماعتهم المحلِّيَّة، ولكن الإنكا كانوا يهجّرون الشعوب المغزوة حديثًا من أراضي أجدادها ويضعون محلها شعوبًا أطوع وأسهل انقيادًا لهم من أجل ضمان ولاء الأجزاء الجديدة من إمبراطوريتهم. ولم تكن لديهم ملكية خاصة ولا مال، ولم تتعدَّ المتاجرة عندهم مقايضة المصنوعات الحرفية؛ وكانت الحيوانات البريَّة تعتبر ملكًا عامًا ويتم اصطيادها بشكل جماعات كبيرة، وقد يؤمن لهم هذا اللحم أحيانًا. وكان جهاز الدولة يجمع المنتوجات الزراعية ثم يعيد توزيعها على الناس، ويوزِّع أيضًا البضائع المصنَّعة بالمقابل.

ولا ريب أن حياة أهل البيرو العاديين ضمن هذا النظام المهيمن الشديد كانت حياة مملَّة ورتيبة، بل ربما كانوا يسعدون بأعمال السخرة التي تفرض عليهم -أحيانًا- في المناجم أو في الأشغال العامة لأنها تتيح لهم الخروج من الروتين الصارم

لحياتهم اليومية. وحتى حرية الرجل في اختيار زوجته كانت محدودة لأن خياره كان محصورًا بجماعته بالنظر إلى القيود المفروضة على السفر، ولم يكن يقدر على القيام ببيع أو شراء إذ لم تكن ثمة نقود. وكان أولاد زعماء الشعوب المغزوّة يؤخذون إلى كوزكو ويربون هناك بحيث يكتسبون النظرة اللازمة لتأييد حكم الإنكا ونصرته، وكان جيش الإنكا جاهزًا دومًا لمعالجة أمر الثورات والتمرُّدات، ولكن حكمهم رغم فعاليته لم يقدر على القضاء على الاستياء بين رعاياهم -وهذا ما اكتشفه الأوربيون عندما وصلوا- ويبقى مجتمع الإنكا مثالاً بارزًا عن الحكم الشمولي الاستبدادي الذي يخضع الأفراد ويضعهم دومًا في مرتبة دون مرتبة الجماعة -والحقيقة أن هذا الترتيب يصحُّ على أكثر المجتمعات البشرية التي وجدت حتى الأزمنة الحديثة- إلا أن فعالية الإنكا في فرضه كانت عجيبة بالنظر إلى غياب الميزات التقنية التي تتمتَّع بها الحكومات الحديثة. وقد وجد دومًا أشخاص معجبون بنظام الإنكا، وكان الأوربيون في القرن السادس عشر يروون لمواطنيهم حكايات فيها مغالاة كبيرة عن مظاهر العدالة والانضباط فيه.

المكسيك

في حوالى عام ١١٠٠ كان وادي المكسيك وبعض أراضي المايا القديمة خاضعة لشعب يسمى شعب التولتيك، وكانت عاصمتهم تولا مدينة كبيرة مجهَّزة بنظام لري مزارعها التي تمدّها بالغذاء. وكانوا شعبًا من المحاربين ويبدو أنهم كانوا يعتمدون على استعباد جيرانهم وتسخيرهم من أجل القيام بأشغال البناء الكبرى وصيانتها. ولكن سيطرتهم زالت بعد زمن قصير، وحلّت محلّها فترة مضطربة انتهت ببزوغ سادة جدد في حوالى عام ١٣٥٠. إن هذه الطبقة الحاكمة الجديدة هي التي

كانت تسمى عادة الأزتيك، ولكن -بفضل الآن- أن نستخدم تسمية مِكسيكا. لقد أسَّس هؤلاء عاصمتهم على موقع قرية عند طرف بحيرة تيزكوكو، ثم توسَّعت إمبراطوريتهم خلال القرن ونصف القرن التاليين -خاصة بعد أن ارتقى عرشها زعيم ذو عزم وهِمَّة كبيرين في عام ١٤٢٩- إلى أن شملت وسط المكسيك برمته. هذه المدينة الباهرةَ هي تينوكتيتلان، التي أذهلت الإسبان عندما رأوها للمرة الأولى حتى قالوا إنها تفوق روما والقسطنطينية روعة وفخامة. وكانت فيها قناة تجلب لها ماء الشرب من ينابيع في تشابولتيبيك التي تبعد عنها حوالى خمسة كيلومترات، كما أنها كانت مليئة بالمعابد وكانت تشرف عليها أهرام ضخمة شاهقة.

ويبدو أن هذه الأهرام قد بنيت بأيدي الشعوب التي هزمها شعب الأزتيك -أي المكسيكا- وبحسب أساليبها أيضًا. كان الأزتيك يديرون إمبراطورية عسكرية تعتمد على الجزية التي يؤدِّيها لهم رعاياهم، مثل الترتيب الذي فرضه شعب التولتيك من قبلهم؛ ويبدو أنهم كانوا يفتقرون إلى حس الخلق والإبداع، فلا تجد اختراعًا أو ابتكارًا واحدًا في حضارة المكسيك يمكن أن ينسب بصورة موثوقة إلى ما بعد زمن التولتيك. وكان أعظم المراكز الدينية في المكسيك هو مدينة تيوتيهواكان التي تبعد حوالى ثلاثين كيلومترًا عن عاصمة الأزتيك. كانت تيوتيهواكان تبلغ خمسة كيلومترات ونصف طولاً وثلاثة كيلومترات عرضًا، وكانت مليئة بالأبنية التي تعود كلها إلى ما قبل عام ٦٠٠ م، كما أنها كانت مسكونة -طوال ألف سنة قبل ذلك تقريبًا- وربما بلغ عدد سكانها عندما كانت في ذروتها ٢٠٠,٠٠٠ نسمة، وقد كانت مركز طقوس دينية تدور حول الأهرام، كما هي الحال في أجزاء أخرى من أمريكا. والحقيقة أن أكثر الأشياء التي بهرت الأوربيين الأوائل في مجتمع الأزتيك لم تكن من صنع شعب الأزتيك على

الإطلاق، بل كانت لها جذور عميقة يعود بعضها إلى أزمنة الأولميك، ويصحُّ هذا الأمر على الأرجح على مدينة تيوتيهواكان.

كانت إمبراطورية الأزتيك في طور التوسُّع بعدُ عندما وصل الأوربيون، وقد سحرهم بغرابتها وإنجازاتها كما أثارت الرعب في نفوسهم. وكانت الدولة مقسَّمة إلى عشرين عشيرة، وكانت كلها تحت حكم قائد وزعيم ديني منتخبَين، وكانت حكومتها تستخدم سجلات مكتوبة بكتابة تصويرية، وتوزِّع على الناس قوتهم السنوي من الأراضي التي تديرها العشائر مقابل أدائهم لأعمال السخرة والخدمة العسكرية. وكانوا يزرعون القطن ويبدو أن مهارتهم في أمور الزراعة كانت كبيرة. ولم يكونوا يعرفون استخدام العجلة في النقل، ولكن كان لديهم حرفيون بارعون في صنع الفخار والمجوهرات والأقمشة وشغل الريش، كما كانوا ماهرين في شغل النحاس والذهب، ولو أنهم لم يعرفوا معدن الحديد. وكانت أفضل المواد المتوفِّرة لديهم لصنع الأدوات القاطعة هي حجر السَّبَج البركاني. كانت المهارات الحربية هي الأعلى مقامًا في مجتمع الأزتيك، وكان البارزون من محاربيهم ينضمون إلى تنظيمات تشبه تنظيمات الفروسية في أوربا ويقومون بأداء أشكال خاصة من الرقص والطقوس.

لقد افتتن الأوربيون بفخامة مجتمع الأزتيك ونهبوا ثرواته الطائلة، كما روَّعتهم قسوته ووحشيته. كانت ديانة الأزتيك تتطلَّب تقريب الأضاحي البشرية، وكان هذا الأمر يتمُّ بصورة فظيعة تقطع فيها رؤوس الضحايا وتسلخ جلودهم وتنتزع قلوبهم من صدورهم وهم أحياء -ومن المصنوعات الفنية الهامة لدى الأزتيك علبة حجرية تستخدم لإحراق قلوب البشر وتخزينها- ويقال إن ٢٠,٠٠٠ شخص قد قُدِّموا ضحايا عند تكريس الهرم الكبير في تينوكتيتلان - في عـــام

١٤٨٩ – وكانت أساطير الأزتيك تقول إن الآلهة قد اضطرّت للتضحية بأنفسها لكي تمنح دماءها غذاء للشمس، فكانت هذه الطقوس المريعة إعادة تمثيل لتلك الأسطورة. ولما كانت الحاجة للأضاحي دائمة فقد كانت دولتهم في حالة من الحرب المستمرَّة، ولم يكن رعاياهم خاضعين لهم إلا بصورة واهية، وكانت الثورات كثيرة الحدوث، ولكنهم لم يجدوا ضيرًا في هذا الأمر لأنه كان مسوِّغاً لجمع المزيد من السجناء والتضحية بهم. إلا أن هذا الوضع قد جعل تلك الشعوب مستعدَّة لمساعدة الأوربيين عندما قدموا وجاهزة للتحالف معهم ضد الأزتيك.

إن جميع الحضارات الأمريكية الكبرى في عصر الفتوحات تشترك –فيما بينها– بملامح تجعلها تبدو لنا اليوم كئيبة جدًا، ونشعر أنها قد بلغت نهايات مسدودة وأنها كانت محدودة بمستواها الضئيل من التقنيَّة والأفكار الدينية والاجتماعية. ورغم بعض إنجازاتها الفنيَّة البارزة، مثل فن صنع الفخار لدى الأزتيك، فإنها لم تترك أي أثر هام في الحضارات الأخرى، ولا ريب أن عزلتها كانت هي السبب الأساسي في ذلك. إن مساهمات الأمريكتين في حياة البشرية لم تتم من خلال ابتكارات ثقافاتها المتطوِّرة، بل من خلال أشياء متواضعة قدَّمتها من دون أن تقصد، مثل نباتات الذرة والبطاطا والقرع التي اكتشف فلاحوها القدماء طريقة زراعة أشكالها الأولى، فأضافوا إلى موارد البشر أشياء سوف تنتشر انتشارًا واسعًا. لقد كانت حضارات الإنكا والمايا والأزتيك حضارات لامعة تركت لنا آثارًا مازالت تسحر الألباب، ولكنها ليست أكثر من تحف غريبة وجميلة في هامش تاريخ العالم. وإن الأشياء التي بقيت منها اليوم هي ملامح بسيطة ولكنها ثابتة في الحياة اليومية، خاصة في العالم الجديد، مثل الشوكولاته، وكعكة التُّرتيّة التي تصنع من دقيق الذرة، ولغة المايا التي مازالت تتحدَّث بها بعض جماعات الفلاحين.

بدايات الاستعمار الأوربي

إن ما نسميه اليوم الاستعمار الأوربي قد ترك أولى آثاره الباقية على الشعوب الأخرى في القارتين الأمريكيتين وأفريقيـــا. وقد اكتسبت كلمـــة استعمار - أو إمبريالية- Imperialism معاني عامة جدًا، فهي تستخدم للدلالة على أي نوع - تقريبًا- من أنواع السيطرة المستمرة، سياسية كانت أو اقتصادية أو حتى ثقافية، التي تمارسها جماعة من البشر بصورة مقصودة أو غير مقصودة على جماعة أخرى. وينبغي على المؤرخين أن ينظروا إلى هذه المجموعة الغامضة من الأفكار بدقة أكبر إذا أرادوا أن يفهموا كيف حدثت الأمور وما هي العوامل التي كانت تؤثر في مراحلها المختلفة. إن أوضح نواحي الاستعمار وأسهلها تقصّياً هي قصة الاستيلاء على أراضي الغير في بلاد أجنبية بصورة مباشرة واستملاكها استملاكًا مطلقًا. ويتمُّ هذا الأمر بطرق عديدة، إما عن طريق حكومة قائمة في أوربا نفسها، أو عن طريق مستوطنين يفدون ويستقرّون في أراض يقيم فيها سكان أصليون -وكان الفايكنغ في القرنين التاسع والعاشر أول المستعمرين الأوربيين من هذا النوع في الأمريكتين- أو حتى عن طريق تأسيس وحدات سياسيَّة جديدة يحكمها المستعمرون ويسيطرون عليها- مثل الدول الصليبية التي تأسست في بلاد الشام ولم تعمِّر طويلاً.

لقد أتاح عصر الاكتشافات فرصًا جديدة للفتوحات -فيما وراء البحار- خاصة أمام الدول ذات المنافذ السهلة إلى المحيط الأطلسي. وكان التوسُّع على بر أوربا يشرف في ذلك الحين على نهايته في الشرق الألماني، وكذلك استعادة شبه الجزيرة الإيبيرية، أما إحياء الدول الصليبية القديمة فلم يكن إلا أضغاث أحلام بالنظر

إلى قوة تقدّم العثمانيين. وهكذا كان أهل البرتغال وإسبانيا، وأقل منهم أهل إنكلترا وفرنسا، هم الذين أطلقوا أول موجة كبيرة من توسيع حكم الأوربيين ومستوطناتهم -فيما وراء البحار- وفي عام ١٦٠٠ كان الإيبيريون وحدهم قد حققوا إنجازات كبيرة، فكانت للبرتغاليين سلسلة مترامية الأطراف من المرافئ والحصون التي تحرس هيمنتهم التجارية الممتدة من الصين واليابان من جهة، إلى قارة أفريقيا حيث كانت لهم أراض سوف يستوطنونها ويحولونها إلى مستعمرات زراعية، وحتى البرازيل من الجهة الأخرى. وكان الإسبان في هذه الأثناء قد ضموا في القارتين الأمريكيتين، نظريًا على الأقل، مساحات شاسعة جدًا من الأراضي هي في الحقيقة أوسع أراض استملكتها مملكة واحدة -حتى ذلك الزمان وهي مملكة قشتالة- أما الفرنسيون والبريطانيون فلم يكونوا قد قاموا بعد إلا بمحاولات قليلة للاستكشاف والاستيطان في أمريكا الشمالية -صحيح أن الفرنسيين عيّنوا نائبًا للملك عن كندا ونيوفَوندلَند ولابرادور في أربعينيات القرن السادس عشر، إلا أن هذا لم يكن في الواقع إلا ادعاء لا أساس له- وكانوا قد ابتدأوا تقليدًا راسخًا وناجحًا من القرصنة والسلب والنهب على حساب الإسبان في نصف الكرة الغربي؛ وإن مستوطناتهم الكبرى في أمريكا سوف تأتي في مرحلة لاحقة، مثل مستوطنات الهولنديين.

الإمبراطورية الإسبانية

ابتدأت عملية الاستيطان في جزر المحيط الأطلسي في القرن الرابع عشر، لهذا كان الرجال الذين صنعوا أولى الإمبراطوريات الأوربية رجالاً من العصور الوسطى. أي أن تفكيرهم قد صيغ في قالب التراث الكلاسيكي لليونان وروما، والأهم منها المسيحية. إن هذا التراث هو الذي صنع الرجال الذين سماهم الإسبان «الفاتحين» conquistadores والذين تراهم في تسعينيات القرن الخامس عشر مستوطنين في

جزر الكاريبـــي أولاً، ثم مستكشفين يقومون بغاراتهم على البر الرئيسي في البلد التي سوف تسمى -فيما بعد- فنـــزويلا. وفي عام ١٥١٣ عبر بعضهم برزخ بنما، ثم استقروا وراحوا يبنون لهم الأكواخ ويزرعون المحاصيل، فكانت هذه علامة على أنهم ينوون البقاء، وتأسَّست -عندئذ- في منطقة بنما أول أرض تابعة للقانون الإسباني على البر الرئيسي للقارة. كان المستوطنون قد كثروا في جزر الكاريبـــي -في ذلك الحين- وكانوا قد أتوا بالعبيد من أفريقيا لتشغيلهم في الأعمال المختلفة، وما برح صغار النبلاء والجنود الإسبان المتلهفون لاستملاك الأراضي والثروات يزدادون انجذابًا نحو الأمريكتين مع وصول المزيد والمزيد من المعلومات عنهما.

كان أشهر أولئك الفاتحين الإسبان ضابطًا تمتزج فيه البطولة بالقرصنة ويدعى هرنان كورتِس. انطلق كورتِس من كوبا إلى المكسيك في عام ١٥١٨، وما إن رسا فيها حتى أحرق قواربه وخرج عن سيطرته رؤسائه، ثم أسَّس مدينة ڤيرا كروز وقاد رجاله نحو الداخل حتى الهضبة العالية التي كانت قلب إمبراطورية الأزتيك، ومالبث أن فتحها خلال أشهر قليلة -وبعد بضع سنوات- في عام ١٥٣١، سار رجل إسباني آخر هو بيزارو - وهو مغامر أشد وحشية حتى من كورتِس- عبر جبال الأندس إلى عاصمة الإنكا حيث قوَّض نظامهم. وبذلك صارت كل من المكسيك والبيرو تابعة لعرش إسبانيا، وأضيفت إلى الأراضي التي استملكها سابقًا في فنـــزويلا وأمريكا الوسطى الحاليتين.

وتسرّبت إلى إسبانيا الأساطير عن الثروات الخيالية في الأمريكتين، وراحت تجتذب الإسبان إلى «جزر الهند» مثل قوة مغنطيسية لا تقاوم. وكانت تحركهم دوافع عديدةٌ ومتضاربة، أقواها بلا ريب هو الرغبة بالاستيلاء على ثروات تلك

الحضارات التي أذهلتهم وحملها إلى بلادهم، وسوف يظل الناس زمنًا طويلاً يستكشفون أمريكا الجنوبية بلا كلل بحثًا عن المدينة الأسطورية التي كان الإسبان يسمونها «إلدورادو» أي أرض الذهب وعن ثرواتها الطائلة. وكانت لدى الفاتحين دوافع أخرى أيضًا، فقد كان الكثيرون منهم يبحثون عن الأراضي من أجل استملاكها، أو عن العبيد لتشغيلهم في المزارع التي كانوا قد بنوها في الجزر، ولهذا كانوا يعاملون الهنود بلا رحمة ولا شفقة. صحيح أنهم كانوا في بعض الأحيان راغبين في تبشيرهم بإنجيل المسيح، وأن رجال الدين الإسبان قد سعوا لردعهم عن وحشيتهم، إلا أن أولئك المستوطنين كانت تدفعهم موجة الجهاد المسيحي الذي استعاد إسبانيا من المسلمين، ولم تكن تلك بعقيدة تحترم الفروق الثقافية، كما أن الكثيرين منهم روّعتهم عادات الأزتيك في التضحية بالبشر -مع أن الناس في أوربا كانوا يألفون فكرة إحراق من يتبع مذهباً هرطقياً في الديانة المسيحية.

الأمريكيون قديمًا وحديثًا

لقد سبّب قدوم الإسبان كوارث عظيمة للسكان الأصليين في كل بقعة من بقاع البلاد، ولو أنهم لم يكونوا مسؤولين عنها كلها -إلا إذا قيل إنهم ما كان يجب عليهم أن يذهبوا إلى أمريكا أصلاً- فقد جلبوا معهم أمراضًا -كان أسوأها مرض الجدري- فتكت بالسكان فتكًا مريعًا في الجزر أولاً ثم على البر الرئيسي. وربما أحدثت قوة الإسبان الهائلة صدمة في نفوس الهنود ساهمت في تقويض معنوياتهم، فهم لم يكونوا قد رأوا في حياتهم خيولاً مثلاً، لهذا فقد ذهل الأزتيك عندما وقعت أنظارهم على الأحصنة الستة عشر التي جلبها معه كورتس، ولما شاهدوا الخيالة يترجّلون عنها حسبوها وحوشًا عجيبة تشطر أجسادها إلى شطرين.

وسرعان ما نقصت الأيدي العاملة ولم تعد كافية للمستوطنين، فراحوا يستغلون ما بقي منها بلا أدنى رحمة، وقد حارب رجال الدين وحشيتهم ولكنهم لم ينجحوا في حماية الهنود منهم. وكان الترتيب الشائع هو أن يُمنح مستوطن إسباني خدمات السخرة من جماعة من السكان الأصليين مقابل أن يحكمها ويحميها. ومع ازدياد أعداد الناس الذي قضوا نحبهم ضحية للأمراض والإنهاك ازداد حرص المسؤولين الملكيين والمستوطنين معًا على منع العمال من مغادرة المزارع التي يعملون فيها، فضاق الخناق بذلك عليهم أكثر. ومازالت الكلمة المستخدمة للدلالة على الفلاح في مناطق واسعة من أمريكا الجنوبية حتى اليوم هي كلمة péon، وهي كلمة إسبانية معناها حجر البيدق في الشطرنج، أي أدنى الأحجار قيمة في اللعبة.

وراحت جماعات السكان الأمريكية في الأراضي الإسبانية تنمّي أعدادها رويدًا رويدًا عن طريق التكاثر والهجرة من أوربا على مدى القرنين التاليين. فكانت النتيجة ظهور عدد من المجتمعات الأمريكية من أصل إيبيري طبقاتها العليا والوسطى من أصل أوربي ولكنها تحكم سكانًا سوادهم من الهنود. ورغم أن الإسبان والبرتغاليين لم يعارضوا التزاوج مع الهنود -ولا ننس أن الإسبان طالما عاشوا في مجتمع متعدِّد العروق- فقد كان المقام الأعلى في مجتمع المستعمرات للدم الأوربي، وكلما كان المرء أقرب عرقيًّا إلى الأصل الأوربي كلما ازدادت ثروته وسلطته. وكان الأشخاص المولودون في الأمريكتين من أصل أوربي يسمون بالإسبانية الكريول، وكانوا هم الحكام والسادة على من بقي من هنود الحضارات القديمة، التي زالت جميع إنجازاتها الباهرة -تقريبًا- فصار الكثيرون من الهنود يتحدَّثون شكلاً من أشكال اللغة الإسبانية، كما أصبحوا مسيحيين بالاسم على الأقل.

المؤسسات والحكم

لا تختلف القصة في البرازيل التي استوطنها البرتغاليون كثيرًا عن قصة المكسيك والبيرو، عدا عن أن البرازيل لم يكن فيها شيء من الحضارة الأصلية، والفرق الآخر هو أن أعدادًا كبيرة من العبيد قد جلبت من أفريقيا للعمل في مزارع السكر، بحيث صارت أهمية التراث الثقافي الأفريقي في البرازيل مساوية لأهمية تراثها الهندي. وكما كان الأمر في المستعمرات الإسبانية، كانت المسيحية في البرازيل واحدًا من أبرز مظاهر الحضارة الأوربية التي زرعت في بيئة غير أوربية، فأكثر الأبنية القديمة في البرازيل اليوم إنما هي كنائس. كما أن عناصر أخرى من القارة القديمة قد ضربت جذورها شيئًا فشيئًا في أمريكا الوسطى والجنوبية، فقد اعتبر المستوطنون والحكومات في إسبانيا والبرتغال أن من الطبيعي تطبيق أشكال الحكم التي يعرفونها، مع أنها مبنيَّة على قوانين وتقاليد ومؤسسات تعود إلى الماضي الأوربي البعيد، وليس لها علاقة منطقية بالمجتمع الأمريكي على الإطلاق، وقد فرضوها فرضًا. وبعد أن زالت الإمبراطوريات استمرت في أمريكا الجنوبية الدول المبنيَّة على أسس أوربية بإداراتها ومحاكمها، مثلما استمرت الهيمنة للغات الأوربية.

كانت الإمبراطوريتان الإسبانية والبرتغالية في أمريكا تمتدان على مساحات هائلة، ولكن سكانهما كانوا قليلين جدًا، فلم يكن هناك إلا عدد قليل من المهاجرين الأوربيين الذين يستثمرون البلاد، كما أن أعداد الهنود قد هبطت، وربما لم يتجاوز عدد السكان من المجموعتين معًا ١٠ ملايين نسمة في عام ١٦٠٠. في عام ١٧٠٠ كان الإسبان يحكمون، بصورة نظرية على الأقل، منطقة تمتد من نهر بلات في الجنوب حتى نهر كولورادو في الشمال، وتشمل كافة ساحل المحيط الهادي -تقريبًا -

من جنوب التشيلي حتى شمال كاليفورنيا -حيث يشهد اسم مدينة سان فرنسيسكو على السيادة الإسبانية- كما تضم أراضي أخرى كثيرة إلى الشمال من نهر ريو غرانده فضلاً عن فلوريدا. ولكن عدد السكان في هذه البلاد بقي قليلاً جدًا حتى في عام ١٨٠٠، وكان وجود الإسبان فيها مقتصرًا على بعض محطات الإرساليات وبعض الحصون القليلة، ولو أن بعضها سوف يشكّل مواقع مدن هامة جدًا في أزمنة لاحقة. أما بقية «إسبانيا الجديدة» فكانت مكوَّنة من المكسيك، وهي غنية بالمستوطنين، ومن الأراضي الواقعة في منطقة البرزخ، وكانت إسبانيا الجديدة هذه تابعة لنائب الملك. ثم كانت هناك أيضًا تجمّعات هامة للسكان ومدن كبرى في البيرو وبعض الجزر الكاريبية الواسعة. أما «جزر الهند» فكانت نظريًا ممالك شقيقة لمملكتي قشتالة وأراغون يحكمها نواب عن الملك، ولكنها كانت في الحقيقة تحكم بدرجة كبيرة من الاستقلال بالطبع. ومع هذا فقد كانت -في الوقت نفسه- جزءًا من إمبراطورية عالمية ترتبط عن طريق أكابولكو وبنما بجزر الفلبين وبإسبانيا.

أمريكا الشمالية

لقد بقي الاستيطان الأوربي لأمريكا الشمالية لزمن طويل ضعيفًا جدًا بالقياس إليه في الجنوب. ولكنك إذا نظرت إلى المنطقة الساحلية الشرقية للقارة في عام ١٧٠٠ وجدتها مليئة بالمستوطنات الإنكليزية. وكانت إحداها مستوطنة فرجينيا - التي سميت على اسم ملكة إنكلترا إليزابث الأولى التي لم تتزوج - لأن كلمة virgin معناها العذراء- وكان هذا أول مكان جرت فيه محاولات لتأسيس مستوطنة في ثمانينيات القرن السادس عشر، ولو أنها كانت محاولات فاشلة. ثم جرت محاولات أخرى في بداية القرن التالي، ولكن جاذبية أمريكا الشمالية من

الناحية الاقتصادية ظلت لزمن طويل أضعف بكثير من جاذبية منطقة الكاريبي، والحقيقة أن المستوطنين الإنكليز كانوا في عشرينيات القرن السابع عشر قد بلغوا في جزر الهند الغربيّة نجاحًا أكبر بكثير مما بلغه أبناء عمومتهم على البر الرئيسي.

وأخيرًا بلغ استيطان أمريكا الشمالية في القرن السابع عشر مستوى عاليًا من النجاح ضمن له أن يستمر ويتطوَّر بصورة متسارعة، حتى صار هناك في عام ١٧٠٠ حوالى ٤٠٠,٠٠٠ شخص من أصول أجنبية -أكثرهم بريطانيون- يعيشون في أمريكا الشمالية في اثنتي عشرة مستعمرة إنكليزية. وقد أسِّست أولى المستوطنات الناجحة في جيمستاون الواقعة في ولاية فرجينيا الحالية في عام ١٦٠٧ -وبعد عام واحد بنى المستكشف الفرنسي شامبلان حصنًا صغيرًا في كيبك، وبعد سنوات قليلة ظهر المستوطنون الهولنديون في موقع مدينة نيويورك الحالية- وكانت أمريكا الشمالية تضم أراضي كثيرة يمكن زراعتها بالأساليب الأوربية، فراح الإنكليز ينقلون إليها جماعات بأكملها من رجال ونساء وأطفال، وراح هؤلاء يعملون في الزراعة فمنحهم هذا قدرًا هامًا من الاستقلال عن بلدهم الأم، مثلما كانت الحال في مستوطنات المدن الإغريقية في العصور القديمة. ثم أتت زراعة التبغ - التي ابتدأت في فرجينيا - فكانت هذه سلعة ملائمة للتصدير، وكان التبغ على أهمية عظيمة في التاريخ الباكر لفرجينيا ولمستوطنة ماريلاند التي أتت بعدها أيضًا، بل إنه كان يستخدم بدلاً من المال من أجل حساب الديون. ثم جاءت من بعده محاصيل هامة أخرى مثل القطن والأرُز وصبغة النيلة، أمدَّت كلها المستوطنين بالإيرادات اللازمة لشراء ما يلزمهم من البلد الأم، كما كانت لهم أيضًا موارد أخرى من صيد السمك وما يرتبط به من نشاطات. أما كندا فلم يكن فيها يومًا منتج على هذه الأهمية، وكانت تجارة الفرو فيها ضئيلة، فكان هذا من أسباب البطء

الشديد الذي كنت تراه في نمو المستوطنات الفرنسية، والحقيقة أن عدد الفرنسيين في كندا في عام ١٦٦١ لم يتجاوز الثلاثة آلاف، تقريبًا.

لقد سلكت المستعمرات الإنكليزية -منذ البداية- مناحي خاصة في تطورها بسبب مناخ منطقتها وجغرافيتها. كانت مجموعة المستوطنات الأبعد شمالاً تسمى نيو إنغلند، أي إنكلترا الجديدة، وقد تميَّزت أيضًا من حيث أنها بدأت تجتذب إليها أناسًا ذوي آراء دينية خاصة تعكس عادة الأشكال الأكثر تطرفًا من بين العقائد البروتستنتية الكالفينية، فكانت لديهم أفكار متشدّدَة جدًا حول السلوك، وكانوا يكرهون الطقوس والشعائر في عبادتهم -مع أنهم كانوا يغالون في فرض أساليبهم في الحديث والسلوك وكأنها طقوس مقدّسة- وكان هؤلاء يسمون في إنكلترا «بيوريتانيين» -أي طُهريين- وكان الكثيرون منهم يعتبرون أنفسهم منتمين لكنيسة إنكلترا الرسمية عندما يرحلون إلى أمريكا، ولكنهم ينشقون عنها في العادة متى حلّوا في العالم الجديد وصار يفصل بينهم وبين بلدانهم الأصلية حوالى خمسة آلاف كيلومتر من المحيط الأطلسي. كان البيوريتانيون متزمتين للغاية، بل قد يمتعضون إذا ما رأوا المهاجرين الآخرين يحتفلون بالأعياد والمناسبات السعيدة. وقد صارت منطقة نيو إنغلند تعرف بالإجمال بأنها مكان الراغبين بالانقطاع عن الأساليب القديمة، بينما كان الأكثر تعلقًا بتقاليد بلدهم القديمة وعاداتها يذهبون إلى المستعمرات الجنوبية، مثل فرجينيا وكارولاينا الشمالية وكارولاينا الجنوبية.

وفي عام ١٦٢٠ رست مجموعة من المستوطنين البيوريتانيين في سفينتهم مايفلاور، وأسَّسوا لهم مستوطنة پليمُث في ماساشوستس، وسُرعان ما عرفوا بلقب «الآباء المهاجرين» ودخلوا عالم الأساطير. وقد ارتبطت قصتهم، أيضًا، بتقاليد الحكم الذاتي، ولا يعني هذا بالضرورة الديمقراطية، وكان الحكم في ماساشوستس

يقع عادة في أيدي حلقة ضيقة جدًا من الأثرياء ورجال الدين الكالفينيين، بينما ظهرت أشكال من الحكم أكثر ديمقراطية في ولايات أخرى مثل كونكتيكت وورود آيلند. إلا أن قدرة الحكومة في إنكلترا على التحكُّم بمستوطناها كانت ضئيلة في كل مكان -تقريبًا- بسبب بعد المسافات في البر كما في البحر، وبفعل الظروف الخاصة في العالم الجديد؛ وسرعان ما أصبح الحكم الذاتي حقيقة قائمة في المستوطنات الأنكلوسكسونية بصرف النظر عن الترتيبات التي كانت قد بنيت على أساسها.

لم تكن أي من مستوطنات أمريكا الشمالية مضطّرة للتعامل مع مجتمعات أصلية معقّدة وغنية مثل التي كانت في المكسيك والبيرو، لأن "هنود" أمريكا الشمالية في القرن السابع عشر كانوا بعد على عتبة المرحلة الزراعية في تطوُّرهم، وكانت تقنيتهم نيوليتية على أفضل تقدير. ولكنهم أعطوا نصائح قيمة للمستوطنين البيض، والحقيقة أنهم أنقذوا مستوطني ماساشوستس في أيامهم الأولى من المجاعة بأن قدَّموا لهم الطعام. والمؤسف أن كرمهم هذا لم يجعل الأوربيين يحسنون معاملتهم على المدى البعيد، بل راحت مستوطنات البيض تمتد بالتدريج على حساب أراضي صيدهم التقليدية، فابتدأت بذلك مرحلة طويلة من الصراع سوف تنتهي بانقراض الكثير من الشعوب الأصلية انقراضًا تامًا -تقريبًا- وإن الذين تمكّنوا من البقاء إنما أمكنهم ذلك بأن رحلوا نحو الغرب. ولكن بالمقابل قدَّمت الأمريكتان فرص العيش لآلاف الأوربيين الفقراء، فقد اجتذبت الألمان والهوغنوت -أي البروتستنت الفرنسيين- والسويسريين، فصاروا يفدون إليها عند نهاية القرن السابع عشر بعد أن كان الهولنديون قد سبقوهم إليها، وهكذا كانت أمريكا الشمالية منذ عام ١٧٠٠ بوتقة تنصهر فيها شعوب من أصول عديدة.

العالم الأسيوي

لم يقتصر تأثير الأوربيين في العالم على أفريقيا التي كانوا يستمدون منها العبيد، ولا على الأمريكتين اللتين فتحوهما واستوطنوهما، بل إنه امتد إلى بلاد آسيا أيضًا، ولكنه اتخذ فيها أشكالاً مختلفة عن الفتوحات والاستيطان، ولو أن دوافعهم كانت هي ذاتها، من رغبة بالإثراء وقناعة بتفوقهم الروحي ونزاهة قضيتهم فضلاً عن التسابق المسعور -فيما بينهم- ولكن الوضع في آسيا كان مختلفًا من نواح عديدة، فقد كانت آسيا بالأصل مصدرًا تقليديًا لبضائع يهتم بها الأوربيون أيما اهتمام، وهي مما خف وزنه وغلا ثمنه وأبرزها التوابل. وكانوا يحصلون على تلك البضائع إما عن طريق شرائها أو عن طريق مقايضتها ببضائع أخرى. ومن ناحية ثانية كانت كثير من البلاد الآسيوية التي يتصل بها الأوربيون تحت حكم إمبراطوريات وقوى ذات موارد عسكرية كبيرة -بينها أسلحة نارية ومدافع- وكانت لديها تقاليد طويلة من الحكم الراسخ، كما كانت لها في بعض الحالات ادعاءات بأنها قوى عظمى لا بد من احترامها. والناحية الثالثة هي أن بعضها كانت تمتلك إنجازات ثقافية وفنية على مستوى رفيع جعل الأوربيين يشعرون أمامها شعورًا مزعجًا بالدونية، والحقيقة أن الصين قد ظلّت موضع إعجاب مفرط من بعض المفكرين الأوربيين -حتى وقت متقدم من القرن الثامن عشر- وأخيرًا كانت أعداد الآسيويين أكبر بكثير من أعداد الأوربيين، وكان الأوربيون في آسيا هم الذين يسقطون ضحايا لأمراض جديدة لم يألفوها، لهذا لم يكن استيطانهم لها بالأمر الممكن.

وكانت نتيجة هذا كله أن بعض الأوربيين من برتغاليين وهولنديين وإنكليز وفرنسيين أسَّسوا ما يمكن أن نسميه إمبراطوريات تجارية وليست استيطانية. وكانت هذه تتكوَّن من مراكز متفرقة أكثرها مرافئ هامة لتسيير التجارة وحمايتها، فضلاً عن سلسلة من المعاهدات والحقوق والبراءات التي مكّنت تجارهم من القيام بأعمالهم؛ وهذا ما جعل شعوب أكثر الدول الآسيوية غير واعية لوجودهم.

الأوربيون والصين

كانت الصين هي المثال الأبرز على هذا النمط من النفوذ. فقد قام البرتغاليون فيها بسلسلة من عمليات الاستغلال والقرصنة أثارت حنق الإمبراطورية وأدت إلى طردهم منها في عام ١٥٢٢، ولكنهم عادوا فنجحوا في تثبيت أقدامهم في ماكاو، من دون أن يسمح لهم بصعود النهر إلى كانتون. وقد استمرت الحال هكذا في بقية عهد المنغ ثم المنشو، وظلّت الصين تبدو منيعة وحصينة. وكان فتح شعب المنشو للصين باهظ الثمن من ناحية الأرواح -فقد كلف حياة ما يقرب من ٢٥ مليون إنسان- ولكن يبدو أنه أعاد للصين سلطتها الإمبراطورية واستهل مرحلة جديدة من ازدهار الفنون فيها. وكان أعظم أباطرة التشنغ -أي المنشو- هو الإمبراطور كانغ هسي، الذي حكم بين عامي ١٦٦٢ و١٧٢٢. وقد استهل كانغ هسي مرحلة من الفتوحات سوف تستمر خلال القرن الثامن عشر، فاستولى على فورموزا -تايوان- واحتل التبت وسيطر على المغول - وكانت هذه نقطة تحوُّل هامة، لأن الشعوب البدوية في آسيا الوسطى بدأت عندها بالتراجع أخيرًا أمام المستوطنين. أما في الشمال، أي في وادي الآمور، فقد افتُتح فصل جديد من فصول التاريخ عندما هدمت الصين موقعًا للروس في عام ١٦٨٥ وعقدت أول معاهدة لها مع قوة أوربية

من أجل أن تضمن حدودها. والحقيقة أن علاقات الصين بالعالم الخارجي كانت تتطوَّر بسرعة من دون أن يكون أكثر أهلها واعين لذلك. وفي القرن الثامن عشر عادت الصين فغزت التبت من جديد، كما فرضت حالة التبعية على كل من كوريا والهند الصينية وبورما. أما في الداخل فكان السلام والازدهار قد أثمرا في هذه الأثناء عصرًا فضيًا من الحضارة الكلاسيكية الناضجة يعتقد بعض العلماء أنها بلغت ذروتها في أواخر عهد المنغ. إلا أن إنتاج التحف الفنية والأدبية قد استمر على عهد المنشو أيضًا، ومنذ عهد كانغ هسي كانت أفران الخزف الإمبراطورية قد بدأت قرنًا كاملاً من التقدُّم التقني في طلاء الأعمال الخزفية نتجت عنه أشكال بديعة من المينا.

إلا أن حضارة المنشو ظلَّت مع ذلك حضارة نخبة صغيرة وحكرًا على الطبقة الحاكمة مثلما كانت الحال في الصين دائمًا. كما أنها كانت مزيجًا من النشاط الفني والأدبي والإداري المحافظ إلى أبعد الحدود، فكانت في سعي مستمر لتقليد ومحاكاة ما هو أحسن، ولكن الأحسن هو دومًا ما أنتجته الأجيال السابقة في الماضي. وكانت النتيجة العملية لتلك النـــزعة واضحة كل الوضوح بحلول القرن الثامن عشر؛ فرغم كل إنجازاتها التقنيَّة الباكرة لم تصل الصين إلى السيطرة على الطبيعة بصورة تمكِّنها من مقاومة التدخُّل الغربي. وأشهر مثال على ذلك هو البارود، لأن البارود كان معروفًا في الصين قبل أي بلد آخر، ولكن الصينيين لم يكونوا قادرين على صنع أسلحة نارية بجودة أسلحة أوربا، ولا حتى على استخدام الأسلحة التي كان يصنعها لهم الحرفيون الأوربيون استخدامًا فعالاً. كما أن البحارة الصينيين كانوا يعرفون استخدام البوصلة منذ زمن طويل، وكان لديهم تراث قديم في صنع الخرائط أوصلهم إلى وضع أول خريطة ذات شبكة خطوط متصالبة ولكنهم مع

ذلك لم يقوموا برحلات الاستكشاف إلا بصورة قصيرة، فلا اندفعوا عبر المحيط الهادي مثل الميلانيزيين البدائيين، ولا رسموا له خارطة كما فعل الأوربيون في زمن لاحق. وكان الصينيون أيضًا يصنعون ساعات ميكانيكية مزوَّدة بالميزان أو الشاكوش الضروري لضبط الوقت قبل أوربا بحوالى ستة قرون، إلا أن الأوربيين قد أحضروا معهم إلى الصين تقنيَّة في صنع الساعات وقياس الزمن هي أرقى بكثير مما كان لديهم. ويمكننا أن نسرد أمثلة أخرى لا تحصى عن انتصارات الصين الفكرية التي بقيت بدون استثمار عملي فعَّال.

وهكذا كانت الصين مقيَّدة في استجابتها للعالم الخارجي، وكان ضعفها هذا نذير شؤم لها إذ كان بانتظارها بعد المزيد من الأخطار الكبرى. كان الروس قد ثبتوا أقدامهم في كَمتشَتكا بحلول عام ١٧٠٠، وكانوا يوسِّعون تجارتهم على طرق القوافل، وسرعان ما راحوا يخترقون منطقة ما وراء بحر قزوين. وحتى السلام والازدهار اللذان نعمت بهما الصين سرعان ما ترتب عليها أن تدفع ثمنًا لهما، لأنهما سببا زيادة أسرع في عدد السكان، وقد تجاوزت أعداد الصينيين في عام ١٨٠٠ الثلاثمئة مليون، بل ربما بلغت الأربعمئة مليون.

في ذلك الحين كان انبهار الأوربيين بحجم الإمبراطورية وأبهتها قد بدأ بالأفول أيضًا، بعد أن بلغ ذروته في القرن السابع عشر على ما يبدو. وكان الصينيون قد سمحوا -عندئذ- بتأسيس إرسالية كاثوليكية لليسوعيين في بكين، وقد عاملوا أفرادها معاملة حسنة وكانوا مهتمين بتعلُّم مهاراتهم في صنع الساعات والعمارة وعلم الفلك. أما اليسوعيون فقد بدؤوا يأملون بقرب تنصير الإمبراطورية، ربما عن طريق هداية الإمبراطور نفسه مثلما حدث لقسطنطين. وقد قدَّم أفراد البعثة عددًا من التنازلات للكونفوشية، إلا أن البابوية أدانت تصرفهم هذا فكانت تلك

نهاية إرساليتهم. وكان هذا دليلاً على أن القيم الأوربية أقل انفتاحًا لتأثير الصين من قيم الشعوب البربرية الأخرى التي كانت قد قدمت إليها. إلا أن إعجاب الأوربيين بفنون الصين لم ينقطع، قط، بل إنه تحوّل إلى ما يشبه الهوس في القرن الثامن عشر، وقد استطاع الكثيرون من التجار الأوربيين -خاصة من البريطانيين- أن يستقروا في كانتون من أجل إشباع هذا الطلب على بضائع الصين ومصنوعاتها.

اليابان

لقد ظلّت اليابان في هذه الأثناء أكثر حصانة ضد الأوربيين. في عام ١٦٠٣ أعيد إحياء لقب الشوغون القديم، وتعرف المرحلة التالية باسم "السلام الكبير"، وقد أحكمت خلالها السياسة قبضتها على الإمبراطور -طوال قرنين ونصف القرن- كما تغيّر الشوغونات أيضًا، فبعد أن كانوا أبرز السادة الإقطاعيين أصبحوا بالدرجة الأولى أمراء بالوراثة وبالدرجة الثانية رؤساء نظام اجتماعي متسلسل يمارسون عليه سلطاتهم باسم الإمبراطور وبالنيابة عنه. وكان هذا النظام يسمى نظام باكوفو، أي حكم المعسكر، وكان عماده الأساسي هو سلطة عشيرة توكوغاوا التي كانت تسيطر على الشوغونية. فصار السادة الإقطاعيون أتباعًا لعشيرة توكوغاوا وخاضعين لمراقبتها الدقيقة، وكانوا يعيشون -أحيانًا- في البلاط -وأحيانًا أخرى- في أراضيهم، وعندما يكونون في أراضيهم تظل عائلاتهم مقيمة لدى الشوغون في مدينة إيدو، أي طوكيو الحالية، حيث يمكنه أن يجعل منهم رهائن إذا ما اقتضت الحاجة.

كان المجتمع الياباني مقسّماً تقسيمًا شديدًا إلى طبقات وراثية. فكانت طبقة الساموراي النبيلة مكوَّنة من السادة وأتباعهم، وهم الحكام المحاربون المسيطرون على المجتمع والذين يعطونه شكله وقوامه، مثل حال طبقة الإداريين النبلاء في

الصين. ولكن العلاقات القديمة التي كانت تربط أولئك الأتباع بالأرض كانت قد زالت بحلول القرن السابع عشر، وصاروا يعيشون في مدن القلاع التابعة لسادتهم. أما الطبقات الأخرى فهي طبقات الفلاحين والحرفيين والتجار، وكان الأخيرون هم الأدنى في السلم الاجتماعي لأن مهنتهم ليست ذات طبيعة منتجة، بالرغم من نشاط تجارة اليابان وحيويتها. وكان الهدف من هذا النظام برمته هو تأمين الثبات كما كان التزام المرء بواجباته يفرض عليه فرضًا. وكان الشوغون الأول هيديوشي قد أشرف بنفسه على حملة كبيرة لجمع السيوف من الطبقات الدنيا إذ لم يكن يجوز لها أن تحمل السلاح. وهكذا صار مجتمع اليابان يشدِّد على كل ما يضمن له الثبات والاستقرار، أي أن يعرف كل امرئ مكانه ومرتبته، وأن ينضبط ويعمل بجد وانتظام ويمارس صنعته بمنتهى الدقة، ويتحمَّل الشدائد بكل صبر وجلد.

وقد حسب هذا النظام خاطئًا أن بإمكانه عزل اليابان عن عوامل التغيُّر، ولكنها بقيت زمنًا طويلاً معرَّضة لخطر الانحدار في فوضى داخلية، بسبب وجود أعداد كبيرة من النبلاء والمحاربين المستائين والمهتاجين في القرن السابع عشر. ثم كان هناك أيضًا خطر خارجي واضح، ألا وهو خطر الأوربيين. كان الأوربيون قد جلبوا إلى اليابان أشياء عديدة سوف يكون لها تأثير عميق في اليابان، وأهمها الأسلحة النارية. كما أنهم جلبوا معهم الدين المسيحي، وقد عوملت المسيحية في البداية بتسامح بل إن اليابانيين رحَّبوا بها على اعتبار أنها تجتذب التجار من الخارج، والحقيقة أن نسبة اليابانيين المسيحيين بين السكان قد بلغت في -بداية القرن السابع عشر أعلى حد لها حتى اليوم- حيث قُدِّر أن عددهم سرعان ما تجاوز نصف المليون. إلا أن حكام اليابان سرعان ما أدركوا قدرة المشيحية الكبيرة على إحداث الانقلابات، فراحوا -عندئذ- يضطهدونها بوحشية شديدة. وقد قضى هذا الأمر

على تجارة البلاد مع أوربا، فغادرها الإنكليز والإسبان والبرتغاليون خلال عقود قليلة. وما لبثت أن اتخذت خطوات أخرى، فمنع على اليابانيين أن يسافروا إلى الخارج، وأن يعودوا إلى بلادهم إذا كانوا أصلاً خارجها، كما منع بناء السفن الكبيرة. و لم يبق إلا الهولنديون، لأنهم وعدوا بعدم التبشير بديانتهم وكانوا مستعدين للتنكر لها، وهم الذين حافظوا على اتصال اليابان الضئيل بأوربا من خلال محطة تجارية على جزيرة في مرفأ ناغازاكي.

بلد تتغير

لقد زال بذلك خطر أن يستغل الأجانب النـــزاعات الداخلية في اليابان. ولكن ظروف الاستقرار التي سادت خلال "السلام الكبير" أدّت أيضًا إلى تراجع المهارة العسكرية وتخلُّف تقنياتها عن عصرها، وعندما عاد الأوربيون لم تكن قوات اليابان العسكرية بقادرة على مجاراتهم من الناحية التقنية. ثم كانت هناك مصاعب أخرى بسبب السلام العام الذي ازدهرت خلاله التجارة الداخلية. فقد أصبح اقتصاد اليابان أكثر اعتمادًا على المال، وقد أضعف هذا العلاقات القديمة، كما ظهرت ضغوط اجتماعية جديدة، بينما كانت حال التجار في ازدهار مستمر وصار المحاربون بالتدريج معتمدين على أصحاب البنوك. وكانت المدن تنمو أيضًا، ففي عام ١٧٠٠ كان في كل من أُوساكا وكيوتو أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ نسمة، وربما بلغ عدد السكان في إيدو -طوكيو- ٨٠٠,٠٠٠، وكان من المحتَّم أن تترتب على هذا النمو نتائج أخرى كثيرة.

إن هذه التحديات الجديدة التي عجز حكام اليابان عن احتوائها كانت ناشئة من حقيقة أساسية، ألا وهي النمو الاقتصادي. ويبدو هذا النمو لنا اليوم بالمنظور

التاريخي أهم مواضيع تلك الحقبة وأعمقها أثرًا. فقد تضاعف الإنتاج الزراعي لليابان -تقريبًا- بين عامي ١٦٠٠ و١٨٥٠، بينما لم يرتفع عدد السكان إلا بأقل من النصف. ويبدو أنها كانت خطوة ناجحة نحو نمو اقتصادي ثابت، ولو أن أسبابه مازالت موضع أخذ ورد. ولا ريب أن إحاطة البحار باليابان كانت عاملاً مساعدًا في هذا التطوُّر لأنها حمتها من الغزاة، مثل بدو السهوب الذين طالما ضايقوا الشعوب الأخرى على بر آسيا، كما أن السلام الكبير كان أيضًا ميزة ثانية. وقد حدثت تطوُّرات كثيرة بفضل استخدام طريقة الزراعة المكثَّفة وتحسُّن الري واستغلال المحاصيل الجديدة التي أتى بها البرتغاليون بالأصل من الأمريكتين. وكانت حكومة باكوفو تطمح طموحًا كبيرًا إلى تنظيم المجتمع وتطويره، ولكن يبدو أن ما سهل النمو الاقتصادي في النهاية إنما كان ضعف سلطتها، لأنها بدلاً من أن تكون ملكية مطلقة صارت أشبه بمجموعة من القوى المتوازنة -فيما بينها- والمكوَّنة من كبار السادة، وكان هذا النظام قادرًا على الاستمرار طالما هو بمنأى عن الغزاة الأجانب الذين قد يخلّون بتوازنه. فلم يعرقل طريق النمو الاقتصادي، ولم يحرم المنتجين من الاستفادة من مواردهم واستثمارها. والحقيقة أن حصة طبقة الساموراي الطفيلية من الدخل القومي كانت في انخفاض، بينما كانت حصص العناصر المنتجة في ارتفاع. ويبدو أن دخل الفرد في اليابان ومتوسِّط العمر المتوقَّع له كانا في عام ١٨٠٠ قريبين جدًا مما كانا عليه لدى البريطانيين في ذلك الزمان.

تتميَّز حقبة توكوغاوا بملامح لافتة في مجال آخر، وكثيرًا ما حجبت عن الأنظار تطوُّرات المجتمع التي ذكرناها. فالازدهار الجديد في المدن قد خلق الزبائن للكتب المطبوعة واللوحات الملونة المطبوعة بالخشب والتي سوف تثير إعجاب الفنانين الأوروبيين في زمن لاحق. كما أنه أمَّن الجماهير لحضور شكل جديد من

المسرح هو مسرح كابوكي. ولكن نظام توكوغاوا بالرغم من نجاحه وتألُّقه كان ضعيفًا على المستوى الاقتصادي العميق، ولعله كان عاجزًا عن الاستمرار طويلاً حتى لو لم يتعرَّض في القرن التاسع عشر إلى الخطر الجديد الذي أتاه من الغرب؛ فالحقيقة أن علامات الاضطراب كانت بادية عليه في نهاية هذه المرحلة. إلا أن اليابان كانت مع ذلك قد صنعت لنفسها مصيرًا تاريخيًا فريدًا، وسوف يمكِّنها من أن تواجه الغرب بصورة مختلفة جدًا عن الصين الخاضعة لحكم المنشو والهند الخاضعة لحكم المغول.

تراجع الهند المغولية

لقد قدَّمت الهند للأوربيين تنازلات أكبر بكثير مما قدَّمته الصين واليابان. كانت إمبراطورية أكبر واحدة من أقوى الإمبراطوريات في العالم، وكان بلاطه واحدًا من أكثر البلاطات فخامة، وقد ازدرى خليفته الهدايا التي أرسلها له جيمس الأول ملك إنكلترا بعد بضع سنوات. والحقيقـــة أن إنكلترا كانت في – ذلك الزمان – بلدًا أنهكها الفقر، ولكن مستقبل الهند إنما كان بين أيدي رعاياها. وسوف يتعاقب أباطرة المغول متحدِّرين من السلالـــة نفسها مع انقطاعات قليلـــة –حتى منتصف القرن التاسع عشر– إلا أن سلطتهم سوف تتراجع بصورة مستمرة على امتداد فترة طويلة. فقد بلغت الإمبراطورية أوسع امتداد لها على عهد الحكَّام الثلاثة الذين جاؤوا بعد أكبر في النصف الأول من القرن السابع عشر، ثم أخذت بالتراجع في النصف الثاني منه.

وراح الإمبراطور شاه جَهان، وهو حفيد أكبر، يضم إليه سلطنات الدكن الواحدة تلو الأخرى، كما حاول بلا جدوى أن يطرد الفرس من قندهار. وقد

ضعف على عهده مبدأ التسامح الديني، ولكن ليس إلى حد ينال من مكانة الهندوس في خدمة الحكومة، بل إن الإدارة قد بقيت متعدِّدة الأديان. وكانت حياة البلاط في أغره حياة بذخ وترف عجيبين، وقد شيَّد الإمبراطور فيها أشهر الأبنية الإسلامية قاطبة، ألا وهو تاج محل الذي كان مدفنًا لأعز زوجاته. وكان تاج محل ذروة البناء بالأقواس والقباب، الذي يعتبر من أبرز ملامح التراث الإسلامي في فن الهند، كما أنه أعظم صروح الإسلام في هذا البلد.

أما تحت مستوى البلاط فكانت الحياة في الهند المغولية بعيدة جدًا عن هذه الصورة. كان على الإداريين المحليين أن يجمعوا المزيد والمزيد من المال للإنفاق على مصاريف قصر شاه جهان وحملاته، وعلى النخب الاجتماعية والعسكرية التي تعيش بصورة طفيلية على القطاعات المنتجة اقتصاديًا. وكانت آلة جبي الضرائب الجشعة تعملُ دون اعتبار للحاجات المحلية أو الكوارث الطبيعية، وقد تأخذ من الفلاَّح نصف إنتاجه في بعض الأحيان، من دون أن يُستثمر شيء من ذلك بصورة منتجة. وبعد عهد شاه جهان ومتطلَّباته الكثيرة أصيبت الإمبراطورية بمصيبة أدهى بسبب التعصُّب الديني لابنه الثالث أورنغ زيب، الذي نحَّى ثلاثة أخوة له وسجن أباه لكي يرتقي العرش في عام ١٦٥٨. وقد اجتمعت في أورنغ زيب السلطة المطلقة والريبة بمرؤوسيه وضيق النظرة الدينية، فكان هذا وبالاً على البلاد. وما لبث أن نشبت الثورات ضد حكم المغول بسبب محاولاته منع الديانة الهندوسية وتدمير معابدها، وبسبب إعادته ضريبة الأعناق على غير المسلمين. كما صار من العسير على الهندوسي أن يترقى في خدمة الإمبراطور، وبات اعتناق الإسلام شرطاً ضرورياً للنجاح، وكانت هذه الأشياء كلها قضاء على قرن كامل من التسامح الديني، وقد أوهنت ما ألفته الهند من إخلاص وتعاون بين أهلها.

لقد منعه هذا أيضًا من فتح مرتفعات الدكن، وهي القرح الذي قوّض إمبراطورية المغول في النهاية، وهكذا بقي شمال الهند وجنوبها منفصلين مثلما كان الأمر على عهد آشوكا. كان قلب المعارضة الهندوسيَّة مكوَّناً من سكان المرتفعات الذين يسمون المَهراتا، وقد لمَّ هؤلاء شملهم في ظل حاكم مستقل في عام ١٦٧٤، وتحالفوا مع سلاطين الدكن من أجل مقاومة الجيوش المغوليَّة. فنشب بين الطرفين صراع طويل برز من خلاله البطل شيفاغي، الذي أصبح أسطورة في نظر القوميين الهندوس الحديثين، وهو الذي بنى من الأنقاض هوية سياسيَّة مهراتية سرعان ما مكَّنته من استغلال دافعي الضرائب بوحشية لا تقل عن وحشية المغول من قبله. أما أورنغ زيب فقد ظلَّ يخوض الحملات ضد المهراتا بلا انقطاع -حتى موته في عام ١٧٠٧- فتنازع أولاده الثلاثة -عندئذ- على الخلافة وبدأت الإمبراطورية بالتفسُّخ من فورها، وكان بانتظارها ورثة أعتى بكثير من الهندوس والأمراء، هم الأوربيون.

قدوم الأوربيين

كان قد سمح للأوربيين بأن يؤسِّسوا لهم مواطئ أقدام ورؤوس جسور -منذ أيام أكبر- وكان أولهم البرتغاليين. بعد ذلك نال الإنكليز أول تنازل تجاري لهم على الساحل الغربي في بداية القرن السابع عشر، وفي عام ١٦٣٩ أسَّسوا في خليج البنغال وبإذن من الحاكم المحلي مستوطنة في مدراس كانت أول أرض بريطانية في الهند، وهي فورت سانت جورج. ومع أنهم استثاروا المتاعب مع أورنغ زيب فقد حصلوا على محطات أخرى في بومبـــي وكلكُتا قبل نهاية القرن، وقد حافظت سفنهم على السيادة التجاريَّة التي أخذوها عن البرتغاليين. إلا أن منافسًا أوربّياً جديدًا كان قد ظهر على الحلبة في عام ١٧٠٠، إذ إن الشركة الفرنسية للهند

الشرقية التي تأسسَّت في عام ١٦٦٤ سرعان ما بنت هي الأخرى مستوطنات لها في شبه القارة.

سوف يتصارع الفرنسيون والإنكليز -فيما بينهم- طوال قرن كامل، وقد بدأت المشاكل السياسيَّة تعقِّد أمور التجارة في الأجواء الحرجة التي سبَّبها انحسار سلطة المغول، فلم يعد هناك بد من افتتاح العلاقات مع الإمبراطور ومع خصومه أيضًا. وبحلول عام ١٧٠٠ كان الإنكليز يعلمون -تمامًا- أن مكاسبهم باتت في خطر. أما الهند فكانت قد انجرفت في تيار من الأحداث الخارجة عن إرادتها، وهذه هي في الحقيقة حقبة التاريخ العالمي. وإنك تجد هذا التأثير العالمي في الأمور الصغيرة كما تجده في الكبيرة، ففي القرن السادس عشر كان البرتغاليون قد جلبوا معهم من أمريكا الفلفل الحار والبطاطا والتبغ، وسرعان ما تبعتها الذرة والأناناس والبَبَّاية - نبات ذو ثمر أصفر يؤكل- وهكذا ترى أن التغيُّر في ثقافة الهند قد وصل حتى إلى غذائها وزراعتها.

يبدو أن قدوم الأوربيين لم يكن سبب نهاية تلك المرحلة العظيمة للإمبراطورية المغولية، وأن ذلك لم يكن أكثر من صدفة، ولو أن الوافدين الجدد قد عرفوا أن يحصدوا نتائجها. والحقيقة أن أيًا من إمبراطوريات الهند لم تستطع أن تحافظ على نفسها لزمن طويل، والسبب الأرجح هو التنوُّع الكبير في شبه القارة وعجز حكامها عن استقطاب ولاء رعاياهم. ولقد ظلَّت الهند منقسمة على الدوام إلى مستغِلين ومستغَلين، إلى نخب حاكمة تعيش وتثرى على حساب الفلاحين المنتجين؛ وفي نهاية القرن السابع عشر كانت البلاد جاهزة لزمرة جديدة من الفاتحين.



٩

بدايات الأزمنة الحديثة

العلامات الأولى على التاريخ العالمي

يبدأ التاريخ الحديث في أوربا، ففيها ظهرت للمرة الأولى تلك القوى التي سوف تضم تاريخ العالم بعضه إلى بعض، وتجعل منه كيانًا واحدًا عن طريق شبكة هائلة من الأحداث والحركات المتداخلة والمتفاعلة، فيما بينها. وربما كانت العلامة الأولى على هذه التطوُّرات هي معرفة شكل هذا العالم وقاراته، فقد كان الناس في عام ١٥٠٠ يعلمون بوجود القارات كلها، ولو أن أشكالها لم تكن قد اتضحت لهم بعد، وكانت قارة أنتاركتيكا في القطب الجنوبي هي الوحيدة التي جاء اكتشافها متأخرًا.

وكانت قد بدأت تتشكَّل في أذهان الأوربيين ملامح أولى قليلة عن التنوُّع الهائل في هذا العالم الذي بدؤوا للتو باكتشافه، وعن شعوب وثقافات أغرب عن أوربا المسيحية حتى من الإسلام والعالم الأرثوذكسي. أما أعداد البشر وتنظيماتهم وتوزعهم في العالم فلم يكن بمقدور أحد أن يعرف عنها شيئًا. والحقيقة أننا مازلنا – حتى اليوم– غير قادرين على التحدُّث عن السكان في القرن السادس عشر إلا عن طريق التخمين الحذر. فلم تكن الحكومات قد بدأت بجمع الإحصائيات بصورة

منظّمة بعد، بل كان هناك شعور عام قوي في البلاد الأوربيَّة ضد إحصاء عدد السكّان استمر –حتى القرن الثامن عشر– إذ كان هذا النوع من الإحصاء دومًا نذيرًا برفع الضرائب، كما كانت هناك سوابق ضده في الكتاب المقدَّس. إن بين أيدينا أرقامًا كثيرة عن عدد السكان في إيطاليا في عام ١٥٠٠، ومع هذا مازال العلماء يتوصَّلون عند تقدير مجموع سكانها إلى أعداد متباينة تتراوح بين الخمسة ملايين والعشرة ملايين.

إن الدراسة الشاملة لما بين أيدينا من معلومات تجعلنا نقدِّر عدد سكان العالم في عام ١٥٠٠ بحوالى ٤٢٥ مليونًا. وكانت آسيا أغنى قارات العالم بعدد السكان، كما كانت الصين تحوي العدد الأكبر منهم بين جميع دول العالم، ومازالت كذلك –منذ نهاية الإمبراطورية الرومانية– إذ لا يمكن أن يكون عدد سكّانها في –ذلك الحين– أقل من ١٠٠ مليون نسمة. وكانت البلد التالية هي على الأرجح الهند، ولو أن تقديرات عدد سكانها تخمينية إلى حد بعيد. أما أوربا بما فيها روسيا –فربما– كان عدد سكانها حوالى ثمانين مليونًا، وفي بعض أجزائها كان عدد السكان في عام ١٥٠٠ أقل منه –عند بداية القرن الرابع عشر– بسبب النكسات الهائلة التي سبَّبها الموت الأسود. وكانت فرنسا في –ذلك الحين– أكبر بلد أوربي، وقد بلغ عدد سكانها حوالى ١٦ مليونًا، كما كانت تمرُّ بطور من النمو السريع. أما أمريكا عندما اكتشفها الأوربيون –فيبدو– أن عدد سكانها من هنود وإسكيمو في كل أراضي أمريكا الشمالية الشاسعة لم يتجاوز المليون، فكانت بذلك أوسع منطقة تؤوي نمط الحياة ما قبل الزراعي. ولكن بالمقابل ربما بلغ عدد السكان إلى الجنوب من نهر ريو غرانده حوالى ١٤ مليون نسمة في عام ١٥٠٠، منهم حوالى خمسة ملايين في وسط المكسيك.

إلا أننا تستطيع أن نرى -الآن- أن عدد السكان في بعض البلاد الأوربية كان في عام ١٥٠٠ قد بدأ ينمو بصورة جديدة ومتواصلة ومازالت مستمرة حتى اليوم. وكان هذا النمو أسرع بكثير منه في الأزمنة الأبكر، ولو أن هناك فروقًا كبيرة بين بلد وآخر وبين زمن وآخر، وقد بدأ يغيِّر التوازن بين القارات. وعندما نصل إلى عام ١٨٠٠ نجد أن عدد سكان العالم قد بلغ حوالى ٩٠٠ مليون نسمة، أي مثلي ما كان عليه قبل ثلاثة قرون، وهو ازدياد كبير جدًا ولو أنه حصل بصورة بطيئة. وليس من السهل أن نعرف أسباب هذا النمو، ولكن ربما كان السبب الأساسي هو تحسُّن المناخ والمحاصيل. لقد كان أكثر من خمس هذا العدد من الأوربيين، أي حوالى ١٨٥ مليون نسمة، وهي نسبة أكبر من أي زمن سابق؛ وكانت هذه السرعة الجديدة في نمو السكان وتجاوزه للعوائق السابقة تيارًا سوف يستمر ويصبح تيارًا عالميًا في أيامنا هذه.

الثورة في مجال الزراعة

يعود هذا الارتفاع في عدد السكان إلى زيادة كمية الغذاء، ولكن هذه الزيادة ظلّت لزمن طويل محصورة بقارة أوربا ولم تكن واضحة للعيان. وكان طعام الناس متشابهًا بصورة عامة في كافة أنحاء العالم طوال هذه القرون الثلاثة، مثلما كان الأمر طوال تاريخ الحضارة. فكانوا يأكلون دومًا الخبز أو الحبوب المطبوخة، وهي تختلف من بلد لآخر، ومنها القمح والذرة والأرز والجاوْدار. وإن زراعة الحبوب في مساحة معينة من الأرض تعطي مردودًا من الحريرات أفضل من تربية الحيوانات. في العصور الوسطى كان أكل اللحم في بعض البلاد الأوربية أكثر شيوعًا منه في المناطق الأخرى من العالم، ولكن أكثر الأوربيين لم يكونوا يتذوقونه إلا نادرًا، حتى في عام ١٨٠٠. وكانوا ينوّعون طعامهم من الحبوب مثل سكان القارات الأخرى بإضافة الكستناء والفاصولياء وغيرها من الخضار، فضلاً عن البيض والسمك. ولقد ظلّت أوربا تمر بأيام عصيبة -حتى القرن الثامن عشر- وحدثت المجاعات في فرنسا في سبعينياته وثمانينياته. أما في الصين وروسيا والهند وبعض أجزاء أفريقيا فإن المجاعات مازالت تحدث حتى اليوم، ولو أنها لم تعد تستمر طويلاً كما في الماضي، إذ صار بالإمكان نقل الغذاء من أنحاء أخرى من العالم بصورة سريعة.

تطور الزراعة في أوربا

ولكن بالرغم من أوجه الشبه هذه فإن أوربا في عام ١٨٠٠ كانت مختلفة اختلافًا جذريًا عن بقية أنحاء العالم، من ناحية أن كميَّة الغذاء التي تنتجها للفرد الواحد كانت أكبر بكثير منها قبل ثلاثمئة عام. لو نظر المزارع الأوربي اليوم إلى أفضل مزارع العصور الوسطى وأوفرها إنتاجًا لوجدها فقيرة بالقياس إلى ما اعتاد عليه، ولوجد مردودها زهيدًا جدًا بالقياس إلى كمية الجهد التي تبذل فيها، فلم تكن الغلة الناتجة من زراعة الحبوب تزيد عن خمسة أمثال وزنها الأصلي، وكان مردود الهكتار الواحد في عام ١٥٠٠ ضئيلاً جدًا بالقياس إلى مردوده اليوم. أما أساليب الزراعة فلم تبتعد كثيرًا عن أساليبها التقليدية، وباختصار كانت الزراعة في أوربا العصور الوسطى شبيهة بما -هي الحال عليه اليوم- في بعض أنحاء آسيا وأفريقيا. ولكن التغيُّر كان قادمًا، وقد بلغ في عام ١٨٠٠ وتيرة مطَّردة، وإن التطوُّر الذي حصل في الزراعة في أوربا خلال هذه القرون الثلاثة قد أحدث انقلابًا في تطوُّر البشرية لا مثيل له منذ اختراع الزراعة نفسها.

لطالما تمتَّعت أوربا بميزات طبيعية هامة، فأمطارها وفيرة تمكِّنها من زراعة قسم كبير من أراضيها، والأسماك غزيرة في مياهها الساحلية وتؤمِّن لها الكثير من الغذاء السهل المنال، وتحت سطحها تكمن كميات كبيرة من الثروات المعدنية، منها أغنى حقول الحديد والفحم في العالم. وحتى قبل استثمار هذه الثروات كان فيها الكثير من الخشب للوقود والبناء. مع هذا كان أكثر الأوربيين في عام ١٥٠٠ يعيشون بعد على زراعة الكفاف، أي أنهم يزرعون ما يكفي حاجاتهم فحسب، وقليلون من كانوا يقدرون على إنتاج فائض يبيعونه لمن لا يعيشون في الريف. وحتى في تلك الحالات القليلة تكون السوق عادة محليَّة، فرغم المتاجرة بالنبيذ

والصوف والجلد وبعض الحبوب كان أكثر الغذاء ينتج في مكان قريب من مكان استهلاكه.

لقد حددت التضاريس الطبيعية الكبرى -منذ قرون طويلة- أنماط الزراعة في أوربا. فإذا استثنينا شبه الجزيرة الاسكنديناقية، يمكننا تقسيم أوربا تقسيمًا بسيطًا إلى منطقتين، إحداهما عبارة عن سهل عريض وطويل، يقابله إلى الجنوب منه امتداد طويل أيضًا من المرتفعات التي تكثر فيها الجبال. ويمتد هذا السهل الأوربي الواسع من دون جبال أو مرتفعات عالية لمسافة تزيد عن ٤٠٠٠ كيلو متر، وهو يبدأ بالسهول الشاسعة في روسيا، ثم يمتد نحو الغرب فيضيق قليلاً إلى الجنوب من بحر البلطيق وفي بولندا وغرب ألمانيا، ثم يعود ليتّسع من جديد حول مرتفعات الأردين والمسّيف الأوسط في فرنسا، ويستدق ثانية منتهيًا عند جبال البيرينه. وتشكّل إنكلترا أيضًا قسمًا منه على الطرف الآخر من بحر الشمال، حيث يستدق عند سفوح جبال ويلز واسكتلندا. إن هذا السهل الواسع هو أرض زراعة الحبوب في أوربا في العصور الحديثة، ولطالما أمّنت الحبوب للأوربيين طعامهم وشرابهم، فالجعة تصنع من الشعير، والمشروبات التي تقطر من الحبوب مثل الويسكي والفودكا هي المشروبات الكحولية التقليدية في هذه المنطقة. وهي منطقة ذات حدود واضحة، ففي روسيا تحدُّها من الشمال الغابات الصنوبرية ثم البحر في الغرب، أما من الجنوب فتحدُّها جبال الكرْبات والألب والمسّيف الأوسط والبيرينه.

إلى الجنوب من هذه الجبال تكون الأرض عادة مرتفعة ما عدا بعض وديان الأنهار، وأهمّها الداتوب والرون والپو والإبرو، وتزرع الحبوب أيضًا على نطاق واسع في بعض أجزاء هذه المنطقة، مثل وادي الدانوب وسهل قشتالة العالي، بينما تستخدم أراضيها المرتفعة عادة لتربية الحيوانات ورعيها. وهي تتميَّز بأنها أرض

الكرمة، ومشروباتها الكحولية هي النبيذ وغيره مما يشتق من هذه النبتة. وأخيرًا تقع أرض الزيتون والزيت حول سواحل المتوسط، وتضم قسمًا كبيرًا من إسبانيا.

ويمكننا أيضًا أن نقسِّم أوربا إلى شطرين شرقي وغربي، باتخاذ نهر الإلب في السهل الشمالي نقطة فاصلة بينهما، وبرسم خط من مصبه إلى رأس بحر الأدرياتيك؛ فالحقيقة أن التاريخ كثيرًا ما سلك طرقًا مختلفة على طرفي هذا الخط. وهو ينطبق -تقريبًا- على خط درجة الصفر المئوية، أي الخط الواصل بين المناطق التي تبلغ الحرارة فيها درجة الصفر في شهر كانون الثاني (يناير). فالغرب تأتيه تيارات الهواء والماء التي تسمى «تيار الخليج»، لذلك يبقى أدفأ من الشرق، الذي تكتسحه جبهات الهواء البارد القادمة من القطب الشمالي ومن بر آسيا. إن بحر آزوف مثلاً يقع على نفس خط العرض الذي تقع عليه مدينة ليون الفرنسية، ولكنّه كثيرًا ما يتجمَّد في الشتاء بينما يتابع نهر الرون في مدينة ليون تدفّقه. ولقد أدى هذا التباين بين الشطرين إلى اختلافات كبيرة في حياة الأوربيين في كل منهما، وفي وسائل تحصيلهم لمعيشتهم.

من هذه الفروق اختلاف أنواع الحبوب التي كانت تزرع في كل شطر، ففي أوربا الشرقية بقي نبات الجاوْدار الشديد التحمل هو النوع المعتاد من الحبوب لاستهلاك الإنسان، بينما كان القمح والذرة التي أتت من أمريكا في القرن السادس عشر أكثر شيوعًا في الغرب. ولكن هناك فرقًا هامًا آخر، هو أن أكثر الفلاحين إلى الغرب من نهر الإلب كانوا في عام ١٨٠٠ إما أحرارًا يمتلكون قطعًا صغيرة من الأرض، أو مستأجرين يدفعون أجار الأرض نقدًا أو عينًا. أما في الشرق فقد ظلّوا عادة حتى في هذا التاريخ المتأخِّر عبيدًا مرتبطين بأرض العزبة التي يعيشون فيها، وغير قادرين على مغادرتها إلا بإذن. وقد أصبح هذا الفرق أوضح بكثير بعد القرن السابع عشر، عندما ازداد ترسُّخ عبودية الأرض في الشرق بينما كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة في الغرب.

وكانت هناك أيضًا فروق محليَّة أكثر تحديدًا بين المناطق المختلفة في شرق أوربا وغربها، وسببها اختلاف الزراعة وتربية الحيوان باختلاف الظروف من تربة ومناخ وخبرة وأسواق محليَّة. وبالتدريج أدَّت هذه الأمور إلى التخصص، الذي كانت له آثار بعيدة المدى- فمنذ القرن السادس عشر- مثلاً كانت الحبوب المزروعة في الأراضي الواقعة إلى الجنوب من بحر البلطيق تشحن إلى أوربا الغربية، وقد أدى هذا إلى نمو صناعة الشحن ومكاسب جديدة لمدن رابطة الهانزا، وهي مدن ألمانية قديمة كانت تشكِّل سلسلة من الموانئ البحرية -ومنذ القرن الخامس عشر- كانت مقاطعة آنكليا الشرقية في إنكلترا متخصِّصة بزراعة الشعير وتربية الخراف، بينما كان وادي نهر التيمز ينتج القمح، وكانت المقاطعات الشمالية والغربية تربي البقر. حتى أشكال الحيوانات وصفاتها كانت تختلف باختلاف المناطق، فقد كان خروف المرينوس، والذي انتشر -فيما بعد- في كافة أنحاء العالم، مناسبًا للمراعي الجافة في إسبانيا، وكان يبدو أشبه بالماعز بالقياس إلى خراف إنكلترا، ولكنه كان يعطي في الحقيقة أفضل أنواع الصوف. أما الخراف التي تربى في مراعي إنكلترا الأكثر خضرة فكان صوفها أخشن ولكنها أغنى باللحم. وكانت هذه الاختلافات سبب تباين مستويات الحياة بين بلد وآخر، وقد كان الأجانب يلاحظون أن الفلاحين والحرفيين الإنكليز في القرن السابع عشر يرتدون ملابس من الصوف، بينما ظلَّ زملاؤهم في القارة الأوربية زمنًا طويلاً يرتدون الملابس الخشنة المصنوعة من نبات الكتَّان.

يمكننا أن نسرد الكثير من أمثال هذه الفروق، وهي فروق هامة، ولكن هدفنا هو التأكيد على النقطة الأساسية المتمثِّلة بأن الزراعة في أوربا كانت في عام ١٥٠٠ قد بلغت درجة كبيرة من التنوُّع، ولو بدت لنا متخلِّفة بمعاييرنا الحديثة. وإن هذا التنوع

ليدل -في الوقت نفسه- على البدايات الأولى لتحوُّل كبير آت، هو ما كان يسمى «بالثورة الزراعية»، وكان هذا تحوُّلاً ثوريًا بحق، لأنه قد بدَّل أحوال العالم، ولو أنه حدث بصورة متدرِّجة وبطيئة. أما سبب حدوثه في أوربا بالذات فمازال لغزًا كبيرًا، وربما كان السبب الأساسي هو التراكم البطيء للثروة والموارد التي ظهرت في المدن خاصة، وهو تراكم كان جاريًا -منذ القرن الثاني عشر- ولكن الغريب أن شيئًا مثل هذا لم يحدث في الصين مثلاً، مع أن المدن فيها قد نمت نموًا كبيرًا أيضًا، كما استخدم فيها المجهود البشري المكثف والضروري لزراعة الأرز، فضلاً عن الأسمدة الطبيعية - كانت الفضلات البشرية تسمى «تربة الليل»، وكانت تزال من المدن بموجب عقود معيَّنة، فكانت ذات منفعة كبيرة في الصين وفي أوربا العصور الوسطى.

أساليب جديدة

كان تحسُّن الزراعة ينطوي دومًا على درجة من التخصُّص، فلم يعد المزارع الواحد يحاول أن يزرع كل شيء، بل صار يركِّز على الأشياء التي يستطيع أداءها بأفضل صورة ويشتري حاجاته الأخرى من مصدر آخر. وكان هذا مترافقًا دومًا بتحسُّن أساليب الزراعة، مثل المناوبة بين المحاصيل أي زرعها في حقول مختلفة من عام لآخر من أجل إراحة التربة وتحسينها بدلاً من استنفادها، وزراعة المحاصيل الجديدة ومن أهمِّها البطاطا والذرة الآتية من أمريكا، ومعالجة التربة بطرق جديدة مثل الكلس، واستخدام أشكال جديدة من محاصيل مألوفة مثل أنواع العشب الخاصة بالرعي، واللجوء إلى أساليب جديدة للعناية بالتربة مثل حفر الأقنية لتصريف المياه وبناء الأسيجة، وابتكار الآلات الجديدة ولو أن هذه كانت أبطأ من التطوُّرات الأخرى، أو تبني أساليب بسيطة مثل تطويق أراض كانت في السابق مشاعًا وجعلها

ملكًا لرجل واحد وتخصيصها بالتالي لمصلحته. هذه الأشياء كلها أدَّت في النهاية إلى تأمين مردود أكبر من الأرض، وبالتالي إلى غذاء أوفر ولباس أرخص.

لقد ظهرت بعض هذه التغيُّرات أولاً في إيطاليا ومنطقة الفلاندر -منطقة واسعة تمتد في فرنسا وبلجيكا الحاليتين- في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ثم بلغت أقصى مداها في البلاد الواطئة -هولندا- ومنها انتشرت إلى إنكلترا في القرنين السادس عشر والسابع عشر. وكان من نتائجها الأولى تطويق الأراضي من أجل تربية الغنم، وضم شرائط الأرض المتفرِّقة التابعة لمالك واحد بعضها إلى بعض في حقول متراصَّة، وتصريف الأراضي خاصة في منطقة الفنـز بشرق إنكلترا، واستصلاح أراض جديدة من المستنقعات أو من البحر كما فعل الهولنديون. وقد وضع هذا أسس تقدُّم تقني هائل في زراعة إنكلترا، التي أضحت في القرن الثامن عشر أفضل زراعة في العالم كله. فقد كثرت -عندئذ- الأنواع الجديدة من الحيوانات والمحاصيل، وظهرت أولى الابتكارات الهامة في الآلات منذ اختراع المحراث ذي العجلات، مثل المثقاب الميكانيكي وآلات تسوية التربة التي تجرُّها الأحصنة وآلات درس الحبوب. وكان الزوار يأتون من كافة أنحاء أوروبا لرؤية الزراعة في إنكلترا، وقد انتشرت أساليبها الجديدة إلى القارة، خاصة إلى ألمانيا والشرق.

كانت التربة في الشرق أفقر، لذلك كان تحسينها أمرًا أشد أهمية. ومع هذا فقد تشبَّث أصحاب الأراضي تشبثًا شديدًا بأحد التقاليد القديمة. كان أهم ما يحتاجونه لتحسين الإنتاجية في أوروبا الشرقية هو المجهود البشري، لهذا كنت تراهم يقاومون كل محاولة لإزالة النظام القديم القائم على العزبة. وكانت العبودية المرتبطة بالأرض قد زالت في إنكلترا بحلول عام ١٥٠٠ وحلَّ محلَّها العمل مقابل أجر، أما

في ألمانيا وبولندا وروسيا فقد صارت تلك العبودية أكثر شيوعًا -خلال القرنين التاليين- وكان النبلاء في شرق بروسيا يستغلون جهد عبيدهم بأقصى طريقة ممكنة، ويوثقون ربطهم بالعزبة عن طريق القوانين من أجل ضمان استمرار هذا الاستغلال. وفي عام ١٨٠٠ لم يكن الفلاح الذي يعيش في مزرعة بشرق ألمانيا قادرًا على مغادرتها أو على الزواج إلا بإذن، ولم يكن يستطيع العناية بحديقته الصغيرة إلا بعد أن ينهي عمله لدى سيده. ولم يكن العمل يقتصر على الحقل، بل قد يضطر أولاده ونساؤه للعمل في البيت خدمة للسيد أيضًا. وأما في روسيا فكانت الأوضاع أقسى -حتى من هذا- وسوف تزداد مع الوقت سوءًا على سوء. ولم يكن تحسُّن الزراعة بالطبع السببَ الوحيد لاختفاء عبودية الأرض في الغرب واستمرارها في الشرق، بل كان واحدًا من أسباب عديدة. لقد كان من المناسب لصاحب العزبة أن يضيق الخناق على عبيد الأرض لديه بمطالبه من أجل تحسين مردود مزرعته، وكانت النتيجة في بعض المناطق، خاصة في بولندا، أن وضع الفلاحين قد انحدر إلى مرتبة قريبة من مرتبة العبودية المحض.

صحيح أن التطوُّر يجر البؤس عادة على أفراد كثيرين، ولكن من الصعب أن ننكر أن التأثيرات العامة والبعيدة الأمد لهذا التطوُّر كانت بالمحصلة تأثيرات جيدة. ورغم أننا مازلنا نجد الكثير من الجياع في أوربا في عام ١٨٠٠، فإن أعدادهم في بعض البلاد كانت أقل بكثير منها قبل قرون ثلاثة. وتشكِّل هذه التطورات منعطفًا تاريخيًا هامًا، لأن الزراعة كانت عماد الاقتصاد ومحركه، فإذا استثنينا الثروات المعدنية ومنتجات الأسماك وجدنا أن أكثر المصنوعات والتجارة إنما كانت تعتمد على ما تنتجه الأرض من نبات وحيوان، مثل الجلد لصناعة الأحذية، والصوف لصناعة القماش، والعنب والشعير لصناعة الخمر والجعة.

الحكام والرعايا

في عام ١٥٠٠ كانت أوربا الواقعة خارج أراضي العثمانيين كلها مسيحية تقريبًا، وكان في الشرق، ثمة، خط يقسم العالم المسيحي إلى شطرين، ينتهي عنده العالم الكاثوليكي التابع لروما وتبدأ المسيحية الأرثوذكسية، وكانت هناك مناطق على الحدود بين هذين الشطرين في هنغاريا وأوكرانيا ويوغسلافيا السابقة تختلط فيها هاتان الطائفتان، وكنت تجد الأسقفيات الكاثوليكية حتى مدينة ڤلنيُس في ليتوانيا ونهر الدنيستر شرقًا. أما الأوربيون الخاضعون لحكم الأتراك المسلمين فكانوا ينتمون عادة إلى إحدى الكنائس الأرثوذكسية. وسوف يزداد تقدُّم الإسلام ضمن أوربا تحت حكم العثمانيين عن طريق اعتناق شعوب البلقان له -خلال القرون القليلة التالية- ولكن بالمقابل سوف يزول المسلمون الكثيرون الذين كانوا يعيشون تحت حكم الإسبان في عام ١٥٠٠. وكنت تجد اليهود في جميع البلاد الأوربية تقريبًا، وكانت أعدادهم قليلة في بعضها، بينما كان هناك الكثيرون منهم في المناطق الحدودية في بولندا وروسيا، حيث فرُّوا من الاضطهاد في أوربا الغربية -خلال العصور الوسطى- ويسمح لنا هذا الوصف أن نقول إن أوربا كانت في ذلك الحين هي نفسها العالم المسيحي، أي الجزء من العالم الذي لا يسكنه إلا المسيحيون.

أما وصف أوربا من الناحيتين السياسية والقانونية فهو أمر أصعب بكثير. كانت كل من إسبانيا والبرتغال وإنكلترا وفرنسا في عام ١٥٠٠ تشبه الدول الحاليَّة

المقابلة لها، وقد ساعدها أن لكل منها حدودًا طبيعية واضحة. فقد كانت شبه الجزيرة الإيبيرية منعزلة بفضل جبال البيرينه والمحيط الأطلسي والبحر المتوسط- ومنذ هزيمة المسلمين- لم يعد من السهل على الغرباء أن يتدخَّلوا فيها، ولكنها لم تكن تشكّل كيانًا سياسيًا واحدًا، لأن البرتغال كان لها ملكها الخاص، وإسبانيا كانت من الناحية القانونية منقسمة إلى مملكتي قشتالة وأراغون ولكل منهما قوانينها وأعرافها ولو أنهما متحدتان تحت حكم الملكين نفسيهما، كما كانت هناك في الشمال مملكة صغيرة مستقلة هي مملكة نافار. وإذا انتقلت إلى الجزر البريطانية، وجدت أن إنكلترا كانت تسيطر على جزيرة بريطانيا، تقريبًا، لأن ملوكها كانوا قد فتحوا منطقة ويلز الواقعة إلى الغرب منها -منذ زمن طويل- ولكن بقيت لها جارة مستقلة في الشمال هي اسكتلندا، وقد اشتركت المملكتان بملك واحد -منذ عام ١٦٠٣- ولكنهما لم تنضما في دولة واحدة هي «بريطانيا الكبرى» حتى عام ١٧٠٧، وحتى عندئذ، بقيت الكثير من قوانينهما مختلفة. أما جزيرة إيرلندا فقد كان الإنكليز قد فتحوها وضموها إليهم ووضعوها تحت حكم نائب للملك -حتى القرن الثامن عشر- وقد ظلّ ملوك إنكلترا في ذلك الزمان يلقبون أنفسهم ملوكًا على فرنسا، ولو أن هذا اللقب كان قد صار باليًا ومن قبيل التبجح؛ صحيح أن إنكلترا كانت تحتفظ بقطعة صغيرة من الأرض حول مدينة كاليه بشمال فرنسا في عام ١٥٠٠، ولكن ملوك فرنسا كانوا هم السادة الفعليين على الجزء الأكبر من فرنسا الحالية. ومع هذا لم تكن بعض المناطق الشرقية قد صارت تحت حكمهم بعد، خصوصًا برغنديا وساڤوا والألزاس واللورين، وحتى ضمن فرنسا نفسها كانت هناك بعض «الجيوب» الصغيرة الخاضعة لحكام أجانب، وأبرزها أڤينيون التي كان يحكمها البابا.

حكم السلالات

لم يكن الناس قد ابتكروا تعبير «الشؤون الدولية» بعد في عام ١٥٠٠، ولكنهم لو استخدموه لكان مبنيّاً حتمًا على مبدأ الأسرة الحاكمة ومصالحها. فقد كانت العلاقات بين الحكام الأوربيين تتحدَّد بالدرجة الأولى بصراعات الأسر -فيما بينها- من أجل توسيع ميراثها من الأراضي وتدعيمه وحمايته، مثلما كان الأمر -منذ قرون عديدة- وكان لأكثر الحكام ادعاءات بأراض في بلاد أخرى عن طريق المصاهرة أو التحدُّر من عائلة ما. وكان أكثر رجال الدولة يرون أوربا بصورة فسيفساء مكوّنة من الأملاك الشخصية والعائلية، تنتمي قطع الأرض فيها لحكام مختلفين، وبالتالي لواحدة من السلالات الملكيّة الكبرى، تمامًا كما تنتمي المزارع والبيوت في أجزاء مختلفة من البلد الواحد إلى المالك نفسه. وكان المبدأ السائد هو السعي نحو مصالح الأسر الحاكمة وليس مصالح السكان في منطقة معيَّنة، فكان هذا هو المحور الذي تدور حوله السياسة في أوربا.

وتبرز في هذه القصة اثنتان أو ثلاث من الأسر الكبرى. كانت إحداها أسرة تيودر الويلزية، وأول من ارتقى عرش إنكلترا منها هو هنري السابع في عام ١٤٨٥، كما حاول ابنه هنري الثامن أن ينال عرش الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة -بعد سنوات قليلة- ولكن الحقيقة أن ملوك إنكلترا لم يكن لهم بالإجمال وزن كبير في القرن السادس عشر، إلا عندما يتخاصم حكام آخرون -فيما بينهم- ويطلبون مساعدتهم أو حيادهم. كانت أسرة ڤالوا الفرنسية أكثر أهمية منهم، وهي التي كانت تحكم فرنسا -منذ القرن الرابع عشر- وطردت الإنكليز -تقريبًا- بعد صراع طويل، وكانت أعظم بكثير من أسرة تيودر، وقد استمرت حتى عام ١٥٨٩

عندما أخذت عرش فرنسا سلالة بوربون الناجحة، التي ترتبط بهم بروابط المصاهرة. إلا أن الأسرة التي كان بهاؤها يفوق كلاً من الفالوا والتيودر في عام ١٥٠٠ إنما هي أسرة هابسبرغ النمساوية، التي سوف تدوم أيضًا زمانًا طويلاً بعد زوالهما.

تشكِّل تقلبات سلالة الهابسبرغ قصة السيَّاسة في أوربا -حتى عام ١٩١٨- بعد أن حكمت النمسا طوال ستة قرون. ولقد أصبح أحد أفرادها في عام ١٤٣٨ حاكمًا على سمي في ذلك الحين «الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة للأمة الألمانية»، ثم صارت تسمى «الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة» أو باختصار «الإمبراطورية»، وكانت هذه استمرارًا بعيدًا لإمبراطورية شارلمان، التي كانت بدورها إحياء لفكرة أقدم منها.

كان جزء كبير من الإمبراطورية واقعًا خارج ألمانيا، ولكن الإمبراطور كان ينتخبه عدد من الأمراء الألمان- ومنذ القرن الرابع عشر فما بعد- صاروا يختارون أحيانًا رجلاً من أسرة هابسبرغ. وقد استمر العمل بهذا الترتيب مع انقطاع واحد قصير منذ عام ١٤٣٨ حتى عام ١٨٠٦، عندما زالت الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة وجاءت بدلاً منها الإمبراطورية النمساوية، ولهذا ظل الهابسبرغ يستخدمون لقب «إمبراطور». فإذا عدت إلى عام ١٥٠٠ وجدت أن الإمبراطور مكسيميليان كان رأس عائلة الهابسبرغ، وأن زوجته الأولى كانت ابنة دوق برغنديا، وهو واحد من أثرى حكام العصور الوسطى ولم يكن له من ولد يخلفه. لقد سبَّب موت الدوق اضطرابات كبيرة وزاد خريطة أوربا تعقيدًا، لأن أجزاء تركته قد انتقلت إلى أيد كثيرة ومختلفة، ولم يتم هذا إلا بعد نزاعات ومشاكل كثيرة. والحقيقة أننا نستطيع أن نرى الكثير من أحداث القرن السادس عشر بصورة نزاع طويل بين أسرتي فالوا وهابسبرغ حول ميراث برغنديا، خاصة مقاطعاتها الغنية في الأراضي الواطئة أي التي تقابل -تقريبًا- بلجيكا وهولندا الحاليتين. في عام ١٥١٩ أصبح ملك إسبانيا، وهو

من أسرة هابسبرغ، رأس الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة، فضم إمبراطورية إسبانيا الهائلة إلى أراضي الهابسبرغ القديمة، وبدا أن أسرته باتت على طريقها نحو تشكيل ملكية عالمية. هذا الملك هو شارلكان أو شارل الخامس، وهو أول رجل قيل عنه بحق إنه كان يحكم إمبراطورية لا تغرب عنها الشمس.

لقد انضمَّت أسرتا هابسبرغ وڤالوا إلى أسر أخرى في الصراع على إيطاليا، باحثة عن حلفاء وأتباع فيها بين عشرات الدول الأساسيَّة التي كانت شبه الجزيرة مقسَّمة إليها. كانت بعض تلك الدول جمهوريات أرستقراطية، وأشهرها البندقية التي كانت لها أملاك بعيدة في قبرص وكريت وجزر بحر إيجة، بينما كانت بعضها الآخر ممالك في الحقيقة سواء اعترفت بذلك أم لم تعترف، مثل فلورنسا التي كانت جمهورية بالاسم ولكنها في يد أسرة من المصرفيين السابقين هي أسرة مديتشي. ولم تكن هذه التعقيدات الوحيدة في إيطاليا، فقد كانت أكثر الدول الإيطالية ضمن الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة، ولكن بعضها كانت خارجها، ومن هذه الأخيرة ثلاث دول على درجة كبيرة من الأهمية هي البندقية، ومملكة نابولي، والدول البابوية التي كان يحكمها البابا كحاكم دنيوي مثل أي أمير آخر في دولته.

الإمبراطورية وأوروبا الشرقية

ولكن خريطة إيطاليا على تعقيدها كانت بسيطة جدًا بالقياس إلى خريطة ألمانيا وأوروبا الوسطى. كانت ألمانيا قلب الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة، وقد سعى الهابسبرغ جاهدين لتحويل الإمبراطورية إلى دولة ملكية مركزية، ولكنهم لم ينجحوا في هذا قط. كان دستورها فوضى عارمة، وكان يفترض فيه أن يقدِّم الجهاز اللازم لإدارة شؤون حوالى أربعمئة من الدول والدويلات والوجهاء بصورة

سلسلة. فقد كان هناك مثلاً أمراء هم أتباع إقطاعيون للإمبراطور -وأهمهم الأمراء السبعة الذين ينتخبونه- ولكنهم لم يكونوا خاضعين له من أي ناحية أخرى، كما كانت هناك عشرات المدن الإمبراطورية المستقلة، وأراضي أسرة هابسبرغ في النمسا، وخمسون أميرًا تابعًا للكنيسة يحكمون في أراضيهم مثل الحكام الدنيويين، ومئات من النبلاء الصغار — هم الفرسان الإمبراطوريون — الذين لا يخضعون إلا للإمبراطور كأتباع إقطاعيين، وأراض في بوهيميا -في جمهورية التشيك الحالية- وسيليزيا -في بولندا الحالية- تتبع في الحقيقة لعرش هنغاريا -وهو خارج الإمبراطورية- وغير ذلك الكثير. لقد كانت هذه فوضى رهيبة، ولكن الناس كانوا يقبلون بها كوضع طبيعي. ولما كان على شارلكان أن يحكم أيضًا إسبانيا وممتلكاتها الهائلة خارج أوربا فلم يكن ثمة أمل في السيطرة الحقيقية على الأمور.

كان بعض الألمان يعيشون خارج حدود الإمبراطورية، في مملكة بروسيا مثلاً؛ أما على ساحل بحر البلطيق فكانوا مختلطين بالسويديين والبولنديين. وعلى الطرف الآخر من البحر كانت السويد مملكة مستقلّة تضم فنلندا الحالية، وكانت الدنمرك والنروج تحت حاكم واحد. وإذا عدت إلى القارة نفسها وجدت أن مملكة ليتوانيا الكبيرة كانت تمتد في غير انتظام مغطّية جزءًا كبيرًا من بولندا الحالية وأوكرانيا وغَليسيا -الواقعة بينهما- أما روسيا إلى الشرق منها فكانت في طور التوسُّع، ولكنها لم تكن تغطي بعد إلا النصف الشمالي من روسيا الحاليَّة إلى الغرب من جبال الأورال، ولم يكن قيصرها يعتبر واحدًا من حكام أوربا. وأخيرًا تجد في أوربا الوسطى مملكة مسيحية مستقلة وكبيرة أخرى هي هنغاريا، الواقعة بين الإمبراطورية والعثمانيين في وادي الدانوب، وكانت بعض أراضيها داخل حدود الإمبراطورية وبعضها خارجها.

اتجاهات جديدة في الحكم

إن الرجال والنساء الذين كانوا يحكمون الوحدات السياسية التي تشكّل هذه الفسيفساء المتنوّعة من الممالك والأملاك والأمم في القرن السادس عشر لم يكونوا يعتبرون أنهم يأتون بشيء جديد، وكثيرًا ما كانوا يتصرّفون بطرق تبدو لنا من أساليب العصور الوسطى، أو أننا على الأقل لا نتوقّعها من الحكام الحديثين. فقد ظلّ ملوك فرنسا ينطلقون لغزو إيطاليا تدفعهم روح الفروسية القديمة، بينما حضر ملك إنكلترا هنري الثامن في عام ١٥٢٠ إلى لقاء دبلوماسي باهر في منطقة فلاندر كان أشبه باحتفالات العصور الوسطى بما يتخللها من مسابقات ومبارزات بالسيوف. وكان الملوك يحاربون في أغلب الأحيان لمصلحة أسرتهم وليس لمصالح الشعب الذي يحكمونه. وإذا نزلت السلم الاجتماعي إلى مستوى النبلاء وجدتهم يدافعون عن أنفسهم عندما يشعرون أن الملوك يعتدون على استقلالهم وكرامتهم اللذين طالما تمتّعوا بهما بحكم العرف والعادة. أما الهيئات التمثيلية التي تعود للعصور الوسطى، ومنها البرلمان الإنكليزي، فكان أمامها هي أيضًا حياة طويلة بعد في بعض دول أوربا.

ولكن التغيُّرات السياسية الكبيرة كانت قادمة، فالترتيبات «الإقطاعية» القديمة التي كانت تحكم أوربا كلها -تقريبًا- لم تعد لها عندئذ أهمية كبيرة إلى الغرب من نهر الراين، وفي بعض البلاد إلى الشرق منه أيضًا. وكانت هذه العملية قد ابتدأت منذ زمن بعيد في العصور الوسطى، إذ إن المدن لم تكن يومًا جزءًا من المجتمع الإقطاعي، وقد نمت نموًا كبيرًا في الحجم والأهمية -منذ عام ١١٠٠- وازدادت أعداد التجار الذين يعيشون فيها، وكان هؤلاء متمتعين بالاستقلال كما كانت ثرواتهم أكبر من ثروات أكثر النبلاء. إن هذه الضغوط التي كانت تفعل فعلها في المجتمع التقليدي لم تغيِّره إلا بصورة بطيئة جدًا، كما أنها كانت عوامل معقّدة جدًا. ولكن

منذ عام ١٥٠٠ كانت الترتيبات «الإقطاعية» وحدها قاصرة عن وصف المجتمع، ولو أنها لم تكن قد زالت تمامًا -حتى في عام ١٨٠٠- من ناحية أخرى كان الملوك أيضًا قد ضاقوا ذرعًا بالأساليب القديمة رغم نزعتهم المحافظة القوية، وكانوا يرغبون في أن يحكموا رعاياهم – أي أن يفرضوا عليهم الضرائب – من دون أن يتدخَّل في ذلك أحد. فراحوا يستخدمون المحامين لابتكار طرق جديدة لتقويض الترتيبات القديمة، والجنود المحترفين لسحق أتباعهم إذا تمردوا، والموظفين المدنيين لضمان عمل الحكومة ولو عصاهم الوجهاء المحليُّون. وقد ضعف اهتمامهم بواجباتهم نحو الوجهاء الآخرين بمرور الزمن، فتراهم مثلاً يعاملون رأس الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة رغم مكانته النظرية مثل أي أمير آخر يعمل على تعزيز مصالح سلالته، أي كما كانوا يفعلون هم أنفسهم تمامًا.

إن تنافس الملوك -فيما بينهم- قد جعلهم يسعون لإحكام قبضتهم على أراضيهم، وزاد من توقهم لتحطيم العراقيل القديمة أمام سلطتهم. وقد ساعد هذا الأمر بالتدريج في نشوء مفهوم جديد احتاج الناس زمنًا طويلاً لكي يقبلوا به، هو مفهوم «السيادة». وجوهر مفهوم السيادة هذا، كما هي الحال اليوم، هو ألا توجد ضمن أرض معينة إلا سلطة واحدة لوضع القوانين. وقد بدأت هذه الفكرة بالانتشار في القرن السادس عشر. فكان يقال إنه لا يحق لأي إنسان، ولو كان الإمبراطور أو البابا نفسه، أن يتدخَّل بين الحاكم ذي السيادة وبين رعاياه، سواء كان ذلك الحاكم أميرًا بمفرده أو مجموعة من الأشخاص – مثل مجلس شيوخ البندقية. كما أنه لا يجوز أن تكون هناك قوانين غير التي يضعها الحاكم ذو السيادة. سوف يمر وقت طويل قبل أن تصبح هذه الفكرة مقبولة بصورة كاملة وفي كل مكان، وكان من الصعب على الناس أن يقبلوا بصلاحية الحاكم في أن يفعل أي

شيء ولو كان معارضًا لقوانين الله مثلاً، ولكن هذه الفكرة أضحت مقبولة في أكثر أنحاء أوربا في عام ١٨٠٠، ولو استمرت آثار قليلة من الأفكار الأقدم.

وهكذا كان الملوك والأمراء يزدادون قوة وسلطة، إلى أن نشأ أخيرًا ما يسمى بالملكية «المطلقة»، وكان أول مثال كبير عليها هو إسبانيا. كان شارلكان قد خلف لابنه فيليب الثاني الجزء الإسباني من أراضي الهابسبرغ عندما تخلّى عن العرش في عام ١٥٥٦، وكان الحكم على عهد هذا الأخير نظريًا على الأقل حكمًا مركزيًا إلى درجة عجيبة، فكان كل قرار هام -تقريبًا- يحسم من قبل الملك نفسه. كان فيليب قد ابتنى لنفسه بناء هائلاً هو عبارة عن قصر ودير يسمى قصر الإسكوريال بالقرب من مدريد، وقد تراكمت فيه الأوراق الرسمية إذ راح يحاول أن يدير إمبراطوريته العالمية بصورة شخصيَّة، وأن يراقب بنفسه كل شاردة وواردة. ولكن هذا الأمر كان حلمًا بعيد المنال، لأن الحكومات في القرن السادس عشر لم تكن تمتلك وسائل الاتصال ولا القوات اللازمة بحيث يستطيع مركز واحد أن يحكم أراضي تمتد من البيرو إلى البلاد الواطئة. إلا أن إسبانيا في عهد الهابسبرغ كانت -على كل حال- مثالاً بارزًا عن طموحات الملكية المطلقة في القرن السادس عشر، ولو أنها لم تنجح في تطبيقها عمليًا. ولقد كان من بين طموحاتها أيضًا هدف جديد، هو أن تضمن انتماء رعاياها إلى ديانة واحدة. وكان موضوع التماثل الديني هذا موضوعًا جديدًا لم يشغل بال الملوك في العصور الوسطى، ولكنه بات في عام ١٦٠٠ أمرًا يهم الحكومات في كافة أنحاء أوربا. والسبب وراء هذا التطوُّر هو الثورة الدينية الهامة جدًا التي حدثت في القرن السابق، وهي أبرز العلامات على ظهور أوربا الحديثة.

الكنائس

في عام ١٥٠٠ كانت هناك كنيسة واحدة تضم شمل أوربا وتعطيها هويَّتها المميَّزة لها، إلا أن هذه الحقيقة ما لبثت أن تبدَّلت -خلال خمسين عامًا- بفعل الانقلاب الكبير الذي سمي لاحقًا بالإصلاح البروتستنتي. ويمكننا أن نعتبر هذا التبدُّل نهاية العصور الوسطى وبداية حقبة جديدة في الحضارة الأوربية، كما سوف تكون له أيضًا أهمية بارزة في تاريخ العالم. لم يكن هذا الإصلاح متوقَّعاً، وهذه هي حال الكثير من التغيُّرات الكبرى، ولو علم الرجال الذين ابتدؤوه بشيء من نتائجه الأخيرة لروَّعتهم. لقد كان أولئك رجالاً ذوي عقليات من العصور الوسطى، ولكنهم حطَّموا تقليدًا قديمًا من احترام السلطة الدينية يعود إلى -ألف عام مضت- فقضوا بذلك على وحدة المسيحية التي كانوا يؤمنون بها إيمانًا عميقًا، كما خلقوا صراعات سياسيَّة جديدة، مع أنهم كانوا يظنون أنهم لا يهتمون إلا للأمور الروحية. ونستطيع اليوم أن نرى -أيضًا- أنهم كانوا يتخذون أولى الخطوات وأهمها نحو مزيد من حرية السلوك للفرد، ومزيد من التسامح مع الآراء المختلفة، ومزيد من الانفصال بين الناحيتين الدنيوية والدينية للحياة، ولو أنهم في الحقيقة لم يكونوا يرغبون بشيء من هذا أو حتى يتوقَّعونه. ولقد أطلقوا باختصار الشيء الكثير من التاريخ الحديث.

من الناحية النظرية، كانت أوربا كلُّها مسيحية منذ أن تم تنصير البرابرة في عصور الظلام. ولا تجد لهذه القاعدة إلا استثناءات قليلة في إسبانيا، حيث كان الملوك المسيحيون في عام ١٥٠٠ يحكمون عددًا هامًا من الرعايا غير المسيحيين،

كما كان هناك في بعض البلاد أعداد قليلة من اليهود يعيشون منفصلين عن المسيحيين في أحيائهم الخاصة -الغيتو- وكانوا خاضعين للضرائب وغير متمتعين عادة بنفس الحماية القانونية التي يتمتّع بها المسيحيون. فعدا عن هذه الحالات الخاصة كان جميع الأوربيين مسيحيين، بل إن أوربا والمسيحية كانتا كلمتين مترادفتين -تقريبًا- في العصور الوسطى. كان الدين هو الرابطة الوحيدة التي تجمع أوربا، وكان العالم المسيحي كيانًا واحدًا غير منقسم يجمعه معتقد واحد وأعمال الكنيسة، التي كانت المؤسّسة القانونية الوحيدة الشاملة للقارة برمتها. كانت قوانين الكنيسة سارية في جميع البلاد عن طريق محاكم قائمة إلى جانب النظام العلماني وبصورة منفصلة عنه، وكانت كل الجامعات تحت إدارة رجال الكنيسة وإشرافهم. وأخيرًا كان الناس في جميع البلاد يتلقّون نفس الأسرار المقدّسة، وكانت هذه تفرض عليهم نمطًا .واحدًا في الأحداث الكبرى التي يمرون بها خلال حياتهم من ولادة وزواج وموت.

المصلحون

بالرغم من مكانة الكنيسة التي لا ينازعها عليها أحد فإنها كانت دومًا عرضة للكثير من الانتقاد. ولم يكن هذا بالأمر الجديد، فالشرور التي كان الناس يستنكرونها في -بداية القرن السادس عشر- كانت موضع شجب وانتقاد -منذ العصور الوسطى- ومنها جهل رجال الدين وسوء استخدامهم لسلطتهم من أجل مكاسبهم الشخصية، وحياتهم المادية البعيدة عن الأمور الروحية. ولطالما هاجم هذه العلل رجال.الدين أنفسهم، ولطالما هزأ الكتّاب وسخروا من الكهنة الذين يفضلون الشراب وملاحقة الفتيات على الاهتمام بواجباتهم الروحية، فكانوا يقارنون بين

الكهنة الفقراء المخلصين لرعيتهم والمتفانين في خدمتها، وبين رؤسائهم الأثرياء المنغمسين في ملذات الحياة. إلا أن هذه الهجمات على رجال الدين لم تكن تعني أن الناس يرغبون بهجر الكنيسة نفسها، أو أنهم يشكّكون بجوهر الديانة المسيحية.

كان رجال الدين يحاولون -منذ زمن بعيد- أن يرتبوا أمور بيتهم. وبمرور القرن الخامس عشر صار بعض المنتقدين، ومنهم الكثير من الكهنة، يقولون بضرورة العودة إلى الكتاب المقدّس لكي يرشد الناس إلى الحياة المسيحية الصالحة، بما أن الكثيرين من رجال الدين قد انحرفوا عنها. كان هؤلاء يُتهمون عادة بالهرطقة، وكانت الكنيسة تمتلك أسلحة قوية لمعالجة أمرهم، ومنهم العالم ويكليف من جامعة أوكسفُرد والتشيكي جون هوس الذي أعدم حرقًا، وكانوا يتمتّعون بدعم شعبي قوي، ويعتمدون على الشعور القومي لدى مواطنيهم بأن البابوية مؤسّسة أجنبية غاشمة. كما أن بعض الهراطقة كانوا يعتمدون على استياء الناس من الظلم الاجتماعي، ولا ننس أن الكتاب المقدّس يتطرّق كثيرًا إلى هذا الموضوع. وقد طاردت السلطات منتقدي الكنيسة من أتباع ويكليف وهوس هذين وضايقتهم، ولكن لم يكونوا هم الذين قوّضوا الكنيسة.

لم تكن الكنيسة قد خسرت، بعد، شيئًا من قوتها وسلطتها القديمتين في عام ١٥٠٠، بالرغم من التزايد المفاجئ لانتقاداتها، بل استمرت بلعب دورها المحوري على كافة مستويات المجتمع، فكانت تشرف على الأحداث الأساسيّة في حياة الفرد من المهد إلى اللحد وتقولبها في أنماط مألوفة وثابتة. وكان الدين يتخلل الحياة اليومية إلى -حد بعيد- ويرتبط بها ارتباطًا لا تفصم عراه. ففي أكثر القرى والمدن الصغيرة مثلاً لم يكن ثمة بناء عام غير الكنيسة، فليس من الغريب إذًا أن يجتمع الناس

فيها لإدارة شؤونهم الجماعية، ولكن أيضًا للتسلية والاحتفال والرقص في أيام الأعياد.

ولم يكن تدخُّل رجال الدين في الشؤون الدنيوية مفيدًا دومًا للكنيسة، لأن الأساقفة الذين كانوا يلعبون دورًا بارزًا في شؤون حكامهم كانوا معرَّضين لخطر الانشغال عن العناية برعيتهم. فالكاردينال الكبير وُلسي، مثلاً، الذي كان رئيس أساقفة يورك ومحظيًا لدى ملك إنكلترا هنري الثامن، لم يزر أبرشيته إلا عندما أرسله إليها الملك مخزيًا بعد أن خسر حظوته لديه وسلطته. وكان البابوات أنفسهم شديدي الحرص على مكانتهم كحكام دنيويين. ولما كان العرش البابوي والإدارة البابوية -أيضًا- قد صارا بأيدي الإيطاليين فإن الأجانب قد شعروا بهذا الأمر بصورة أكثر حدَّة. وكانت الكنيسة تعاني -أيضًا منذ زمن طويل- من مشكلة أخرى، هي استلام الفرد الواحد لمناصب عديدة وقبض ما تقدِّمه له من رواتب من دون أن يقوم بواجباته نحوها، ويبدو أن الكنيسة قد عجزت عن معالجة هذه المشكلة. ومن أسبابها أن المال لم يكن كافيًا، بالرغم من الأبهة التي كان يعيش فيها الكثيرون من الأساقفة ورؤساء الأديرة، وبالرغم من الترف والبذخ في البلاط البابوي بروما - ويروى عن أحد البابوات أنه قال «بما أن الله قد أعطانا البابوية فلنستمتع بها»- فبسبب قلّة المال كانت الوظائف توزَّع على رجال الدين مكافأة لهم على خدمَاتهم. وسبب الفقر مصاعب أخرى أيضًا. لقد وصل البابا سيكستُس الرابع إلى درجة رهن التاج البابوي، ولم يكن من المألوف أن يبلغ البابوات هذا الحد، ولكن الشكاوى من استخدام السلطتين القانونية والروحيَّة من أجل زيادة مدخول البابوية كانت شكاوى قديمة، وكان سببها البعيد هو الحاجة لإيجاد مصادر جديدة للمال.

كان المال قليلاً في الأبرشيَّات أيضًا، فصار الكهنة أشد صرامة في جمع الضريبة التي تترتَّب على أبناء أبرشيتهم، وهي نسبة من منتجاتهم الزراعية تساوي عادة العشر أو ١٢/١. وقد أدى هذا إلى الاستياء والمقاومة بين الناس، فصار رجال الكنيسة يهددونهم بالحرمان من الأسرار المقدَّسة ما لم يدفعوا ما يترتب عليهم، وكان هذا تهديدًا خطيرًا في عصر يؤمن فيه الناس أنه قد يؤدي بهم إلى نار جهنم الأبديَّة. وأخيرًا كان الفقر من أسباب جهل رجال الدين، ولو أنه لم يكن السبب الوحيد؛ صحيح أن مستوى التعليم بينهم قد تحسَّن -منذ القرن الثاني عشر- خاصة بفضل الجامعات، إلا أن الكثيرين من الكهنة في عام ١٥٠٠ لم يكونوا أقلَّ جهلاً وإيمانًا بالخرافات من أبناء أبرشياتهم.

في هذه الأجواء بدأت البابوية بتشييد كاتدرائية جديدة كبيرة في روما، هي كاتدرائية القديس بطرس التي مازالت قائمة هناك، فكان عليها أن تجد طرقًا جديدة لجمع المال. من هذه الطرق أنها أرسلت أعدادًا أكبر من الباعة الجوالين الذين يبيعون صكوك الغفران. وكان هؤلاء وعاظًا يأخذون من الناس مساهمة مالية لبناء الكاتدرائية، ويعطونهم بالمقابل ضمانة من البابا باختصار المدَّة التي سوف يقضونها في المطهر، وهو المسكن الذي كان يعتقد أن النفس تتطهَّر فيه من أشرار العالم وخطاياه قبل أن تنتقل إلى السماء.

لوثر

كانت تلك هي الشرارة غير المتوقَّعة التي أشعلت الثورة الدينية. في عام ١٥١٧ كان الراهب الألماني مارتن لوثر قد قرَّر أن يحتج على صكوك الغفران وعلى عدد من ممارسات البابوية الأخرى. ولما كان عالمًا من الطراز القديم فقد سار على

التقليد السائد بأن علّق حججه المؤلّفة من خمسة وتسعين بندًا على باب كنيسة القلعة في مدينة ڤيتنبرغ للنقاش العلني، حيث أنه كان أستاذًا في جامعة تلك المدينة. وهنا بدأت حركة الإصلاح البروتستنتي. وسرعان ما ترجمت حججه من اللغة اللاتينية التي كتبها بها إلى اللغة الألمانية، فانتشرت في ألمانيا انتشار النار في الهشيم، وأمَّنت لها الطباعة جمهورًا أوسع مما حظيت به الانتقادات السابقة للبابوية. كان لوثر يساهم في صنع تاريخ العالم من دون أن يعلم، وكان يتمتَّع بالمزاج الملائم لهذه المهمَّة الكبرى. كان سكسونيًا وابن فلاح، كما كان رجلاً مندفعًا وانفعاليًا، وقد أصبح راهبًا في سن الحادية والعشرين بعد انقلاب نفسي عنيف سبَّبته صاعقة من البرق أصابته وهو يسير على الطريق العام. لقد غلب عليه -عندئذ- شعور بالهلع وبأنه إنسان مذنب وأنه لو مات من الصاعقة لما كان جديرًا إلا بالجحيم، وصار فجأة على يقين من أن الله يحبه وأنه سوف ينقذه. ويشبه هذا التحوُّل في سرعته وعنفه تحوُّل القديس بولس عندما كان في طريقه إلى دمشق. وعندما قدّم لوثر خدمة القداس للمرة الأولى حصلت له تجربة ثانية، فقد سيطرت عليه قناعة لا تقاوم بأنه غير جدير بأن يكون كاهنًا. وقد آمن -فيما بعد- بأن الشيطان قد ظهر له، بل إنه رماه بمحبرة كانت أمامه. ولكن طبيعة لوثر كانت -في الوقت نفسه- صلبة لا تلين إذا ما اقتنع بأنه على حق، وهذا ما يفسِّر تأثيره الكبير. وربما كانت ألمانيا بالأصل ناضجة لتقبُّل أفكار مثل أفكاره، ولكن لولاه لما سلكت حركة الإصلاح الطريق التي سلكتها.

كان هناك في ألمانيا حقد وضغينة شديدان ضد البابوية الإيطالية ينتظران أن يأتي أحد ليحركهما ويستغلّهما. وقد تحوَّل لوثر إلى الكتابة والوعظ بإرادة صلبة عندما حاول رئيس أساقفة ألمانيا في ماينـــز أن يسكته، كما تخلّى عنه زملاؤه

الرهبان. إلا أن جامعته وقفت إلى جانبه، وكذلك حاكم سكسونيا أي الولاية التي كان يعيش فيها. وفي النهاية قسَّمت كتاباته الألمان إلى فريقين، فريق صار يسمى باللوثريين -مع أن لوثر سمي في البداية هُوسيًّا، أي من أتباع هُوس(*)- وفريق المؤيدين للبابا والإمبراطور. وقد جاءه الدعم من رجال الدين المستهجنين لتعاليم رجال دين روما وممارساتهم، ولكن -أيضًا- من أناس بسطاء يحملون المظالم ضد جباة الضرائب ومحاكم الكنيسة، ومن أمراء جشعين طامعين بثروة الكنيسة، ومن أشخاص آخرين وقفوا إلى جانبه لسبب بسيط هو أن خصومهم التقليديين قد وقفوا ضده.

لقد وضع لوثر في النهاية آراءه بصورة مجموعة من العقائد اللاهوتية، أي بيانات حول الإيمان يجب على المسيحي أن يتمسَّك بها لكي يضمن أنه مسيحي حقًا وأنه سوف ينقذ من الجحيم بعد الموت. قال لوثر إن الكنيسة نفسها -وحتى الأسرار المقدَّسة- ليست حتمية من أجل الخلاص، وإن الإنسان يمكنه تحقيق الخلاص إذا هو آمن بيسوع المسيح. وكانت هذه التعاليم على درجة كبيرة من الأهمية، لأنها تعلّم أن الخلاص ممكن في المحصِّلة من دون الكنيسة، وبالاعتماد على علاقة الفرد الشخصيَّة بالله. ولقد قيل إن لوثر أزاح البابا عن عرشه ونصَّب محلّه الكتاب المقدَّس، أي كلمة الله التي يمكن لكل مؤمن أن يسترشد بها من دون الحاجة لوساطة الكنيسة. إن هذه النظرة التي تشدِّد تشديدًا كبيرًا على الضمير الفردي كانت نظرة ثورية، وليس من الغريب أن يكون لوثر قد حُرم من الكنيسة؛ إلا أنه استمر بالتعليم والوعظ وراح يكسب المزيد والمزيد من الدعم.

(*) يان هوس (١٣٧٠-١٤١٥): مصلح تشيكي. دانه مجمع كونستانس وأعدم حرقًا. انتشر مذهبه في بوهيميا ومورافيا، وتلاشى بعد ١٤٣٣. — المنجد في الأعلام.

البروتستنتية والإصلاح المضاد

إن الصراعات السياسيَّة التي أثارتها تعاليم لوثر بين حكام ألمانيا قد اندلعت بشكل سلسلة من الحروب والثورات. وبعد مرحلة طويلة من الاضطراب كان لا بد من الوصول إلى تسوية عامة، فعقد صلح أوغسبرغ في عام ١٥٥٥، أي بعد تسع سنوات من وفاة لوثر، واتفق فيه على أن تقسَّم ألمانيا بين الكاثوليك والبروتستنت -وكانت هذه الكلمة قد صارت مستخدمة بعد توقيع احتجاج Protestation ضد البابوية في عام ١٥٢٩- فكان حاكم كل دولة يقرّر الديانة التي تتبع لها ولايته. وبهذا أضيفت زمرة جديدة من الانقسامات إلى بلد كانت بالأصل مقسَّمة. وكان الإمبراطور شارلكان مضطرًا للقبول بهذا الترتيب لأنه الطريقة الوحيدة القادرة على تأمين السلام في ألمانيا، مع أنه كان قد كافح المصلحين. وللمرة الأولى اعترف الأمراء ورجال الكنيسة بوجود أكثر من مصدر واحد للسلطة الدينية، وبوجود أكثر من كنيسة رسمية واحدة ضمن المسيحية الغربية.

وكانت قد بدأت تطوّرات أخرى كان لوثر نفسه يستنكرها، هي تقسم البروتستنتية، إذ راح المزيد والمزيد من الناس يتّخذون لأنفسهم آراء خاصة في المسائل الدينية. وسرعان ما ظهر بروتستنتيون آخرون لا يشاركون لوثر آراءه، وكان أهمّهم الفرنسي جون كَلفين الذي ظهر في سويسرا. لقد انشق كَلفين عن الكاثوليكية وراح يُبَشِّر في ثلاثينيات القرن السادس عشر، وقد نجح نجاحًا كبيرًا في جنيف، كما أسس فيها دولة «ثيوقراطية»، أي أنها تحت حكم الأتقياء الورعين من أتباعه الكَلفينيين. كانت جنيف مكانًا شديد التزمُّتْ، وكانت الهرطقة تعاقب فيها بالموت، ولم يكن هذا بالأمر الغريب في تلك الأيام، ولكن جنيف كانت تتميَّز بأنها

تفرض عقوبة الموت،كما فعل كَلفِين، على الرجل الذي يذهب مع امرأة متزوِّجة أو المرأة التي تذهب مع رجل متزوج. إلا أن الكَلفينية نجحت نجاحًا كبيرًا أيضًا في فرنسا والبلاد الواطئة واسكتلندا، بينما لم تنتشر اللوثرية في البداية خارج ألمانيا التي ولدت فيها إلا في اسكنديناڤيا. وكانت النتيجة -على كل حال- مزيدًا من الانقسام، بحيث صارت هناك -الآن- أوربات ثلاث، اثنتان منها بروتستنتيتان وواحدة كاثوليكية، عدا عن.عدد من الطوائف البروتستنتية الصغيرة.

وسوف تلعب البروتستنتية دورًا هامًا في مستقبل إنكلترا أيضًا. كانت إنكلترا تعيشُ الكثير من الظروف المناهضة للبابوية التي رأيناها في بلاد أخرى. وكان فيها فوق هذا عامل شخصي جدًا، هو رغبة ملكها هنري الثامن بالتخلُّص من ملكته، لأنها لم تحمل له بابن يرث العرش من بعده. ولكن هنري كان في الحقيقة ابنًا مخلصًا للكنيسة، بل إنه كان قد كتب كتابًا ضد لوثر أكسبه استحسان البابا الذي سماه «حامي حمى الإيمان»، وهو لقب مازالت سليلته تحمله حتى اليوم. ولقد كان من الممكن جدًا أن يتم له ما أراد عن طريق أن يلغي البابا زواجه من هذه الملكة، لولا أنها كانت عمة للإمبراطور شارلكان، الذي تحتاج الكنيسة إلى دعمه ضد الهراطقة الألمان. لهذا ما كانت الكنيسة لتساعده، فتخاصم هنري مع البابا وانشقت إنكلترا عن ولائها لروما واستولى الملك على أراضي الأديرة في إنكلترا. وكان بعض الإنكليز يرجون أن تصبح كنيسة إنكلترا لوثرية، ولكن هذا لم يحصل.

إن هذه النجاحات الكبيرة التي أحرزتها البروتستنتية قد أجبرت كنيسة روما على أن تبدِّل نفسها من نواح عديدة. وكان الكاثوليك يتمنَّون أن تعود الأمور إلى سابق عهدها، ولكنهم كانوا يدركون أنهم باتوا -الآن- مضطرين للعيش بين

أشخاص مختلفين عنهم ويدعون أنهم هم أيضًا مسيحيون. لذلك صارت كاثوليكية روما أكثر تصلُّباً، أو يمكننا أن نقول إنها صارت أكثر انضباطًا وتنظيمًا، وهذا هو ما يسمى «بالإصلاح المضاد». وكانت هناك قوى عديدة ساهمت في هذه الحركة، ولكن أهمها كان المجمع المسكوني العام للكنيسة، الذي افتتح في مدينة ترانتو بشمال إيطاليا في عام ١٥٤٥ وظلّ يعقد جلساته حتى عام ١٥٦٣. لقد أعاد مجمع ترانتو تعريف جزء كبير من عقيدة الكنيسة، كما وضع تعاليم جديدة لتدريب الكهنة وثبّت سلطة البابا. وقد وجدت حركة الإصلاح المضاد نصيرًا بارزًا لها هو الإسباني إغناطيوس لويولا، الذي أسّس جماعة جديدة لخدمة البابوية هي جمعية يسوع أو «اليسوعيون». فقد أُقرَّت جمعية اليسوعيين في عام ١٥٤٠، وكانت مرتبطة بالبابا شخصيّاً بيمين خاص من الطاعة. وكان اليسوعيون يدرَّبون بعناية كبيرة بحيث يصبحون جيشًا مكوّنًا من نخبة المعلمين والمبشرين، وكان لويولا مهتمًا اهتمامًا خاصًا بتنصير البلاد الوثنية المكتشفة حديثًا. وكانوا أكثر رجال الدين تمثيلاً للروح المحاربة المتصلّبة المميِّزة لحركة الإصلاح المضاد. وكانت هذه الروح موافقة لمزاج لويولا، إذ إنه كان جنديّاً وكان يعتبر جمعيته تنظيمًا عسكريًا، والحقيقة أن اليسوعيين كانوا يسمون –أحيانًا– ميليشيا الكنيسة. ولم تكن جمعيتهم هذه هي السلاح الوحيد في الترسانة الجديدة للكنيسة، بل كانت هناك –أيضًا– محاكم التفتيش، وهي المؤسَّسة التي وضعت في العصور الوسطى لملاحقة الهرطقة ثم أصبحت محكمة الاستئناف الأخيرة في قضايا الهرطقة في عام ١٥٤٢، فضلاً عن قائمة الكتب الممنوعة والتي وضعت للمرة الأولى في عام ١٥٥٧.

الدين والحروب

لقد قسَّمت حركتا الإصلاح والإصلاح المضاد الأوربيين بصورة مريرة. ولم يتأثَّر العالم الأرثوذكسي في الشرق كثيرًا، إلا أن جميع أنحاء أوربا التي كانت كاثوليكية -في السابق- قد مرت بأكثر من قرن من الصراعات الدينية والصراعات السياسية التي سممها موضوع الدين. وقد نجحت بعض البلاد في اضطهاد أقلياتها حتى قضت على وجودها تمامًا، مثل إسبانيا وإلى -حد بعيد- إيطاليا أيضًا، فبقيت بذلك قلاعًا منيعة للإصلاح المضاد. وكان الحكام في العادة يتَّخذون القرارات بأنفسهم فيقبل رعاياهم بقرارهم. وقد يحاول الأجانب التدخُّل أحيانًا، ولكن إنكلترا البروتستنتية كانت محميَّة بفضل قنالها، فكان الخطر عليها أقل منه على ألمانيا وفرنسا. إلا أن الدين لم يكن السبب الوحيد لما سمي "بالحروب الدينيـــة" التي خرَّبت جزءًا كبيرًا من أوربـــا بين – عـــامي ١٥٥٠ و١٦٤٨- فقد كان هناك أحيانًا -كما هي الحال في فرنسا مثلاً- صراع على السلطة بين الأسر الأرستقراطية الكبيرة التي ارتبطت بهذا الحزب الديني أو ذاك. وكان المنتصر الأخير في فرنسا رجلاً من أسرة بروتستنتية هو الملك هنري الرابع، الذي تمكَّن من الوصول إلى العرش عن طريق اعتناق الكاثوليكية. وهكذا ظلَّت الملكية الفرنسية كاثوليكية، ولو أن الكثيرين من الهُغنوت -أي الفرنسيين البروتستنت- قد ظلَّوا يتمتَّعون بحقوق خاصة، كما سمح لهم بالاحتفاظ بمدن محصَّنة لحماية أنفسهم وحقوقهم.

كانت البلاد الواطئة تحت حكم إسبانيا، وقد نشبت فيها ثورة بدأها النبلاء المحليُّون الراغبون بمزيد من الحكم الذاتي، ثم تغيَّرت طبيعة تلك الثورة شيئًا فشيئًا

بتأثير الدين. وفي النهاية شعر الزعماءِ الأرستقراطيون في المقاطعات الجنوبية، أي بلجيكا الحاليَّة، أن من الأفضل لهم أن يظلّوا كاثوليكًا وتحت حكم إسبانيا. أما المقاطعات الشمالية، والتي تقابل -تقريبًا مملكة- الأراضي الواطئة -هولندا الحالية- فقد دخلت في حظيرة البروتستنتية، مع أنها كانت تحوي مجموعة سكّانية كاثوليكية كبيرة. وبعد صراع طويل يسميه الهولنديون «حرب الثمانين عامًا» ظهرت في أوربا دولة جديدة هي المقاطعات المتّحدة، التي كانت اتحادًا فدراليًا صغيرًا من الجمهوريات الصغيرة بقيادة هولندا، وكانت تطبّق مبدأ التسامح الديني. إن أبشع استغلال للدين من أجل الأهداف السياسية قد حدث في ألمانيا، فالصراعات الدينية التي سوّيت في أوغسبرغ عادت فاندلعت من جديد في القرن السابع عشر، عندما، حاول إمبراطور من أسرة هابسبرغ مشبع بمبادئ الإصلاح المضاد أن يدفع الكاثوليكية على حساب البروتستنتية. فنتجت عن ذلك «حرب الثلاثين عامًا» الفظيعة، التي استعرت نارها بصورة متقطّعة بين عامي ١٦١٨ و ١٦٤٨، والتي ضاعت فيها المسائل الدينية في خضم السياسة والمجازر. وقد تحالف في إحدى مراحلها كردينال فرنسي من كنيسة روما مع ملك السويد البروتستنتي من أجل أن يسحق مصالح أسرة هابسبرغ الكاثوليكية. وفي هذه الأثناء كانت الجيوش تذرع أنحاء ألمانيا مخلّفة البؤس والدمار في كل مكان وناشرة الأمراض والمجاعة. وقد فقدت بعض المناطق سكّانها، كما أن بعض المدن التي كانت مزدهرة قد اختفت تمامًا.

ولم يكن هناك بد من تسوية جديدة في النهاية، فكان صلح وستفاليا الذي أنهى الحرب في عام ١٦٤٨ وافتتح حقبة جديدة. لقد ظلّ موضوع الدين -حتى في

ذلك الحين- سببًا مشروعًا للاقتتال بين الدول، وعذرًا كافياً لكي يقتل الإنسان جاره أو يعذّبه إذا ما انحرف عن جادة الصواب، إلا أن رجال الدولة قد صاروا بالإجمال أكثر اهتمامًا بأمور أخرى في تعاملهم بعضهم مع بعض، وصار العالم أكثر تحضُّرًا بقليل -عندما- عادوا يهتمون بشؤون التجارة والأراضي وابتعدوا عن أمور الدين. وكانت أوربا -في ذلك الحين- أي في النصف الثاني من القرن السابع عشر، مقسَّمة إلى دول أكثرها لا تقبل رسميًا إلا ديانة واحدة هي الديانة السائدة فيها، ولكن بعضها كانت فيها درجة لا بأس بها من التسامح، خاصة إنكلترا والمقاطعات المتَّحدة.

عالم جديد من القوى العظمى

لقد تغيرت طبيعة الحكم في الدول الأوروبية رويداً رويداً في اتجاهات مختلفة، وسوف ننظر هنا في حالات ثلاث منها، هي فرنسا والمقاطعات المتّحدة وانكلترا. كان أنجح الحكام الأوربيين وأبرزهم قاطبة في تمثيل الملكية المركزية المطلقة هو لويس الرابع عشر، الذي حكم فرنسا -منذ عام ١٦٦٠ حتى عام ١٧١٥ كان قد ورث العرش منذ عام ١٦٤٣ وهو في الخامسة من عمره، فكان عليه أن ينتظر حتى يبلغ السن القانونية- وما إن استلم زمام الحكم حتى دفع ادعاءات الملكية إلى مراتب لم يبلغها أحد من معاصريه، فانتهت على عهده المتاعب التي كان يسبّبها النبلاء الفرنسيون، كما أنه صادر الميزات التي كسبها الهُغنوت -البروتستنت الفرنسيون- وقد مكّنته الضرائب العالية وكثرة الرجال النسبية في فرنسا من إكساب الجيش قوة لا سابق لها، ومن القيام بسلسلة ناجحة من الفتوحات، أقلّه خلال النصف الأول من حكمه.

أما في المقاطعات المتّحدة الهولندية وإنكلترا فقد سلكت التطوُّرات مناحي خاصة ومتميِّزة جدًا. لم يكن لدى الهولنديين قدر كبير من الحكم المركزي القوي، وكان هذا الأمر ضارًا بالبلاد، لأن المنافسات بين المقاطعات المختلفة كثيرًا ما عرقلت تعاونها -فيما بينها- من أجل مقاومة الضغوط الخارجية. وكان هذا الضعف ثمن الحرية الواسعة التي كانوا يتمتّعون بها، والتي لم يكن لها من مثيل في أي بلد آخر. كان جوهر هذه الحرية هو الدفاع عن استقلال مجموعات حاكمة صغيرة نسبيًا من المواطنين الأغنياء المسيطرين على الحكم في كل دولة، وأهمها تجار

أمستردام، عاصمة مقاطعة هولندا ومركز الحياة التجارية في البلاد. ولكن حرص الأغنياء على حماية حرية المقاطعات قد أمّن -في الوقت نفسه- الحرية للمواطن العادي أيضًا، لأن نظرتهم إلى الأمور كانت في العادة مشابهة لنظرة أكثرية رعاياهم، ولأن مصالحهم الاقتصادية كانت موافقة لمصالح المواطنين الأفقر - فالجميع كانوا يعانون مثلاً إذا ساءت الأشغال في أمستردام، وليس الأغنياء وحدهم — ولأنهم كانوا حريصين جدًا على حريتهم في المتاجرة وكسب المال. وقد نجحوا نجاحًا بارزًا خلال القرن السابع عشر، رغم اضطرارهم للصراع الشديد ضد لويس الرابع عشر -الذي كان يبغض اتجاهاتهم الجمهورية ولكنه يحب أزهار التوليب التي يزرعونها ويشتريها منهم بالملايين كل عام- إلا أن الهولنديين أضحوا في القرن الثامن عشر على عتبة مرحلة من التراجع والانحسار، وكان من أسبابها تلك الضغوط التي فرضتها عليهم أوضاعهم المذكورة، ولن يكونوا بعدها أبدًا قوة عالمية هامة كما كانوا في المئة سنة السابقة.

وأما قصة إنكلترا فهي قصة مختلفة كل الاختلاف. كان يلوح في البداية أن أسرة تيودر قد تبني لنفسها ملكية مركزية قوية مثل ملكيات أوربا، فقد كانت تقاليدها الملكية الوطنية هي الأقدم في أوربا، كما كان الشعور القومي في إنكلترا أكثر تطوُّرًا منه في البلاد الأخرى. والحقيقة أن هذا الأمر قد سهَّلَ على هنري الثامن أن يقوم بعملية تأميم الكنيسة في إنكلترا، بحيث اندمجت فيها البروتستنتية بالشعور القومي اندماجًا لا تجد مثيلاً له إلا في ألمانيا. إلا أن هنري قد اعتمد أيضًا في وضع القوانين الجديدة اللازمة على مؤسسة قديمة في إنكلترا، ألا وهي البرلمان؛ وسوف يكون لهذا الخيار أهمية كبيرة في المستقبل. ولم يكن البرلمان الإنكليزي وحيدًا من نوعه في أوربا، بل كانت هناك هيئات شبيهة في دول أخرى، ولكنها

انهارت جميعًا خلال القرون القليلة التالية أمام متطلّبات الملكية المطلقة، بينما راح هو يزداد قوة على قوة.

ومن سخرية القدر أن هذه التطوُّرات إنما تمت عن يد سلالة التيودر، التي ما كانت لتتمنى شيئًا من هذا القبيل. فعندما طلب هنري من البرلمان أن يقر القوانين المتعلقة بمصير الكنيسة، كان يعترف ضمنًا بأن للبرلمان حق التشريع في أمر على هذه الدرجة من الأهمية، ولهذا صار من الصعب جدًا على الملوك من بعده أن يتصرفوا في أمور تمس المصلحة الوطنية من دون دعم البرلمان. والعامل الآخر الذي لعب دوره في تدعيم سلطة البرلمان هو الشك والقلق المحيطان بموضوع الخلافة، إذ إن جميع أولاد هنري لم تكن لهم ذرية. إن حكم الملكة إليزابث الأولى يعتبر عصرًا عظيمًا، وقد كان عظيمًا بالفعل، إلا أن الملكة كانت تعيش في قلق وخوف دائمين من أن تفقد عرشها -ورأسها أيضًا، لذلك قطعت رأس منافستها ماري ملكة الاسكتلنديين- لقد كانت الأوضاع في أوربا ضدها، وكان ثمة أشخاص آخرون يدّعون الحق بالعرش وقد ينالون الدعم من الخارج، لذلك كانت إليزابث حريصة على ألا تعادي رعاياها، فمكّنتهم من أن يعبروا عن أنفسهم من خلال البرلمان الذي كان يقرُّ الضرائب. وشيئًا فشيئًا صار من الواضح أن الملكية لا يمكنها أن تفرض الضرائب من دون موافقة البرلمان على الأهداف التي تجبى تلك الضرائب من أجلها.

كانت الملكة إليزابث تتمتَّع بشعبية كبيرة، وكانت تسمى تحببًا Good Queen Bess، وكانت بارعة في التعامل مع الناس فاستطاعت أن تخفي الكثير من تلك المتاعب. أما خليفتاها، أي أول ملكين من سلالة ستيوارت، فلم يتمتَّعا بتلك المزايا، وكان جيمس الأول رجلاً اسكتلنديًا لا يحب الأساليب التي اعتاد عليها

الإنكليز على عهد التيودر أو لا يفهمها، وقد انهارت على عهديهما علاقات التاج بالبرلمان. ثم اندلعت في منتصف القرن السابع عشر حرب أهلية كبيرة بينت أخيرًا بصورة حاسمة أن إنكلترا لن تتطوّر نحو الحكم المطلق السائد في القارة -مع أنها مرت بفترة من الزمن أضحت فيها جمهورية تحت حكم رجل يتمتّع بسلطات دكتاتورية، هو "السيد الحامي" أوليفر كرومويل- وقد تثبّت انتصار الملكية الدستورية، أي المحدودة، في عام ١٦٨٨، عندما حصلت ثورة بيضاء -تقريبًا- هي "الثورة المجيدة"، فأزاحت عن العرش جيمس الثاني آخر ملوك الستيوارت، الذي كان يُعتقد أنه يحاول عكس التيار السائد -منذ قرن ونصف القرن- من أجل أن يعيد توطيد الكاثوليكية في إنكلترا.

بعد ذلك صارت إنكلترا تُحكم في الحقيقة من قبل ملاك الأراضي المهيمنين على البرلمان. وكما كانت مصالح الأغنياء الحاكمين في الجمهورية الهولندية موافقة لمصالح الكثيرين من الناس، كذلك كان حكام إنكلترا يرعون المصالح الوطنية بصورة جيدة. كانت الزراعة هي القطاع الأهم في إنكلترا، لذلك فإن ما يناسب صاحب الأرض والمزارع كان في العادة مناسبًا للبلاد أيضًا. كما أن مصالح الفئات الأخرى كالمصرفيين والتجار -مثلاً- لم تهمل؛ ومع أنهم كانوا يتذمرون من سياسات الحكومة إلا أنها كانت عادة تأخذ آرائهم بعين الاعتبار. وبالتدريج صار الإنكليز المتعلمون وغير المتعلمين على السواء يشعرون بوجود ارتباط طبيعي بين المزايا الجلية التي يتمتّعون بها، من حرية شخصية ومساواة أمام القانون وبروتستنتية وحماية من الملكية المطلقة من جهة، وبين نمو ثروات البلاد من جهة أخرى، ورغم حصول الكثير من النكسات بعد عام ١٦٦٠، فإن أكثر الإنكليز كانوا مرتاحين ومؤيدين للدستور ولفكرة الملكية المحدودة.

منذ القرن الثامن عشر كان الكثيرون من الأوربيين معجبين بإنكلترا، أولاً لأنها ليست ملكية استبدادية، بل خاضعة لحكم ممثلين منتخبين وأرستقراطيين - ولو أن أصحاب الأراضي كانوا هم الذين يختارون أولئك الممثلين. وثانيًا لأن الإنكليز كانوا يتمتَّعون بحريات أكبر بكثير في حياتهم الخاصة؛ فلم يكن من الشائع أن يسجن الأشخاص من دون محاكمة، ولا أن تدخل بيوتهم وتفتش من دون مذكّرة قاض. صحيح أن الطبقات كانت هامة جدًا في المجتمع الإنكليزي، ولكن النبلاء الكبار قد يمثلون للمحاكمة إذا ما ارتكبوا جرمًا، مثلهم مثل أي إنسان آخر. هذه الأشياء التي كان الأوربيون يستغربونها ويعجبون بها كان سببها هي أيضًا أن إنكلترا يحكمها أصحاب الأراضي الذين يعتقدون أن أفضل طريقة لحماية أنفسهم هي أن يدعموا امتيازاتهم بقوانين لا يمكن أن يغيرها إلا البرلمان. وهكذا صار الحكم الدستوري مرتبطًا بواحدة من القوى العظمى كحقيقة إيديولوجية في الحياة الدولية.

مواضيع جديدة في العلاقات الدولية

منذ القرن السابع عشر كانت مواضيع النـــزاع بين الدول الأوربية قد بدأت بالتغيُّر قليلاً. لقد كان جوهر الصراعات الكبيرة بين سلالة الهابسبرغ من جهة، وسلالتي الفالوا ثم البوربون في فرنسا من جهة أخرى، هو الهيمنة على إيطاليا ثم على ألمانيا. وقد زاد الدين الأمور تعقيدًا في الحالة الثانية، حيث صار الأمراء البروتستنتيون يتطلّعون إلى حماية فرنسا الكاثوليكية ضد أباطرة الهابسبرغ الكاثوليك. كما تداخلت هذه الصراعات كلها بالصراع بين الإنكليز والإسبان، الذي ازداد حدَّة بسبب الدين، والذي غذّته المنافسة بين الاثنين في العالم الجديد والخوف من سيطرة إسبانيا على الأراضي الواطئة، فضلاً عن الثورة الهولندية.

كانت هذه الصراعات في البداية إذًا صراعات بين السلالات ومقتصرة على القارة الأوربية، ولكنها اكتسبت -قبل عام ١٧٠٠- بعدًا جغرافيًا أوسع وبعدًا إيديولوجيًا جديدًا أيضًا. ويبدو -الآن- أن البعد الجغرافي كان ذا أهمية خاصة، لأن الحروب التي خيضت بين عامي ١٥٠٠ و ١٨٠٠ قد امتدت إلى كافة أنحاء الكرة الأرضية، وبلغت بقاعًا تبعد آلاف الأميال عن البلاد المتحاربة؛ وإن أكبر الحروب العالمية التي جرت في الأزمنة القديمة لتبدو ضئيلة جدًا بالقياس إلى نطاق هذه الحروب الجديدة. وكانت تلك أيضًا بداية عصر طويل، استمر على الأقل -حتى عام ١٩١٧- صارت فيه الصراعات بين الأوربيين ترسم مصائر الملايين من أبناء الشعوب السوداء والسمراء والصفراء التي لم تكن قد سمعت يومًا بباريس أو بلندن. ولا ريب أن بعض أسباب هذا التطور قد باتت الآن واضحة، مثل سيطرة الأوربيين المتزايدة على البحار، ونشاطهم الاقتصادي في كافة أنحاء العالم، والمزايا التقنية التي صاروا يتمتَّعون بها على غير الأوربيين. لقد مكّنتهم هذه الأمور من اختراع كيانات جديدة، هي الإمبراطوريات الممتدة عبر المحيطات والمعتمدة على الاتصالات البحرية، وكان من المحتَّم أن يؤدي هذا إلى صراعات بين تلك الأمم الأوربية الضارية في كل ركن من أركان الأرض.

تعود جذور هذه الصراعات بالدرجة الأولى إلى نمو التجارة، التي كانت كما قال وزير فرنسي للويس الرابع عشر «سبب نزاع دائم في الحرب وفي السلم بين أمم أوربا». فطوال -قرنين تقريبًا- راحت كل من إسبانيا والبرتغال والمقاطعات المتّحدة وإنكلترا وفرنسا ترسل سفنها وتبني حصونها من أجل الحفاظ على تجارتها مع البلاد التي استملكتها، أو مع الشعوب التي كانت أول من تاجر معها من بين أهل أوربا. وإن سواحل هذه البلاد الأوربية قد منحتها مصائر مختلفة عن مصائر

دول أوربا الوسطى البعيدة عن البحر وعن دول حوض المتوسط. وكان العالم الجديد في الأمريكتين هو المسرح الأساسي للمنافسات -فيما بينها- إلا أنه لم يكن بالمسرح الوحيد.

إمبراطوريات المحيطات

كان البرتغاليون والإسبان أول من بدأ ببناء الإمبراطوريات عبر المحيطات، وقد اتفقوا -فيما بينهم- على اقتسام كل أرض جديدة يكتشفونها في أي بقعة من بقاع العالم من دون أن يستشيروا أحدًا، ولو أن البابا قد سمح لهم -فيما بعد- بضم أي أرض ليست ملكًا لأمير مسيحي. وقد عقدوا في عام ١٤٩٤ اتفاقية رسمت خطًا شماليًا جنوبيًا على بعد ٣٧٠ فرسخًا إلى الغرب من جزر الآزور الواقعة في المحيط الأطلسي -وكان الفرسخ يساوي عادة حوالى خمسة كيلومترات- ونصّت على أن كل ما يقع إلى الغرب من هذا الخط سوف يكون لإسبانيا، وكل ما يقع إلى الشرق منه سوف يكون للبرتغال -وهكذا ضمت البرتغال إليها البرازيل لأنها واقعة على الطرف الشرقي، فكانت هي الجزء الوحيد الذي استملكته من العالم الجديد- ثم عقدوا في عام ١٥٢٩ اتفاقية ثانية رسمت خطًا جديدًا يقع على بعد ٢٩٧,٥ فرسخًا إلى الشرق من جزر ملوك البرتغالية -في إندونيسيا الحالية- وأعطت جميع الأراضي الواقعة على طرف المحيط الهادي من هذا الخط لإسبانيا، وجميع الأراضي الواقعة إلى الغرب منه للبرتغال -ما عدا جزر الفلبين التي احتفظت بها إسبانيا- فكانت النتيجة الإجمالية لهاتين الاتفاقيتين أن العالم الجديد المؤلّف من الأمريكتين قد صار لإسبانيا، بينما آلت الهند والمحيط الهندي وجزر التوابل إلى البرتغال. ويعكس هذان العالمان إلى حد ما نوعين مختلفين من التوسُّع الإمبراطوري،

فقد اتخذ الأوربيون أمريكا -منذ البداية- أرضًا للاستيطان، مع اهتمامهم بالمتاجرة معها وبمنتوجاتها الفريدة، بينما كانت إمبراطورية البرتغال بالدرجة الأولى إمبراطورية تجارية وليست استيطانية، باستثناء ساحل البرازيل.

واستمرت الأمور على هذه الصورة لزمن طويل، فكان الأوربيون يذهبون إلى الأمريكتين بأعداد متزايدة طوال قرون ثلاثة، ولكن قليلون منهم من استقروا في آسيا وإندونيسيا. وحتى الذين استقروا كانوا في العادة مزارعين أو مقيمين إقامة طويلة ولكنهم راغبون بالعودة إلى بلادهم ذات يوم بعد أن يجمعوا ثرواتهم. لهذا لم يكن صراع الأوربيين في الشرق الأقصى وفي الطرق الأفريقية المؤدية إليه صراعًا على الأراضي، بل على المرافئ والمحطات التي كانوا يتاجرون فيها مع أهل البلاد الأصليين، وكان لا بد لهم من احترام الحكام المحليين الذين سمحوا لهم بتأسيس محطاتهم تلك. ولم يكن التوسُّع الأوربي في آسيا في مراحله الأولى عادة عن طريق الغزو بل عن طريق الدبلوماسية والتفاوض.

كان الشرق في القرن السادس عشر خاضعًا لهيمنة البرتغاليين، وكان ملكهم قد منح نفسه لقبًا فخمًا هو «سيد الفتوحات والملاحة والتجارة في الحبشة وبلاد العرب وفارس والهند». وإلى الجنوب من جزر الرأس الأخضر -كابو فرده- كانوا يحتكرون التجارة حتى المحيط الهندي ومنه إلى جزر التوابل. فكانوا يحملون البضائع بين بلاد آسيا، مثل السجاد الفارسي إلى الهند، وكبش القرنفل من جزر ملوك إلى الصين، والقماش الهندي إلى سيام -تايلند- وقد تغلّبوا على منافسيهم العرب من قواعدهم عند مداخل البحر الأحمر والخليج الفارسي. وكان هذا كله يرتكز على قوتهم البحرية وعنايتهم الكبيرة بعلاقاتهم الدبلوماسية بالحكام المحليين، فوضعوا

بذلك نمطًا سار عليه الأوربيون في المحيط الهادي وآسيا طوال القرنين التاليين. إلا أن البرتغاليين فقدوا هيمنتهم هذه عند نهاية القرن السادس عشر عندما أزاحهم الهولنديون وأسَّسوا "شركة للهند الشرقية" في عام ١٦٠٢ بهدف الحلول محلَّهم في تجارة التوابل مع أوربا – وهي غنيمة ثمينة – وقد نجحوا في مسعاهم هذا بمهارة وقسوة كبيرتين. وما إن أزاحوا البرتغاليين حتى راحوا يقاتلون الإنكليز بشراسة لإبعادهم عن جزر التوابل، ونجحوا في هذا الأمر أيضًا نجاحًا كبيرًا، وهكذا كانوا في عام ١٧٠٠ قد بسطوا هيمنتهم على كافة إندونيسيا الحالية. في هذه الأثناء كان قد ظهر عدد من المحطات الإنكليزية المتفرقة حول سواحل الهند، تمتد من غُجرات حتى كلكُتا، بينما احتفظ البرتغاليون ببعض محطاتهم الأقدم في شبه القارة، وكان للفرنسيين والدنمركيين أيضًا مواطئ أقدام فيها.

ويمكنك ملاحظة الاهتمام المتزايد للأوربيين بشؤون الأراضي الواقعة خارج قارتهم من خلال محطات زمنية ثلاث. فإذا بدأت بمعاهدات السلام التي عقدت كما رأيت في ڤستفاليا في عام ١٦٤٨ لم تجد فيها كلمة واحدة عن الشؤون غير الأوربية. ولكن بعد أقل من ثلاثين سنة، أي في عام ١٦٦٧، كانت معاهدة بريدا بين الإنكليز والهولنديين والفرنسيين مهتمة بالشؤون خارج أوربا مثل اهتمامها بالشؤون داخلها، وكانت تلك نهاية الحرب الثانية من حروب بحرية ثلاث بين إنكلترا والمقاطعات المتحدة حول التجارة. وبعد –سبعين سنة من ذلك– أي في عام ١٧٣٩، خاضت المملكة المتَّحدة وإسبانيا حربًا حول مسألة لا علاقة لها بأوربا، هي «حرب أذن جنكنــز»، فكانت تلك أول حرب تنشب بين دولتين أوربيتين بسبب مسألة خارجية. ويمكننا اعتبارها خاتمة مرحلة ما برحت أهمية الشؤون

البعيدة فيها تنمو حتى أصبحت مساوية في نظر الدبلوماسيين لأهمية الشؤون الأوربية المألوفة. لقد حدثت حرب أذن جنكنـــز لأن البحارة الإنكليز كانوا يحاولون -منذ عقود عديدة- أن يخترقوا التجارة مع المستوطنات الإسبانية، وأن ينالوا منها أكثر مما يحق لهم بحسب المعاهدات المعقودة. فكانت أساطيل الإسبان تحاول القبض عليهم، وعندما تنجح في ذلك كانت تعاملهم معاملة قاسية -وهكذا فقد القبطان جنكنـــز أذنه على زعمه- وكان النـــزاع يدور حول غنيمة ثمينة، هي الحق ببيع البضائع لسكان الإمبراطورية الإسبانية. كان الإسبان يرغبون بالاحتفاظ باحتكارهم لتلك التجارة، ولكن حاجتهم لدعم مصالح الهابسبرغ في أوربا كانت دومًا تعيقهم عن إحراز هذه الغاية وتضطرُّهم لإبقاء قواهم مقسَّمة، فلم تكن إسبانيا قادرة على التخلّي عن إمبراطوريتها من المستوطنات لأنها معتمدة على مواردها، وفي الوقت نفسه، لم تكن قادرة على الحد من هدر ثرواتها في المشاكل المكلّفة التي كانت سلالة الهابسبرغ متورِّطة بها في أوربا.

التنافس بين الإمبراطوريتين الإنكليزية والفرنسية

لقد كانت أوضاع الإنكليز أفضل من الإسبان؛ صحيح أنهم كانوا متورطين في أوربا ولكن تورطهم لم يبلغ تلك الدرجة من العمق. ثم إن إنكلترا قد اتحدت باسكتلندا في عام ١٧٠٧، فأصبحت بذلك الجزيرة كلها دولة واحدة، ولم تعد تخشى أن تغزى عبر حدودها البرية. وكان مرسوم الوحدة في ذلك العام معلمًا هامًا لا من الناحية الدستورية، فقط، بل أيضًا لأنه مرحلة هامة في النـــزاع الطويل بين إنكلترا وفرنسا، الذي صار -الآن- متداخلاً بالمشاكل بين إنكلترا وإسبانيا. عندما حدثت «الثورة المجيدة» كما رأينا في عام ١٦٨٨ وأزاحت الملك جيمس الثاني عن

العرش، وهو كما ذكرنا آخر ملوك الستيوارت في إنكلترا، حلّ محلّه «ويليام الهولندي» -ويليام أُف أورانج- وزوجته الملكة ماري ستيوارت ابنة الملك السابق. فصارت إنكلترا -عندئذ- تساند الهولنديين ضد لويس الرابع عشر، بعد أن كان هؤلاء أعداءها اللدودين -منذ سنوات قليلة- فحسب.

ثم اندلعت بعد ذلك حروب عديدة كانت أهمها هي «حرب الخلافة الإسبانية». فقد مات ملك إسبانيا، وهو من سلالة هابسبرغ، في عام ١٧٠١ من دون أن يخلف وريثًا للعرش، وكان لكل من فرنسا والنمسا ادعاءات بتاج إسبانيا، وهو بلا ريب غنيمة كبرى. وكانت فرنسا مثل إسبانيا مضطّرة للقتال في أوربا كما في البحر، حيث كان لويس الرابع عشر في حالة حرب ضد تحالف ترأسه ملكية هابسبرغ. لقد انتهت حرب الخلافة الإسبانية في عام ١٧١٣ بصلح أوترخت الذي قسّم الخلافة الإسبانية، فأخذت أسرة هابسبرغ النمساوية الأراضي الواطئة، بينما سُمح لأمير فرنسي أن يصبح ملكًا على إسبانيا وإمبراطوريتها بشرط ألا يتّحد تاج إسبانيا بتاج فرنسا أبدًا.

في نفس الصلح كسبت المملكة المتّحدة الكثير من الجزر الكاريبية الفرنسية - وكانت قد بدأت بأخذها من منافسيها منذ خمسينيات القرن السابع عشر، عندما استولى رجال كرومويل على جمايكا من الإسبان- بالإضافة إلى جزء جديد من أمريكا الشمالية كئيب ولكنه هام استراتيجيًا هو آكاديا، التي سميت -الآن- نوفا سكوتيا -أي اسكتلندا الجديدة- كما كسب البريطانيون الحق بالمتاجرة مع المستوطنات الإسبانية عن طريق إرسال سفينة واحدة في العام إلى بورتو بلّو، فكان هذا تنازلاً سوف يستخدمونه مثل إسفين لفتح باب التجارة بصورة أوسع. وقد أدى هذا في عام ١٧٣٩ إلى «حرب أذن جنكنـــز»، التي سرعان ما تورّطت فيها

فرنسا وبروسيا من طرف والنمسا وبريطانيا من الطرف الآخر. وقد تحارب البريطانيون والفرنسيون في الهند، حيث كانت شركة الهند الشرقية الفرنسية في أربعينيات. القرن الثامن عشر تتدخّل في السياسة المحليّة تدخلاً حثيثًا من أجل أن تحاول التغلب على منافسيها والتفوق عليهم. وكان الفرنسيون قد وسّعوا نشاطاتهم كثيرًا في أمريكا الشمالية أيضًا، حيث أسّسوا مرافئ قرب مصب نهر المسيسيبي، وهو مدخل شبكة الأنهار الهائلة المسيطرة على وسط القارة. وكانت إحدى حملاتهم في بداية القرن الثامن عشر قد اندفعت ضمن هذه المنطقة من الجنوب، بينما نزلت إليها حملات أخرى آتية من منطقة البحيرات الكبرى في الشمال. فشعر المستوطنون البريطانيون المقيمون على الساحل الشرقي -عندئذ- أنهم باتوا بين فكي كماشة هائلة، وأن الفرنسيين يبغون أن يعزلوهم ويمنعوهم من الامتداد نحو الداخل، ولكن الفرنسيين لم يستقروا في الحقيقة في وادي المسيسيبي، ولم تكن لهم أراض ثابتة في الداخل. إلا أنهم على كل حال قد بنوا عددًا من الحصون في نقاط استراتيجية هامة، فكانت هذه بدايات مدن سوف تظهر في المستقبل، مثل سانت لويس في عام ١٦٨٢، وممفيس في العام نفسه، ودترويت في عام ١٧٠١، ونيو أورلينز في عام ١٧١٨، كما أنهم سلحوا الهنود وشجعوهم على محاربة البريطانيين، وكان من الواضح أنهم لن يتخلوا عن المناطق الداخلية من دون صراع.

ولم يتوقف الاقتتال في الهند وأمريكا قط رغم عقد صلح صوري جديد في أوروبا في عام ١٧٤٨. كانت إسبانيا قد أضحت الآن قوة ثانوية، وقد اندلعت في عام ١٧٥٦ حرب جديدة بين فرنسا وإنكلترا كان النزاع فيها يدور حول كل من الهند وكندا. وتسمى هذه الحرب «حرب السبع سنوات» -لأن الصلح عقد من جديد في عام ١٧٦٣- وقد حسم فيها مصير الهند وكندا، كما حسم- في

الوقت نفسه– مصير الأراضي التي كانت بروسيا –حليفة البريطانيين– والنمسا – حليفة الفرنسيين– تتنازعان عليها في ألمانيا. وبلغت الحرب ذروتها بالنسبة لبريطانيا على عهد حكومة كان يرأسها ويسيطر عليها ويليام بِت، الذي يحق له أن يقول إنه أول رجل دولة بريطاني ألم إلمامًا تامًا بإمكانيات السلطة الإمبراطورية. لقد قال بت في ألمانيا إنه يريد كسب كندا عن طريق حمل حلفائه على تطويق الفرنسيين فيها ومنعهم من التوسُّع، وقد نجح في ذلك بالفعل. وكان بعض الإنكليز يرجون أن يأتي الصلح أشد قسوة، ولكنه على كل حال قد ضم كندا إلى بريطانيا، كما جعل الهند آمنة لعمل شركة الهند الشرقية البريطانية. وصارت هناك سلسلة من الجزر البريطانية، أضيفت إليها –الآن– جزر جديدة، تطوِّق البحر الكاريبـــي بالكامل تقريبًا، الذي تكاثرت فيه المستوطنات البريطانية في جمايكا وهندوراس وساحل بليزه.

أوربتان

بينما كانت الخصومة في الغرب بين أوربا الكاثوليكية وأوربا البروتستنتية قد توسَّعت بسرعة إلى صراعات عالمية تعدَّت مجال السلالات ومصالحها، كانت مجموعة مختلفة وجديدة من العوامل قد دخلت في حسابات الدبلوماسيين في أوربا الشرقية. كانت أوربا الشرقيـــة منطقـــة شـــاسعـــة ليس لها شكل أو قوام واضح، وكانت -منذ قرون طويلة- ساحة اقتتال بين الشعوب التوتونية والشعوب السلافية، كما كانت -في الوقت نفسه- منطقة مجابهة بين ثقافات أجنبية عديدة، فكان العثمانيون يضغطون عليها من الجنوب، وكان ملوك السويد الراغبون بتوسيع أراضيهم إلى الجنوب من بحر البلطيق يتدخَّلون في شؤونها خلال القرن السابع عشر. ولكنها مرت بتطورات ثلاثة أعطتها بالتدريج طابعًا خاصًا ومميزًا لها. أول تلك التطوُّرات هو زيادة امتداد عبودية الأرض فيها، وترسخها في السهول الشمالية لشرق ألمانيا وبولندا وروسيا وفي وادي نهر الدانوب. وثانيها القضاء على المعالم السياسية القديمة التي تعود للعصور الوسطى، مثل جمعية فرسان التوتون ومملكتي بولندا وهنغاريا. أما ثالثها فهو بزوغ ثلاث من القوى العظمى المعتمدة على السلالات الملكية وهيمنتها على المنطقة، ألا وهي بروسيا الهوهنـــزولرن، والنمسا الهابسبرغ، وروسيا الرومانوف.

لم تكن بروسيا في عام ١٥٠٠ إلا دوقية صغيرة على بحر البلطيق خاضعة لملوك بولندا. وقد استولى عليها في القرن السادس عشر سلسلة من الحكام العسكريين من براندنبرغ، وهي إحدى الدول التي كان حكَّامها ينتخبون رأس الإمبراطورية الرومانية

المقدّسة، ثم راحوا يوسّعون أراضيهم بصورة مطّردة. وصارت هذه الدولة تعرف بأنها تحوي أفضل جيش في أوربا وأفضل خدمة مدنية فيها. لقد صدَّ حكامها السويديين في القرن السابع عشر، وعُرف أحدهم في القرن الثامن عشر بفردريك الكبير، الذي كان أول من تحدى هيمنة الهابسبرغ من بين الأمراء الألمان، وقد ابتدأ صراعًا مع النمسا استمر -حتى وقت متقدم من القرن التالي- ولو أنه كان صراعًا متقطعًا. أما النمسا، أو بالأصح ملكية هابسبرغ، فقد واجهت تحدّي الفرنسيين في إيطاليا أولاً، ثم تحدي الفرنسيين والپروسيين على التوالي في ألمانيا، وأخيرًا أبعدتها معاهدة أوترشت عن إسبانيا وإمبراطوريتها. لذلك حصرت طموحاتها بالتدريج بأوربا الوسطى والشرقية، وقد حازت على مكاسب كبيرة مع تفسُّخ بولندا وتراجع الإمبراطورية العثمانية. وأما روسيا فقد نالت هي الأخرى مكاسب كبيرة، وكان بزوغها هو التغيُّر الأهم من بين التغيُّرات التي طرأت على الشرق إطلاقًا، ولسوف تصبح في عام ١٨٠٠ أكبر قوة عسكرية في أوربا، وهو تطوُّر ما كان ليخطر ببال إنسان في عام ١٥٠٠.

لقد بقي قلب الإمبراطورية الروسية الجديدة هو إمارة موسكوڤيا القديمة، وكان أمراء موسكوڤيا حكامًا أوتوقراطيين مطلقين، ولقد سار الحكم في روسيا على تقاليدهم هذه وعلى تقاليد التتار، وليس على التقاليد الأكثر جمهورية في نوڤغورود مثلاً، وكان هذا الأمر على درجة كبيرة من الأهمية. كما انتقلت إلى موسكو بطريركية الكنيسة الأرثوذكسية، أي رئاستها، من موقعها القديم في ڤلاديمير، وألقت الكنيسة بوزنها في كفة أمراء موسكوڤيا.

يذكر القارئ أن إيڤان الثالث وخلفاءه قد ضمّوا أراضي شاسعة، وقد أضيفت إليها أراض جديدة في النصف الأول من القرن السابع عشر، خاصة في سيبيريا. ولقد بدَّلت هذه التوسُّعات الخريطة تبديلاً هائلاً، ولكنها لم تؤثر كثيرًا في

أوربا، لأن موسكوفيا كانت بعيدة جدًا وكان الاتصال بها ضئيلاً للغاية. ورغم تقاليد الحكم المطلق فيها فقد كانت في القرن السابع عشر في حالة من الفوضى، لأن الحكم المطلق بحاجة إلى حاكم قوي. لقد استلمت العرش في عام ١٦١٣ سلالة جديدة هي سلالة الرومانوف، إلا أن التحسينات التي أتت بها كانت بطيئة جدًا. ولكن في عام ١٦٨٢ ارتقى العرش حاكم فذ مصمم على توسيع إمبراطوريته فوق اتساعها، وعلى تبني أساليب أوربا الغربية، ألا وهو بطرس الكبير . مازالت أعظم الصروح التي خلفها هي مدينة سانت بطرسبرغ، التي أسَّسها في خليج فنلندا، والتي ظلَّت عاصمة روسيا- منذ عام ١٧١٥ حتى عام ١٩١٨- وكانت هذه المدينة رمزًا لعملية «التغريب» التي قام بها بطرس، أي تحديث بلاده عن طريق استعارة أفكار الغرب، إذ إنه كان أول المصلحين الاستبداديين الكثيرين الذين تطلَّعوا إلى الغرب بحثًا عن طرق للتغلب على تخلُّف بلادهم. كما أنه أحكم قبضة روسيا على ساحل البلطيق، وقضى على خطر السويديين الذين ظلُّوا يهددون البلاد طوال القرن السابع عشر، وانتزع منهم كلاً من لاتفيا وإستونيا وكاريليا. إلا أن نجاحه كان أقل بكثير مما كان يأمل، وقد عجز عن الاحتفاظ بآزوف، وهي أول منفَّذ لروسيا على البحر في الجنوب، إذ استردها العثمانيون بعد سنوات قليلة.

كانت روسيا في الداخل بلدًا محافظًا جدًا، وقد بقيت كذلك لزمن طويل. ورغم أهمية التجارة في الأيام العظيمة لكييف روس ونوفغورود فقد ظلَّت طبقة التجار فيها صغيرة وظلَّت مدنها قليلة. وكانت أكثر الحرف تمارس فيها على مستوى بسيط من قبل الفلاحين، وليس من قبل أشخاص مختصين كما في الغرب، وكان السواد الأعظم من سكانها فلاحين. وكانت التجارة المحليّة كثيرة، ولكنها تعتمد على المقايضة. وقد جرت بعض المحاولات المقصودة لتشجيع التصنيع، كما في عهد بطرس الكبير مثلاً، إلا أنها لم تغيّر المجتمع مثلما غيره قدوم الصناعة في أوربا

الغربية، و لم تعط طبقة «وسطى» جديدة – بين طبقتي النبلاء والفلاحين – مكوَّنة من التجار والمصنعين الأغنياء الساعين لتأمين مصالحهم الخاصة، بل بقيت الصناعة مرتبطة بالنظام الحاكم، فكانت الدولة هي التي تقرِّر أن تفتتح منجمًا أو تؤسِّس مصنعًا، وليس رجال الأعمال المستقلون؛ وقد جعل هذا الأمر روسيا مختلفة جدًا عن أوروبا الغربية. وربما كان الأمر الأكثر لفتًا للأنظار هو اعتماد روسيا الكبير على عبودية الأرض، حتى بالقياس إلى بقية أوروبا الشرقية، فمع اقتراب عام ١٨٠٠ كان العدد المطلق، أي الكلي، لعبيد الأرض في ازدياد مطَّرد، وكذلك نسبتهم إلى بقية أفراد المجتمع الروسي، وقد بلغت هذه النسبة في ذلك الحين حوالى الثلثين. وكانت السلطات القانونية التي بأيدي ملاك عبيد الأرض هؤلاء في ازدياد أيضًا.

لقد بلغ التباين بين أوروبا الشرقية وأوروبا الغربية أشد درجاته حدَّة في روسيا، بالرغم من الحياة المتغرِّبة السطحية التي كنت تراها في البلاط وبين الطبقة الأرستقراطية في العاصمة الجديدة بطرسبرغ، التي ابتناها بطرس على بحر البلطيق ومنحها لبلاده «نافذة على الغرب»، والتي لم تكن في الحقيقة بأكثر من ذلك. وبالرغم من قوة روسيا الكبيرة ومن محاولات بعض خلفاء بطرس لتحديثها في القرن الثامن عشر، فقد بقيت قلب منطقة هائلة تضم – أيضًا – جزءًا كبيرًا من ألمانيا الشرقية وأوروبا الوسطى وبولندا، تراكمت فيها قرون متطاولة من التجارب التاريخية التي أنتجت اقتصادات وحكومات وثقافات بعيدة كل البعد عن مقابلاتها في الغرب. وكانت روسيا نفسها بتقاليدها البيزنطية والتترية هي المثال الأقصى على ذلك، فهي لم تمر لا بحركة النهضة ولا بحركة الإصلاح البروتستنتي، وسوف تفوتها بعد تجارب تاريخية كبيرة جعلت الغرب يتباعد عنها أكثر فأكثر مع تسارع وتيرة التحديث – بعد عام ١٧٠٠– وكانت عبودية الأرض هي العلامة الدالة على هذا التباعد.

١٠

التاريخ العالمي في طور التشكُل

نظرات وقيم جديدة

لقد مهَّدت القرون الممتدة بين - عامي ١٥٠٠ و١٨٠٠ - الطريق لحدوث تغيُّرات شاملة وعنيفة ومتسارعة، فكانت بالتالي تمهيدًا لظهور العالم الحديث. وتعود تلك التغيُّرات جزئيًا لأفكار أوربا الحديثة. وكانت تلك الأفكار بالطبع مقتصرة على عدد قليل من الرجال والنساء الذين كانوا رواد الكتابة والأدب والعلم في عصرهم، وربما انحصر تأثيرهم في أيامهم بأعداد قليلة من الناس، بل ربما لم يسمع بهم إلا القليل منهم، لهذا لا يجوز أن نعتبر أفكارهم صورة لأفكار الناس بعامة. إننا نعيش اليوم في عصر بلغ فيه العلم مكانة عالية جدًا، ونراه يأتي كل يوم بمعجزات جديدة تشهد على قدرته على تغيير العالم، ومع هذا مازال الكثيرون منا يؤمنون بالخرافات، أو يتصرفون وكأنهم يؤمنون بها، فيصالبون أصابعهم مثلاً استجلابًا للحظ السعيد، أو يتجنبون السير تحت السلم بدافع التشاؤم، أو يقرؤون ما يكتبه المنجمون في الصحف من أجل التنبؤ بالمستقبل، أو يختارون يومًا «ميمونًا» لعقد زواج أو للقيام برحلة. لقد تغيَّرت أفكار الأوربيين إذًا تغيُّرات هامة، ثم تبعتها أفكار الشعوب الأخرى من بعدهم، فطرحوا زمرة قديمة من المعتقدات وتبنُّوا زمرة

حديدة منها، ولكن لا يجوز أن ننسى أن لهذا التغيُّر حدودًا أيضًا، كما نرى من هذه الخرافات.

في عام ١٨٠٠ كانت نظرة الأوربيين المتعلمين إلى الماضي قد تغيَّرت، وكان من تأثيرات النهضة أنها جعلتهم يهتمون بعقد المقارنات. فبدأ في القرن السابع عشر الجدال حول ما إذا كانت البشرية قد أتت بإنجازات أرقى في الأزمنة القديمة، وبمرور الزمن صار الجدال يدور حول ما إذا كانت حضارات أخرى قد بلغت ذرى أعلى من الحضارة الأوربية، خاصة الحضارة الصينية. وفي بداية القرن التاسع عشر بدأ الناس يشعرون أن العصور الوسطى كانت أغنى مما يصفها منتقدوها، وأنها لا تخلو من نواح جديرة بالإعجاب.

وكان هذا تطوُّرًا إيجابيًا من وجهة نظر المؤرخ، لأن الناس صاروا ينظرون إلى الماضي بعناية أكبر، ولو أنهم مازالوا بعيدين عن رؤية طبيعته الحقيقية. ثم كان هناك أيضًا تغيُّر آخر جديد يجري في - الوقت نفسه - وهو من أهم التغيُّرات التي حدثت في نظرة الأوربيين. فحوى هذا التغيُّر هي انتشار القناعة بينهم بأن البشرية تتقدَّم إلى الأمام، وأن التاريخ يدل على نمط من التطوُّر المستمر. فصاروا يعتقدون أنهم أكثر تطوُّرًا في الحضارة والذوق والمعرفة والعلم والفن من أي عصر قبلهم، بل صار بعضهم يعتقدون أيضًا أن أحفادهم سوف يكونون بدورهم أكثر منهم تقدُّمًا، أي أن العالم باختصار كان يتحسَّن بصورة مستمرة. وكان هذا تحوُّلاً هائلاً بالقياس إلى النظرات التي كانت سائدة في العصور الوسطى، والتي كانت تشدِّد على أن الأمور تسير من سيء إلى أسوأ، وأنه ما من سبيل لتغييرها.

تكمن بعض جذور هذه النظرة الجديدة في عملية إحياء الآداب الكلاسيكية التي ابتدأت قبل عام ١٤٠٠ وبلغت ذروتها في القرن السادس عشر، عندما راح

المعجبون بالآداب والفنون الكلاسيكية ينهلون من معين اليونان وروما ويرفعونها إلى أعلى المراتب. كان هؤلاء يسمون «إنسانيين»، وقد بدؤوا يشددون على قيم مأخوذة من العصور الكلاسيكية القديمة لاعلاقة لها بالمسيحية، بل قد تعارضها أحياناً. ولنأخذ مثالاً بسيطًا على ذلك تشديد المسيحية الكبير على إظهار الوداعة والتواضع، فهي تقول إنه إذا ضربك إنسان على خدك الأيمن فلتدر له الأيسر أيضًا، أما الإغريق والرومان فلم يكونوا يمتدحون هذا النوع من السلوك. فكان من تأثيرات إحياء الثقافة الكلاسيكية أنها أوحت لبعض الناس أن المعايير والقيم غير المسيحية قد تقدّم لهم أفكارًا جديدة، فساهمت بذلك في عملية الابتعاد عن الماضي، وفي إضعاف الأفكار التي ظلّت تضم الثقافة الأوربية لقرون عديدة، وأدت مثل حركة الإصلاح البروتستنتية إلى حضارة أكثر تنوُّعًا وأكثر علمانية.

ولكن لا يجوز كما قلنا أن نبالغ بتأثير هذه الأفكار في أيامها، فالإنسانيون الذين أعجبوا بالقيم الوثنية وقدّموها على القيم المسيحية كانوا أقليّة، بل أقليّة صغيرة جدًا، ضمن عالم الناس المعلمين، وكان هؤلاء بدورهم أقليّة صغيرة جدًا في أوربا. وكان أكثر الإنسانيين يجدون حبهم للثقافة الكلاسيكية منسجمًا كل الانسجام مع معتقداتهم المسيحية. وربما كان أشهرهم هو الهولندي إراسموس من مدينة روتردام، الذي كانت غايته الأساسيّة من إتقان معارفه هي أن يستخدمها لتقديم نصوص دقيقة من كتاب العهد الجديد وأعمال آباء الكنيسة.

قدوم الطباعة

لقد توفّرت للكتّاب الإنسانيين والدينيين على السواء - منذ القرن الخامس عشر - أداة جديدة لنشر أفكارهم، ألا وهي الطباعة. فقد اجتمعت في أوربا للمرة

الأولى الحروف المعدنية المتحركة والأحبار الزيتية والمطابع المحسَّنة، وكان البطل الحقيقي لهذا الإنجاز الكبير هو الألماني غوتنبرغ، الذي أدَّت به هذه المغامرة إلى الإفلاس. إلا أن إنجازه كانت له تأثيرات هائلة، فقد مكّن - مثلاً - من انتشار ترجمات إراسموس اليونانية للعهد الجديد إلى أعداد أكبر من الناس، وبسرعة أكبر — أيضًا - من أعمال الكتَّاب الذين سبقوه. لقد قدَّم لهم إراسموس نصًا أدق من أي نص قبله، وبالتالي أساسًا أفضل بكثير لمناقشة المعاني الحقيقية للعهد الجديد. ولم تكن أولى الكتب المطبوعة من الكتب الجديدة أو الجريئة، بل إن أكثر كتاب طبع في الأيام الأولى لهذا الاختراع هو الكتاب المقدَّس. وكان الناس يطلبون أيضًا غيره من الأعمال المعروفة لكبار علماء اللاهوت والمحامين، والنصوص المشهورة للكتَّاب القدامى، ولكن ليس الكتب الحديثة. ومع هذا كانت المطبعة ذات أهمية عظيمة في بث الأفكار الجديدة، خاصة الأفكار العلمية منها، بين الأعداد القليلة من الأفراد المهتمين بها.

لقد ساعدت الطباعة كثيرًا على انتشار المعرفة في أوربا. صحيح أن أكثر الأوربيين كانوا أميين - حتى في عام ١٨٠٠ - إلا أن معرفة القراءة والكتابة كانت أكثر شيوعًا بكثير بين الأغنياء مما كانت عليه قبل ثلاثمئة عام، وحتى غير القادرين على القراءة كانوا يأتون بمن يقرأ لهم الكتب بصوت عال. كانت تلك الكتب مكتوبة باللغات المحليَّة، وقد ظلَّ المثقفون يكتبون باللاتينية لزمن طويل لأنها كانت لغة العلوم في كل مكان، ولكن ظهرت - في الوقت نفسه - أعداد متزايدة من الكتب المنشورة باللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والإسبانية وغيرها من اللغات الأوربية. وكما ساعد اختراع الكتابة في غابر الزمان في «تثبيت» اللغة ضمن أنماط معينة، كذلك وحدَّت الطباعة التهجئة والمفردات على امتداد مناطق واسعة كانت تتميَّز - فيما بينها - سابقًا بلهجات وتعابير محليَّة. واكتسبت هذه

التغيرات زخمًا كبيرًا عندما صارت الطباعة تستخدم لأشياء غير الكتب، فظهرت النشرات والمطبوعات المصوَّرة والرسائل الإخبارية والكرَّاسات، وأخيرًا الصحف والمجلات الدورية، كل هذا قبل عام ١٨٠٠. وكانت أشكالها تختلف كثيرًا من مكان إلى آخر، فالإنكليز مثلاً نشروا أعدادًا غزيرة من الكرَّاسات السياسية في القرن السابع عشر، من أشهرها Areopagitica التي كان يصدرها ملتن، والتي كانت التماسًا كبيرًا لحرية الصحافة، بينما ظلَّت أعدادها أقل بكثير في فرنسا طوال - مئة عام أخرى تقريبًا - بسبب الرقابة. وكانت الصحف تصدر في ألمانيا - منذ القرن السابع عشر فما بعد - وبالإجمال صارت المواد المطبوعة في عام ١٨٠٠ أوفر بكثير مما كانت عليه قبل قرون ثلاثة، ويبدو أن المناقشات العلنية للأفكار والأحداث كانت تجري على وتيرة لا سابق لها، بصرف النظر عن مدى جودة تلك المناقشات.

مع اقتراب القرن الثامن عشر من نهايته، تعالت المطالبة بحرية أكبر للطباعة والنشر في بلاد غير إنكلترا والجمهورية الهولندية والمستوطنات الإنكليزية في أمريكا. وقد قال كاتب فرنسي مشهور إنه يدعم بكل قوة حق الناس في أن يعبِّروا عن آرائهم ولو اختلفت عن آرائه أشد الاختلاف. وكان هذا الكلام بمثابة المطالبة بوجود قانون يدعم حق الإنسان في طباعة أفكاره ونشرها. وسوف يناضل ذوو الأفكار المتحرِّرة من أجل هذا الهدف في بلاد كثيرة في القرن التاسع عشر، ثم في القرن العشرين من جديد بعد أن حسب بعضهم أنهم قد كسبوا المعركة.

الثورات العلمية

كانت الطباعة قد ساهمت في خلق مجتمع عالمي من الناس المثقّفين في عام ١٧٠٠، وكانت الاكتشافات والملاحظات العلمية تنشر في محاضر الجمعية الملكية في إنكلترا وغيرها من الأكاديميات الملكية في البلدان الأخرى. وهذا واحد من الأسباب التي تسمح لنا بالحديث عن حصول «ثورة علمية» بعد عام ١٥٠٠، ولو كان من الأفضل التأكيد على حدوث العديد من التغيُّرات الكبيرة المتميِّزة وغير المترابطة. كانت بعضها قد ابتدأت عن طريق الملاحظة، مثل اكتشاف فناني النهضة لقوانين المنظور، ووصف الأطباء لتشريح جسم الإنسان بالتفصيل، ومحاولات صانعي الخرائط لترتيب وتصنيف المعارف الجغرافية الجديدة التي أتت بفضل رحلات كبار المستكشفين. إلا أن البعض ذهبوا إلى أبعد من هذا.

من أهم الخطوات التي خطاها العلم مبتعدًا عن منهج العصور الوسطى تحري الحقائق عن طريق إجراء التجارب بصورة منظّمة ومنهجيّة. وكان من كبار دعاة هذا الأسلوب اللورد بيكُن، رئيس مجلس اللوردات في إنكلترا، ولو أن الناس في أيامه لم يعبؤوا كثيرًا بما كان يقوله. كان بيكُن رجلاً ذا اهتمامات واسعة، ويعتقد بعضهم أنه هو الذي كتب مسرحيات شكسبير، وهذا في الحقيقة أمر بعيد الاحتمال ولكنه يدل على مدى سمعته ومكانته. كان بيكُن واثقًا من أن البحث العلمي قادر على منح الإنسان سيطرة هائلة على الطبيعة إذا تم بصورة منهجيّة، وكان على حق في هذا. ويروى عنه أنه مات ضحيّة لمبادئه، إثر إصابته بالرشح في

يوم من أيام آذار (مارس) القارصة البرودة بينما كان يحشو طيرًا بالثلج لكي يكتشف تأثير التجمد على اللحم.

لقد قوي الشعور بقدرة التجارب على إعطاء المزيد من النتائج المثمرة مع تحسُّن أدوات الرصد العلمي، مثل التلسكوب والميكروسكوب (المجهر) وأدوات قياس الزمن الدقيقة، التي افتتحت كلها مجالات جديدة للتحرِّي العلمي. وإن تطوُّر بعض الأدوات قبل بعضها الآخر قد دفع تطوُّر العلم في مناح معينة بالطبع. فالكيمياء مثلاً لم تتطوَّر بقوة - حتى وقت متأخر من القرن الثامن عشر - وعلوم البيولوجيا لم تتخذ خطواتها الكبيرة الأولى إلا قرب نهاية القرن السابع عشر، بينما كانت الفيزياء وعلم الفلك والرياضيات قد بلغت قبلها مراحل هامة من التطور، وإن الإنجازات الكبيرة التي حققتها هذه العلوم الثلاثة قد غيَّرت نظرة الناس إلى العالم أكثر من أي شيء آخر قبل القرن التاسع عشر.

إن أول اسم يجب أن نتذكَّره هنا هو اسم الكاهن البولندي نيكولاس كوبرنيكُس، الذي أنهى في عام ١٥٤٣ كتابًا أهداه إلى البابا وقدَّم فيه وصفًا نظريًا لدوران الكواكب حول الشمس، بما فيها الأرض نفسها. كانت نظريَّات بطليمُس والنظرة السائدة - أيضًا - تشير إلى أن هذا الكلام هراء، لأن كل إنسان يعلم أن الشمس تشرق كل صباح وتغرب كل مساء، فمن الواضح إذًا أنها هي التي تدور حول الأرض. والحقيقة أن أحدًا لم يأبه في البداية لما قاله كوبرنيكُس، إذ لم يكن من الممكن التحقُّق من صحة هذه الفكرة الأساسيَّة في كتابه، عدا عن أنه كان يحوي أيضًا الكثير من الأفكار الخاطئة. واللافت أن رجال الكنيسة البروتستنت كانوا أسرع من الكاثوليك إلى إدانته، بينما لم يحظر الكاثوليك أفكاره رسميًّا - حتى عام ١٦١٦ - ولكن عندما ظهر التلسكوب في القرن السابع عشر صار بالإمكان

التحقق من نظريات كوبرنيكُس بصوابها وخطأها. وقد استخدم التلسكوب لهذه الغاية أستاذ إيطالي في الفيزياء والهندسة العسكرية هو غاليليو غاليلي. ولم يكتف غاليليو بتحرّي الحقائق بواسطة التلسكوب، بل إنه وضع أيضًا شرحًا لطريقة عمل هذا الكون، فأتى برياضيات جديدة لوصف حركة الأجسام وعلم السكون والديناميكا (الحركة)، معتمدًا على أعمال علماء أوكسفُرد في القرن الرابع عشر، الذين كانوا قد صاغوا أول قانون مرض في التسارع.

ونشر غاليليو في عام ١٦٣٢ كتابه «حوار حول النظامين الكبيرين للكون» -أي نظريات كوبرنيكُس وبطليمُس- فأحدث هذا الكتاب ضجَّة كبيرة. وقد أدى في النهاية إلى محاكمة غاليليو أمام محكمة التفتيش في روما، حيث تراجع عن أفكاره علنًا -وتقول الأسطورة إنه بينما كان يوافق على أن الشمس تدور حول الأرض كان يدمدم «ولكنها تتحرك»- إلا أن هذا القمع الرسمي لكتابه لم يكن ذا أهمية، لأن آراءه كانت قد انتشرت وصارت معروفة. ويعتبر كتابه هذا -منذ ذلك الحين- أول بيان صريح عن ثورة علمية، بصرف النظر عما قاله عندما كان تحت الضغط، لأن أفكار هذا الكتاب كانت نهاية النظرة إلى الكون التي تؤيدها الكنيسة والتي تعود بالأصل إلى أرسطو. لقد أثارت هذه الأفكار أسئلة واضحة حتى للشخص العادي: فما الذي حل بالسماء؟ وأين مكان الله في هذا المخطط الجديد؟ وفضلاً عن هذا كانت قضية غاليليو بمثابة إعلان عن حقيقة هامة، هي أن السلطة التي كانت تفرض آراءها على غيرها قد هزمتها حجج مبنيَّة على الملاحظة والاستنتاج المنطقي. لقد قدَّم غاليليو صورة للكون لم تكن الأرض - وبالتالي الإنسان - في مركزها، بل كانت مجرد واحد من أجرام مشابهة عديدة، كما أنه أشار إلى إمكانية وصف طريقة عملها من دون تفاسير غيبية أو دينية.

تأثير نيوتن

في نفس العام الذي مات فيه غاليليو، أي عام ١٦٤٢، ولد في لنكولنشر إسحق نيوتن، أعظم علماء القرن. إن أكثر إنجاز اشتهر به نيوتن هو تبيانه أن قوة واحدة، أي قوة الجاذبية، هي التي تحكم عالم المادة. كانت نظرية الجاذبية هي جوهر كتابه الشهير "الأسس الرياضية" الذي نشر في عام ١٦٨٧، والذي يقال إن عدد الذين فهموه فهمًا تامًا في أيامه كان ثلاثة أو أربعة أشخاص. لقد ضمَّ هذا الكتاب شرح عالمي السماء والأرض، أي علم الفلك وعلم الفيزياء، ورسم صورة للكون ظلّت كافية لأكثر أغراض الإنسان -طوال القرنين التاليين- وقد قام نيوتن بأعمال أخرى كثيرة، لأنه كان رجلاً ذا اهتمامات علمية واسعة جدًا ومتنوِّعة وذا ملكات فكرية بارزة، وكانت عبقريته جليَّة إلى درجة جعلت أستاذه في كيمبردج يتقاعد من كرسيه عندما كان تلميذه في السابعة والعشرين لكي يناله نيوتن. ومثلما كانت الحال مع غاليليو، غيَّر نيوتن نظرة الإنسان العادي إلى العالم بما قاله وبما أوحت به أقواله أيضًا. وبدأ يلوح للناس أخيرًا أن العلم قد يكشف جميع أسرار العالم -تقريبًا- وبدأت حفنة قليلة من الأفراد الجريئين تقول إنه إذا كان الأمر كذلك فما الحاجة إلى رجال الكنيسة لتفسير الأمور؟ بل ما الحاجة للحديث عن الله كجزء من هذا التفسير، لما كان العلم قادرًا على شرحها كلها عن طريق اكتشاف المزيد من القوانين الكبرى الناظمة لها؟ أما نيوتن فهو لم يكن يفكِّر بهذه الطريقة حتمًا، إذ إنه كان رجلاً شديد التديُّن.

لقد كثر الحديث عن أمثال هذه الأفكار في القرن الثامن عشر، بل إن بعض الناس صاروا يقولون إن العالم عبارة عن نظام مكتف بذاته تمامًا ومحتم بصورة آلية، وإنه يكفي أن نفسر ونفهم عالم المادة لكي نحيا حياة سعيدة. وللمرة الأولى أصبح

الإلحاد عقيدة محترمة، ولو في نظر عدد قليل جدًا من الناس. ولا يجوز أن ننسى أبدًا أن هؤلاء كانوا أقليَّة ضئيلة بين الأوربيين، الذين كانوا بدورهم أقلية في العالم. كانت الأغلبية الساحقة -حتى في ذلك الوقت- مازالت تؤمن بوجود عالم مرئي ما، وإله ما، وشكل ما من الحياة بعد الموت. إن جزءًا كبيرًا من وحشيَّة الحروب الدينية وشراستها في -القرنين السادس عشر والسابع عشر- يرجع إلى أن الناس كانوا يؤمنون بأنهم يدافعون عن أمور خطيرة جدًا، وأن الله قد يُنـــزِل عقابه بالبلد التي تسمح للهراطقة بإعاقة إرادة الله ومشيئته. وكان الناس يضايقون السحرة ويطاردونهم لأنهم يعتبرونهم سبب المآسي التي كانت تحلُّ بهم، وقد استمرت هذه النظرة إلى العالم بين عامة الناس. ولكن الأشخاص المعلمين على الأقل كانوا يدركون أن بعض المفكرين قد قطعوا مسافة طويلة على الطريق التي يشير إليها العلم. لهذا يحق أن نقول إن التطوُّرات العلمية في القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت ثورة في التفكير. ولم يعد المثقفون بعدها يكتفون بالتحديق في عجائب الطبيعة بذهول ورهبة، ولا بفكرة أن الله خلقها لأسباب خاصة به وعصيَّة على فهم البشر، بل راحوا يسعون لإيجاد طرق للتحكُّم بالطبيعة واستغلالها؛ ولسوف ينتشر هذا الموقف انتشارًا أوسع بكثير خلال القرن التالي.

التنوير

بمرور القرن الثامن عشر ازداد استخدام الكتّاب الأوربيين للكلمات التي تعني الأنوار والتنوير، فكان الفرنسيون يستعملون كلمة **Lumières** والألمان **Aufklärung** والإيطاليون **Illuminismo**، وقد تحوّلت هذه التعابير كلها في اللغة الإنكليزية إلى كلمة **Enlightenment** (التنوير). وكانت هذه الفكرة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالماضي، خاصة بحركة الإصلاح البروتستنتي التي حطّمت المفهوم القديم لعالم مسيحي واحد غير منقسم. وكان بعض المسيحيين يرون أن البشر يستطيعون بجهودهم نصرة قضية الحقيقة والتطوُّر الروحي. ومن المعالم الأخرى للتنوير إعادة اكتشاف الإنسانيين للماضي الكلاسيكي وما نتج عن ذلك من فورة في الفنون. ثم كانت هناك رحلات الاستكشاف وما بينته من خطأ الأفكار القديمة السائدة ومن الإنجازات الباهرة لبعض الشعوب خارج أوربا. لقد راح الكثيرون من المثقّفين في عصر التنوير في القرن الثامن عشر ينبذون بصورة واعية وصريحة قدرًا كبيرًا من الأفكار التي قبلها أجدادهم، وتم هذا الأمر في عالم تنتشر فيه معرفة القراءة والكتابة وتزداد الأعمال المطبوعة الرخيصة الثمن. وقد حدث واحد من أهم التغيُّرات الثقافية في التاريخ كله عندما بدأ الناس يقتنعون بأن انتشار المعرفة ليس أمرًا ضارًا، وهنا يكمن النجاح الأكبر للتنوير، إذ صار الناس يقبلون عند نهاية القرن الثامن عشر أن المزيد من المعرفة هو أمر مفيد للمجتمع، وكان هذا دليلاً على انتصار مفكّري عصر التنوير لأن انتشار المعرفة قد أصبح -عندئذ- موضع ثقة.

عقائد جديدة

ربما كان التنوير هو المرحلة الحاسمة في بزوغ مفهوم أساسي جديد في الثقافة الأوربية الحديثة، هو مفهوم التقدُّم. تعود الجذور البعيدة لهذه الفكرة إلى التقاليد اليهودية المسيحية التي ترى أن للتاريخ اتجاهًا وغاية معينين، ولكنها صارت في القرن الثامن عشر مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمبدأ قدرة الإنسان على التحكم بالعالم عن طريق إرادته وعقله. ويُستدل على هذا التطوُّر من بعض الأمور التي كانت تجري في بعض البلاد الأوربية. ولنأخذ مثالاً من الطب، مع أنه كان بدائيًا بل دون البدائي، ولم يكن الأطباء بقادرين على فعل شيء -تقريبًا- لشفاء الأمراض، إلا أن الإدارة والسياسة كانتا قد بدأتا بتحسين الصحة العامة ولو بشكل هامشي وفي حالات قليلة ومتفرِّقة. فكان الحجر الصحي على المهاجرين من مناطق مصابة بالطاعون قد ابتدأ -منذ القرن الرابع عشر- في إيطاليا، ثم تعمَّم في القرن الثامن عشر إلى حد إغلاق الحدود بوسائل عسكرية. وكانت أطولها هي حدود الهابسبرغ، التي كانت مزروعة بحراس يبعد الواحد منهم عن الآخر بمقدار المسافة التي تغطيها طلقة بندقياتهم، وممتدة على مدى أكثر من ألف وأربعمئة كيلو متر، وتنتشر على طولها محطات للحجر الصحي تتمُّ فيها عمليات الفحص والتطهير بواسطة الأبخرة. صحيح أن هذه الترتيبات كانت ضعيفة وأن أوربا الغربيَّة أصيبت بجائحة جديدة وكبيرة من الطاعون في عام ١٧٢٠ -وهي آخر جائحة هامة- إلا أن الأهمية العملية لهذه النجاحات عشية عصر النمو الهائل للمدن الأوربية كانت أهمية واضحة. وكان من الجلي -أيضًا- أنها حدثت بفضل حلول إدارية مقصودة لشيء كان يعتبر في السابق عقابًا من الله لا مردَّ له.

ربما كان المصدر الأهم لهذه الثقة الجديدة بطاقة البشر يكمن في العلم. لقد كان الإيمان بسلطة العلم إيمانًا دينيًا وإيديولوجيًا، وكان في البداية محصورًا بأشخاص

قلائل، ولكنه صار -الآن- عقيدة تشترك بها الملايين. ويمكننا أن نضيف هنا أيضًا أن العلم قد منح الأوربيين ميزة هائلة في استغلال موارد العالم، فكان بالتالي من أسباب تزايد هيمنتهم على العالم غير الغربي. لقد كانت العلوم الإسلامية والصينية والرياضيات الهندية في الماضي متطوِّرة جدًا، بينما كان العالم المسيحي يجهل العلم جهلاً تامًا ما عدا بعض النبذات القليلة الباقية من العصور القديمة. كما أن الإغريق خلَّفوا أفكارًا كثيرة أتت أكلها في -أزمنة لاحقة- وسجَّلوا الكثير من المعلومات القيمة، ولكنهم سجَّلوا أيضًا الكثير من الأفكار الخاطئة -تمامًا- ولم يتوصَّلوا إلى الأسلوب التجريبي. أما العلم -كما نعرفه اليوم- فإنما هو من صنع أوربا الحديثة، ولأسباب تاريخية وثقافية معقَّدة لم يظهر العلم الحديث إلا بعد أن استردت أوربا من المصادر الإسلامية والبيزنطية كل ما يلزمها من تراث العالم القديم.

كان العلم يعزِّز النظرة الإيجابية نحو العالم، وكان الكثيرون من العلماء يوفقون بين اكتشافاتهم ومعتقداتهم المسيحية بسهولة، لذلك شعر الناس شعورًا أكيدًا، ولو أنه مبهم بأن طبيعة الكون هي طبيعة خيرة؛ وبأن الله الخالق لا يمكن له أن ينوي الشر أو المعاناة لمخلوقاته، بل إن أعمال آلته الرائعة كانت تعتبر دليلاً على بصيرته وبعد نظره في تأمين خير تلك المخلوقات. وقد بقيت مشكلة الشر قائمة، ولكن لا بد أن يكون لها هي أيضًا حل ما؟ وبدأ البعض يفكِّرون أن الأفراد أيضًا يمكن تطويرهم إذا ما تأمَّن لهم حكم صالح ورشيد.

الثروة والرفاه

بدأ الإنكليز -خلال القرن الثامن عشر- باستخدام كلمة «تحسُّن» أو «تطوُّر» Improvement في الحديث عن نواح عديدة للمجتمع. وقد استخدمت هذه الكلمة في البداية للحديث عن الزراعة، ولكن سرعان ما صارت لها استخدامات أوسع بكثير، ومن أسباب ذلك أن الناس كانوا يرون علامات تشير إلى أن الحياة في بعض البلاد الأوربية كانت تتحسَّن، وأيضًا لأن أفكار التنوير أوحت للناس بأن النواحي الأخرى من الحياة، مثل معاملة الفقراء ومعاقبة المجرمين، سوف تتحسَّن بدورها. وكان هذا التحسُّن يرتكز على حقيقة أساسيَّة كثيرًا ما غابت عن أنظار الناس، هي أن ثروة المجتمع كانت تنمو بصورة مديدة ووئيدة. لقد كانت أوربا في عام ١٥٠٠ تعجُّ بالتجار، ولكن تجارتهم كانت بالإجمال تجارة محليَّة، أما في عام ١٨٠٠ فقد أصبحوا يديرون أشغالاً واسعة تمتد على نطاق العالم بأسره.

التجارة الدولية

كانت أولى المدن التجارية الكبرى في الغرب مدنًا إيطالية، فالبندقية وجنوى احتكرتا التجارة مع الشرق الأدنى، بينما امتدت تجارة مدن أخرى مثل بيزا وفلورنسا حتى صقلية والأسواق الزراعية الموسميَّة في شمال أوربا -منذ القرن الثاني عشر- وفي الشمال كانت مدن رابطة الهانزا الألمانية على بحر البلطيق تتاجر في القرون الوسطى مع روسيا واسكنديناڤيا. ولكن في القرن السادس عشر تفوَّقت

مدينة أنتورپ (في بلجيكا) على هذه المراكز الأولى من حيث ازدهارها، وكانت أنتورپ مركزًا كبيرًا للشحن والتصنيع يأتي إليها الصوف من إنكلترا والحبوب والأسماك والخشب من البلطيق لتنقلها إلى الأعداد المتزايدة من السكان في البلاد الواطئة وفلاندر وبيكارديا، وكانت هاتان المنطقتان الأخيرتان مركزين هامين لصناعة النسيج وبحاجة للصوف المستورد. وعندما تراجعت أنتورپ بدورها بسبب المنافسة الأجنبية وحكم إسبانيا حلّت محلّها أمستردام في الهيمنة على عالم التجارة والمال في القرن السابع عشر، إلى أن جاء أخيرًا دور المركز التجاري بلندن بعد عام ١٦٨٨.

لقد ربطت هذه المدن وغيرها خيوط شبكة تجارية ما برحت تزداد تعقيدًا وكثافة، فقبل عام ١٥٠٠ بزمن طويل كانت البندقية وجنوى ومدن كَتَلونيا قد ربطت أوربا عن طريق تجارة البحر والقوافل بآسيا والمحيط الهندي والخليج الفارسي، وأكثرها كانت تمُر أولاً عبر القسطنطينية. وقد انهار بعض هذه التجارة بعد زوال الإمبراطورية البيزنطية، ولكن سرعان ما راح ساحل شمال أفريقيا يقدِّم منتجات وحاجات وأسواقًا جديدة.

إلا أن التوسُّع الأساسي في التجارة بقي لزمن طويل ضمن أوربا، وبقيت الأسواق الموسميَّة التقليدية توجِّه التجارة في طرقها القديمة المألوفة. وكان النقل البحري أرخص من النقل البري، وإن أول من استغلّه استغلالاً حقيقيًا هم الهولنديون، ولهذا الأمر أسباب عديدة، فبلدهم واقعة على البحر، كما أنهم كانوا مضطرين لكسب المال عن طريق التجارة لكي يعيشوا، وكانت لديهم أعداد كبيرة من البحارة الذين تدرَّبوا على صيد السمك في بحر الشمال، وقد اخترعوا مركبًا

ممتازًا وسريعًا للشحن يتّسع لحمولة كبيرة ويمكن لطاقم صغير أن يتحكّم به. لقد بلغ ازدهار الهولنديين التجاري ذروته في القرن السابع عشر، وكان مبنيًا بالدرجة الأولى على جلب منتجات البلطيق إلى أوربا الغربية، وعلى بيع سمك الرِّنْكَة المملح والمخللّ، وهو سمك رائع من جنس السردين مازال واحدًا من ألذ ما تنتجه البلاد الواطئة.

كانت التطوّرات الأولى في أداء الأعمال التجارية محصورة بالتبادل ضمن أوربا، ومنها المصارف والبورصات، وابتكارات جديدة مثل كتاب الاعتماد والكمبيالة التي مكّنت من دفع الأموال من مكان إلى مكان آخر من دون حمل أكياس من الذهب والفضة. وبرزت بعض الأسر من مقرضي الأموال الذين تحوّلوا -فيما بعد- إلى أول المصرفين الدوليين، لأن الملوك ناسبهم أن يستخدموهم لدفع مصاريف جيوشهم العاملة في الخارج، أو لنقل القروض المجموعة في بلد ما من أجل استخدامها في بلد آخر. إذ كانت الجيوش الإسبانية في القرن السادس عشر تعمل في مناطق واسعة من إيطاليا واللورين والأراضي الواطئة، وكانت بحاجة للمال من أجل دفع رواتب الجنود وتزويدهم بالإمدادات وتأمين حركتهم، فخلق هذا كله مجالاً واسعًا لعمل المموّلين والتجار، وكان بحاجة لشبكات معقّدة من الوكلاء والمكاتب.

في القرن السادس عشر صعدت إلى خشبة المسرح أمريكا الإسبانية، إذ اكتشف منجم هائل للفضة في بوتوسي بالبيرو، وأتت منه كميات غزيرة من هذا المعدن جعلت من أمريكا المصدر الأساسي للنقود في أوربا -حتى القرن التاسع عشر- وقد نشطت التجارة بسبب ازدياد كمية المال المتداولة، ولكن حدثت -في الوقت نفسه- ظاهرة كان الناس قد نسوها -منذ القرون الأخيرة للإمبراطورية

الرومانية- هي ظاهرة التضخم، التي رأى الناس تفسيرًا سهلاً لها في تلك الكميات الكبيرة من الفضة التي وفدت إليهم. لقد ارتفعت الأسعار في أوربا حوالى ٤٠٠ بالمئة -خلال القرن السادس عشر- ولكن العلماء حذرون في تعليل هذا الارتفاع، وإذا كان لا يصدمنا بالقياس إلى بعض معدَّلات التضخُّم الحديثة فقد كان في ذلك الزمان أمرًا مؤرِّقًا جدًا. وكانت أسعار الغذاء أكثر الأسعار تأثُّرًا، ويبدو أن الأجور الحقيقية للإنسان العامل العادي قد هبطت، أي أن مستوى المعيشة قد انخفض. وكان لهذا التضخم تأثيرات أخرى هامة أيضًا منها تشجيع التجارة، وقد كان الجو التجاري في القرن السادس عشر جوًا نشيطًا ولو أنه عرف أيضًا بعض الأزمنة العصيبة، وكان المستثمرون الحاذقون قادرين على جني مكاسب كبيرة.

تجارة الرق

إن من أكبر الأرباح التي تمت بين عامي ١٥٠٠ و ١٨٠٠ الأرباح الناتجة من بيع الإنسان لأفراد جنسه إلى أناس آخرين، أي تجارة الرق أو النخاسة. لقد كانت العبودية أساس الحياة الاقتصادية في العالم القديم، ورغم أن استرقاق المسيحيين قد زال في أوربا -تقريبًا خلال العصور الوسطى- فإن العالم الإسلامي كان يرتكز عليه. إلا أن الأوربيين عادوا بعد عام ١٥٠٠ إلى تجارة الرق على نطاق واسع ولكن بشعوب غير مسيحية، وقد بنوا تجارة هائلة عن طريق استغلال مصدر جديد هو الساحل الغربي لأفريقيا. كان البرتغاليون قد ابتدؤوا هذه التجارة الأوربية الجديدة هناك في القرن السابق، وبنوا حصونًا لاستخدامها كمراكز تجميع للعبيد الذين كان يلمهم الحكام المحليُّون، فبدأ العبيد يصلون إلى أوربا بأعداد ضئيلة سوف تتحول -فيما بعد- إلى فيضان هائل.

ولم يخطط أحد لهذا الأمر. لقد وصل أول عبد أسود إلى أمريكا في عام ١٥٠٢، عندما سُمح لحاكم هايتي الإسباني بأن يأخذ معه العبيد المولودين في إسبانيا. وبعد سنوات قليلة روَّعت معاملة الإسبان للهنود الكاهن الإسباني بارتولومه دو لاس كاسَس ترويعًا شديدًا، فاقترح أن يُسمح لكل مستوطن إسباني باستيراد اثني عشر عبدًا أسود، إذ كان عدد الإسبان قليلاً وغير كاف لأداء الأعمال واعتقد لاس كاسَس أن الأفارقة أقدر من الهنود على تحمُّل هذا المجهود الشاق. فسُمح بالتالي لأحد محظيي ملك إسبانيا -الذي أصبح فيما بعد الإمبراطور شارلكان- بأن يستورد ٤٠٠٠ أفريقي في العام إلى جزر الكاريبي ثم بيع هذا الامتياز إلى التجار الجنويين، وهكذا أصبحت تجارة العبيد تجارة دولية نتيجة لمحاولة حماية هنود أمريكا.

لقد توسَّعت تجارة الرق توسُّعًا هائلاً عندما تبينت إمكانية زراعة قصب السكر في كثير من جزر الكاريبي، وإن أفضل طريقة لزراعته هي على نطاق واسع في مزارع كبيرة تحتاج قدرًا هائلاً من المجهود البشري. ولما كانت اليد العاملة اللازمة لاستثمار العالم الجديد غير متوفِّرة في أوربا فقد عوَّضت أفريقيا عن هذا النقص. ومع ازدياد مكاسب تجارة العبيد هذه راح الآخرون ينضمون إلى البرتغاليين في جمع العبيد على ساحل أفريقيا. وسرعان ما بدأ الاقتتال على هذه التجارة، فراح الملاَّحون الإنكليز البارعون على عهد الملكة إليزابث يسعون لكسر هذا الاحتكار. أما الإسبان فلم تكن لهم قواعد خاصة بهم في غرب أفريقيا لذلك كانوا مضطرين للاعتماد على المورِّدين الأجانب.

وسرعان ما تجمَّعت في العديد من جزر الكاريبي أعداد كبيرة من العبيد السود، كما استورد البرتغاليون العبيد إلى مستوطنتهم في البرازيل، أما الأراضي

الإسبانية على البر الرئيسي فلم تستورد الكثير منهم. لقد باعت سفينة هولندية عبيدًا سودًا للمرة الأولى لمستوطنين بريطانيين -منذ عام ١٦١٩ في ڤرجينيا- وهي منطقة يزرع فيه التبغ لذلك كانت تستفيد من عمل العبيد. ثم بدأت مزارع القطن والأرز في كارولاينا الشمالية وكارولاينا الجنوبية باستخدام العبيد الأفارقة أيضًا -ومنذ ذلك الحين- بنى أمريكيو البر الرئيسي للقارة الشمالية سوقًا للعبيد وتجارة لتزويدها بهم -أيضًا- ظلّتا تنموان باطراد -حتى أواخر القرن الثامن عشر- كان عدد المحطات التجارية العاملة بالنخاسة على الساحل الغربي لأفريقيا قد بلغ -عندئذ- حوالى أربعين محطة، من هولندية وبريطانية وبرتغالية وفرنسية ودنمركية. وكانت تلك تجارة هائلة، ولقد بلغ عدد السود المنقولين عبر المحيط الأطلسي ١٠٠,٠٠٠ شخص في -بعض سنوات القرن الثامن عشر- وكانت أعداد الذين غادروا أفريقيا أكبر بكثير من الذين وصلوا إلى الأمريكتين، لأن الأمراض واليأس والوحشية قد تقتل نصف حمولة السفينة قبل أن تصل إلى العالم الجديد، ولو كان من المستحيل أن نعرف أعدادهم بدقة.

التجارة عبر المحيطات

كانت تجارة العبيد إذًا مأساة كئيبة تشمئز لها النفس، ولكنها لم تكن إلا نمطًا واحدًا من بين أنماط تجارية جديدة وكثيرة تمتد عبر المحيطات. لقد بني رويدًا رويدًا نظام تجاري دولي جديد لم يعرف العالم مثل اتساعه من قبل، وقد بلغ زخمه في عام ١٧٠٠، فاستمر التوسُّع الإجمالي فيه بسرعة عجيبة، ولو أنه تعرَّض لنكسات قليلة في بعض الأماكن، وراحت التجارة مع العالم غير الأوربي تلعب دورًا أكبر فأكبر في صنع ثروة أوربا. كانت التجارة عبر المحيط الأطلسي مع مستوطنات الأوربيين وأراضيهم في أمريكا هي الجزء الأهم في هذه التجارة العالمية؛ وكانت

السفن تنطلق من المرافئ الأوربية على الأطلسي محمّلة ببضائع تبيعها لشراء العبيد على ساحل أفريقيا، ثم تأخذ السود من هناك إلى جزر الكاريبـــي، حيث تبيع من نجا منهم أثناء هذه الرحلة، ثم تحمّل السكر أو القهوة وتشحنها عائدة إلى أوربا أو إلى المستوطنات البريطانية في أمريكا الشمالية. وكانت هذه المستوطنات تصدِّر بضائع أخرى، مثل شراب الرَّمّ وصبغة النيلة والأرز والذرة إلى أوربا وإلى مستوطنات الكاريبـــي. وقد حاول الإسبان مثل الإنكليز والفرنسيين أن يستأثروا بتجارتهم مع مستوطناتهم لأنفسهم، ولكنهم لم ينجحوا في هذا، لأن تلك التجارة كانت تدرُّ أرباحًا هائلة لا بد من أن تجتذب إليها المهربين والمتطفلين.

كان المنتصرون الأخيرون في هذا الصراع على مكاسب التجارة العالمية هم البريطانيون. ومن أسباب ذلك أن الحكومة في لندن كانت أكثر إخلاصًا وعزمًا في دعم مصالح التجار والبحارة الإنكليز -والاسكتلنديين أيضًا بعد عام ١٧٠٧- من ملوك فرنسا في دعم مصالح رعاياهم. كان البلاط الفرنسي في فرساي دومًا أكثر اهتمامًا بأوربا منه بالبحار وما وراءها، وكان ملوك فرنسا حريصين على الغزو أو الاحتفاظ بأراضيهم في أوربا، و لم يهتموا كثيرًا بصيد السمك في نيوفَوندلَند أو بيع العبيد إلى جزر الهند الغربيَّة، أو استيراد السكر والقهوة. أما البريطانيون فكانوا أكثر وعيًا لأهمية هذه الأعمال وأرباحها الوافرة، فكان هذا واحدًا من العوامل التي جعلت البحرية الملكية تلعب ذاك الدور الهام في السياسة العالمية خلال القرن الثامن عشر.

كانت السياسة والتجارة تزدادان تداخلاً بصورة مستمرة، فكانت القوة البحرية ضمانة للوصول إلى مناطق أخرى من العالم وتأسيس المستوطنات فيها،

وكانت تستخدم أيضًا لفتح أسواق المستوطنات الإسبانية عنوة -وكان القراصنة قد اقتحموا تلك الأسواق بصورة غير شرعية منذ القرن السابق الذي كان أكبر عصور القرصنة- وكانت القوة البحرية أساسيَّة أيضًا خاصة في زمن الحرب من أجل حماية تجار بلادها. فكانت تستخدم لدعم الجهود الدبلوماسية عند التفاوض من أجل التوصُّل إلى شروط أفضل، كما في حالة الرسوم الجمركية التي تفرضها بلد ما على البضائع المستوردة مثلاً. وكان لهذه الأمور وزنها الكبير لدى بريطانيا أكثر من أي قوة أخرى، لأنها باتت بالتدريج أكثر الدول اعتمادًا على التجارة الخارجية في كسب المال، خاصة عن طريق استيراد بضائع المستوطنات ثم بيعها في أوربا أو في المستوطنات الأخرى.

ولم تكن التجارة مع آسيا هامة جدًا من حيث الحجم، أو القيمة ضمن هذه الصورة العالمية، ولكن كان لها سحرها الخاص، كما أنها كانت تؤمن مكاسب كبيرة للعاملين بها. وقد أسَّس كل من الهولنديين والإنكليز شركة خاصة بهم "للهند الشرقية" في بداية القرن السابع عشر، وكانت هاتان الشركتان تتمتَّعان بحقوق احتكارية للمتاجرة في الشرق الأقصى، ثم حذا الفرنسيون حذوهم -فيما بعد- وأصبحت هذه الشركات هي الوسائل الأساسيَّة للتنافس على التجارة في آسيا، ولكن نقطة ضعفها كانت أن الآسيويين ليسوا بحاجة لمصنوعات الأوربيين -فيما عدا بعض الابتكارات الميكانيكية القليلة- لهذا لم يكن ميزان تجارة الدول الأوربية لصالحها عادة في تعاملها مع الهند والصين وإندونيسيا، لأنهم لم يقدروا أن يبيعوهم بضائع أوربية كافية لتسديد ثمن ما كانوا يشترونه منهم، فكانوا مضطرين لدفع هذا الثمن فضة. ولقد كان هذا مثالاً آخر على ترابط أطراف العالم -فيما بينها- من دون تخطيط مسبق، إذ كان الإسبان يجلبون الفضة من العالم الجديد إلى أوربا حيث

تستخدم لتسديد ديون الملكية الإسبانية للمصرفيين، الذين يدفعونها بدورهم للتجار لشراء البضائع في آسيا. وبذلك كان تمويل التجارة في كانتون بالصين معتمدًا على مناجم الفضة في البيرو، وليس هذا بالطبع إلا جزءًا صغيرًا من القصة. إلا أن الخطوط الأساسية لما كان يجري خلال هذه القرون الثلاثة واضحة، فقد كانت التجارة العالمية في نمو متواصل، وإن أول جزء منها نما بسرعة هو تجارة الأطلسي، التي ما برحت تزداد ارتباطًا بالسياسة وبالقوة البحرية وتخضع خصوصًا لهيمنة الأوروبيين. ولم ترس أي سفينة ينك صينية أو دهو عربية في أي مرفأ أوربي أو أمريكي طوال هذه القرون، مع أن آلاف السفن الأوربية والأمريكية كانت تذهب إلى جزر ملوك في إندونيسيا وإلى الهند والخليج الفارسي والصين.

تنامي المعرفة

لقد ساعدت التجارة على امتداد الاكتشافات وتنامي المعرفة بجغرافية العالم. وفي عام ١٧٠٠ كانت أشكال القارات كلها قد عرفت ورسمت لها الخرائط، ما عدا أطراف شرق أوستراليا وشمال سيبيريا وأقصى شمال غربي أمريكا ومنطقة مضيق بيرنغ. وكانت هناك خرائط للعالم على درجة عالية من الدقة ولو بقيت فيها مناطق شاسعة مجهولة في أفريقيا وأوستراليا. وكان تطوُّر فن الملاحة يسمح بنقل المسافر إلى أي ساحل من سواحل العالم وأي مرفأ من مرافئه خلال ثلاثة أو أربعة أشهر إذا هو قبل بأخطار الغرق والعواصف والقرصنة والأمراض. وكان هذا تطوُّرًا كبيرًا بالقياس إلى ما كانت عليه الأوضاع قبل حوالى مئتي سنة، كما أنه كان يسير بوتيرة متسارعة لأن المعرفة بالجغرافية والتقنية كانت ذات طبيعة تراكمية، أي أنها كلما خطت خطوة إلى الأمام كلما سهّلت عليها الخطوة التالية، مع أن تقنيَّة الإبحار لم تتغيَّر تغيُّراً كبيرًا.

إن الرحلات الكبرى التي رسمت خريطة العالم للمرة الأولى وأتت بالقصص والروايات عن الأراضي المكتشفة -حديثًا- كانت هي المفتاح لكل ما أتى بعدها. في عام ١٤٩٨ أبحر سيباستيان كابوت من بريستُل في رحلته الثانية ليرسو على ساحل أمريكا الشمالية، وفي -العام نفسه- وصل ڤاسكو دا غاما إلى الهند. وفي العام التالي ١٤٩٩ بدأ أمريغو ڤسبوتشي باستكشاف ساحل أمريكا الجنوبية حتى وصل أخيرًا إلى جزر الفوكلَند جنوبًا. وفي عام ١٥٠٨ أبحر ملاح برتغالي ضمن الخليج الفارسي. وفي عام ١٥١٣ بدأ الأوربيون يتطلّعون للمرة الأولى نحو المحيط الهادي. ثم ابتدأت في عام ١٥١٩ أعظم رحلات المستكشفين الأوائل عندما انطلق البحارة البرتغالي ماجلان من إشبيلية، ثم دار في العام التالي حول طرف أمريكا الجنوبية عبر المضيق الذي مازال يحمل اسمه ليلج بذلك بمجاهل المحيط الهادي الشاسعة. وقد قتل ماجلان في جزر لادرون في عام ١٥٢١، ولكن إحدى سفنه تابعت مسيرها في جزر الفلبين وتيمور وعبرت المحيط الهندي، ثم دارت حول أفريقيا لتعود إلى إشبيلية. وهكذا كان قائدها الإسباني دل كانو أول قبطان يبحر حول العالم، وقد بينت رحلته هذه بصورة عملية أن جميع المحيطات مرتبطة -فيما بينها- فأثبت بذلك حقيقة كان الناس يعلمون أنها ممكنة نظريًا.

وبعد هذا راحت المعلومات تتراكم عن المحيط الهادي ومنطقته الواسعة. وفي -بداية القرن السابع عشر- كانت الكثير من جزره -حتى جزر نيوهبريد جنوبًا- قد اكتشفت. وفي عام ١٦١٦ بدأ الهولنديون باستكشاف سواحل أوستراليا، وفي عام ١٦٤٢ أبحر منهم الملاح تسمان قرب الجزيرة التي سوف تحمل اسمه فيما بعد (تسمانيا) في طريقه إلى نيو زيلندا، فبين بذلك أن أوستراليا ليست جزءًا من قارة أنتاركتيكا. وفي نهاية القرن التالي كانت رحلات بوغانفيل وكوك خصوصًا قد

عرَّفت الناس بجنوب المحيط الهادي وجزر جنوب شرقي آسيا. وكانت العلامة على ذلك هي إلقاء أول شحنة من المحكومين في أوستراليا في عام ١٧٨٨، ووصول المبشِّرين الأوائل إلى تاهيتي في عام ١٧٩٧.

أما المياه الشمالية فقد ظلَّت مجهولة لزمان أطول. في عام ١٥٥٣ وصلت سفينة إنكليزية إلى الموقع الذي أصبح -فيما بعد- مرفأ أركانجل الروسي، وعادت حاملة رسالة من القيصر إلى ماري تيودر. ثم قام الإنكليز بسلسلة من الرحلات ابتدأها فروبيشر في عام ١٥٧٦ باحثين بلا جدوى عن "ممر شمالي غربي" حول الأمريكتين إلى آسيا. وفي عام ١٥٩٤ انطلق البحار الهولندي العظيم بارنتس في الاتجاه المعاكس أي الاتجاه الشمالي الشرقي، مثلما فعل البحارة الإنكليز من قبله. وبينما كان في محاولته الثالثة لإيجاد طريق شرقي عبر القطب الشمالي بعد ثلاث سنوات مات بارنتس في أقاصي مجاهل نوفايا زمليا، والحقيقة أن أحدًا لم يتمكَّن من العبور بالاتجاه الشمالي الغربي بالسفينة حتى عام ١٩٠٥، بينما تمَّت أول رحلة شمالية شرقية كاملة إلى آسيا في عام ١٨٧٩.

الإسلام والعالم الغربي

بعد زمن طويل من سقوط القسطنطينية في عام ١٤٥٣ كان الملايين من الأوربيين يعيشون تحت حكم الإسلام. وملايين أكثر يعيشون في خطره والمفارقة أنه بينما كانت عملية استعادة إسبانيا قد اكتملت كان الإسلام يعاود تقدّمه في الشرق. ولكنه كان في -الوقت نفسه مقسّماً- فكانت فارس في بعض الأحيان في حالة حرب مع الأتراك والأباطرة المغول في الهند معًا، كما كانت الدول العربية تنازع الأتراك على السلطة في الغرب. إلا أن مخاوف الأوربيين كانت مخاوف طبيعية، إذ إنهم كانوا يواجهون الإسلام في أشد أطرافه حدة ومضاء، أي في تركيا العثمانية.

لقد انتزع العثمانيون من البندقية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الكثير مما بقي لها من ممتلكات، أي جزر إيونيا عند مدخل بحر الأدرياتيك في عام ١٤٧٩ وجزر بحر إيجة في خمسينيات وستينيات القرن السادس عشر وقبرص في عام ١٥٧١. كما أن ملكة إسبانيا وجدت نفسها مضطرة لقتالهم قتالاً شديدًا من أجل أن تحافظ على اتصالاتها بإيطاليا. بل إن الأتراك حازوا على مواطئ أقدام لهم في إيطاليا نفسها لزمن قصير، بينما كانوا ينتزعون من الإسبان ممتلكاتهم على ساحل شمال أفريقيا، أي قيرينا وطرابلس وتونس والجزائر. وكانوا قد اكتسحوا أيضًا صربيا والبوسنة والهرسك في أوربا نفسها، وفي عام ١٥٢٦ سحقوا الجيش الهنغاري في هزيمة مروّعة في معركة «حقل موهاكس» مازالت ذكراها يوماً أسود في تاريخ هذه الأمة. وبعد ثلاث سنوات حاصروا فيينا للمرة الأولى ولكن بلا جدوى. ثم توقف

تقدُّمهم ليعود فيتابع مسيرته، فاكتسحوا هنغاريا للمرة الثانية، وكانت هذه آخر مرة يطيحون فيها بمملكة مسيحية، وأخذوا بودوليا -أي أوكرانيا السفلى- من بولندا، وكريت من البنادقة. وأخيرًا حاصروا فيينا من جديد في عام ١٦٨٣، فكان ذاك أقصى حد بلغته قوتهم.

ولم تُبن الإمبراطورية العثمانية على حساب المسيحيين وحدهم، بل إن الأتراك قد بسطوا سيطرتهم على غيرهم من المسلمين أيضًا في شمال أفريقيا. وبحلول عام ١٥٢٠ كان جزء كبير من الحجاز وسورية وبلاد الرافدين العليا وكردستان قد صار بيدهم. ثم أضاف إليها السلطان سليمان القانوني -الذي لقبه الأوربيون بالعظيم- فتوحاته في بلاد الرافدين السفلى وجزء كبير من جورجيا وأرمينيا، كما وسَّع امتداد أراضيه ضمن شبه الجزيرة العربية أيضًا. وهكذا صارت الإمبراطورية العثمانية في عام ١٦٨٣ ممتدة من مضيق جبل طارق حتى الخليج الفارسي وبحر قزوين، وسوف تضم فوق هذا المزيد من الأراضي حتى بعد هذا التاريخ.

ولكن هذا التيار قد انعكس -الآن، فحتى أواخر القرن السابع عشر- لم يكن يهدد الأتراك خطر كبير من أوربا، إلا أن أوربا الغربيَّة قد سوت الآن نزاعاتها على الأراضي بصورة عامة في معاهدة أوترِخت، كما ظهرت ملكيتان شرقيتان جديدتان وكبريان هما ملكيتا بروسيا وروسيا، اللتان قلبتا موازين القوى ضد الأتراك قلبًا خطيرًا، ولو أن سلالة الهابسبرغ ظلّت مشغولة بمشاكلها في ألمانيا. والحقيقة أن سلطة العثمانيين كانت قد بدأت بالانحسار أمام النمساويين والروس -حتى قبل عام ١٧٠٠- فقد استُردت منهم هنغاريا، وسوف تتلوها ضربات أقسى، خاصة في عام ١٧٧٤ عندما انسحب الأتراك أمام الروس الذين سيطروا على التتار في شبه جزيرة القِرم، وقد كان لهذا التنازل أهميَّة رمزية، إذ كانت هذه أول مرة يتنازل فيها

الأتراك عن سلطتهم على شعب مسلم. وبحلول عام ١٨٠٠ كان الروس قد احتلوا جزءًا كبيرًا من الساحل الشمالي للبحر الأسود، وصارت حدودهم ممتدة على طول نهر الدنيستر، بينما كان النمساويون قد تقدَّموا إلى الدانوب. إلا أن الانهيار الأخير لسلطة العثمانيين سوف يستغرق بعد زمنًا طويلاً، وسوف يمتد -حتى عام ١٩١٨- ومازالت مشكلة تقسيم أراضي الإمبراطورية السابقة في الشرق الأوسط بانتظار التسوية، ومازالت الحروب على اقتسام التركة العثمانية جارية حتى يومنا هذا.

تعود بعض أسباب تراجع الإمبراطورية العثمانية هذا إلى ضعفها الداخلي، فبالرغم من امتدادها الهائل على الخريطة كانت سلطة العثمانيين تتفاوت كثيرًا من مكان إلى آخر. لقد كانت في حالة من النــزاع المستمر على بلاد الرافدين مع فارس، ولم تتمكَّن، قط، من السيطرة الحقيقية على بدو بلاد الرافدين وسورية. ولم تكن فيها إدارة مركزية جديرة بهذا الاسم، بل كانت الإمبراطورية العثمانية في أكثر المناطق عبارة عن ترتيبات بين الباشا، أي عامل السلطان، وبين الوجهاء المحليين حول طريقة جبي الضرائب. وقد منح هذا الأمر الباشوات سلطة واسعة، وصار بعضهم مع مرور الزمن أشبه بأمراء يتناقلون السلطة بالوراثة. ولهذا لم تكن الإمبراطورية قادرة، قط، على تعبئة مواردها، ولا كان بإمكانها الاعتماد على ولاء رعاياها من أجل التغلُّب على الانقسامات الكثيرة بين ولاياتها وشعوبها ودياناتها.

كانت «الدولة» العثمانية قد لُملمت -كيفما اتفق- من أجل محاربة الكفار، وكان تنظيمها بالأساس تنظيمًا عسكريًا، الغرض منه تأمين المجنَّدين والضرائب لدفع مرتَّبات الجنود، وكان هذا الأمر يتم بواسطة ترتيبات شبيهة بالترتيبات الإقطاعية في أوروبا الغربية. وكان الفساد يدب في هذه البنية في القرن السابع عشر، فكان عمال السلطان يضخمون سجلاَّت الجنود لكي يحصلوا على مرتَّبات تفوق عدد الرجال

الذين يمكنهم تقديمهم. وكانوا في ولاياتهم يسيئون استخدام سلطتهم في التجنيد وجبي الضرائب، و لم يكن هناك من إدارة مدنية لضبطهم. أما السلطان فكان مركز المكائد والمؤامرات، وكان المحظيون ونساء الحريم والقادة العسكريون والدينيون يسعون جميعًا للتأثير عليه. وكان على الوزير الأكبر، الذي يشغل المنصب الأساسي في الدولة، أن يكافح المحاولات الدائمة لتقويض سلطته ومكانته. كانت خيرة الأفواج العسكرية لدى الأتراك هي الإنكشارية، إلا أنها كانت بحلول عام ١٧٠٠ قد فسدت فسادًا مزريًا وصارت خطرًا على السلطان أكثر مما هي دعم له، وكثيرًا ما كانت تقوم بالعصيان أو الإضراب من أجل زيادة رواتبها. وأخيرًا كانت السلطة الحقيقية في كافة أنحاء المجتمع الإسلامي بيد الزعماء الدينيين، أي العلماء، الذين تحدّد مواقفهم تأييد الشعب للسلطة أو استياءه منها. وقد حصلت حوادث شغب كثيرة في القسطنطينية، منها ثورة عنيفة جدًا نشبت في عام ١٧٣٠ قيل إن البوسفور بقي من بعدها أيامًا عديدة مغطى بالجثث العائمة على وجه الماء.

كان التحديث ضئيلاً جدًا، وربما كان الإنجاز الناجح الوحيد هو ما جرى في البحرية في تسعينيات القرن السابع عشر من استخدام السفن الأوربية بدلاً من سفن القادس القديمة ذات المجاذيف، ولكن الحصول على البحارة المدرَّبين كان أصعب من الحصول على العبيد المجذِّفين، فاضطر العثمانيون -عندئذ- إلى توظيف الأوربيين في البحرية والجيش، وكان هذا من علامات انحلالهم في هذه المرحلة.

وكانت سلطة العثمانيين تتقوَّض ببطء على جبهة أخرى أيضًا -فعند بداية القرن السادس عشر- قامت سلالة جديدة بتثبيت أقدامها في فارس، هي السلالة الصفوية. وكان الصفويون من طائفة الشيعة، وهي شكل من الإسلام يعود إلى القرن السابع ومازال مستمرًا -منذ ذلك الحين- ومعارضًا للإسلام السني الرسمي.

وقد كانت عقائد الشيعة دومًا أوسع انتشارًا في العراق وفارس منها في سورية، وكانت لها تفرُّعات وملل كثيرة. ولكنها جميعًا ترفض سلطة الخلفاء الذين كانوا حكامهم. فعندما تأسَّست السلالة الصفوية في فارس كان من المحتَّم أن تتصارع مع جارها الخليفة العثماني، الذي يدّعي رئاسة المسلمين السنة.

في عام ١٥١٤ تحاربت فارس مع العثمانيين، وكان العثمانيون -طوال القرنين التاليين- مضطّرين للقتال على جبهتين، بينما كان الحكام الصفويون، خاصة الشاه البارز عباس الكبير، يبنون إمبراطورية فارسية جديدة ذات حضارة رفيعة وثروة وافرة. إلا أن الدولة الصفوية كانت دولة قاسية وغير متسامحة، وهي أيضًا كانت مضطّرة للقتال على جبهتين -أحيانًا- أي ضد الأباطرة المغول في الهند فضلاً عن السلاطنة العثمانيين. وأحيانًا كان دعاة التزمت الشيعي القديم يحرزون بعض النجاح في شكاواهم ضد الانحلال الأخلاقي، فقد ابتهج الزعماء الدينيون مثلاً على عهد شاه مغرم بالشراب -عند نهاية القرن السابع عشر- عندما حُطمت في العلن ٦٠,٠٠٠ زجاجة خمر مأخوذة من أقبية القصر. ولكن هذا التقشف وهذه الحميّة لم يكونا بقادرين على منع تراجع الصفويين، ففي عام ١٧٢٢ أطاح قائد أفغاني بآخر فرد من سلالتهم. ثم مرَّت بعد ذلك - بضع سنوات - من الاضطراب تلاها في عام ١٧٣٦ بروز رجل قوي جديد هو نادر شاه، الذي طرد الأفغان واسترد المقاطعات التي استولى عليها العثمانيون والروس، إلا أن هذه النهضة لم تكن في الحقيقة إلا نهضة عابرة.

أوربا شرقية جديدة

لقد تبدّلت خريطة أوربا الشرقية بين عامي ١٦٠٠ و١٨٠٠ بصورة كبيرة، وتم بعض هذا التبدُّل على حساب العثمانيين. وقد كانت إحدى الملكيات الثلاث المستفيدة من هذا قوى عظمى قبل أن تبدأ هذه التبدُّلات، ألا وهي ملكية هابسبرغ. أما الملكيتان الأخريان، أي روسيا وبروسيا، فلم تبزغا كقوتين عظميين إلا خلال هذين القرنين.

وكان تبدُّل روسيا هو التبدُّل الأبرز، إذ إنها وسَّعت أراضيها بصورة واسعة جدًا نحو الغرب والجنوب، وأصبحت قوة عسكرية عظمى ذات أهمية كبيرة في حسابات أوربا الدبلوماسية، وطوَّرت قوة صناعية بارزة بالنسبة إلى تلك الأيام، كما أنها انقطعت انقطاعًا كبيرًا عن تراثها الثقافي التقليدي والمنعزل، ولو أنه لم يكن انقطاعًا كاملاً. وكان هذا كله بالأساس نتيجة للأعمال السياسيَّة، وكانت الملكية هي مصدره ومحركه. وهكذا وضعت الملكية نمطًا -مازال مستمرًا حتى اليوم- هو تحديث روسيا ابتداء من الحكومة نحو الأسفل، أو من المركز نحو المحيط، فكان التحديث يفرض فرضًا بدلاً من أن ينمو بصورة عفوية.

وكان أول من طبع روسيا بطابع التحديث هو بطرس الأكبر، الذي ارتقى العرش في عام ١٦٨٢ وله من العمر عشر سنوات، ثم راح يستخدم السلطة التقليدية للأوتوقراطية القيصرية بقسوة لكي يجر الروس إلى الحداثة جرًا، وكانت الحداثة تعني عنده ثقافة أوربا الغربية. كان هدفه الأول هو تقوية روسيا في منافستها

الدولية، وبالأخص ضمان ساحلها على بحر البلطيق. صحيح أنه كان مهتمًا أيضًا بالتوسُّع في آسيا الوسطى وسيبيريا، إلا أن حربه الكبرى مع السويد كانت هي قلب سياسته الخارجية، وقد انتهت في عام ١٧٢١ بأن ترسَّخت سلطة روسيا في ليفونيا وإستونيا وبرزخ كاريليا، كما كانت عاصمتها الجديدة على بحر البلطيق في طور البناء. وكان انتقال الحكم من موسكوفيا القديمة المنعزلة إلى جوار الغرب ذا قيمة كبيرة كرمز لطموحات بطرس وتطلعاته.

لقد وجَّه بطرس طموحاته نحو الجنوب أيضًا، فقد ضم آزوف ذات مرة وكان له أسطول على البحر الأسود. إلا أنه لم يتمكَّن من الحفاظ على اندفاعه نحو الإمبراطورية العثمانية، بل ترك هذا الأمر لخلفائه، والحقيقة أنهم كانوا في عام ١٨٠٠ يسيطرون على الساحل الشمالي للبحر الأسود من نهر الدنيستر حتى نهر كوبان. أما عملية التصنيع التي شجَّعها فكانت مبنيَّة على استخراج المعادن وتصنيع الخشب، وقد جعلت ميزان التجارة يميل لصالح روسيا، كما جعلت إنتاجها من الحديد الخام أكبر من إنتاج أي بلد آخر في العالم. ولكن هذه الإنجازات تمَّت من ناحية أخرى عن طريق استخدام مجهود عبيد الأرض وعن طريق تحالف الملكية مع النبلاء بحيث صارت روسيا مقيَّدة شيئًا فشيئًا بنظام اجتماعي وسياسي أعاقها عن إحراز المزيد من التقدُّم. كانت أبرز خلفاء بطرس هي كاترينا الكبيرة، ورغم أن البلاط على عهدها قد تمتَّع ببهاء عظيم فإن حركة التحديد قد ذوت، ورغم قوة روسيا الكبيرة في عصر كانت الأعداد فيه هامة جدًا من الناحية العسكرية، فإن الأوتوقراطية وعبودية الأرض ظلَّت عقبات واضحة أمام التحديث الحقيقي، وقد ظهر منتقدوها الأوائل قبل وفاة كاترينا في عام ١٧٩٦.

بروسيا والنمسا

كانت كاترينا الكبيرة موضع إعجاب واسع كحاكمة أوتوقراطية «مستنيرة»، بالنظر إلى رعايتها للأدباء والفلاسفة الغربيين الذين كانوا يُعتبرون حاملي ألوية الأفكار التقدُّمية بل حتى الثورية. وقد قيل الشيء نفسه عن بعض الحكّام في دول أخرى، ومنها القوتان «الجديدتان» في أوربا الشرقية، أي بروسيا والنمسا. ولكن يبدو في الحالتين أن سياسة الملكية في التغيير كانت بدافع الحاجة لتقوية البلاد من أجل المنافسة الدولية و لم تكن حبًا بالأفكار التقدميَّة.

لقد أصبحت بروسيا مملكة في عام ١٧٠١، وكانت -عندئذ- عبارة عن أرض مشتتة تابعة لأمراء براندنبرغ السابقين، الذين كانوا ينتخبون رأس الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة. وكانت قصتها في القرن الثامن عشر عبارة عن تمتين هذه الأراضي وتوسيعها بالأساليب الدبلوماسية وبالفتوحات العسكرية، وكانت تؤمِّن الموارد اللازمة لذلك عن طريق حكم رعاياها واستغلالهم بصورة شديدة على يد طبقة إدارية اشتهرت بفعاليَّتها العجيبة. وقد تظاهرت هذه الصفات خصوصًا على عهد فردريك الكبير، الذي شدَّد كثيرًا على مصالح بروسيا في ألمانيا ضد مصالح النمسا، ثم ابتدأ صراعًا بين سلالته أي الهوهنـــزولرن وبين سلالة الهابسبرغ كثيرًا ما كان صراعًا داميًا، وحسم أخيرًا في عام ١٨٦٦ عندما اعترف الهابسبرغ بهيمنة بروسيا على بقية الدول الألمانية.

إن هذا الصراع مع بروسيا قد حرك في -القرن الثامن عشر- الجهود الساعية لإصلاح أراضي الهابسبرغ المتداعية والمنتشرة في غير انتظام من أجل تمكينها من مواجهة المنافسة الدولية. وكانت تلك الجهود كافية لتأمين مكاسب كبيرة على حساب الإمبراطورية العثمانية -فقد وصلت حدود الهابسبرغ الجنوبية في عام

١٧٩٥ حتى نمر ساڤا-، ولكنها بقيت عاجزة عن مواجهة خطر پروسيا، وقدَّمت لها تنازلات كبيرة من الأراضي في سيليزيا -منطقة في جنوب غربي بولندا- إلا أن طموحات الهابسبرغ قد أبلت بلاء حسنًا في اتجاه آخر.

بولندا

في عام ١٧٩٥ زالت من خريطة أوربا دولة بولندا، التي كانت ذات يوم دولة كبرى. لقد ظلَّت بولندا قوة عسكرية كبيرة -حتى القرن السابع عشر- وكانت تحارب الإمبراطورية العثمانية بصورة فعَّالة وحاسمة. إلا أنها أصيبت في القرن الثامن عشر بمشاكل في دستورها وفي أمور الخلافة أضعفت تماسكها إضعافًا شديدًا وأعطت الفرصة لتدخُّل الأجانب في شؤونها وتآمرهم عليها. وكان هذا من فعل القوى الكبرى الثلاث المتنافسة على الأراضي وعلى الهيمنة في أوربا الشرقية، أي روسيا وپروسيا والنمسا الهابسبرغ. وقد جرت محاولات لإصلاح الدولة ولكنها لم تأت بنتائج. وفي عام ١٧٧٢ حدث توتُّر خطير بين روسيا والنمسا بسبب نجاح الروس ضد الأتراك، وقد حلَّ هذا التوتر باتفاقية تم فيها تقسيم بولندا للمرة الأولى، فاستولى جيرانها الثلاثة على ثلث أراضيها ونصف عدد سكانها. ثم جرت معاهدة ثانية في عام ١٧٩٣، وكان التقسيم الأخير في عام ١٧٩٥.

كانت هذه العملية الوحشيَّة ذات نتائج هامة جدًا. فقد أصبحت هذه القوى العظمى الثلاث -الآن- وجهًا لوجه، ولم يعد بالإمكان التعويض لأي منها على حساب طرف رابع، ما عدا تنافس روسيا والنمسا على البلقان التي كانت للعثمانيين. ومن ناحية ثانية صارت تجمع هذه القوى الثلاث -فيما بينها- مصلحة واحدة، إذ صار في كل منها عدد كبير من البولنديين ذوي المشاعر القومية الحادة والتي لا بد من ضبطها والسيطرة عليها.

أمريكا جديدة

لقد ابتدأت في سبعينيات القرن الثامن عشر تبدُّلات كبيرة وعميقة في المستوطنات البريطانية بأمريكا الشمالية. كان عدد المستوطنين هناك في عام ١٧٦٠ حوالى المليونين، وكانت أعدادهم تتزايد بمعدَّل يضاعف عدد السكان في كل جيل، وكان هناك بالإضافة إلى الإنكليز والإيرلنديين والاسكتلنديين هولنديون وألمان أيضًا. ثم كان هناك الرعايا الهنود للملك والعبيد السود -خاصة في المستوطنات الجنوبية- والبالغ عددهم حوالى سدس عدد السكان الإجمالي، الذي كان بدوره يساوي حوالى ثلث سكان البلد الأم على أبعد تقدير. كانت مساحة المستوطنات قد توسعت توسعًا كبيرًا -منذ عام ١٧٠٠- وكان المستوطنون ميالين للتقدُّم من الساحل نحو الداخل إلى أن يبلغوا سلسلة الجبال التي تجري موازية للساحل الشرقي بأكمله -تقريبًا- وكان هذا التقدُّم يتم على حساب الهنود. وقد أدى ذلك إلى الاقتتال وسفك الدماء على حدود بعض المستوطنات، خاصة في نيويورك وبنسلفانيا، لأن مستوطنيها كانوا تواقين لعبور وديان الأنهار التي تصل بهم إلى حوض المسيسيبـــي الهائل على الطرف الآخر من الجبال. وعندما خسر الفرنسيون كندا في عام ١٧٦٣ زال الخوف من إعاقتهم لهذا التقدُّم.

لقد صارت هناك في النهاية ثلاث عشرة مستوطنة، وكان الناس أحيانًا يسمون سكانها «أمريكيين»، أما هم فكان انتماؤهم محليًا، وكانوا يعتبرون أنفسهم أهل نيويورك أو كارولاينا أو نيو إنغلند. وكانوا عادة في حالة خلاف -فيما

بينهم- وقد يتنازعون أو حتى يقتتلون على الحدود بين مستوطناتهم. وكانت المستوطنات الأكبر واعية للفروق الواسعة بين سكان البراري الغربيَّة من جهة وبين أهل المدن والمزارعين القاطنين في السهول الساحلية من جهة أخرى. والحقيقة أنه لم يكن هناك ما يجمع شمل الأمريكيين سوى أنهم جميعًا رعايا لتاج إنكلترا.

كان الأمريكيون في عام ١٧٦٣ يعتبرون أنفسهم رعايا موالين لإنكلترا، وكانوا ممتنين للحماية التي قدَّمتها لهم ضد الفرنسيين والهنود أثناء الحروب، ولم تكن متطلَّبات الحكومة في لندن كثيرة إلى حد يسبِّب مضايقتهم. إلا أن الأمريكيين كانوا مختلفين عن الإنكليز في موقفهم من السلطة، وكانوا أكثر تساهلاً من البريطانيين في الأمور الاجتماعية، ورغم وجود أغنياء وفقراء في المستوطنات فقد كان عدد حاملي الألقاب فيها قليلاً، ولم يكن فيها التقليد الإنكليزي القائم على احترام الأرستقراطية. كما أن الفروق بين الطوائف الدينية كانت أكثر تقبُّلاً في المستوطنات منها في الوطن الأم، وكان الكثيرون من مستوطني نيو إنغلند الأوائل قد رحلوا إليها بالأصل هربًا من كنيسة إنكلترا، وإن ولاية ماريلاند قد أُسِّست لكي تكون ملاذًا للكاثوليك.

لقد انهارت الإمبراطورية البريطانية في أمريكا -بعد عشرين سنة من صلح عام ١٧٦٣- وكان هذا الانهيار مفاجأة لأكثر الناس. كان من أسبابه الأساسيَّة شعور المستوطنين أنهم لم يعودوا بحاجة لحماية البريطانيين، كما أن البريطانيين منعوا امتداد الاستيطان إلى الغرب من أجل حماية حقوق الهنود من المستوطنين، وقد اشتكى هؤلاء من هذا الأمر. وكانت هذه الحماية بحاجة للجنود وبالتالي للمال، وقد بدا للإنكليز أن من العدل أن يدفع الأمريكيون تكاليفها لأن هؤلاء الجنود سوف يحمون حدود المستوطنين البيض من غارات الهنود.

وراحت الحكومة تلو الأخرى -طوال سنوات عديدة- تحاول إيجاد طرق مقبولة وعملية لفرض الضرائب على المستوطنين من أجل هذه الغاية. ولكن أحد ساسة المستوطنات ابتكر عبارة «لا ضرائب من دون تمثيل»، والمقصود بها أن الأمريكيين ليس لهم ممثلون في البرلمان البريطاني بوستمنستر، فلماذا يتوجَّب عليهم إذًا أن يدفعوا الضرائب التي يفرضها؟ وازداد الاستياء بالتدريج. كان الناس يشعرون بالرغبة في البقاء رعايا للملك جورج الثالث، ولكنَّهم كانوا يشعرون -أيضًا- أن أحوالهم سوف تكون أفضل إذا لم تحكمهم قوانين من وضع البرلمان بل من وضعهم هم أنفسهم. ولكن الحقيقة أنهم كانوا يمارسون الحكم بهذه الصورة عمليًّا -منذ سنوات- عن طريق مجالسهم من دون تدخُّل هام من قبل البرلمان، أما هذه الرغبة بالاستقلال الكامل فلم تنم إلا ببطء شديد. وقد أطلقت الرصاصات الأولى للثورة الأمريكية في عام ١٧٧٥ على طابور من الجنود البريطانيين الذاهبين للقبض على أسلحة غير شرعية في مدينة صغيرة غير بعيدة عن بوسطن، ولكن الكثيرين من الأمريكيين ظلّوا -حتى في ذلك الحين- موالين لبريطانيا.

الثورة

في عام ١٧٧٦ كان عدد الراغبين بالانفصال عن بريطانيا قد ازداد، وعقد - في ذلك العام- مؤتمر لممثلي جميع المستوطنات في فيلادلفيا حيث وافقوا على إعلان الاستقلال، الذي يمكن اعتباره آخر افتراق بين الطريقين. وصارت الطريقة الوحيدة التي يستطيع البريطانيون بواسطتها الاحتفاظ بمستوطناتهم هي سحق الثورة عن طريق القوة. وقد لزمهم سبع سنوات لكي يعترفوا بأنهم ليسوا قادرين على ذلك. فوُقِّع الصلح في عام ١٧٨٣، وسار دعاة الانفصال عن التاج البريطاني ودعاة البقاء

معه كل في سبيله، وحسم الأمر عن طريق الاقتتال والدبلوماسية. و لم تكن موازين القوى لصالح بريطانيا ولو أن هذا الأمر لم يكن واضحًا في البداية. صحيح أنها كانت تملك جيشًا وبحرية قويين وحسني التدريب بينما لم يكن لدى الثوار شيء من هذا، وصحيح أن أعدادًا كبيرة من الأمريكيين كانت موالية لهم -والحقيقة أن الآلاف قد تركوا موطنهم وذهبوا ليعيشوا في كندا عند نهاية الحرب- وأن الوطن الأم كان غنيًا بينما كانت مستوطناته فقيرة، ولكن من الناحية الأخرى كانت هناك مسافات هائلة تفصل المستوطنات حيث حدث القتال عن قاعدة الجيش البريطاني في وطنه، وقد أدى هذا إلى مشاكل ضخمة في النقل والتموين. وكانت الأرض صعبة وخرائطها سيئة، ويصعب العيش فيها على الجنود الأوربيين المعتادين على الاتصالات والمؤن الحسنة. كما أن البريطانيين لم يكن بإمكانهم خوض حملات وحشيَّة تقضي على الأساس الذي يعتمد عليه جيش الثوار، مثل حرق المزارع وما إلى ذلك، لأنهم لا يستطيعون أن يعادوا أصدقاءهم من الأمريكيين. وأخيرًا كان الأجانب متلهفين للاستفادة من متاعب إنكلترا، لهذا وجد البريطانيون أنفسهم -عند نهاية الحرب- يقاتلون الفرنسيين والإسبان والهولنديين فضلاً عن الأمريكيين. وقد قلب هذا الأمر ميزان القوة البحرية ضد البريطانيين في لحظة حاسمة، فأجبر جيشهم على الاستسلام في يوركتاون في عام ١٧٨١، وبعد تلك الكارثة أصبح موضوع الاستقلال أمرًا حتميًا.

الولايات المتحدة الأمريكية

وهكذا بزغت أمة جديدة وأول بلد متحرِّرة من الاستعمار، ألا وهي الولايات المتحدة الأمريكية. وقد ظلَّت الروابط بين ولاياتها الثلاث عشرة فضفاضة

حتى بعد أن قبلت الدستور الذي ضمها في جمهورية فدرالية (اتحادية) في عام ١٧٨٩. ولكن بعض الأمريكيين كانوا يعلمون أن هذه الولايات الجديدة لن يكتب لها البقاء ما لم تكن لها حكومة وطنية. وكان من بين هؤلاء جورج واشنطن، القائد السابق للجيش الأمريكي، والذي أصبح أول رئيس للاتحاد.

كان هذان التغيران الكبيران، أي الانفصال عن بريطانيا وخلق حكومة مركزية ولو ضعيفة، على أهمية عظيمة للبشرية كلها في النهاية. ويمكننا -الآن- أن نرى أن الثورة الأمريكية كانت الموجة الأولى في تيار من ثورات المستوطنات سوف يمتد -طوال خمسين عامًا تقريبًا- في الأمريكتين، وسوف تمتد تأثيراته زمانًا أطول من هذا بعد. ثم كانت هناك نتيجة أخرى، هي أن الذين استوطنوا أمريكا الشمالية وسيطروا عليها كانوا يتحدَّثون اللغة الإنكليزية ويشتركون بقسط كبير من الثقافة الإنكليزية، فساروا بالطبع على التقاليد الدينية والقضائية والدستورية الموضوعة في إنكلترا ونشروها في أنحاء القارة كلها، ولو نشر المستوطنون مثلاً الأفكار الفرنسية أو الإسبانية عن الملكية المطلقة لاتخذ تاريخ العالم شكلاً مختلفًا جدًا. والحقيقة أن الآباء المؤسِّسين للولايات المتحدة قد شدَّدوا على بعض الأفكار الإنكليزية وساروا بها شوطًا أبعد مما حدث في البلد الأم، وقد وصل التسامح الديني في أمريكا إلى حد أن الدستور منع الحكومة من دعم أي ديانة على الإطلاق.

وكانت الولايات المتحدة الأمريكية أيضًا أول أمة كبرى تصبح جمهورية. لقد كانت النظرة السائدة في القرن الثامن عشر هي أن الجمهوريات كيانات ضعيفة لا تصلح إلا للدول الصغيرة، إلا أن الولايات المتحدة أثبتت خطأ هذه النظرة، فكان هذا إنجازًا كبيرًا للبشرية، ولو أنها تدين في نجاحها هذا بالكثير لحظها السعيد

وبعدها الكبير وثرواتها الطبيعية. وأخيرًا كانت هذه الجمهورية الجديدة ديمقراطية أيضًا؛ ربما لم تكن ديمقراطية كاملة ولكنها كانت على كل حال أكمل الديمقراطيات. تقول الكلمات الأولى في الدستور "نحن الشعب"، وسوف يزداد انتشار الديمقراطية عمقًا واتساعًا في الحياة الأمريكية -خلال القرنين التاليين- وسوف يترافق هذا بالريبة بالحكومة المركزية، وبالانتشار التدريجي لمساواة أكبر في الحريات السياسية والعملية لجميع الأمريكيين في حياتهم اليومية. ولا يصح هذا الأمر على أي دولة كبرى -حتى اليوم- كما يصحُّ على الولايات المتحدة.

إن هذه الدولة الجديدة لم تُغيِّر أوضاع العالم كثيرًا في البداية، لأنها كانت بعيدة جدًا. لقد ازدادت تجارة البريطانيين مع الأمريكيين عما كانت عليه قبل الحرب، إذ يبدو أن الانفصال السياسي لم يؤثِّر فيها كثيرًا؛ أما الفرنسيون فلم يستعيدوا مستوطناتهم بالرغم من انتصارهم، وكانوا قد اضطروا لبذل الكثير من أجل دعم الأمريكيين. ولكن الحرب غيَّرت نظرة الحكومات البريطانية إلى مستوطناتها، فصارت ترتاب بها -منذ ذلك الحين- وقد أمضت الجزء الأكبر من القرن التالي في محاولات لمنحها أكبر قدر من الاستقلال وفي أسرع وقت ممكن لكي لا تشكِّل عبئًا على دافعي الضرائب البريطانيين ولا تهددهم بكارثة جديدة مثل الكارثة التي حدثت في أمريكا. وأما الأمريكان فقد راحوا يوطدون بلدهم الجديدة ويرسخونها ويوسِّعون من حدودها.

الثورة الفرنسية ونتائجها

منذ أيام لويس الرابع عشر وحتى وقت متقدِّم من النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت فرنسا قوة مهيمنة في أوربا. ولكن علامات التوتُّر كانت بادية عليها بمرور النصف الثاني من القرن الثامن عشر. فقد خسرت كندا و لم تستردَّها، ولو أن البريطانيين بالمقابل أصيبوا بالهزيمة والذل، كما ارتفعت ديون الملكية الفرنسية ارتفاعًا هائلاً، وراح وزراؤها الواحد تلو الآخر يحاولون إيجاد طريقة لتخفيض ديونها ومنحها ترتيبات مالية جديدة ومعقولة. ولكن محاولاتهم كلها باءت بالفشل لأنهم عجزوا عن جعل الأغنياء يدفعون حصتهم الواجبة من الضرائب. وقد بين هذا أن الملكية الفرنسية المذهلة كانت ضعيفة في الداخل، فهي لم تكن ناجحة في جبي الموارد مثل نظام البرلمان البريطاني مثلاً. وألقي اللوم في هذا الوضع على كاهل النبلاء الفرنسيين. ثم أعلن الملك أخيرًا في عام ١٧٨٩ أنه يعتزم استدعاء مجلس الطبقات، وهو مؤسَّسة من القرون الوسطى كانت أقرب ما عرفته فرنسا إلى البرلمان، وابتهج الناس لهذا الإعلان أيما ابتهاج لأن الأيام كانت عصيبة، ويبدو أن الجميع كانوا يعتقدون -عندئذ- أن الحكم في فرنسا سوف يكون حكمًا أفضل إذا راعى إرادة الأغلبية.

عملية التغيير

لقد رُوعيت إرادة الأغلبية في النهاية، فعلاً، ولكن بعد صراعات سياسية طويلة ومريرة. عندما التأم مجلس الطبقات في أيار (مايو) من عام ١٧٨٩ راحت

المظالم والمطالب تتعالى حول أمور كثيرة عدا عن العدالة في فرض الضرائب، وراحت أعداد متزايدة من الناس تتحوَّل إلى السياسة من أجل إصلاح الأحوال وتقويمها. وابتدأت -عندئذ- سلسلة متواصلة من التبدُّلات والتحوُّلات الكبيرة، فأطيح بالدستور التاريخي لفرنسا، وتحوَّلت الملكية المطلقة إلى ملكية دستورية أولاً ثم إلى جمهورية، وقطع رأسا الملك والملكة، ومات الآلاف من الناس في الحرب الأهلية، وتخلَّت الدولة عن ديانتها الكاثوليكية الوطنية القديمة، وبيعت أوقاف الكنيسة لصالح الدولة، عدا عن ألف تغيير وتغيير آخر، وكانت تلك هي الثورة الفرنسية.

لقد تجادل الناس كثيرًا حول تاريخ بداية الثورة الفرنسية وتاريخ انتهائها، ولكن يمكننا أن نقول إنها ابتدأت في عام ١٧٨٩ وانتهت في عام ١٧٩٩ عندما استولى نابوليون بونابرت على السلطة من السياسيين وأعاد فرنسا إلى الطريق نحو الملكية. و لم يعرف الناس -قط- عقدًا مثل ذلك العقد. إن أكثر التغيُّرات الدائمة قد تمَّت بحلول نهاية عام ١٧٩١، وكانت السنوات التالية -حتى عام ١٧٩٥- أكثر سنوات الثورة اضطرابًا وهياجًا، ثم استقرَّت الأمور -بعد ذلك إلى حد ما- وكانت فرنسا -في ذلك الحين- قد انقطعت عن جزء كبير من ماضيها، وأعادت بناء دستورها على أساس المساواة أمام القانون -إذ تم إلغاء طبقة النبلاء- والتسامح الديني والحكم عن طريق جمعية وطنية مؤلَّفة من نواب منتخبين يحق لهم التشريع في أي أمر من الأمور بصرف النظر عن الحقوق والتقاليد.

إلا أن أشياء كثيرة من الماضي قد استمرت. ولا ريب أن الحياة في الريف لم تتغيَّر كثيرًا، بالنظر إلى التقاليد القديمة المتأصِّلة. فلم تنتشر مثلاً العملة العشرية الجديدة المكونة من الفرنك والسنتيم -والتي مازالت مستخدمة حتى اليوم- في

أسواق الريف إلا بعد عقود عديدة، وحتى بعد خمسين سنة من عام ١٧٨٩ ظل بعض الفلاحين يحسبون باستخدام العملة القديمة من كورون وسو، وكانوا يستخدمون المقاييس القديمة بدلاً من المقاييس الحديثة من كيلومتر وهكتار. ولكن الثورة مع هذا قد قلبت فرنسا رأسًا على عقب. إن الكثيرين من الناس لم ينسوا ما حصل ولم يقبلوا به قط، وقد ظلّت الثورة -طوال القرن التالي- محك الآراء السياسية، فإذا كنت مع الثورة فأنت تريد حق الانتخاب لأعداد أكبر من الناس، وتريد جمهورية، وتريد أن ينخفض نفوذ الكنيسة عما كان عليه قبل عام ١٧٨٩، وأنت تؤمن بحرية التعبير والكلام وبأن الرقابة على الصحافة عمل فاسد. أما إذا كنت ضد الثورة، فأنت تتطلع إلى حكومة قويَّة، وتسعى لإعادة نفوذ الكنيسة إلى حياة البلاد، وتعتقد أن الفساد هو السماح بانتشار الأفكار الضارة، وتعتبر الانضباط والنظام أهم من الحرية الفردية. وهذا هو بصورة تقريبية الفرق بين «اليسار» و«اليمين»، الذي انتشر في سياسات الكثير من الدول الأوروبية الأخرى -خلال القرنين التاليين- وقد اخترعت هاتان الكلمتان وبدأ استخدامهما في عام ١٧٨٩، عندما بدأ المحافظون يجلسون معًا عن يمين الرئيس في الجمعية الوطنية بينما بدأ الليبراليون (التحرريون) يجلسون معًا عن يساره.

إن انتشار هذا التقسيم إلى يمين ويسار إلى دول أخرى -فيما بعد- لدليل على التأثير الهائل للثورة خارج فرنسا -ومنذ البداية- كان بعض الثوار قد قالوا إن ما يبغون فعله في فرنسا عن طريق الإصلاحات يمكن أن يتم بل يجب أن يتم في البلاد الأخرى أيضًا، وراحوا يدعون بقية الناس إلى اتباع السبيل نفسه. وعندما وجدت فرنسا الجديدة نفسها في حالة حرب -كما كانت الحال منذ عام ١٧٩٢

حتى آخر العقد)، راحوا يصدرون ثورتهم إلى البلاد الأخرى بالقوة والدعاية، وراح القادة العسكريون الفرنسيون ينظّمون الثورات ويؤسّسون الجمهوريات الجديدة في الأراضي التي كانوا يغزونها.

وكان هذا من أسباب الحروب الكثيرة التي حدثت بعد عام ١٧٩٢. لقد بدا أن فرنسا عادت على عهد نابوليون بونابرت -الذي تُوِّج إمبراطورًا في عام ١٨٠٤ - إلى سيرتها الأولى من الفتوحات كما كان الأمر على عهد لويس الرابع عشر، ولكن هذه الفتوحات صارت الآن تحمل معها رياح الثورة. كانت بريطانيا هي عدوّة فرنسا الدائمة، فهي لم تعقد الصلح معها بين عامي ١٧٦٣ و١٨١٤ إلا مرة واحدة ولفترة وجيزة، وقد ربحت لعبة المنافسة الاستعمارية القديمة في النهاية بعد أن انكسرت القوة البحرية الفرنسية في عام ١٨٠٥ في الانتصار البحري الكبير بمعركة الطرف الأغر. أما القتال على البر فكان أمرًا مختلفًا، صحيح أن البريطانيين كانت لديهم -منذ زمن طويل- قوات في إسبانيا، إلا أن الأعداد الهائلة التي هزمت فرنسا أخيرًا -في عام ١٧٩٩ ثم في عامي ١٨١٢-١٣- إنما أتت من جماهير فلاحي النمسا وبروسيا وخصوصًا روسيا.

كثيرًا ما جلبت الجيوش الفرنسية معها التحرُّر بالرغم من ضراوة الثورة، وكان الاحتلال الفرنسي يؤدي عادة إلى إلغاء النظام الإقطاعي وتحطيم الحكومات الطاغية المستبدة ويعزز مساواة البشر أمام القانون. وهكذا كانت الثورة الفرنسية - منذ البداية حتى الآن- مثالاً عظيمًا ومصدرًا كبيرًا للإلهام، وسوف ينهض الناس - طوال القرن التالي- في كافة أنحاء العالم ضد طغاة حقيقيين أو وهميين باسم المبادئ المثالية التي يلخصها أحد شعاراتها: حرية، مساواة، أخوة. وهذا ما جعل الطغاة

يخشونها. وحتى عندما كان الناس لا يتطلّعون إلى الثورة للحصول على مطالبهم كانوا يستلهمون المبدأ الذي نادى به الثوار بأن للناس حقوقًا بحكم كونهم بشرًا، لا لأنهم ورثوها من نظام أو قانون ما أو لأن لديهم تقاليد تاريخية تساندهم. وكان هذا سببًا آخر جعل الثورة الفرنسية حدثًا كبيرًا في تاريخ العالم فضلاً عن أهميته في تاريخ فرنسا.

ولادة السياسة الحديثة

بعد عام ١٨١٥ سوف تأخذ السياسة في العالم بالتدريج لغتها ومبادئها من أوربا. ومن أهم التيارات التي سادت في أوربا بعد الثورة الفرنسية ازدياد أعداد الناس المشاركين في الحياة العامة، ولو بصورة شكلية جدًا. وكانت العلامة الأساسية على هذا التطور في أكثر الدول هي اكتساب أعداد متزايدة من الناس لحقوق سياسية حقيقية وعملية. وكانت بعض هذه الحقوق من النوع السلبي، مثل حقك بألا تمنع من الكلام -مثلاً- من دون قضية قانونية سليمة، وحقك بألا تسجن من دون محاكمة، وكانت هذه الأمور مكفولة تمامًا للإنكليز بفضل الوثيقة القانونية المسماة habeas corpus -وهما الكلمتان اللاتينيتان اللتان يبدأ بهما نص الوثيقة- أما بعض الحقوق الأخرى فكانت من النوع الإيجابي، أي أنها تسمح لك بالقيام بشيء ما، وأهمها بلا شك هو حق التصويت الذي يتيح لك أن تشارك في اختيار حكامك.

من بين الدول الكبرى، كانت المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٨١٥ هما الدولتان الوحيدتان المتمتعتان بحقوق سياسية جيدة وواسعة الانتشار، ولكن قيودًا هامة ظلّت قائمة -حتى في هذين البلدين- مثل القيود

المفروضة على حق التصويت في إنكلترا مثلاً. إلا أن المطالبة بالحقوق قد تعالت كثيرًا في كل مكان عما كانت عليه -قبل سنوات قليلة- بفضل الثورة الفرنسية، فإذا لم تقم الثورة بالكثير لحماية تلك الحقوق فإنها قامت بالكثير للترويج لها. لقد بيَّنت الحكومات الفرنسية المتعاقبة منذ عام ١٧٨٩ أنها غير راغبة في منح مواطنيها حقوقًا سياسية، وعندما كانت تغزو البلاد الأخرى كانت تسلك سلوكًا طاغيًا ومستبدًا. ولكنها بالرغم من ذلك قد مهدت الطريق كثيرًا بأن أزالت الملكيات المطلقة القديمة مع القوانين المرتبطة بها، وكثيرًا ما كانت جيوشها تفعل الشيء نفسه في الخارج، فبين عامي ١٧٩٦ و ١٨١٤ صار جزء كبير من إيطاليا وألمانيا والبلاد الواطئة وسويسرا تحت حكم جمهوريات ذوات قوانين مبنيَّة على صورة قوانين فرنسا الثورية. والأهم من هذا هو أن «إعلان حقوق الإنسان والمواطن» العظيم الذي وافقت عليه الجمعية الوطنية في عام ١٧٨٩ قد افتتح جدالاً انتشر في كافة أنحاء أوربا، وسوف يتلوه إعلانان آخران خلال السنوات القليلة القادمة.

لقد أطلقت الثورة فكرة خصبة أخرى في مفهوم السيادة الوطنية في أوربا. كان الثوار الفرنسيون يصرُّون على أن ممثلي الأمة، كيفما تم اختيارهم، هم الذين لهم الكلمة الأخيرة في التشريع، أي في وضع القوانين. وما كانت هذه الفكرة لتسبب اضطرابًا كبيرًا في المملكة المتحدة في عام ١٨٠١، إذ كان فيها برلمان بعض أفراده بالوراثة ,وبعضهم منتخبون -من ضمن حلقة ضيقة- وكان يتمتَّع بسلطات واسعة جدًا؛ ولكنها كانت فكرة مؤرقة في البلاد الأخرى التي كان الناس فيها يعتبرون أنه لا يجوز لأي كان ولا حق للبرلمان أن يتدخَّل في المؤسَّسات والتقاليد القديمة. وكانت تلك فكرة ثورية بالأخص في روسيا، حيث كان القيصر يدعي أن لسلالته حقًا من الله بأن تحكم بالشكل الذي تراه الأصلح لروسيا -وسوف يظل

آخر سليل له يسلك هذا المسلك حتى القرن العشرين- كما أنها كانت فكرة ثورية لدى الشعوب الخاضعة لحكم الأجانب، كالبولنديين مثلاً.

وأخيرًا فإن الثورة قد شكّكت بمكان الدين في الحياة السياسيَّة. كان بعض مفكري التنوير قد شجبوا تأثيرات العقيدة الدينية على القانون والحكم، وفي النهاية صار بعض الثوار الفرنسيين يعتبرون الكنيسة عدوة للدولة، ولم يكونوا يقبلون ادعاء الكنيسة بأنها تحتكم إلى سلطة أعلى من سلطة الأمة نفسها. وقد أصبحت العلاقات بين الكنيسة والدولة -بعد ذلك- موضوعًا هامًا في جميع البلاد التي تحوي عددًا كبيرًا من الكاثوليك.

عدا عن طرحهم للمواضيع الجديدة غيّر الثوار الفرنسيون -أيضًا- أساليب الكلام والتفكير في السياسة؛ فقد جعلوا محك الآراء السياسية هو درجة تأييد المرء للثورة أو مناوئته لها، فنشروا بذلك مفهومًا جديدًا هو أن كل إنسان يمكن تحديد مكانه على طيف يمتد من أقصى الديمقراطية الجمهورية حتى أقصى التأييد للحكم المطلق، واعتبروا أن موقفك من الثورة أو النظام القديم بالإجمال يحدِّد موقفك من أي موضوع معين -مثل عدد الأشخاص الذين يحق لهم التصويت، وموافقتك على مصادرة أوقاف الكنيسة، أو حتى إيمانك بالتطور نفسه- وكان هذا التقسيم الثنائي البسيط للسياسة إلى يمين ويسار مناسبًا لجزء كبير من أوربا -خلال القرن التالي- ولكنه لم يكن مناسبًا للسياسة في بريطانيا وأمريكا، بل إنه في الحقيقة لم يناسب هذين البلدين -قط منذ- مرحلة الثورة الفرنسية.

عودة الملكية بعد عام ١٨١٥

لقد أعادت الهزيمة النهائية لفرنسا في عام ١٨١٥ الشيء الكثير من البنية القديمة، وغابت الحياة السياسية الحقيقية عن أوربا ما عدا البلاد الواقعة إلى الغرب

من الراين وفي بعض الدول الألمانية والإيطالية الصغيرة. فقد حدث بعض التقدُّم هناك نحو اكتساب حكومات «دستورية»، أي أن تتم إدارة الشؤون العامة ضمن حدود قوانين دستورية تمنع الاستخدام التعسفي للسلطة، وكثيرًا ما كانت هناك أيضًا درجة ما من الحكم التمثيلي. وقد تمّت بعض هذه التغيُّرات بمساعدة الثورة، كما في إسبانيا وأجزاء من إيطاليا وفرنسا مثلاً، بينما تمت في بعضها الآخر بصورة سلمية كما في بريطانيا، حيث كانت توجد بالأصل حكومة دستورية فأصبح لها -الآن- قاعدة أوسع عن طريق توسيع جمهور الناخبين في عام ١٨٣٢ ورفع القيود الباقية على بعض الطوائف الدينية. وكنت تجد في هذه الدول جميعها شعورًا متزايدًا بأن على الحكومة أن تسير مع الرأي العام.

أما في ألمانيا وإمبراطورية الهابسبرغ -وبعض الدول الإيطالية أيضًا- فلم يحدث شيء من هذا. ويعود ذلك إلى أسباب عديدة، منها الرغبة الشخصية لحكام هذه الدول، ومنها سيطرة «الحلف المقدَّس» المكوَّن من بروسيا والنمسا وروسيا على هذه المنطقة بعد عام ١٨١٥، وثلاثتها تخشى عودة الثورة، لذلك كانت السيطرة على الحريات السياسيَّة فيها أشد بكثير، وكانت الحكومات الدستورية نادرة، وحتى الحريات الأساسية مثل حرية التعبير والحركة والنشاط السياسي كانت قليلة جدًا.

لم تحرز الحركة الجمهورية تقدُّمًا في أي مكان قبل عام ١٨٤٨، ولم تكن أي من الدول الأوربية الكبرى جمهورية -في بداية ذلك العام- وقد ظلّت الطبقات الحاكمة القديمة تدير البلاد كما في السابق، أي بزعامة الأسر الأرستقراطية الكبرى التي طالما هيمنت على أوربا، ولكنها كانت أحيانًا -خاصة في بريطانيا- تقدّم بعض التنازلات عن طريق السماح لأفراد من طبقة النبلاء والطبقات الوسطى بمشاركتها

في السلطة. وكانت منظمات الطبقة العاملة قد ظهرت أيضًا، ولكن إذا كانت لها فعالية ما فإنها كانت مقتصرة على كسب تنازلات محدَّدة لأفرادها، ولم تكن بقادرة على تبديل الترتيبات السياسية القائمة. ويبدو أن الخطر الأكبر على النظام القائم في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر كان متمثِّلاً بالحركة «الوثيقية» في إنكلترا -التي سميت بهذا الاسم لأنها لخصت أهدافها في «وثيقة الشعب» التي أعدَّت لكي تُقدَّم إلى البرلمان- وقد تحوَّلت جميع أهدافها الأساسيَّة في النهاية إلى قوانين ماعدا واحدًا منها، ولكن بعد أن ذوت الحركة نفسها بزمن طويل. ولم يكن هناك في عام ١٨٤٨ أي بلد يحق فيه لأغلبية السكان قانونيًا أن يشتركوا بالسياسة، حتى الولايات المتحدة لم تكن تمنح حق التصويت إلا للذكور البالغين الأحرار. أما في المملكة المتحدة، فكان هناك أكثر من ٤٠٠,٠٠٠ ناخب، وكان هذا العدد أكبر من عدد الناخبين الموسَّع في فرنسا بعد الثورة التي جرت فيها في عام ١٨٣٠ والتي وضعت نظامًا أكثر تحرّرًا. وسوف يزداد عدد الناخبين البريطانيين أيضًا بمقدار خمسين بالمئة -تقريبًا- بعد «قانون الإصلاح الكبير» في عام ١٨٣٢.

ولكن بالرغم من جميع التحفُّظات، يصح أن نقول بصورة عامة إن تقدُّمًا حقيقيًا قد تمَّ في أوربا نحو حكومات أكثر تحرُّرًا ودستورية بعد الإطاحة النهائية بنابوليون في عام ١٨١٥، ولو أن هذا التقدُّم كان مقتصرًا على بلاد قليلة وأنه قد حصل -أحيانًا- بصورة متقطِّعة وترافق بالثورات والمؤامرات. ثم جاء عام ١٨٤٨، وجاءت معه موجة عارمة من الثورات التي اكتسحت أنحاء القارة الأوربية كلِّها، فابتهج لها دعاة التقدُّم في كل مكان ابتهاجًا عظيمًا وبلغت آمالهم ذروة لم تبلغها من قبل -قطِ- ولم تسلم حكومة من تأثيرات تلك الثورات من جبال البيرينه إلى بحر البلطيق.

١٨٤٨

مازال الجدال دائرًا حول أسباب هذه الموجة من الثورات، إلا أن هناك بعض الحقائق الواضحة. لقد كانت أربعينيات القرن التاسع عشر بالإجمال سنوات سيئة في اقتصاد أوربا، فقد حصل كساد في الأشغال ترك الكثيرين من أهل المدن بلا عمل، وأدى فساد المحاصيل وسوء الطقس في بعض الدول إلى حالة قريبة من المجاعة -منذ عام ١٨٤٦ فما بعد- وما إن ابتدأت الثورات في عام ١٨٤٨ حتى راح كل نجاح تحرزه الواحدة منها يمهِّد الطريق للثورة التالية، وكأن الأمر أشبه بالتفاعل التسلسلي في الانفجارات الذرية.

لقد حدثت أولى ثورات -ذلك العام- في صقلية بسبب تشكِّي السكان من حكم نابولي لجزيرتهم، وسرعان ما تردَّدت أصداؤها بصورة واسعة خارج إيطاليا. إلا أن الثورة الهامة هي التي أتت في الشهر التالي، أي في شباط (فبراير) في مدينة باريس. لقد رأيت كيف جرَّت ثورة عام ١٧٨٩ في فرنسا القارة كلها إلى الحرب، كما أن ثورة تموز (يوليو) من عام ١٨٣٠ قد سبَّبت ثورات غيرها في دول أخرى، فمن الصحيح إذًا كما قال أحدهم أنه «عندما تعطس باريس تصاب أوربا بالرشح». وهكذا كانت الثورة الفرنسية صدمة للناس وإلهامًا لهم في كافة الأراضي الواقعة إلى الشرق من نهر الراين والجنوب من جبال الألب، فامتدت الثورات في أنحاء ألمانيا، وسقطت الوزارات والدساتير، وقد حدثت الانقلابات الكبرى في آذار (مارس) عندما هزَّت الثورات كلاً من ڤيينا وبرلين، وهما عاصمتا أكبر دول ألمانيا. فدفعت الثورة الأولى بالكونت مترنيخ مستشار الهابسبرغ إلى المنفى، بعد أن كان يعتبر الدعامة الأساسية للنظام المحافظ المتمثِّل بالحلف المقدَّس. وسرعان ما حدثت ثورات أخرى في أجزاء أخرى من

إمبراطورية الهابسبرغ، في إيطاليا وهنغاريا وكرواتيا وبوهيميا. والأفظع من هذا هو حصول ثورة شعبيَّة كبرى ثانية في باريس في حزيران (يونيو)، سُحقت بوحشية كبيرة -خلال أسبوع واحد- من الاقتتال في الشوارع، لا على يد ملك بل على يد الجمهورية الفرنسية الجديدة. وقد كانت تلك بداية انقلاب التيَّار. وعند نهاية عام ١٨٤٩ كان يبدو أن الثورات لم تحرز شيئًا هامًّا إلا في فرنسا حيث استمرَّت الجمهورية الجديدة، وفي بعض الدول الإيطالية التي احتفظت بالدساتير التي منحها لها حكَّامها -خلال تلك الاضطرابات- بينما عادت القوى المحافظة لتستعيد سيطرتها شيئًا فشيئًا. وقد تم تركيع الثوار حتى في إمبراطورية الهابسبرغ بمساعدة الجيش الروسي، إذ إن روسيا قد سلمت من أي اضطراب -خلال عام الثورات هذا- كما عاد البابا إلى روما.

نتائج ١٨٤٨- ١٨٤٩

ولكن نتائج هذه الأحداث لم تقتصر على انتصار الرجعية المذكور. يمكننا أن نقول بصورة إجمالية إن مطالب الثورات المختلفة التي حدثت في عام ١٨٤٨ كانت على ثلاثة أنواع. لقد ثار الفلاحون في أوربا الشرقية للمطالبة بإلغاء أشغال السخرة والحقوق الإقطاعية التي كانت بيد أصحاب الأراضي، أي أنهم كانوا يسعون للحصول على ما حصل عليه الفرنسيون في عام ١٧٨٩ وما جلبوه إلى بعض أنحاء ألمانيا عقب الثورة الفرنسية. وقد جلب عام ١٨٤٨ إلى إمبراطورية الهابسبرغ وألمانيا وجزء كبير من بولندا نهاية الإقطاعية وعبودية الأرض، وكان هذا تقدُّمًا عظيمًا، وهكذا لم يعد للعبودية وجود فيما كان الأوربيون المتعلمون يعتبرونه «العالم المتحضِّر» إلا في روسيا والأمريكتين.

أما النوع الثاني من المطالب التي قُدِّمت في عام ١٨٤٨ فكانت بالإجمال مطالب المتحرِّرين والمفكِّرين وأصحاب المهن العلمية من أبناء الطبقة الوسطى، والراغبين بحكومات أكثر دستورية وتمثيلية وبعدد أكبر من الوظائف في المناصب العامة على حساب الأرستقراطيات القديمة. ولكن نجاحهم كان في أكثر الأحيان دون نجاح الفلاحين في مطالبهم. ولهذا الأمر أسباب معقَّدة ومختلفة من مكان لآخر، منها أنه عندما ابتدأت الثورة –حقًا– وراحت تهدد أسس المجتمع والأملاك –مثل الثورة «الاشتراكية» التي حدثت في «أيام حزيران» في باريس– شعر الثوار أنهم قد تجاوزا الحد، فتحالفوا مع سلطات النظام القديم، أي مع الملوك والأمراء الذين استردوا جرأتهم وراحوا يستخدمون جيوشهم لإعادة تثبيت سلطتهم. إلا أن بعض التحسينات الدستورية استمرت في ألمانيا بعد عام ١٨٤٨، ولم تعد الأمور إلى القمع الشديد الذي كان على عهد مترنيخ.

من الأسباب الأخرى لفشل الثوريين أنهم كانوا منقسمين حول موضوع آخر، هو المطلب الثالث لعام ١٨٤٨. لقد سمي ذلك العام «ربيع الأمم»، لأن الكثير من الثورات كانت تسعى باسم الشعوب لأن تحكم أنفسها بدلاً من أن يحكمها الآخرون، ويصحُّ هذا الأمر بالأخص على الهنغاريين والإيطاليين الذين كانوا يناضلون لكسر نير حكم النمسا. والمؤسف أن الكثير من الوطنيين الذين حاربوا من أجل شعوبهم في عام ١٨٤٨ كانوا لهذا السبب بالذات مستعدِّين لمحاربة شعوب أخرى عندما يشعرون أنها قد تُشكِّل خطرًا عليهم، وقد استمر بعض أحفادهم على هذا المنوال، منذ ذلك الحين حتى اليوم.

الأمم ودعاة القومية

منذ القرن التاسع عشر تعامل فكرة الأمة والقومية بقدر كبير من التبجيل والتوقير. ولم تكن هذه بالفكرة الجديدة، فأنت تجد في مسرحيات شكسبير إشارات كثيرة إلى شعور الإنكليز بقوميتهم وافتخارهم بها، كما تجد علامات كثيرة على أن الناس -منذ زمن بعيد- كانوا يحبون أن يعتبروا أنفسهم فرنسيين أو إسبانًا. ولكن هذه المشاعر صارت أكبر اتساعًا بكثير -خلال القرنين الماضيين- والأهم من ذلك أن الناس بدؤوا يشعرون أن انتماءهم إلى قومية معينة يقتضي أن يحكمهم أشخاص من هذه الأمة نفسها، أي أن الدولة والأمة يجب أن تكونا شيئًا واحدًا، أو وجهين مختلفين لعملة واحدة.

وهذه هي الفكرة السياسية التي تسمى القومية، وهي تقول إن الأمة هي الأساس الشرعي الوحيد لقيام الحكم. وقد سبَّبت هذه الفكرة قدرًا كبيرًا من المعاناة والعنف، مثل أكثر المفاهيم العامة حول كيفية تنظيم الحكومات. فما الذي يبرِّر أن تكون حكومة ظالمة أو فاسدة من أهل أمَّتك أفضل أخلاقيًا من حكومة أجنبية عادلة وخيِّرة؟ إلا أن نجاحات فكرة القومية وتأثيراتها الثورية كانت ومازالت أكبر من أي فكرة سياسية أخرى، ولقد بدَّلت -خلال القرنين الماضيين- خريطة العالم وحياة مئات الملايين من الناس.

ونعود إلى الثورة الفرنسية من جديد، لأنها كانت معلمًا هامًا في تطوُّر هذه الفكرة. لقد كان الثوار الفرنسيون يضربون دائمًا على وتر القومية وحقوق القومية،

وكانت الأمة في نظرهم ذات سيادة مطلقة لا تعلو عليها أي سيادة. ولم يتراجع أي نظام فرنسي -فيما بعد- عن هذا المبدأ، بل كان دعاة الثورة يبشّرون به للمتعاطفين معهم في البلاد الأخرى. ومن ناحية أخرى، أدّت الثورة الفرنسية إلى -حوالى ربع قرن- من الحروب شبه المستمرّة، فنتجت عن ذلك انقلابات كبيرة وتبدُّلات في الحدود وإطاحة بالقادة القدماء وتنصيب لقادة جدد واجتثاث لمؤسسات قديمة، فكانت هذه كلها فرصًا كبيرة جعلت الناس يفكرون بوضع ترتيبات جديدة على أساس مبدأ القومية.

وهكذا فإن البولنديين مثلاً، بعد أن زالت دولتهم المستقلة في تقسيمات القرن الثامن عشر، بدؤوا يأملون بأن يعيد لهم نابوليون حريّتهم. ولكنه لم يعدها لهم، ولو أنه أسّس صورة هزيلة عن الدولة البولندية القديمة سماها «غراندوقية وارسو»، إلا أن استحواذ هذا الأمل عليهم كان ذا أهمية كبيرة في إبقاء الشعور القومي البولندي حيًّا ومتقدًا. وفي إيطاليا راحت الجيوش الفرنسية -منذ عام ١٧٩٦ فما بعد- تُقلّب الحكومات الواحدة تلو الأخرى، فكان البعض يرونهم مخلصين محررين والبعض الآخر يرونهم في -أحيان أخرى- مضطهدين ظالمين، إلا أن بعض أهل شبه الجزيرة بدؤوا يعتبرون أنفسهم للمرة الأولى إيطاليين، بدلاً من شعورهم السابق بأنهم أبناء روما أو ميلانو أو البندقية أو غيرها، وهكذا راحوا يسعون لإيجاد طرق لتوحيد فسيفساء الدول الإيطالية القديمة تحت حكومة وطنية. كما حدثت تطوُّرات مشابهة في بلاد أخرى أيضًا.

لقد أرَّقت هذه التطورات حكام أوربا كثيرًا بعد زوال نابوليون من مسرح الأحداث بنفيه وموته وحيدًا في جزيرة سانت هيلينا، ولم تعد للظهور جميع الحكومات التي أطيح بها -خلال العشرين سنة الماضية- فجمهورية البندقية القديمة،

التي كانت على أهمية كبيرة في تاريخ أوربا -طوال مئات السنين- استمرت -حتى عام ١٧٩٦- ولم تعد للحياة في عام ١٨١٥، بل انتقلت أراضيها السابقة -عندئذ- إلى حكم النمسا. وكذلك زال نهائيًا عدد من الأمراء الحاكمين في ألمانيا وانتقلت أراضيهم إلى أيدي أمراء آخرين أكبر منهم وأوفر حظًا. إلا أن معظم الملوك قد عادوا، وقد أظهر بعضهم بوضوح أنهم راغبون بإرجاع عقارب الساعة إلى الوراء وإعادة الأمور إلى سابق عهدها، بينما كان بعضهم الآخر أكثر حكمة فقدَّموا التنازلات للأفكار الجديدة، مثل ملك فرنسا من سلالة بوربون الذي لم يحاول العودة إلى النظام القديم بل قبل بالدستور.

وقد حاول مؤتمر فيينا الذي انعقد للاتفاق على شروط الصلح في -عام ١٨١٥- أن يخفِّف من خطر الثورة، فأعطى أجزاء من الدول التي كانت مستقلة في إيطاليا للنمساويين، وكان يفترض بحكام الهابسبرغ أن يضبطوا الأمن في شبه الجزيرة الإيطالية ويحافظوا على الهدوء فيها. وكان هذا تعارضًا صارخًا مع المبدأ القومي، لأنه إذا كان من الواجب أن تحكم الأمة نفسها بنفسها، فليس هناك من مبرر لأن يحكم النمساويون الإيطاليين أو البولنديين أو الهنغاريين أو البوهيميين أو السلوفاك أو الروثينيين -روثينيا منطقة في أوكرانيا- أو غيرهم من الشعوب الكثيرة التي كانت خاضعة لفيينا. وليس هناك من مبرر أيضًا لأن يحكم الروس البولنديين والدنمركيين. أي أن مفهوم القومية كان خطيرًا بشكل خاص على الدول الثلاث في أوربا الشرقية التي كانت أساس النظام المحافظ بعد عام ١٨١٥. أما فرنسا فلم تكن فيها مشكلة قومية، وكانت إنكلترا تدعي -منذ زمن طويل- أن ليس فيها شيء من هذا أيضًا، مع أن إيرلندا كانت في الحقيقة قضية قومية.

لقد اعتنت الدول الأوربية عناية كبيرة بأمور الأمن والتعاون الدبلوماسي -فيما بينها- وكانت مستعدة للضرب بلا رحمة إذا اقتضى الأمر، فساهمت هذه الأمور في الحفاظ على السلام في أوربا بين عامي ١٨١٥ و١٨٤٨، وكانت تلك أطول مرحلة خالية من الحروب بين القوى العظمى عرفتها القارة -منذ قرون عديدة- ولم تنجح الحركة القومية في هذه المرحلة إلا مرتين، أولاً في عشرينيات القرن التاسع عشر عندما أدت الثورة في الشطر الأوربي من الإمبراطورية العثمانية إلى ظهور دولة اليونان المستقلة، ثم في عام ١٨٣٠ عندما أطاح البلجيكيون بحكم الهولنديين الذي كان مفروضًا عليهم، منذ عام ١٨١٥.

ثم أتت ثورات عام ١٨٤٨، وكانت القومية فيها متداخلة تداخلاً عميقًا بقضايا أخرى. ففي إيطاليا كان الراغبون بحكومة دستورية يعلمون أنهم لن يحصلوا عليها إلا إذا توقف النمساويون عن التدخُّل في شؤونهم، وأنهم لن يتوقفوا عن ذلك إلا عن طريق القوة. لهذا كان الليبراليون في مدن إيطاليا المختلفة ينضمون بعضهم إلى بعض في محاولاتهم لتنظيم المقاومة الوطنية سواء تعاطفوا مع القوميين الراديكاليين أم لم يتعاطفوا. وكان هذا تأكيدًا على أفكار من يعتبرون أن الهدف من الثورة هو صنع أمة ولا يعبأون لا بالليبرالية ولا بالدستورية، مثل المتآمر الحماسي ماتزيني. أما الألمان فيبدو أنهم كانوا أكثر من الإيطاليين حماسة لوحدة تجمعهم وتسمو على التقسيمات السياسية التي مازالت تفرِّق بينهم تحت حكومات مختلفة. ولكن قضية الوحدة الألمانية جعلت الليبراليين الألمان بالضرورة معارضين لمطالب الوطنيين التشيك والبولنديين القاطنين ضمن الأراضي الخاضعة لحكم الألمان، وإن الخوف من الحكم الذاتي في بوهيميا وبوزنان -مدينة بولندية- قد دفع الليبراليين الألمان في النهاية للاعتماد على جيوش الملوك -خاصة ملوك بروسيا- ولما كان الملوك

يكرهون الدساتير والمبادئ التحرريَّة فقد أدى هذا في النهاية إلى التضحية بالليبرالية من أجل القومية.

كانت أكثر الملكيات عرضة للخطر في عام ١٨٤٨ هي بلا ريب ملكية النمسا، لأنها كانت تحكم أكبر خليط متشابك من الشعوب في أوربا. وكان الإمبراطور الشاب فرانتز جوزف قد ارتقى العرش في -ذلك العام- ولكن الثوار مالبثوا أن انتزعوا منه عاصمته ڤيينا، عدا عن أنه واجه الثورات المسلحة في هنغاريا وبوهيميا وسلوڤاكيا وطردت جيوشه طردًا كاملاً -تقريبًا- من إيطاليا، وقد بدا أن لا مفر للملكية القديمة من الانهيار الكامل. ولم تنج من هذا المصير إلا لأن القوميين الثوريين قد اقتتلوا -فيما بينهم- ولأن روسيا هبَّت لنجدة الإمبراطور. وكانت روسيا هي الدولة الوحيدة بين القوى المحافظة الكبرى التي لم تزعزعها الثورة، فلم تعرف بطرسبيرغ أي ثورة في عام ١٨٤٨، مثلها مثل العواصم الأخرى على أطراف أوربا، كلندن ومدريد وإسطنبول. لهذا تمكَّن الجيش الروسي من إعادة النظام القديم إلى أوربا الوسطى مع انحسار التيار الثوري. وقد تمَّ هذا الأمر في عام ١٨٤٩، فقبل أن ينقضي هذا العام كانت جميع الأنظمة قبل الثورية قد عادت إلى مواقعها. وكان الاستثناء الأساسي هو فرنسا، حيث حلَّت الجمهورية «الثانية» الجديدة محلَّ الملكية الدستورية، وكان رئيسها يحمل اسمًا مثقلاً بالشؤم، هو لويس نابوليون بونابرت.

١١

التسارع الكبير

عصر متفائل

كان الأشخاص المحافظون في أوربا وأمريكا الشمالية في القرن التاسع عشر يتّخذون عادة نظرة متشائمة للمستقبل. أما آراء الأشخاص المشبعين بأفكار التنوير فكانت ميّالة إلى قدر كبير من التفاؤل، ولم يبدأ الناس باستخدام كلمة تفاؤل في اللغة الإنكليزية optimism إلا في القرن الثامن عشر. ويبدو أن أكثر الأوربيين والأمريكيين المعلمين كانوا في عام ١٩٠٠ يرون أن حضارتهم تسير -منذ ثلاثة قرون- على طريق التقدُّم والتنوير المتزايدين، وكانوا يعتبرون حركة النهضة والإصلاح الديني أول خطوتين كبيرتين في كسر قيود الماضي -ومنذ ذلك الحين- صاروا يرون التاريخ يسير باتجاه واحد، هو اتجاه السيطرة المتزايدة على الطبيعة عن طريق العلم، ونشوء المؤسَّسات السياسية التي أخذت السلطة من الملوك والنبلاء وأعطتها لمواطنين مسؤولين وعقلاء من أجل التحكُّم بحياتهم، وانتشار التعليم، والتحسُّن الواضح في حياة الملايين من الناس وفي صحتهم، وغيرها من التغيُّرات الكثيرة؛ هذه كلها أقنعتهم ولو بصورة غير واضحة أن ثقافتهم تشير إلى مستقبل أفضل للبشرية كلها، بل إنهم كانوا يظنون أن الأمور سوف تستمر على هذا المنوال. ففي عالم السياسة مثلاً كانوا يرون حدوث نمو في الحكم الذاتي وكانوا يعتبرون هذا أمرًا حسنًا، وكانوا يرون هذه التطوُّرات جارية على طرفي المحيط

الأطلسي إذ راحت الشعوب تخلع عن أنفسها نير الحكم الأجنبي الواحد تلو الآخر، فقد تخلّص الأمريكيون في ثورة عام ١٧٧٦ من حكم البريطانيين، وسار الإيطاليون والألمان خطوات كبيرة في -منتصف القرن التاسع عشر- نحو توحيد أنفسهم، كما كانت أمم البلقان تقوّض حكم الأتراك الغاشم وتستبدل به حكمها الذاتي عند منقلب القرن، فكان الأوربيون يرون هذه الأشياء كلّها جزءًا أساسيًا من حركة تقدُّميَّة واحدة. وكان بعض الناس يعتقدون -أيضًا- أن الصراع من أجل حرية الرأي الشخصي الذي ابتدأ بالإصلاح البروتستنتي قد مهَّد الطريق للشك بالأفكار الخرافية عامة، وإلى انتصار العلم وطرح العقائد القديمة البالية، ولو أن الكاثوليك كانوا معارضين لهذا الرأي.

لهذا يحق لنا أن نصف المناخ العام في -القرن التاسع عشر- بأنه كان «مناخًا من الآراء»، وهو تعبير مستعار من المفكّر الإنكليزي جيريمي بنتَم الذي عاش في القرن الثامن عشر. وهذه طريقة سهلة لوصف الاتجاه العام للأفكار والبيئة التي تطوَّرت فيها من دون الخوض في تفاصيل نظرياتها ومبادئها واكتشافاتها. وهي تلفت انتباهنا إلى أمر كان يعتبر بديهيًا في القرن التاسع عشر، أي مناخ التفاؤل المتنامي والترحيب الدائم بالتحديد.

إلا أن بعض الناس كانوا يدركون أن التاريخ لا يدلُّ دومًا على نهايات سعيدة، وأن الأمور قد تتطوَّر باتجاهات أخرى. ونحن نعلم اليوم أنهم كانوا على حق في حذرهم هذا عندما نمعن النظر في الماضي كما يتوجَّب على المؤرخ أن يفعل. فالقومية -مثلاً- التي هلَّلت لها الجماهير كانت لها نواح أخرى، إذ لم تكن القضية تقتصر على وجود كيانات مهيمنة لا تريد التخلي عن سلطتها، بل إن

الدول القومية الجديدة كانت تتنافس هي الأخرى -فيما بينها- تنافسًا حادًا ومع خصومها القدامى أيضًا، وقد يكون في هذا التنافس خطر على السلام . ثم إنه كلّما حققت إحدى القوميات أحلامها ظهرت قوميات غيرها؛ لقد نال المنغاريون مأربهم من الهابسبرغ في عام ١٨٦٧ عندما حوّلت الملكية القديمة نفسها إلى "ملكية مزدوجة"، ولكن سرعان ما راح رعاياهم من السلاف والرومانيين يتهمونهم هم -أيضًا- بالقمع والاستبداد. وإذا كان من حق الأمم الخاضعة لقيصر روسيا أن تتحرّر من نيره، فهل يجب أيضًا دعم جهود الإيرلنديين الكاثوليك في التحرُّر من الحكم البريطاني مع أنه حكم دستوري وبرلماني؟ وإذا كنت تؤمن بالقومية الإيرلندية، فهل تؤيِّد الإيرلنديين الكاثوليك أم أهل ألْستر البروتستنت فيها؟ هذا عدا عن أن غيوم القومية كانت قد بدأت بالتجمُّع خارج أوربا أيضًا، فماذا يجب أن يكون موقف الليبراليين الأوربيين من المطالب القومية للآسيويين والأفارقة الذين قد يستخدمون استقلالهم لمساندة التقاليد الاجتماعية القديمة والمتخلِّفة؟ ألا يعتمد رفاه الأمم الأوربية في النهاية على إمبراطورياتها الاستعمارية إلى حد ما؟ وربما كانت هذه الناحية بالذات من التقدُّم والليبرالية بحاجة لقدر أكبر من التمحيص قبل أن يجزم المرء بأنها تشير إلى مستقبل أفضل وأسعد للبشرية. لقد كان بعض الناس يفكِّرون بهذه الطريقة، وسوف تفرض هذه الأسئلة نفسها بصورة مرعبة في القرن العشرين.

الحياة والموت

من مصادر التشاؤم -عند بداية القرن التاسع عشر- كتاب لرجل الدين الإنكليزي توماس مالتوس نشر في عام ١٧٩٨ وكان يحمل عنوانًا طويلاً هو: دراسة حول مبدأ عدد السكان وطريقة تأثيره في التحسين المستقبلي للمجتمع. وكان هذا الكتاب يحاول أن يبيّن أن العالم من الناحية الديمغرافية عبارة عن آلية ذات توازن ذاتي، أي أن عدد السكان يميل دومًا للنمو ما لم يمنع عن ذلك بصورة مقصودة، ولما كانت موارد الغذاء في العالم محدودة في النهاية، فهو يسير دومًا نحو الكارثة لأن الغذاء لا يعود كافيًا في مرحلة ما، فتحصل -عندئذ- المجاعة والأمراض -وربما الحروب على موارد الغذاء أيضًا- ويموت الملايين من الناس، فينخفض عدد السكان إلى أن يعود الغذاء فيصبح كافيًا، وحين ذاك تعود هذه الدورة نفسها لتبدأ من جديد.

أعداد السكان

إلا أن هذا الأمر لم يحدث، بل إن القرن التاسع عشر كان في الحقيقة استمرارًا لتيار قديم من تزايد عدد السكان يعود إلى آلاف السنين، وقد تسارع هذا التيار في الأزمنة الحديثة، إذ إن عدد سكان العالم تضاعف بمقدار مثلين -في القرن التاسع عشر- بينما استغرق قبله حوالى أربعة قرون لكي يتضاعف بالمقدار نفسه. ويبدو أيضًا أن عدد سكان العالم يتزايد -منذ عام ١٨٠٠- من دون أن يمر

بنكسات مثل التي كان يمر بها في الأزمنة الماضية. وكان هذا الازدياد بالطبع أسرع في بعض البلاد منه في بلاد أخرى، وكذلك في بعض القارات. ففي عام ١٨٠٠ كانت فرنسا تضم أكبر عدد من السكان تحت علم واحد في أوربا إلى الغرب من روسيا، ولكنها في عام ١٩١٤ صارت في المركز الرابع بعد ألمانيا والدولة النمساوية المنغارية وبريطانيا. وكانت الولايات المتحدة أسرع تلك البلاد نموًا -خلال المرحلة نفسها- إذ صار عدد سكانها مساويًا في أربعينيات القرن التاسع عشر لعدد سكان بريطانيا، وكان الأمريكان في عام ١٩٠٠ قد انتشروا في كافة أنحاء القارة - بعد أن كان قسم كبير منها مجهولاً في عام ١٨٠٠ - وبلغ عددهم في تلك الأثناء ٧٦ مليونًا، أي بارتفاع قدره ألف بالمئة، منذ بداية القرن.

إن المعلومات المتوفِّرة عن بلدان أوربا وأمريكا أفضل من تلك التي نعرفها عن آسيا وأفريقيا، ولكن أعداد السكان كانت ترتفع في كل مكان. يبدو مثلاً أن الارتفاع في الصين قد بلغ ٤٠ بالمئة حتى صار عدد سكانها حوالى ٤٧٥ مليونًا، بينما ارتفع عدد سكان اليابان من ٢٨ إلى ٤٥ مليونًا، وعدد سكان الهند من ١٧٥ إلى ٣٠٠ مليون في القرن التاسع عشر. وكانت هذه كلها ارتفاعات كبيرة جدًا.

ولم يرتفع عدد سكان العالم قبل ذلك مثل هذا الارتفاع السريع والمستمر قط، ولما كانت أوربا تنمو بصورة أسرع بكثير من بقية أنحاء العالم، فقد ارتفعت أيضًا حصتها من سكان العالم حتى بلغت حوالى ٢٤% في عام ١٩٠٠، وكانت هذه النسبة عالية جدًا بل إنها في الحقيقة أعلى منها في أي زمن قبلها أو بعدها، وهي من أسباب تأثير أوربا الكبير على تاريخ العالم. ويمكننا من هذه الناحية أن نضم إلى أعداد الأوربيين أولئك الذين غادروا قارة أوربا للاستقرار خارجها

وأحفـــادهم أيضًا. فلولا الهجرة لكان عدد السكان في أوربا أعلى بخمسين مليونًا - في عام ١٩١٤- وكانت الأغلبية الساحقة من سكان الولايات المتحدة في -ذلك الحين- من أصول أوربية، كما كانت هناك مجموعات كبيرة من الأوربيين في كندا وأمريكا الجنوبية وأوستراليا وفي جنوب أفريقيا وشمالها، وكان هؤلاء جميعًا يتحدَّثون لغات أوربية ويعيشون بأساليب أوربية بعد تأقلمهم مع المناخات الجديدة، وكثيرًا ما كانوا يفكِّرون بطرق أوربية أيضًا. وقد بلغت الهجرة ذروتها في -أواخر القرن التاسع عشر- إذ كان حوالي مليون مهاجر يغادرون أوربا في كل عام في الفترة الواقعة بين ١٩٠٠ و ١٩١٤، وتسمى هذه الحقبة -أحيانًا- بالاستيطان الكبير، وكانت الهجرات التي شهدتها أوسع بكثير من الهجرات الكبرى للشعوب في التاريخ القديم. كما أنها كانت مختلفة من ناحية أخرى هامة عن جميع الهجرات الأخرى -تقريبًا- لأن أكثرها لم تكن إلى مناطق مسكونة ومتحضِّرة بل إلى مناطق شبه خالية من السكان، مثل الغرب الأمريكي، والمناطق الداخلية النائية في أوستراليا، وسيبيريا.

فرص الحياة

من مظاهر زيادة عدد السكان ازدياد أعداد متوسطي العمر والمتقدمين بالسن في عام ١٩١٩، أي أن الناس كانوا يعيشون حياة أطول. ويمكننا تمثيل السكان في أكثر البلاد في عام ١٨٠٠ بشكل أهرام عريضة القاعدة تستدق نحو الأعلى. كان الكثيرون من الأطفال في تلك الأيام يموتون في أعمار مبكرة جدًا، وكانت مرحلة الطفولة الأولى مرحلة خطيرة جدًا وكان الكثيرون من الرضع يموتون في العام الأول من حياتهم، وهو أكثر سنوات العمر خطورة. وكانت مرحلة الطفولة عمومًا محفوفة بالأمراض، ولكن إذا نجا منها المرء ووصل إلى عمر المراهقة

فإن فرص الحياة أمامه تتحسّن، ولو أنها تبقى ضعيفة بالقياس إلى ما هي عليه اليوم، ويستمر الوضع كذلك إلى أن يواجه الإنسان سن الشيخوخة بما يحمله من أخطار. أما إذا رسمنا مخططات للسكان في عام ١٩١٤ فإننا سوف نجدها مختلفة جدًا، وسوف نجد أن أضلاع الأهرام قد ارتفعت نحو الخارج وصارت أكثر عمودية في أكثر البلاد الأوربية، أي أن جميع الفئات العمرية باتت تعيش حياة أطول. ولم يكن هذا هو السبب الوحيد لنمو السكان، ولكنّه كان سببًا هامًا، ولما كان الناس يعيشون حياة أطول فقد ازدادت أعداد الأمهات والآباء وازداد بالتالي عدد الأطفال في الجيل التالي، وهكذا راح عدد السكان يتابع ارتفاعه.

في عام ١٩١٤ كان هذا التغيُّر أوضح ما يكون في الدول الأوربية المتقدِّمة - أما الولايات المتحدة فكانت حالة خاصة بسبب الأعداد الكبيرة من المهاجرين الشباب الوافدين إليها- وكان هذا النمو ينتشر أيضًا من شمال غربي أوربا حيث ظهر للمرة الأولى إلى جنوبها وشرقها، ولو أن الفروق كانت كبيرة بين البلدان المختلفة من حيث العمر المتوقَّع للطفل عند ولادته. كان الطفل المولود في إنكلترا في عام ١٩١٤ يتمتّع بفرصة لبلوغ السن المتقدِّمة أكبر بكثير من الطفل المولود في رومانيا مثلاً -فما بالك بالطفل المولود في الهند أو أفريقيا- ولم تكن الفروق بهذه الحدَّة قبل -مئة عام من ذلك- وقد كان هذا واحدًا من فروق كثيرة في حياة الناس كانت تتسع باستمرار بين أنحاء العالم المختلفة، إذ إنهم كانوا في الأزمنة الأبكر يتوقَّعون نفس الدرجة من الشقاء والجوع في كل مكان من العالم . فما الذي حدث لتوقعات مَلْتُس؟

القتل وصون الحياة

المفارقة أن الناس في أوربا وأمريكا الشمالية كانوا في -ذلك الوقت نفسه- قد بدؤوا بابتكار أساليب جديدة وأكثر فعالية في قتل بعضهم بعضًا. وقد شهد القرن التاسع عشر تقدمًا كبيرًا في التقنية العسكرية والبحرية، إذ ظهرت أنواع جديدة وقوية من المتفجرات حلّت محلّ البارود، مثل القطن المتفجر واللّدّيت والكورديت والـ (ت ن ت)، كما حلّت البنادق التي تحشى من المؤخرة محل البنادق التي تحشى من الفوهة الأمامية، والمدافع ذات الماسورة المحلزنة محل المدافع ذات الماسورة الملساء، فأعطى هذا سرعات أكبر في إطلاق النار ودقة أعلى ومدى أبعد. وعندما جاءت البنادق التكرارية -أي التي يمكن إطلاق النار منها عدة مرات من غير أن يعاد تعميرها- رفعت قوة المشاة بصورة هائلة، ثم حلّ محلّها الرشاش. وكبرت السفن الحربية والمدافع حتى بلغت أحجامًا هائلة، كما ظهرت الغواصات والألغام والطوربيدات كلها قبل عام ١٩١٤. ولكن يبدو مع هذا أن الحرب لم يكن لها أي أثر على تاريخ السكان في أوربا -وربما اختلف الأمر في آسيا- ففي كل حرب خاضها الأوربيون قبل عام ١٩١٤ وتتوفر عنها معلومات موثوقة كانت أعداد الجنود الذين قتلوا في العمليات الحربية على يد أعدائهم أقل من أعداد الذين قتلتهم الأمراض.

تقدم الطب والصحة العامة

لقد أعاقت الأمراض زيادة عدد السكان خلال القرن التاسع عشر. ولكن العلم والتقنية سوف يغيّران هذا الأمر عن طريق إيجاد طرق لصون الحياة بأسرع من

طرق القضاء عليها، وقد بدأت في القرن التاسع عشر مرحلة طويلة من الانتصارات على الأمراض عن طريق التطبيق المقصود للمعرفة العلمية، ولو أن تلك البّدايات كانت ضعيفة. وكانت هذه العملية قد ابتدأت في زمان أبكر بكثير، عندما أدرك الأوربيون أن السفن والبحارة تحمل معها الأمراض بطريقة ما يجهلونها، وكانوا قد بدؤوا بتحسين ترتيبات الحجر الصحي في المرافئ. وأدى هذا إلى القضاء على الطاعون في أوربا الغربية. لقد حدثت جائحات في مرسيليا ومسينا في القرن الثامن عشر ولكنها لم تنتشر مثل جائحات ستينيات القرن السابع عشر -عندما أصيبت إنكلترا بآخر الجائحات الشديدة- وفي بدايات القرن التاسع عشر عادت الحبوب المستوردة من البحر الأسود والشرق الأدنى وحملت الطاعون معها من جديد، فاكتسحت مرة ثانية أجزاء من شمال أفريقيا والبلقان التي كانت تحت حكم الأتراك، ولكنها لم تنتشر إلى أوربا. وحصلت في عام ١٩١٠ جائحة في غلاسغو نتجت عنها ٣٤ إصابة -فقط- مات منها ١٥.

من ناحية أخرى كانت أمراض أخرى تسبّب مآسي كبيرة في هذه المرحلة. فقد كانت جائحات التيفوس والجدري والزحار -الديزنطاريا- والكوليرا تحدث بصورة متكرّرة وعلى مدى عقود عديدة، بل ربما اشتدت لمرحلة ما في المدن الجديدة التي كانت تنمو بسرعة. ويبدو أيضًا أن أعداد الناس الذين ماتوا من الأمراض كانت مساوية لأعداد الذين ماتوا من الجوع في المجاعات المحليّة، مثل المجاعة الفظيعة التي حلّت بإيرلندا في عام ١٨٤٦. إلا أن السيطرة على هذه الأمراض كانت تزداد في عام ١٩٠٠ في أكثر بلاد أوربا الغربية. ومع هذا بقيت الأمراض القاتلة في مرحلة الطفولة الباكرة واسعة الانتشار، مثل الحمى القرمزية والتيفوئيد والدفتريا.

ولم يكن بإمكان الأطباء أن يقدِّموا الشيء الكثير ما عدا التوصية بالعناية الجيدة في حال الإصابة بالأمراض المعديَّة، ولكن الطب الوقائي كان قد خطا خطوة كبيرة إلى الأمام في القرن الثامن عشر باكتشاف أن التلقيح يمكنه أن يؤمِّن المناعة ضد بعض الأمراض. كما توجَّهت الوقاية إلى الأماكن والظروف التي تساعد على ظهور الأمراض، من خلال مجهود هائل على مستوى القارة الأوربية كلها في القرن التاسع عشر لجعل الحياة في المدن أكثر صحية. فقد بذلت جهود ضخمة لتأمين المياه النظيفة وإزالة فضلات المجارير وتنظيف الشوارع عندما بدأ الناس يدركون مدى أهمية هذه الأمور وتأثيرها على معدَّلات الوفاة. وفي عام ١٩١٤ كانت مدن كثيرة تسعى جاهدة لإدخال الهواء والضوء إلى الأحياء المزدحمة الفقيرة الواقعة في وسطها، وبدأت تنظيم البناء بحيث تضمن للمساكن حدًّا أدنى من الضوء والنظافة وعدم الازدحام. وكانت مدن أوربا وأمريكا الشمالية في عام ١٩١٤ أكثر صحية من القرى القذرة في أوربا الشرقية والبلقان، إذا حكمنا عليها من خلال طول الحياة وتراجع بعض الأمراض التي كانت شائعة في التجمّعات الكبيرة من السكان في الماضي. أما الأوصاف الفظيعة للقذارة والازدحام في مدن إنكلترا الصناعية -مثلاً- في بداية القرن التاسع عشر فقد كتبت قبل أن تبدأ هذه التغيُّرات بإعطاء نتائجها.

لقد تمَّ الكثير من هذه التغيُّرات عن طريق القانون، ولكن بعضها حدث من تلقاء نفسه فكانت من النتائج الثانوية للازدهار وتقدم التقنية. فقد توفرت مواد بناء أفضل وأرخص من السابق خاصة مادة الآجر، فتحسنت -عندئذ- بيوت الناس واستغنوا عن المواد القديمة من خشب وجص وقش التي كانت مرتعًا للجرذان والبراغيث والقمل. كما مكَّنت الأنابيب المصنوعة من الحديد المسبوك من تزويد المنازل بالماء الجاري وبالمصارف اللائقة. ووُجدت وسائل نقل رخيصة كالقطار

والترام سمحت للناس بالعيش بعيدًا عن مكان عملهم فخففت من الازدحام في مراكز المدن. وانعكس الكثير من هذه التغيُّرات بصورة غير مباشرة ولكن هامة على الصحة العامة. وتغيَّرت المستشفيات أيضًا، فلم تعد عبارة عن مستودعات رهيبة لإيواء المحتضرين والمنبوذين كما كان أكثرها في القرن الثامن عشر. وظهرت مهنة جديدة تمامًا هي مهنة التمريض، خاصة بفضل جهود الإنكليزية فلورنس نايتنغيل، ولولا هذا التخصّص الجديد لما أمكن تزويد المشافي بالعاملين فيها.

ولكن العلوم الطبية لم تحسن شفاء الأمراض والإصابات إلا بصورة متدرِّجة. ومن المساهمات البارزة في هذا المجال أعمال الفرنسي لويس باستور. فقد اكتشف باستور لقاحًا لداء الكلب، وأجرى تجربات هامة في أمراض النبيذ والجعة، وأنقذ صناعة الحرير الفرنسية من الدمار بأن أوجد طريقة لمهاجمة العصيَّات التي تصيب دودة القز، وابتكر أساليب للقاح ضد أمراض الماشية والدجاج، والأهم من هذا كله أنه وضع نظرية الجراثيم في انتقال الأمراض، وقد أحدث أكبر أثر في الطب عن طريق دراسة العدوى. ومهّدت أعمال باستور الطريق لأعمال الإنكليزي لِستر، الذي أدخل استعمال المواد المطهِّرة في الجراحة بعد أن تبيَّن له أن العدوى التي تصيب الجروح المفتوحة أثناء العمليات الجراحية يمكن منعها باستخدام بخاخ من حمض الكاربوليك. وقد خفض هذا الاكتشاف معدَّل الموت أثناء العمليات الجراحية تخفيضًا كبيرًا ومهَّد الطريق لاستخدامات أخرى للمواد المطهِّرة من أجل تخفيف العدوى. ثم كانت المواد المخدِّرة خطوة ثانية كبيرة في علم الجراحة، لأنها كسبت معركة البشرية ضد عدوِّها القديم أي الألم، كما مكَّنت من القيام بعمليات طويلة ومعقدة كانت مستحيلة قبل سنوات قليلة. وفي حوالى عام ١٩٠٠ كانت الكيمياء -أيضًا- قد بدأت بتقديم أسلحة جديدة للطب، فمكَّنت الأدوية الجديدة

من علاج الأمراض بصورة انتقائية، أي أنه أصبح بالإمكان توجيهها نحو أهداف معيَّنة، كما اخترعت أدوية أخرى للسيطرة على الأعراض. ومن الصعب جدًا أن نتخيل اليوم كيف كان العالم قبل اختراع الأسبرين، فالحقيقة أنك لا تجد اختراعات كثيرة خففت معاناة البشر مثل هذا الدواء.

كانت هذه التطوّرات قد بدّلت احتمالات الحياة والموت في الدول المتقدّمة تبديلاً كبيرًا بحلول عام ١٩١٤. فقد انخفض احتمال وفاة الذكور والإناث كثيرًا من العمل الجراحي أو من العدوى بأحد أمراض الطفولة عما كان عليه الأمر قبل مئة عام، كما انخفض الخطر على المرأة أثناء الولادة. وارتفعت حظوظ الناس بالعيش حياة أطول وبالنجاة من الألم. صحيح أنهم واجهوا في -الوقت نفسه- مشاكل جديدة لأن الحياة الطويلة تقتضي مجابهة أخطار الشيخوخة وعجزها، ولكن من الصعب جدًا أن نقول إن ما حدث لم يكن تقدُّمًا حقيقيًا. ورغم أنه كان تقدُّمًا محصورًا بمجتمعات قليلة وغنية نسبيًا وقادرة على التمتُّع بهذه التطورات، فإن هذه الأساليب الجديدة قد انتشرت في كافة أنحاء العالم، ولا يمكن للمعرفة الطبية إلا أن تنتشر. لقد حمل الأوربيون تقنياتهم إلى الخارج، فصارت تستخدم بحلول عام ١٩١٤ في أفريقيا وآسيا، ولو لم تكن قد أظهرت بعد تأثيرها الكبير على السكان كما فعلت في وطنها الأصلي.

منع الحمل

المفارقة أن العلم قد أضعف زيادة السكان أيضًا قبل عام ١٩١٤، وذلك عن طريق وسائل منع الحمل الحديثة التي أتى بها. وقد ظهرت تأثيراته أولاً في ميل الطبقات الغنية لأن يكون لها عدد أقل من الأولاد، فكان هذا واحدًا من أسباب

تضيق قاعدة الهرم الديمغرافي الذي كنت تراه في الدول الأكثر تقدُّمًا وغنى. إن وجود أعداد أقل من صغار السن بالنسبة إلى أعداد ذوي الأعمار المتوسطة والمتقدِّمة قد ساهم مع استطالة الحياة في جعل بنية السكان أقرب إلى العواميد العريضة منها إلى الأهرام. ولم تنخفض الأعداد الإجمالية مع انخفاض معدلات الولادة، لأن الناس صاروا يعيشون حياة أطول. إلا أن متوسط عمر السكان قد ارتفع. ويبدو أن الفرنسيين قد شعروا بهذا التغيُّر وأنه أقلقهم لأنهم اعتبروه دليلاً على أن أمتهم في تراجع وأنها لن يعود لديها ما يكفي من الجنود للدفاع عنها. ولكن معدلات الولادة انخفضت في غيرها من البلاد الغنية أيضًا، خاصة في تلك التي شهدت أول ارتفاعات سريعة في عدد السكان قبل عقود قليلة. وربما كان من قوانين علم السكان أن ازدياد الثروة يتبعه أولاً ارتفاع في عدد السكان ثم تباطؤ في سرعة الارتفاع مع هبوط معدَّلات الولادات. ولكن لا يمكننا في الحقيقة أن نجزم في هذا الأمر، لأن هناك عوامل كثيرة هامة مثل الدين والتقاليد الاجتماعية والحاجة الاقتصادية، تساهم كلها في تشكيل أنماط نمو السكان وتاريخه، فلا يجوز لنا إذًا أن نعمم. إن الشيء الواضح هو أن الناس الأوفر غنى وتعلمًا كانوا في عام ١٩١٤ يؤسِّسون عائلات أصغر من عائلات الفقراء عمومًا، إما لأنهم كانوا يؤجلون الزواج بصورة مقصودة فيقصر بذلك عدد سنوات الزواج التي تكون المرأة فيها مخصبة، أو لأنهم كانوا يحدون من عدد الأولاد بإحدى وسائل منع الحمل بدافع الحذر.

تأمين الغذاء للبشر

لم يكن العلم إلا واحدًا من أسباب عديدة أدَّت إلى ارتفاع أعداد البشر، و لم يكن هو السبب الأساسي. إن السبب الأساسي هو أن العالم كان يزداد غنى. وكان لا بد من وجود كميات أكبر من الغذاء من أجل القيام بهذه القفزة الكبيرة، والحقيقة أن الغذاء كان في عام ١٩١٤ متوفرًا بصورة لا سابق لها. كان إنتاج الزراعة في العالم قد ارتفع ارتفاعًا هائلاً -خلال القرن السابق- وبمعدَّل تجاوز النمو المتدرِّج الذي كان يجري في الأزمنة الأبكر، وكان يشبه من هذه الناحية نمو عدد السكان. ولكن كما أن أعداد السكان لم تنم بنفس المعدَّل في كافة أنحاء العالم ولا بصورة سلسَة ومنتظمة، كذلك لم يكن إنتاج الغذاء واستهلاكه منتظمًا أو متساويًا.

لقد ازدادت بالتأكيد كمية الغذاء المنتج في أفريقيا وآسيا، ولكن لم تزدد حصة الجميع منه. ولا يمكن أن يكون طعام الفلاح الهندي أو الصيني قد تغيَّر كثيرًا -خلال قرون عديدة- رغم الزيادة القليلة في كمية الغذاء، لأن أعداد الأفواه قد ارتفعت بصورة كبيرة. ومع هذا يبقى ارتفاع كمية الغذاء هو التقدُّم الأساسي في ثروة البشرية -خلال القرن السابق لعام ١٩١٤- وإن الإحصائيات المتوفرة لقياس هذه التغيُّرات هي أفضل منها في أي زمن قبله. لقد ازداد الإنتاج الزراعي ازديادًا هائلاً وغير مسبوق، وحصل القسم الأكبر من هذه الزيادة في الأراضي المزروعة حديثًا، مثل الأرجنتين وكندا والولايات المتحدة، حيث كانت الكميات المنتجة

تفوق الحاجة المحليَّة بقدر هائل وتزرع من أجل التصدير. ولكن المردود أيضًا قد ارتفع، وتقول إحدى الدراسات إن إنتاج ١٠٠ بوشل -البوشل = ٨ غالونات- من القمح في الولايات المتحدة في عام ١٨٠٠ كان يستغرق ٣٧٣ ساعة عمل، أما بعد مئة عام فكانت ١٠٨ ساعات كافية لذلك. وتشير حسابات أخرى إلى أن إنتاجيـــة الأراضي ارتفعت بين عـــامي ١٨٤٠ و١٩٠٠ بمقدار ١٩٠% في ألمانيا، و٩٠% في سويسرا، و٥٠% في إيطاليا، وهذه كلها أمثلة من أوربا. إن المصدر الأساسي لغذاء البشر كان دومًا الحبوب، التي تزرع منها أنواع مختلفة باختلاف المناطق، وإنتاج الحبوب وسيلة أساسية لتأمين الغذاء. وقد تضاعف إنتاج الحبوب في ألمانيا -مثلاً- بين عامي ١٨٥١ و ١٩١٣ بمقدار ثلاثة أمثال -تقريبًا- بينما ارتفع في هنغاريا بمقدار خمسة أمثال.

لقد كان هذا ازديادًا هائلاً في كمية الحريرات الغذائية، وساهم فيه تحسُّن إنتاج اللحم أيضًا. فقد ارتفعت أعداد البقر بصورة مطَّردة -خلال القرن التاسع عشر- من أجل تأمين حاجات الاستهلاك المتزايدة، ومثلها أعداد الغنم والخنازير، ولكن النمو الأسرع في تربية الحيوانات حدث في الأمريكتين وفي أوستراليا ونيوزيلندا. كان اللحم -منذ قرون- طعامًا غالي الثمن، ولكنه أصبح أكثر شيوعًا بكثير في -القرن التاسع عشر- سواء عند القصاب أو بأشكاله المعلبة والمعالجة بالطرق المختلفة.

وانتشرت أيضًا أغذية جديدة في بعض البلاد، كما أصبحت بعض الأطعمة الغالية أطعمة عادية شائعة -منذ القرن الثامن عشر- كان الأغنياء في أوربا يستخدمون السكر للتحلية بدلاً من العسل، ولكنه كان في -ذلك الوقت- بضاعة تأتي من المستوطنات وغالي الثمن نسبيًا. وفي القرن التاسع عشر ارتفعت كميات السكر المستوردة إلى أوربا ارتفاعًا كبيرًا وبدأت تصنع فيها كميات هائلة منه من

الشمندر السكري أيضًا. وقد أدى هذا إلى ارتفاع هائل في استهلاكه، فانخفضت أسعاره انخفاضًا كبيرًا وصار غذاء يوميًا عاديًا، وكان هذا تغيُّرًا هامًا في طعام الأوربيين. وقد شاع أيضًا استهلاك الشاي والقهوة، عدا عن الفواكه الأجنبية غير المألوفة التي صارت تتوافر بكميَّات أكبر بفضل التطوُّرات التقنية.

التغير الزراعي

إن هذا التحسُّن في كمية الغذاء ونوعيته -أيضًا- لم يكن له سبب واحد بسيط، بل كان نتيجة لعمليات عديدة. من هذه العمليات تحسُّن الزراعة، الذي تعود جذوره إلى -ما قبل عام ١٨٠٠- ولا فائدة من محاولة تحديد زمان دقيق له، بل يمكننا أن نقول إن «الثورة الزراعية» قد بدأت في إنكلترا في حوالى ١٦٩٠ - ١٧٠٠، وفي الولايات المتحدة بعد -حوالى تسعين سنة أخرى، وفي ألمانيا بعد سنوات قليلة، بينما لم تبدأ في روسيا إلا بعد عام ١٨٦٠- وقد انتشرت هذه الثورة شرقًا عبر أوربا خلال -القرن التاسع عشر- بينما كان أصحاب الأراضي الأوربيون قبل قرن واحد من ذلك يأتون إلى إنكلترا بحثًا عن المعلومات المفيدة ومن أجل شراء الحيوانات والآلات وطلب النصيحة، وعندما يعودون إلى أراضيهم كانوا يحاولون تطبيق ما رأوه ولكنهم قد لا يحرزون دومًا نجاحًا فوريًا في ذلك. ففي منتصف القرن التاسع عشر لم تكن ألمانيا وفرنسا مثلاً قد تبدَّلتا كثيرًا عما كانتا عليه قبل قرون عديدة، ولو أن إنتاجية بعض المزارع الجيدة قد بدأت ترتفع -حتى قبل عام ١٨٠٠- ونرى من هذا أنه يفضَّل ألا نجزم بصورة عامة فيما يتعلق بالتواريخ، وأن ندرك أن هذا التغيُّر الكبير قد تم بصورة متفرّقة وغير منتظمة، ولو أنه كان في النهاية تغيُّرًا كاسحًا.

إلا أن بعض عوامل هذا التغيُّر كانت واضحة لأنها حدثت بسرعة. من هذه العوامل إلغاء النظام الإقطاعي الذي تم في فرنسا في عام ١٧٨٩، ويعرّف هذا النظام أيضًا بأنه مجموعة من العادات والحقوق التقليدية التي كانت تعيق استغلال الأرض بصورة حرة. وقد انتشرت تغيُّرات مشابهة لهذا -خلال نصف القرن التالي- في بقية قارة أوربا إلى الغرب من روسيا، وعندما قررت الحكومة الروسية أخيرًا إلغاء عبودية الأرض في عام ١٨٦١ انتهت حقبة تاريخ أوربا الزراعي الذي ابتدأ بظهور العزبة في العصور الوسطى. -ومنذ ذلك الحين- صار العاملون بالزراعة في كافة أنحاء أوربا يعملون مقابل أجر أو في أرض هي ملك لهم، فصار حافز المصلحة الشخصية يلعب دوره الكامل في تحسين الزراعة. وقد شجَّع هذا على الاستثمار وتبنِّي الأساليب الجديدة وضم بقع الأراضي الصغيرة التقليدية ضمن وحدات أكبر وأكثر فعالية.

من الأسباب الأخرى لهذا الارتفاع الفوري في إنتاج الغذاء في العالم تطوُّر التقنية، الذي مكَّن من استثمار أراض جديدة خارج أوربا. لقد ازدادت مساحة الأراضي القابلة للزراعة في العالم بصورة سريعة وحادة، فأصبح بالإمكان استغلال سهول أمريكا الشمالية والجنوبية والمناطق المعتدلة من أوستراليا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بصورة لا سابق لها. وكان الفلاحون يأتون إليها لأن الاستيطان وكسب المعيشة أصبحا ممكنين بفضل الثورة الجارية في مجال النقل. فمع بدء استعمال القطار البخاري والسفن البخارية -منذ ستينيات القرن التاسع عشر- انخفضت تكاليف السفر أيضًا، وأصبح الغذاء الآتي من هذه المناطق أرخص. ومع تزايد الطلب عليه ازداد عدد الناس الذين يحاولون استغلال الأراضي العذارى. وحصل الشيء نفسه بصورة أقل حدة في أوربا الشرقية، فمع بناء السكك الحديدية

في روسيا وبولندا التي تحمل الحبوب إلى مدن أوربا الوسطى، ومع بدء مرافئ البحر الأسود بتصدير المزيد من حبوب روسيا في السفن البخارية، كانت التأثيرات على مناطق زراعة الحبوب تأثيرات حادة جدًا. أما في الأراضي البعيدة فكانت التأثيرات أشد من هذا، لأن تطوُّر عمليات معالجة الغذاء، مثل التعليب واختراع السفينة المبردة، قد جعل تربية الحيوانات أوفر ربحًا من أي وقت مضى.

وكانت هذه التغيُّرات وبالاً على بعض المزارعين الأوربيين لأنهم باتوا عاجزين عن منافسة الأسعار الرخيصة للمستوردات، وكان هذا الأمر ظاهرًا في كافة أنحاء القارة في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر. فقد انخفضت مساحة الأراضي المزروعة في بعض البلاد انخفاضًا حادًا، بينما تحوَّل المزارعون في بلاد غيرها إلى الزراعة التخصصيّة. ومرت صناعة الحليب ومشتقاته بتغيُّرات هائلة خاصة في الدنمرك التي طوَّرت -أيضًا- تربية الخنـــزير واستغلاله بصورة كبيرة جدًا، وصار الفلاحون يلجؤون إلى زراعة الخضار والفواكه من أجل الهرب من كارثة زراعة الحبوب. وقد اقتضى عبور سنوات الكساد في -أواخر القرن التاسع عشر- مجهودًا رهيبًا للتأقلم في كافة أنحاء أوربا الغربية. وبدأت أعداد الأشخاص المعتمدين على الزراعة في معيشتهم بالتقلُّص.

التغير البيئي

لقد كانت للثورة الزراعية نتائج بيولوجية تجاوزت كثيرًا نطاق حياة البشر. كانت النباتات تنقل من بلد إلى آخر لكي تتأقلم مع ظروف جديدة في بقاع أخرى من العالم، وعاد الإنسان ليتدخَّل في عملية الاصطفاء الطبيعي، ولم يكن هذا طبعًا بالأمر الجديد، فقد سبق له أن أدخل الحرير إلى أوربا والبطاطا الحلوة إلى أفريقيا.

ولكن هذه التغيُّرات صارت تتم -الآن- على مستوى أوسع بكثير بسبب ازدياد أعداد السكان والتقنيَّات الصناعية الجديدة. فقد ظهرت مزارع المطاط في مَلَقا بجنوب شرقي آسيا في -السنوات الأولى من القرن العشرين- بعد أن جلبت أشجاره من أمريكا الجنوبية، وبدأ الشاي يزرع على نطاق واسع في سيلان وشرق أفريقيا، ونقلت الكرمة من أوربا إلى كاليفورنيا وأمريكا الجنوبية. كما أن الحيوانات كانت تهاجر أيضًا، فقد جلب الإسبان الحصان إلى العالم الجديد -منذ زمن بعيد- وازدادت في القرن التاسع عشر العناية بالاستيلاد الانتقائي للأبقار المناسبة للمناخات غير المعتدلة، فساهم هذا الأمر في تزويد الأمريكتين وجنوب أفريقيا بقطعانها الهائلة، بينما ازدهر خروف المرينوس في أوستراليا. ولكن نتائج عمليات النقل هذه لم تكن دومًا نتائج إيجابية، فقد أحضرت إلى أوستراليا في خمسينيات القرن التاسع عشر أربعة أزواج من الأرانب ما لبثت أن تكاثرت مثل وباء -خلال سنوات قليلة- كما عانت الحيوانات الأصلية من اعتداءات الذين استغلوها للحصول على اللحم وغيره من منتجاتها. وكان الناس بطيئين في وعيهم لتأثير قتل الحيوانات الواسع وخطره على البيئة. ونتجت عن ذلك بعض النتائج المريعة، مثل انقراض ثور البيسون الأمريكي على أيدي الصيادين من أجل إطعام عمال بناء السكك الحديدية مثلاً، كما لحقت بحيواني الفقمة والحوت في قارة أنتاركتيكا والمحيطات الجنوبية أضرار جسيمة في بداية القرن التاسع عشر.

كانت الزراعة إذًا أهم نواحي الثورة الكبيرة الجارية في مجال استغلال الموارد الطبيعية، ولكنها لم تكن الناحية الوحيدة. لقد ظلَّ أكثر البشر في -بداية القرن العشرين- يحصِّلون معيشتهم من الأرض مباشرة، ولكن الأعداد القليلة منهم التي كانت تعيش في دول العالم الأوربي كانت تنتقل إلى حياة اقتصادية جديدة مبنية

على الإنتاج الصناعي، وربما كان هذا التغيُّر أهم تغيُّر في تاريخ البشرية -منذ اختراع الزراعة، أو حتى منذ اكتشاف النار- ولم يكن بإمكان هذا التغيُّر الصناعي أن يحدث إلا بتوافر كميات كبيرة من الغذاء. كانت الزراعة -عندئذ- مختلفة جدًّا عن الزراعة القديمة الهزيلة التي كانت أشبه بعائق أمام تطوُّر البشر -أما الآن- فلم تعد الزراعة عائقًا، بل إنها صارت واحدًا من عوامل دفع التطوُّر نحو الأمام.

الوجه الجديد للصناعة

هناك تعبير قديم آخر يعود هذه المرة إلى القرن التاسع عشرة ومازال مألوفًا اليوم، هو تعبير «الثورة الصناعية». وقد أوجده رحل فرنسي ليصف به واحدًا من التغيُّرات الاجتماعية الكبرى التي كان يراها تجري من حوله. وهو يقصد بها تبدُّل المجتمع وإنتاج البضائع المصنعة بكميات أكبر وعلى مستوى أوسع من أي زمن مضى. وكان هذا التطوُّر يعتمد على جمع أعداد كبيرة من العمال للقيام بذلك، وعلى استخدام الآلات العاملة على الطاقة بأعداد متزايدة -ومنذ ذلك الحين- تستخدمَ كلمة صناعة industry بشكل دائم -تقريبًا- للدلالة على التصنيع الواسع المدى*.

مع هذا لم يكن هناك في عام ١٩١٤ إلا بلاد قليلة يمكننا أن نسميها حقًا دولاً صناعية industrialized -وهي كلمة أخرى تعود إلى القرن التاسع عشر- وكانت أبرز تلك الدول هي بريطانيا، إذ لم يكن يعمل فيها بالزراعة في عام ١٩٠١ إلا أقل من ١٠٪ من مجموع القوى العاملة، والولايات المتحدة وهي ذات أكبر إنتاج إجمالي، وألمانيا. وبين الدول الأصغر تبرز بلجيكا أيضًا، كما كانت هناك دول أوربية عديدة فيها قطاعات صناعية كبيرة، مثل فرنسا وإيطاليا وروسيا -التي كانت تنمو بسرعة- والسويد. ولكن الصناعة في هذه الدول كانت صناعة محليَّة أو

---

* المعنى الأقدم للكلمة الإنكليزية هو الجد والمثابرة - المترجم

متخصِّصة، فقد كان لإسبانيا -مثلاً- مصانع أقمشة في كَتَلونيا، وبعض المدن المختصَّة بالتعدين وصنع الفولاذ في أستوريا وبسكايا، بينما كانت المصانع قليلة في أنحائها الأخرى.

لقد لاحظ الناس بسرعة أن قدوم الصناعة قد يُغيِّر نمط حياتهم بأكمله. وكان هذا التغيير في المراحل الأولى تغييرًا قاسيًا جدًا في بعض الأحيان. فالحرفيون الذين كانوا يعملون في بيوتهم لخدمة الأسواق الصغيرة كثيرًا ما كانوا يجدون أنفسهم بلا عمل. وعندما أعيد تنظيم صناعة النسيج على أساس المصنع لم يعد بإمكان الحرفيين العاملين في الحياكة والنسج في بيوتهم أن ينافسوا البضائع الأرخص التي أمَّنتها الآلات والأسواق الكبيرة، فوجدوا أنفسهم مضطرين للقبول بهذا الواقع الجديد والبحث عن عمل في مصنع ما، إذا أمكنهم ذلك. وكان هذا تغيُّرًا آخر، هو البزوغ التدريجي لمجتمع يحصِّل فيه أكثر الناس العاملين دخلهم من التصنيع أو من الأعمال الأخرى التي نشأت من حوله. ولم يكن هذا الأمر ممكنًا دومًا، إذ كان هناك الكثير من الأيدي العاملة الرخيصة، وكانت الأجور منخفضة والأرباح عالية بسبب وجود تلك الأعداد الكبيرة من العاطلين عن العمل.

التمدين

من التغيُّرات الأخرى الهامة التبدُّل الكبير الذي طرأ على حياة المدن. فقد ازدادت أعداد الناس المقيمين في المدن وازدادت معها نسبة عدد سكانها إلى مجموع السكان في دول كثيرة. ومن الصعب أن نقارن الدول بشكل مباشر لأن التعاريف تختلف من مكان إلى آخر، ولكن من المفيد لفهم تلك التطوّرات أن نذكر أن نسبة سكان المدن في إنكلترا في عام ١٨٠١ كانت حوالى ١٦%، بينما ارتفعت بعد

تسعين سنة إلى أكثر من ٥٣%. وقد ازداد عدد المدن وحجمها في كافة المناطق الصناعية، فبين عامي ١٨٠٠ و١٩١٠ كبرت برلين حوالى عشرة أمثال -فتجاوز عدد سكانها المليونين- وفيينا حوالى ثمانية أمثال -فبلغت نفس حجم برلين تقريبًا- ولندن حوالى سبعة أمثال -وبلغت ٧,٢ مليون نسمة- وكان هذا التوسُّع أحيانًا ينتهي بغياب الحدود السابقة بين الأحياء بحيث يعجز المرء عن معرفة أين ينتهي أحدها ويبدأ الآخر. وقد سبَّبت هذه التبدُّلات تغيُّر شكل بعض المناطق تغيُّرًا كاملاً -خلال نصف قرن- مثل منطقة بلاك كَنتري في إنكلترا ووِست رايدِنغ في يوركشر، ومنطقة الرُّور في ألمانيا. كما أن المرافئ القديمة مثل هامبرغ ومرسيليا وليفربول أبدت نموًا سريعًا مع نمو التجارة الدولية وازدهارها.

في النصف الأول من القرن التاسع عشر كانت الحكومات تعتبر أنها لا يجب أن تتدخَّل في هذه العملية، بل أن تتركها تجري وحدها من دون تخطيط مسبق كنتيجة لآلاف القرارات الفردية التي يتخذها الآلاف من المخترعين والمصنعين والبنائين ورجال الأعمال. ولكن نتائج ذلك كانت مأساوية، لأن بعض المناطق التي كانت -منذ عقود قليلة- مدنًا ريفية صغيرة مثل مانشستر قد نمت نموًا هائلاً من دون أن تكون لها موارد عامة -وحتى في خمسينيات القرن التاسع عشر- كان العمر المتوقع للطفل الذكر المولود هناك حوالى ٢٥ سنة. لقد راح البناءون يشيدون الأكواخ بشكل صفوف يستند فيها كل كوخ إلى ظهر الآخر، وتطل على شوارع ليس فيها من وسائل التصريف إلا مسال راكد في منتصفها. وكانت الشوارع غير مرصوفة ولا مضاءة ولم تكن تنظف، وكنت تجد في مدن القارة الأوروبية مباني كبيرة مكونة من شقق يعيش فيها عشرة أشخاص أو اثنا عشر شخصًا في غرفة واحدة.

ولم يظهر الوعي لأهمية النواحي الصحية إلا ببطء، أولاً بسبب قلة المعرفة والموارد، وثانيًا لأن أصحاب القرار والرأي كانوا متفقين على أن أفضل طريقة لضمان نمو الثروة للجميع هي عدم التدخُّل في الحياة الاقتصادية وترك السوق تنظم بنفسها أسلوب حياة الناس. وهذه هي المرحلة التي بلغت فيها أفكار سياسة عدم التدخُّل laissez-faire في القرن الثامن عشر أوسع تأثيراتها. ولن تظهر أفكار الإصلاح إلا في النصف الثاني من القرن، عندما راح بعض محافظي المدن يلحون على وجوب أن تقوم السلطات، أي في هذه الحال الحكومات المحليَّة، بامتلاك وإدارة الخدمات العامة مثل تأمين المياه والنقل، ونذكر من هؤلاء جوزف تشيمبرلن محافظ مدينة برمنغهام الذي صار -فيما بعد- من الدعاة البارزين للتوسُّع الاستعماري، وكارل لوغر محافظ مدينة ڤيينا الذي يدين بالكثير من دعمه للعداء للسامية.

لقد سبَّبت سياسة عدم التدخُّل شقاء في حياة العمال لا مثيل له. كانت ساعات العمل في المصانع طويلة والانضباط شديدًا والأجور منخفضة. وكانوا يشغلون النساء والأطفال إذا أمكن لأن أجورهم أخفض من أجور الرجال. وكان أرباب العمل يطالبون القانون بأن يساعدهم في الحفاظ على هذا الوضع، عن طريق منع العمال من تشكيل نقابات للدفاع عن أنفسهم مثلاً، أو عن طريق إقناع السلطات بأن الإضرابات أعمال مخرِّبة ومهدِّدة للنظام الاجتماعي.

إن هذه النواحي الفظيعة التي كنت تراها في بداية الحركة الصناعية، والتي سوف تتكرَّر في بلاد العالم الواحدة تلو الأخرى مع تحولها إلى بلاد صناعية، قد جعلت بعض الناس يعتبرون أن الصناعة لا تفيد إلا الأفراد القلائل الذين يجنون الأرباح منها. ولكن الحقيقة أن الكثيرين من عمال المصانع في المدن كانوا في الأجيال الأولى آتين بالأصل من قرى فقيرة، وإذا وجدوا عملاً فإنه كان يؤمِّن لهم

دخلاً أفضل مما يمكن أن يحصِّلوه كعمال في الزراعة. كما أن تشغيل الأطفال والنساء كان شائعًا في الريف أيضًا -وهو مازال شائعًا حتى اليوم في كثير من بلاد آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية- ومن الواضح أيضًا أن ثروة الدول الصناعية قد انعكست إلى درجة ما على مواطنيها على المدى البعيد، لأنهم صاروا يعيشون حياة أطول وصارت أعدادهم تزداد. ولكن كما يقول أحدهم في موضع آخر «كلنا سنموت على المدى البعيد».

الاشتراكية

كان بعض الأشخاص البعيدي النظر يدركون أن عملية التصنيع هذه عملية لا سابق لها، وأنها بحاجة إلى أفكار جديدة تمامًا لفهمها، وإلى برامج عمل جديدة لإصلاح بعض عواقبها. وكان الكثيرون يعتقدون أن من طرق تحقيق هذا الإصلاح أن ينتظم العمال بصورة مباشرة في نقابات مهنية تعتمد قوَّتها الجماعية في النهاية على الإضرابات من أجل إجبار أرباب العمل على تحسين الأجور وظروف العمل. وقد قاوم أرباب العمل الأغنياء هذا الشكل من التنظيمات مقاومة طويلة في جميع البلاد الأوربية وفي الولايات المتحدة، وكان القانون والشرطة يقفان إلى جانبهم ويساعدانهم. ولكن من ناحية أخرى كان مئات الآلاف -وأحيانًا- الملايين من العمال قد شكَّلوا نقابات مهنية لهم في جميع البلاد الصناعية بحلول عام ١٩٠٠، وكانت هذه النقابات قد أحرزت نجاحًا كبيرًا في تحسين أوضاع أفرادها.

في هذه الأثناء، كان الانتقاد الفكري والسياسي للمجتمع المبني على مبادئ عدم التدخُّل قد أدى إلى ظهور عقائد متنوعة جُمعت كلها تحت اسم فضفاض هو «الاشتراكية» socialism. وكان دعاة هذه العقائد يشتركون -فيما بينهم-

بكراهية هذا الوضع، الذي اعتبره بعضهم استغلالاً مقصودًا واعتبره بعضهم الآخر نتيجة حتميَّة للنظام الرأسمالي الذي تهيمن عليه السوق. وكان البعض يتطلّعون إلى الصراع لكسر نير الظلم والتفاوت الاجتماعي، بينما كان بعضهم يرون أن مسيرة التاريخ الحتمية كانت إلى جانبهم، وأنها سوف تشهد في النهاية زوال النظام الرأسمالي وحلول نظام أكثر عقلانيَّة وعدالة في توزيع الثروة الهائلة في العالم الصناعي. وإن أكثر أولئك المفكّرين تأثيرًا وشهرة هو الفيلسوف الألماني كارل ماركس.

إن العقيدة التي سميت «الماركسية»، والتي كانت تزعم أنها مبنيَّة على كتاباته مع أنه صار يستنكرها على ما يبدو، باتت هي المهيمنة على الاشتراكية الأوربية بحلول عام ١٩٠٠. والفكرة التي شدَّد عليها ماركس بالتأكيد، والتي أعطت تلاميذه تلك الثقة الهائلة، هي أن استغلال أرباب العمل للپروليتاريا الصناعية سوف يؤدي -حتمًا- إلى الثورة الاجتماعية والإطاحة بالقمع الرأسمالي، وإلى تأسيس مجتمع منظّم بصورة عقلانية يكون البشر فيه أخيرًا أحرارًا بحق.

لقد صارت الماركسية لدى الكثيرين أشبه بعقيدة دينية تحثهم على الانضباط والعمل مثل العقائد الدينية السابقة لها، كما أنها بدت ملائمة للتيار الإيديولوجي المادي «العلمي» الذي برز في عصر انحسر فيه الإيمان بالدين. وتبنَّى الماركسيون أيضًا تلك الفكرة الفرنسية الملهمة التي تعتبر الثورة الشعبية تجسيدًا للصراع من أجل الحقوق السياسية والديمقراطية. بل كان هناك بحلول عام ١٩٠٠ منظمة دولية للأحزاب السياسية الماركسية وجماعات الطبقة العاملة هي المنظّمة الدولية الثانية، التي كانت تتطلّع بثقة إلى تبدُّل قريب في المجتمع. ولكن الأمر الغريب هو أن العلامات كانت -منذ ذلك الحين- تشير إلى غير ذلك، فبحلول نهاية القرن لم تكن قد حدثت أية ثورة شعبية بأي قدر من النجاح في أية دولة كبرى -منذ عقود

عديدة- بل كان تنظيم الحكومة وتأمينها لخدمات الإنعاش قد بدآ بتحسين حال العمال في بعض الدول، ولو بدت لنا هزيلة بالقياس إلى معاييرنا الحالية.

كانت هذه واحدة من النتائج البعيدة للتصنيع التي يمكن رؤيتها -عند بداية القرن العشرين- لقد كانت الخريطة الاقتصادية للعالم في عام ١٩١٤ خريطة موحدة أكثر من -أي وقت مضى- ولو أن التطوُّر الصناعي كان -في ذلك الحين- محصورًا بأوربا وأمريكا الشمالية، مع حالات استثنائية قليلة خاصة في الهند والصين واليابان. وهكذا كتب لهذه الأجزاء من العالم من جديد مصير تاريخي مختلف عن أنحائه الأخرى مثلما كانت الحال -منذ زمن بعيد- فصارت تشترك -الآن أيضًا- بغناها المادي الكبير. وكان هذا أبرز التغيُّرات التي طرأت على أوربا -منذ غزوات البرابرة- وقد أثَّر أيضًا في مظهر البلاد وهيئتها تأثيرًا أكبر من تلك الغزوات القديمة.

المجتمع في العصر الصناعي

كان هذا التغيُّر نقطة تحوُّل هامة في تاريخ البشرية -فخلال ١٥٠ سنة تقريبًا- تحولت المجتمعات من فلاحين وحرفيين يعملون بأيديهم إلى عمال آلات ومحاسبين. وقضى هذا لدى ملايين الناس على الشعور الذي كان يجمع بينهم، مثل أجدادهم من قبلهم، بأن الحياة تسيطر عليها الزراعة وأن إيقاعها يحدده التقويم الزراعي وشروق الشمس وغروبها. وحتى خارج أوربا تبدّلت حياة الملايين من الناس بسبب الارتفاع الهائل والمتزايد في الطلب على المواد الأولية من أجل تلبية حاجات الدول الصناعية. ولم يكن هذا ضارًا تمامًا بسكان البلاد التي كانت تؤمِّن تلك المواد «الأولية»، ولكن استفادتها كانت عادة أقل بالكثير الكثير من استفادة سكان الدول المتطوِّرة اقتصاديًا.

وراحت الثروة تزداد في تلك الدول جاعلة إياها متميزة ومختلفة عن بقية أنحاء العالم. كان النقل العام -مثلاً- قد تحسَّن في كافة أنحاء أوربا في عام ١٩١٤ عما كان عليه قبل -مئة عام- فأصبح التنقل أسهل، وازداد توفر العناية الطبية والتعليم، وكثرت المحلاّت التي تقدِّم للناس البضائع المختلفة. وكانت هذه الحقائق جزءًا أساسيًا من زيادة الثروة التي أمَّنت للأوربيين وللشعوب المتحدِّرة من أصول أوربية في قارات أخرى طعامًا أوفر من سكان الأنحاء الأخرى من العالم. وقد ارتفعت مستويات معيشتهم من نواح كثيرة، وكان الأوربيون وأبناء عمومتهم في القارات الأخرى أكثر الشعوب استفادة من هذه الثروة المتزايدة. ولهذا فقد عمَّق هذا التوسُّع الكبير في الثروة من اللامساواة بين الأجزاء المختلفة من العالم. وربما لم يخطر هذا التغيُّر ببال أحد، فكان مثل غيره من الانقلابات التاريخية الكبرى، من حيث أن تأثيراته تجاوزت إلى حد بعيد ما كان يحلم به من ابتدؤوه أصلاً.

إن أوضح التغيُّرات وأسهلها على القياس هو زيادة الإنتاج الصناعي. وهناك عدد قليل من المواد الأساسية ذات الأهمية الخاصة والتي تعطينا فكرة جيدة عما كان يجري. ومن هذه المواد الفحم، الذي كان المصدر الأساسي للطاقة غير العضلية في مجال التصنيع والنقل في هذه الحقبة، إما بصورة مباشرة لتأمين الحرارة كما في صناعة صهر المعادن، أو بصورة غير مباشرة عن طريق إنتاج البخار ثم الكهرباء - فيما بعد- وقد ارتفع إنتاج الفحم السنوي في المملكة المتحدة من ١١,٢ إلى ٢٧٥,٤ مليون طن بين عامي - ١٨٠٠ و١٩١٠- بل إن الولايات المتحدة رفعت إنتاجها السنوي من ٣٠ إلى ٤٧٤ مليون طن بين عامي -١٨٥٠ و١٩١٠- أما المادة الثانية فهي الحديد، وهو المادة الأساسيَّة لصناعة الآلات وبالتالي لجميع أنواع التصنيع فضلاً عن البناء. وهذه هي الأرقام التقريبية لإنتاجه:

إنتاج الحديد الخام بملايين الأطنان

	المملكة المتحدة	ألمانيا	فرنسا	الولايات المتحدة
١٨٥٠	٢,٧٢	٠,٢٥	٠,٥٦	٠,٥٦
١٩٠٠	٨,٧٨	٠,٨٠	٢,٦٦	١,٣٨
١٩١٤	٩,٨	١٤,٨٤	٤,٦٦	٣٠,٩٨

ثم أصبح الفولاذ بعد ذلك هو المادة الأساسية في الصناعة لأن قساوته العالية جعلته أفضل من الحديد. ولم يكن إنتاجه في البداية يتم إلا بكميات صغيرة جدًا، ولكن تحسُّن وسائل تصنيعه جعله ينتج بأسعار أرخص بكثير في أواخر القرن التاسع عشر. وهذه هي الارتفاعات التي طرأت على إنتاجه:

إنتاج الفولاذ بملايين الأطنان

	المملكة المتحدة	ألمانيا	فرنسا	الولايات المتحدة
١٨٩٠	٣,٦٠	٢,٨٩	٠,٧٧	٤,٣٠
١٩٠٠	٥,٠٤	٧,٧١	١,٧٠	١٠,٤٠
١٩١٠	٦,٩٣	١٦,٢٤	٤,٠٩	٢٦,٥٠

يؤكد هذا الارتفاع على المستوى الكبير لهذه الثروات الجديدة في بعض الدول، ويدل بالتالي على اتساع الهوة بين الأغنياء والفقراء. كما أنه يبين كيف كانت علاقات الدول بعضها ببعض تتغيّر بصورة حادة. كانت بريطانيا أول بلد عرف حركة التصنيع، وقد ظلّت في الطليعة زمنًا طويلاً وكانت في منتصف القرن

التاسع عشر «ورشة العالم»، كما كان مواطنوها يحبون أن يقولوا. إلا أنها في عام ١٩٠٠ لم تعد في المقدّمة، بل كانت ألمانيا قد سبقتها من نواح كثيرة -ومنذ ذلك الحين- كان التفوق الصناعي الإجمالي للولايات المتحدة على المستوى العالمي قد أصبح واضحًا أيضًا.

تدل هذه الأرقام المتعلقة بالمواد الأساسية -أيضًا- على التعقيد المتزايد في بنية الصناعة. لقد مكّن الفحم من اختراع القطار البخاري، وكانت سككه الحديدية بحاجة للحديد فساعدت بذلك على بناء المزيد من مصانع هذا المعدن. وزاد هذا من الطلب على خاماته الأوليَّة -كما صار بالإمكان نقلها مسافات أبعد وبكلف أرخص إلى المعامل بواسطة السكك الحديدية بدلاً من الحصان والعربة- وازدادت الحاجة لعمال المناجم، كما مكّنتهم أجورهم من شراء المزيد من الملابس، فازداد الطلب على الأقمشة في أوربا وارتفع بالتالي إنتاج القطن والصوف في القارات الأخرى. وجعل هذا رجال الأعمال يضعون آلات أحدث في مصانعهم، وكان هذا بحاجة للمزيد من الحديد، وهلم جرًا...

التجارة العالمية

لقد شملت هذه العملية في النهاية العالم كله. كانت مصانع أوربا تستهلك المواد الأولية من الخارج بكميَّات هائلة، مثل القطن ونبات الجوتة والخشب والمعادن. ففي عام ١٨٥٠ كان أكثر من نصف الصوف المستخدم في مصانع إنكلترا يأتي من أوستراليا، كما كانت فرنسا تستورد أكثر من نصف حاجتها من خارج أوربا أيضًا في عام ١٩١٤. وقد تكتشف أحيانًا استخدامات جديدة لمواد أولية قديمة، ومن الأمثلة البارزة على ذلك المطاط قرب -نهاية القرن التاسع عشر- الذي بدَّل الحياة الاقتصادية على بعد آلاف الأميال من مكان استخدامه. وكانت هذه المواد الأولية، فضلاً عن الأطعمة والبضائع المصنَّعة، تنقل بين أطراف العالم مؤدِّية إلى ارتفاع حاد في التجارة العالمية. وكانت أكبر الدول التجارية قاطبة هي بريطانيا، وقد ارتفعت القيمة الإجمالية لصادراتها ووارداتها معًا من حوالى ٥٥ مليون جنيه في عام ١٨٠٠ إلى أكثر من ١,٤٠٠ مليون جنيه في عام ١٩١٣.

وهكذا ظهرت للمرة الأولى سوق عالمية حقيقية. فصار بإمكان الناس أن يبيعوا ويشتروا في كافة أنحاء العالم مثلما كانوا يبيعون ويشترون ضمن البلد الواحدة، وفي عام ١٩١٤ باتت البشرية كلها تشكِّل بصورة مباشرة أو غير مباشرة جزءاً من هذا المجتمع التجاري الواحد الكبير، سواء أعلمت بذلك أم لم تعلم. فكانت أسعار الحبوب في شيكاغو أو اللحم في بيونس آيرس أو الفولاذ في إسَّن بألمانيا تسبِّب تغيُّر أسعار مواد أخرى في كافة أنحاء العالم. وكانت هذه السوق

العالمية الأولى ذات الأسعار العالمية دليلاً على وجود «عالم واحد»، على الأقل من الناحية الاقتصادية، وقد اكتملت أخيرًا عندما انفتحت الصين واليابان وأفريقيا انفتاحًا كاملاً على التجارة مع أوربا وأمريكا في القرن التاسع عشر. كانت هذه التجارة تعتمد على ترتيبات قديمة في إقراض الأموال وتبادلها، وكان أهمها نظام تسديد أثمان البضائع عن طريق كمبيالات مسحوبة على المصرفيين والتجار الأوربيين -أي أن عليهم تسديدها- وكان هذا النظام وليد عمليات التبادل القديمة التي ابتدأت في العصور الوسطى أولاً بين عدد قليل من المراكز التجارية الأوربية الكبرى. وقد صارت هذه العمليات مركزة في أكمل أشكالها في لندن، التي أضحت في عام ١٩١٤ مركز شبكة عالمية من التجارة، وكان فيها تجمع كبير من المؤسَّسات المالية لا مثيل له في أي مدينة أخرى. وكان هذا النظام برمته يقوم على التداول بالأوراق بشكل كمبيالات قابلة للتسديد أو أوراق بنكنوت أو شيكات، وكانت هذه الأوراق دومًا قابلة للاستخدام لشراء بضائع أخرى أو لتحصيل ثمنها في النهاية بشكل ذهب. وكانت جميع الدول المتحضِّرة تبني عملتها على الذهب، ولهذا لم تكن أسعار العملات تتأرجح كثيرًا. فكان بإمكان المرء أن يسافر إلى أي ركن من أركان العالم وبجعبته عملات ذهبية بشكل جنيهات إنكليزية أو دولارات أمريكية أو ماركات ألمانية وأن يسدّد بها مصاريفه. وقد جعل هذا الأمر التجارة العالمية أمرًا سهلاً جدًا. وكانت التجارة مبنيَّة على قاعدة الذهب هذه، فلم يكن التجار بحاجة لتخمين ما سوف تكون عليه قيمة عمله ما بعد أسابيع أو أشهر قليلة.

ولكن الدول المختلفة كانت -أحيانًا- تتدخَّل في التجارة عبر حدودها عندما تجد سببًا يدعوها إلى ذلك. فقد حدث في ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر ركود اقتصادي واسع الانتشار، جعل بعض الحكومات تحاول أن تحمي

منتجيها ومزارعيها عن طريق فرض ضرائب خاصة على البضائع المستوردة. وكانت بريطانيا هي الدولة الكبرى الوحيدة التي رفضت القيام بهذا الإجراء، وظلّت متمسّكة بتقاليد «التجارة الحرة» التي كانت تعتبرها مسؤولة عن جعلها دولة تجارية كبيرة وعن تأمين الغذاء الرخيص لها. ولكن حتى ضرائب سنوات التسعينيات هذه تركت مجالاً واسعًا لحركة التجارة الدولية.

كانت المناطق المختلفة من العالم ضمن هذه السوق الدولية تلعب عادة أدوارًا اقتصادية مختلفة، فكانت أوربا بالإجمال مستوردًا أساسيًا للمواد الأولية من طعام ومستلزمات للصناعة من القارات الأخرى، وكانت بالمقابل تصدّر البضائع المصنعة، فأصبحت بذلك محرك التجارة العالمية. وبسبب نمو عدد سكانها وازدياد ثروتها ومصانعها النهمة التي لا تشبع كانت أوربا تنقل كميات هائلة من الطعام والمعادن والخشب والبضائع المصنعة بين أطراف العالم المختلفة. كانت بريطانيا -حتى ستينيات القرن التاسع عشر- تنتج القسم الأعظم من الحنطة واللحوم التي تستهلكها، أما في عام ١٩٠٠ فقد صار ٨٠٪ من حنطتها و٤٠٪ من لحومها مستوردة. ولكن مع هذا كانت الحركة التجارية الأساسيَّة هي بين الدول الصناعية نفسها، فكانت البضائع تنقل بكميات كبيرة بين الدول الأوربية وبين أوربا والولايات المتحدة، وكانت الأخيرة بالطبع تزودها بالكثير من المنتجات الزراعية. وفي عام ١٩١٤ كانت أوربا تأخذ أكثر من ٦٠٪ من واردات العالم وتقدِّم حوالى ٥٥٪ من صادراته.

وراحت أوربا تصدر رأس المال -أيضًا- إلى الأنحاء الأخرى من العالم، وكان هذا عادة بشكل قروض أو سلع تستخدم لشراء المواد اللازمة ودفع أجور العاملين في المشاريع الزراعية والصناعية التي تقوم بتطوير البلد المستوردة لرأس المال.

وبهذه الطريقة بني الكثير من السكك الحديدية في الولايات المتحدة وأمريكا الجنوبية، وتوسَّع استخدام المعادن في أفريقيا، وأنشئت مزارع الشاي والمطاط في آسيا. وكانت فوائد رأس المال المقترض هذا تسدد عادة من أرباح تلك النشاطات. وقد أدى هذا الوضع بمرور الزمن إلى قدر كبير من التوتُّر، إذ بدا أن المصارف والتجار الأوربيين يمتلكون قسمًا كبيرًا جدًا من الأعمال القائمة في دول غير أوربية، لأنها كانت معتمدة على رأس المال الأوربي. وكان رجال الأعمال في تلك الدول أكثر الناس امتعاضًا من انتقال أرباح هذه الشركات القائمة في بلادهم إلى جيوب الأوربيين.

كان الدخل الآتي من هذه الاستثمارات الخارجية يشكِّل جزءًا كبيرًا من مدخول بعض الدول الأوربية، وعلى رأسها بريطانيا، التي كانت تحصل على مبالغ هائلة من أقساط هذه الاستثمارات وغيرها من النشاطات، مثل أجور الشحن والتأمين والعمولات المالية بأنواعها. وكانت بحاجة لهذه الأموال من أجل موازنة حسابات وارداتها وصادراتها، أي أن هذه الأرباح كانت هي التي تمكِّن الشعب البريطاني من تسديد ثمن وارداته الكثيرة التي سمحت له بأن يتمتَّع بمستوى عال من المعيشة. وكان هذا واحدًا من الأسباب التي جعلت حكومات بريطانيا حريصة دومًا على الحفاظ على السلام الدولي والشروط الطبيعية الملائمة للتجارة، إذ إنها كانت أكثر دولة تعتمد على بيع الكميات الكبيرة من السلع بالوكالة، وعلى إعادة تصدير جزء كبير من وارداتها، وعلى حرية سفنها التجارية في مخر عباب البحار، وعلى حرية مصرفييها ووكلاء التأمين فيها في أخذ الأخطار المحسوبة في الخارج. ولقد ترتبت على هذا النظام المعقد نتائج كثيرة تجاوزت نطاق النتائج الاقتصادية. إن تخفيض الأسعار وتحفيز الابتكار والاستثمار قد نشرت الحضارة التي خلقها

الأوربيون. وقد حسَّنت هذه الحضارة العالم من نواح كثيرة، ولكنها من ناحية أخرى خلقت مشاكل جديدة بسبب هذا التداخل الكبير في الشؤون والمصالح، فإذا أُغرقت أمريكا بالحبوب -مثلاً- فقد تؤدي إلى خراب المزارعين الأوربيين، وإذا انهار مصرف أو مؤسَّسة تجارية في لندن فقد يفقد الناس عملهم في ڤالپارايسو* أو في رانغون*.

إن تحسُّن التجارة وتراجعها المتعاقبين، أي دورتها المؤلَّفة من ازدهار وركود متتالين، قد أشير إليها للمرة الأولى في أوربا في -بداية القرن التاسع عشر- ثم صار لها بمرور الزمن تأثير عالمي. وقد بدأ في سبعينيات القرن التاسع عشر ركود طويل يسمى أحيانًا «الكساد الكبير» كان له تأثيره على أكثر الدول الغنية. فراحت الدول تسعى لحماية أنفسها عن طريق رسوم الاستيراد، وكان هذا الإجراء ضارًا بالنظام التجاري العالمي، ولكنه ظلَّ قادرًا على عبور هذه العاصفة إلى أن جاءت الحرب بضربتها القاضية.

ولكن -حتى بعد ذلك الحين- ظلَّ الكثيرون من الناس يعتبرون أن عالم التجارة الدولية القديم كان هو الوضع الطبيعي الذي سوف يعودون إليه ذات يوم، إذ إنه كان قد بلغ من النجاح ما جعل الناس يرونه أمرًا عاديًا، ولم يعلموا أنه كان في الحقيقة إنجازًا غير عادي.

---

* مدينة في التشيلي

* عاصمة بورما

عصر آلات جديد

في القرن التاسع عشر بدأت الآلات الجديدة بالظهور في كل مكان بأعداد كبيرة. ورغم أنها كانت تزداد تعقيدًا فإن استخدامها كان يزداد سهولة. فكنت تراها في كل مكان في أوربا وأمريكا الشمالية، مثل السيارات وعربات الترام والدراجات في شوارع المدن الكبرى، والأنوال والمخارط والمثاقب في المصانع، وآلات تسجيل النقد والآلات الكاتبة في المكاتب والمحلاّت. وقد بدّلت هذه كلها الحياة من نواح كثيرة.

كانت أولى النتائج وأكثرها جلاء أن الآلات قد رفعت قيمة مجهود الإنسان بقدر كبير جدًا، فصار بإمكان العامل أن ينتج بسرعة أكبر بكثير. وكانت هذه مساهمة أساسيَّة في النمو الهائل للثروة في ذلك العصر. وكنت ترى النتائج حتى في الريف، فبعد -بداية القرن التاسع عشر- بقليل كانت الآلات الزراعية الإنكليزية تعرض في المعارض الأوربية، وفي منتصف القرن كان البخار يستخدم لإدارة الآلات وجر المحاريث، كما ارتفع عدد الحصَّادات الميكانيكية في المزارع الألمانية من ٢٠,٠٠٠ في عام ١٨٨٠ إلى أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ في عام ١٩٠٧، ويمكننا أن نذكر أرقامًا كثيرة مثل هذه؛ وفي عام ١٩١٠ كان قد ظهر أيضًا الجرار الذي يعمل على البنـــزين.

وكانت الصناعة أكثر من الزراعة اعتمادًا على وجود الآلات المبتكرة الجديدة والرخيصة. فظهرت المخارط وغيرها من مكنات صنع الآلات، والمطارق

الساقطة، والأفران العالية -الأتونات- لصهر المعادن، وآلات صنع جسم السيارة، وألف مثال ومثال غيرها. كما وفّرت الآلات مجهود الإنسان بطرق أخرى غير الصناعة أيضًا، فعربات الترام الكهربائية وقطارات الأنفاق -المترو مثلاً- كانت في عام ١٩١٤ تنقل ملايين الناس إلى أعمالهم في مدن كثيرة، وكان هذا توفيرًا كبيرًا للطاقة التي كانت تستهلك قبل -خمسين سنة- في قطع المسافات الطويلة على الأقدام، فضلاً عن اختصار الوقت اللازم لكسب المعيشة.

وحتى في البيت كانت تأثيرات الآلات كبيرة جدًا. فتزويد البيوت بالغاز للطبخ من مصانع الغاز المحلية قد خفف كثيرًا من متاعب وتكاليف إدخال الوقود وتوزيعه في البيت. وضخ المياه من محطاتها المركزية كان متوفرًا في ملايين البيوت في عام ١٩١٤، وإذا شئت أن تعرف مدى تأثير هذا التطوُّر فما عليك إلا أن تنظر إلى مواكب نساء القرى في بعض أنحاء أوربا الجنوبية وهن يذهبن إلى الساقية أو النبع القريب لأخذ حاجاتهن من الماء لمهام البيت، وإن هذا المشهد بالطبع أكثر شيوعًا في آسيا وأفريقيا. وقد غيَّرت آلة الخياطة أيضًا عملية صنع السلع في المنـــزل، أما في بيوت الأغنياء في أوربا وأمريكا فكنت تجد آلات أخرى غير هذه، مثل المكانس الكهربائية والمصاعد وآلات الغسيل، وفي بيوت جميع الطبقات كنت تجد تلك المكواة المكوَّنة من أسطوانتين تمرَّر بينهما الألبسة، وهي جهاز وفّر الكثير من الجهد المبذول في تجفيف الملابس وكيها.

من الصعب أن نرتب أهم الابتكارات الميكانيكية في هذا القرن ترتيبًا زمنيًا لأن العلاقات المتبادلة -فيما بينها- كانت معقّدة وسريعة جدًا، ومن الصعب أيضًا أن نحدِّد التأثيرات العامة لقدوم الآلات على تنظيم العمل وشكل المهن، ولو كان

من الممكن وصف ذلك إلى حد ما في أي مهنة معينة. وقد ظهرت مجموعة كبيرة من الوظائف الجديدة. كانت كلمة مهندس engineer كلمة قديمة، ولكن معناها اتَّسع كثيرًا في القرن التاسع عشر، فظهر التخصُّص ضمن الهندسة في مجالات البناء والأشغال الكهربائية والسفن والكيمياء. وكانت قد ظهرت مؤسَّسات للتعليم التقني في بلاد كثيرة تقدِّم تعليمًا متقدِّمًا في مجال الهندسة وتمنح مؤهلات معترف بها بصورة واسعة كمعادلات للشهادات الجامعية، كما بدأت بعض الجامعات بتدريس هذه المواد. فصار المهندسون يعتبرون الهندسة مهنة قائمة بذاتها، وكانوا عادة منظمين في هيئات مهنية ترعى مصالحهم.

وكانت كلمة ميكانيكي mechanic كلمة أخرى صار لها معنى جديد، هو الحرفي المختص بالتعامل بالآلات. وقد ازداد عدد هذا النوع من العمال المهرة بسرعة هائلة في الدول الصناعية. وصاروا يميلون -أيضًا- للتخصُّص في نهاية هذه المرحلة، وصارت مؤهلاتهم تُحدَّد بمعايير المهنة وبالشهادات. وكان معنى كلمة ميكانيكي يتسع باستمرار، فظهر صانعو المراجل والمخترعون وصانعو الآلات والمختصون بضبطها ومعايرتها وتصميمها، وكانت الحاجة تزداد لهم بأعداد كبيرة، كما كانت أعمالهم تزداد تخصُّصًا بمرور الزمن. فليس من الصحيح إذًا أن التصنيع والمكننة قد أضعفا من تنوُّع المهن وتفرُّدها، ورغم أنهما قضيا على الكثير من الحرف فقد رفعا أعداد المهارات الخاصة المطلوبة من نواحٍ عديدة. ولكن الآلات كانت من ناحية أخرى بحاجة لأعداد كبيرة من العمّال غير المدربين الذين لا تتجاوز مهمتهم صيانتها والعناية بها، فكان عملهم مملاً جدًا وخاليًا من عوامل التحفيز.

التأثيرات النفسية والفكرية للمكننة

كان من المحتم أن تؤثّر هذه التغيُّرات العريضة على أفكار الناس ونظرتهم للحياة. لقد بدأ الكثيرون منهم يعتقدون أن الآلات قد تقوم بأي شيء إذا أتيح لها الزمن والمجهود اللازمان، وبهذا صار العالم يبدو أقل غموضًا وأكثر قابلية للسيطرة، كما رأى الكثيرون في هذا التقدُّم التقني دليلاً على أن الحضارة الأوربية تسير في الاتجاه الصحيح. وقد كان هناك عدد قليل من الأشخاص الذين يعتقدون غير هذا وكانوا يعبرون عن آرائهم كثيرًا وبصوت عال، إلا أن أكثر الناس قبل عام ١٩١٤ كانوا مقتنعين من الأدلّة التي يرونها من حولهم. فالمهام الصعبة والشاقة قد أصبحت تؤدَّى بسهولة ويسر، والسلع التي كانت في الماضي سلعًا غالية باتت اليوم شائعة. كما أن الفوائد الاجتماعية للتقنية قد ظهرت خارج العالم الغني -أيضًا- فامتدت السكك الحديدية ضمن أفريقيا وآسيا، وحملت معها منافع أخرى مثل تحسُّن المضخات والآبار والاتصالات والطب. لقد أصبحت الحضارة الرائدة في العالم تعتبر الآلات أشياء عادية وتعاملها كجزء أساسي من حركة التطوُّر، وكان هذا تغيُّرًا هائلاً في نظرة البشرية.

الطاقة

كانت تلك الآلات الجديدة بحاجة لطاقة جديدة أيضًا. وقد ارتفع استهلاك الطاقة بعد عام ١٨٠١ بمعدَّلات لا سابق لها. إن التحسينات التي جرت على المحرك البخاري في -القرن الثامن عشر- قد جعلت البخار هو المصدر الأساسي للطاقة في القرن التاسع عشر. ومع أن السكك الحديدية في بعض أنحاء العالم كانت تعمل على الخشب فقد رفعت الطلب على الفحم أيضًا. وكان الإنتاج العالمي للفحم ٨٠٠

مليون طن في عام ١٩٠٠، ثم ارتفع في عام ١٩١٣ إلى أكثر من ١,٣٠٠ مليون طن -وكانت تسعة أعشار هذه الكمية تأتي من أوربا والولايات المتحدة- وكانت قد ظهرت مصادر أخرى للطاقة، فبعد أن اكتشف فارادي في عام ١٨٣١ مبدأ عمل المولد الكهربائي وتبين أن الكهرباء يمكن توليدها، ارتفع الطلب على الفحم من جديد لأنه صار يستخدم لإدارة المولدات الكهربائية، كما وجدت -أيضًا- طريقة جديدة لاستغلال الموارد المائية في توليد الطاقة الهدروكهربائية، فكان هذا توسُّعًا آخر في موارد الطاقة.

كانت الزيوت النباتية والحيوانية تستخدم للإضاءة -منذ زمن بعيد- عندما اكتشف الناس تكرير النفط، وقد أنتج النفط بصورة تجارية للمرة الأولى في بنسلفانيا في عام ١٨٥٩، فمهَّد بذلك الطريق لاستخدام الزيوت المعدنية للإضاءة أولاً بشكل مصابيح البارافين، ثم للوقود. وقد مكَّن النفط ثم البنـــزين من اختراع المحرك الداخلي الاحتراق، وهو محرك يعتمد على انفجار الوقود ضمن غرفة الاحتراق لدفع المكبس، بينما يُستخدم الوقود في المحرِّك البخاري لتحويل الماء إلى بخار هو الذي يدفع المكبس. ونشأت من هذا المحرك الجديد اختراعات جديدة، مثل السيارة، والمحركات المحمولة لجميع أنواع الأعمال، والعنفات العاملة على البترول في السفن وفي توليد الطاقة الكهربائية، وأخيرًا في المحركات القوية والخفيفة إلى حد يسمح باستخدامها في الطائرات. ومع هذا الارتفاع قفز إنتاج البترول العالمي - وأكثره في الولايات المتحدة - من ٥,٧٥ مليون برميل في عام ١٨٧١ إلى ٤٠٧,٥ مليون في عام ١٩١٤. واقتضى هذا التطوُّر بناء آبار جديدة وصناعة تكرير هائلة مع وسائل النقل الضرورية لشحن البترول إلى أماكن استخدامه.

كانت هذه الآلات الجديدة بحاجة إلى كميَّات كبيرة من المواد الأولية. وكان بناء السكك الحديدية والسفن يستهلك كميَّات هائلة من الحديد، وقد تمّت خطوة هامة جدًا إلى الأمام عندما اكتشفت طريقة جديدة في صنع الفولاذ في خمسينيات القرن التاسع عشر، وقد كان هذا المعدن شائع الاستعمال قبل ذلك ولكنه كان غالي الثمن، فصار -الآن- رخيصًا وبات يستخدم بدلاً من الحديد المطاوع. ثم حصلت تحسينات أخرى خفّضت سعره فزادت الطلب عليه -وخلال العقد التالي- حصلت اختراعات مكّنت من صنع الألمنيوم من خام البوكسيت، فتحوَّل من معدن ثمين إلى مادة شائعة الاستعمال. أما فيما يتعلق بالمواد غير المعدنية، فقد حصل تطوُّر هائل في الصناعة الكيميائية أدى إلى إنتاج مادة السّليوليد في عام ١٨٧٩، ثم إلى الألياف الصنعية بعد -حوالى عشرين عامًا- وإلى مادة الباكليت في عام ١٩٠٩، وهي من أولى المواد التي نسميها اليوم مواد بلاستيكية.

في عام ١٩١٤ كانت كل ناحية من نواحي الحياة في الدول الصناعية قد تأثّرت بالآلات الجديدة والمواد الجديدة، فحتى ياقات الملابس كانت تصنع -أحيانًا- من السليوليد. ولم تقتصر هذه التبدُّلات على فنون السلم بل تخطتها إلى فنون الحرب أيضًا. لقد كان أول استخدام عسكري للسكة الحديدية في عام ١٨٥٤ في حملة خاضها البريطانيون والفرنسيون ضد الروس في شبه جزيرة القرم، وسرعان ما أخذ القادة العسكريون يخططون لاستخدام السكك الحديدية من أجل نشر مئات الألوف من الرجال. وكانت الآلات تزداد في عتاد الجيوش، أيضًا، فتحسَّنت الأسلحة وصارت أقوى، كما ظهرت آلات عسكرية كثيرة قبل عام ١٩١٤، مثل الدراجة النارية والشاحنة والجرار والطيارة وأجهزة الإشارة. أما البحرية فقد شهدت ثورة حقيقية بظهور البخار، وقد ظهرت أول سفينة بخارية في

البحرية الملكية في عام ١٨٢١، ثم كبرت المدافع والدروع الواقية للسفن وتحسَّنت. ولو رأى نِلسُن السفن العملاقة التي كانت تشكِّل أساطيل الدول العظمى في عام ١٩١٤ لما عرف أنها سفن إلا من كونها طافية على سطح الماء، ولكنه لو وجد نفسه على ظهر سفينة حربية قبل عصره -بمئة عام- لوجدها مكانًا مألوفًا لديه. وكانت هناك -أيضًا- غواصات في جميع القوى البحرية الكبرى في عام ١٩١٤. ولقد كانت آلات الحرب هذه أبشع العلامات وأبلغها على امتداد عصر الآلات إلى كافة أنحاء الأرض.

١٢

النظام العالمي الأوربي

أشكال السيطرة الأوربية

كان الأوربيون في القرن التاسع عشر يتسابقون على بناء إمبراطورياتهم باندفاع أكبر من السابق، ولم تكن سلطتهم العالمية في -تلك الحقبة- مقتصرة على رفع أعلامهم فوق أراض جديدة، بل كانت تشكّل أخطارًا مختلفة كثيرة على العالم غير الأوربي، وكانت بعض تلك الأخطار أعمق لأنها ليست مباشرة مثل الاحتلال العسكري أو السياسي. لقد أدى وصول التجار والمنقبين والممولين الأوربيين والأمريكيين إلى تنازلات اقتصادية من جانب الحكام المحليين بعد أن كانوا في السابق مستقلين، وربط هذا الأمر رعاياهم بعجلات العربة الغربيّة سواء بصورة مقصودة أم غير مقصودة. فقد تبدّلت الحياة، تمامًا، في ماليزيا -مثلاً- عندما أتى إليها الأوربيون بنبات المطاط من أمريكا الجنوبية، خالقين بذلك صناعة جديدة سرعان ما صار الكثيرون من السكان معتمدين عليها في معيشتهم. وقد تعطي عمليات استخراج المعادن بلدًا ما أهمية سياسية جديدة، فقد وجد حكّام المغرب أن الأوربيين راحوا يتدخّلون في شؤون بلدهم ويتنازعون عليها حالما ظهر احتمال أن تحتوي على معادن قابلة للاستثمار.

وقد يمتد التدخُّل في شؤون الحكم الداخلي لتلك الدول المستقلّة شوطًا بعيدًا من دون أن يصل إلى الضم المباشر. لقد جرت أولى المفاوضات حول هذا الشكل من التنازلات مع الأتراك العثمانيين في القرن السادس عشر -ومنذ ذلك الحين- صارت تعقد مع قوى غير مسيحية من أجل ضمان الأمن والامتيازات للأوربيين المقيمين فيها. وكانت تسمح لهم بالإعفاء من المحاكم المحليَّة وبالمثول بدلاً منها أمام مسؤولين أو محاكم خاصة يديرها قضاة أوربيون، فيتجاوزون بذلك قانون البلاد. فقد كان الأوربيون والأمريكيون يعيشون في الصين في أواخر القرن التاسع عشر في مناطق خاصة ممنوحة لهم ضمن المدن التي يديرون منها أعمالهم، ولم تكن حكومات هذه المناطق مسؤولة أمام السلطات الصينية بل أمام السلطات الأجنبية، وكانت لها أحيانًا حاميات وقوات شرطة غربية أيضًا. وقد أضعفت هذه الترتيبات مكانة الحكام المحليِّين في نظر شعوبهم، كما أن الأوربيين كانوا -أحيانًا- يتفاوضون مع بعض الحكام على معاهدات تعطيهم سيطرة على سياستهم الخارجية. وكان هناك بالإجمال مجال واسع من التدخُّل الفعلي في شؤون الدول غير الأوربية يمتد بعيدًا خارج الحدود الرسمية للإمبراطوريات.

وكان هناك أخيرًا شكل آخر غير مباشر من الهيمنة بدأت الحضارة الأوربية تمارسه بصورة متزايدة في القرن التاسع عشر، وسوف يستمر بعد انتهاء حكمها الصريح في دول كثيرة. هذه السيطرة هي سيطرة الأفكار والأساليب الغربيَّة، أي الحضارة الأوربية بأعمق معانيها. ومن الصعب أن نحدِّد هذا التأثير إلا في حالات منفردة. لقد بقي ملايين الناس في مساحات شاسعة من العالم يعيشون ضمن أنماط تقليدية من السلوك والمعتقدات لم تمسها الحضارة الغربية أو الأوربية بشيء، وهذه حقيقة هامة لا يجوز أن تغيب عن بالنا. ولكنَّ الأفكار القومية كانت أفكارًا غربيَّة

سوف تتبناها شعوب آسيا وأفريقيا بحماس كبير وسوف تحرز فيها انتصارات واسعة، ومثلها أفكار العلم والتقنيَّة ومفاهيم التقدُّم المرتبطة بها، فضلاً عن المفاهيم الغربية في مجالات القانون والاقتصاد والدين والسياسة والحكم وغيرها الكثير الكثير. صحيح أن هذه الأفكار لم تؤثّر في البداية إلا في أعداد قليلة من الناس هي النخب المتعلّمة في المجتمعات غير الأوربية، ولكنها في النهاية تغلغلت عميقًا ضمن أساليب الحياة وامتدت آثارها بعيدًا خارج تلك الحلقات الضيقة.

لقد لعبت هذه التيارات المختلفة في عصر توسُّع الإمبراطوريات أدوارًا مختلفة من بلد إلى أخرى. وبالإجمال كان الاستملاك المباشر للأراضي يظهر في أبرز أشكاله في أفريقيا وجزر المحيط الهادي، بينما انتشرت الأشكال غير المباشرة من النفوذ الغربي في الإمبراطوريات الآسيوية القديمة. وإن هذا الوصف تقريبي جدًا ولكنه يبقى مع ذلك وصفًا مفيدًا.

دوافع وفرص

لقد كانت دوافع الأوربيين في سيطرتهم على العالم عديدة ومتنوعة. من الواضح أن الرغبة بالمكاسب الاقتصادية كانت واحدًا من تلك الدوافع -منذ القرن الخامس عشر- فقد كان الناس دومًا يسعون لإيجاد مناطق جديدة يتاجرون معها ويكسبون الأموال، أو موارد جديدة بشكل أراض أو ثروات معدنية أو بجهود بشري، أو فرص للسلب والنهب الصريحين. وازدادت جاذبية هذه الموارد في القرن التاسع عشر بسبب ارتفاع الطلب في أوربا على المواد الأولية من أنحاء العالم المختلفة بقيام الحركة الصناعية. إلا أنك لست مضطرًا لحكم بلد ما من أجل أن تتاجر معها، والحقيقة أن الكثيرين من رجال الأعمال كانوا يفضّلون العمل بعيدًا

عن متناول القوانين والأنظمة الأوربية -وحتى- عندما بلغت المنافسة بين الدول الاستعمارية أشدها للاستحواذ على أراض جديدة، كان مسؤولوها وسياسيوها عادة غير راغبين باتخاذ مستوطنات جديدة، لأنهم يعلمون أن حكمها وحمايتها يكلفان الكثير من المال، وأن لا ضمانة لأن تسدِّد نفقاتها في النهاية.

كما أن سعي الناس نحو استثمارات ذات مردود مجز لا يفسِّر رغبتهم في الحصول على أراض جديدة. فقد كانت بريطانيا تستثمر في الخارج مبالغ أكبر من أي دولة أخرى في عام ١٩٠٠، وكانت لها -أيضًا- أوسع إمبراطورية في العالم، ولكن الأموال التي أودعها فيها المستثمرون البريطانيون كانت ضئيلة جدًا بالقياس إلى استثماراتهم الواسعة في الولايات المتَّحدة وأمريكا الجنوبية، لأن عوائد الأمريكتين كانت أوفر بكثير من عوائد الاستثمار في أفريقيا. صحيح أن توسُّع الاقتصادات الحرَّة في أوربا وأمريكا الشمالية قد تزامن -تقريبًا- مع بناء الإمبراطوريات الجديدة، وأن بعض رجال الأعمال كانوا -أحيانًا- يحاولون جذب حكوماتهم إلى ضم مستوطنات جديدة لأن لهم فيها مصلحة خاصة، ولكن الرأسمالية بحد ذاتها لا تكفي لتفسير هذه الموجة من التوسُّع الاستعماري.

الحقيقة هي أن الدوافع والأهداف كانت تتباين كثيرًا بين أنحاء العالم المختلفة، لأن الحكومات المختلفة كانت تستمع بدرجات مختلفة إلى مصالح كثيرة ومختلفة أيضًا، مثل مصالح الجنود، وأصحاب المشاريع الإنسانية، والمبشرين الدينيين، وبعض الأشخاص المعتوهين، والمستوطنين، عدا عن رجال الأعمال. كما أنها كانت تستمع بدرجات مختلفة إلى الرأي العام، وقد تميَّز هذا العصر الأخير من الاستعمار في بلاد كثيرة ببداية الاهتمام برغبات جماهير الناخبين للمرة الأولى، وكان أولئك الناخبون يقرؤون الجرائد أكثر مما مضى، وكان الصحفيون -ومازالوا- يختارون

المواضيع التي تسهل المبالغة العاطفية فيها وتحويلها إلى مقال صحفي يجتذب القراء ويرفع المبيعات، وقد كانت هذه المواضيع وافرة في عصر الاستعمار. ولهذا كان رجال الدولة -أحيانًا- يسيرون مع التيار الشعبي أو ما يبدو أنه التيار الشعبي ولو أنهم غير مؤمنين بالتوسُّع الاستعماري. وحتى في روسيا، التي كانت أقل الدول الاستعمارية ديمقراطية، يبدو أن الحكومة كانت تشعر أن سيرها على طريق الاستعمار سوف يساهم في حشد الدعم والتأييد لنظامها.

والناحية الأخيرة الهامة والتي تزيد قصة الاستعمار تعقيدًا هي اختلاف درجاته وسعة امتداده بسبب تباين درجات المقاومة نحوه. كان الاستعمار عبارة عن محاولات لفتح أبواب جديدة، ولكن الباب قد يكون مغلقًا -أحيانًا- أو قد يكون هناك من يدفعه من الجانب الآخر لكي يبقيه مغلقًا، بينما لم تكن هناك أي مقاومة وراء أبواب أخرى. أي أن الإمبراطوريات الجديدة كانت تواجه في توسُّعها فرصًا متباينة جدًا. وهذا ما اكتشفه المستوطنون الأوربيون في الخارج. لقد ذهب بعضهم إلى أجزاء من العالم لا يألفها الأوربيون، مثل أوستراليا ونيوزيلندا وجزر المحيط الهادي وشرق أفريقيا، فكان لهم دورهم في عملية الامتداد الاستعماري. ولكن أعدادهم كانت تختلف كثيرًا بين البلاد الأوربية، فكنت تجد أكثر جماعات المستوطنين في مستعمرات بريطانيا، بينما كان المهاجرون من الدول الأوربية الأخرى يذهبون عادة إلى الولايات المتحدة أو أمريكا الجنوبية. ثم إنه لم يكن هناك في تلك الأراضي الجديدة حضارات متطوِّرة أو إمبراطوريات ذات ماض عظيم أو ديانات كبرى مثل التي في الهند والصين، أي أنهم لم يجدوا ما يستدعي إعجابهم واحترامهم. كما أن أعداد السكان الأصليين كانت قليلة. لذلك كان المستوطنون البيض يبنون حياتهم بحرية أكبر بكثير من حكام البلاد الأخرى التي استعمرتها

بريطانيا، والذين كانوا يواجهون ظروفًا محليَّة أكثر تعقيدًا. أما في المستعمرات التي لم يأت إليها مستوطنون فكانت الدول الأوربية تميل للتوسُّع بسبب صعوبة وضع حدود ثابتة ونظامية من دون المشاركة في شؤون الشعوب التي تعيش فيها. وكان الروس في آسيا الوسطى والبريطانيون في الهند يرون أنفسهم في هذا الوضع، سواء كانوا على صواب أم على خطأ.

وإذا نحن استعرضنا القوى الكبرى القديمة في العالم غير الأوربي، وجدنا أن الإمبراطورية العثمانية في غرب آسيا وفي أوربا -أيضًا- كانت تعاني من مصاعب كبيرة في عام ١٨٠٠، وقد ازدادت هذه المصاعب بمرور القرن سوءًا على سوء، فلم يعد الأتراك قادرين على حكم الشعوب التابعة لهم بصورة ملائمة، وراحت بعضها تطلب المساعدة من الدول الأوربية. وإلى الشرق منها كانت إمبراطورية فارس ذات الماضي العظيم ترزح تحت ضغوط خارجية كبيرة خاصة من روسيا، كما كانت في الداخل مقسَّمة وضعيفة. وإذا ابتعدنا أكثر نحو الشرق رأينا أن إمبراطورية المغول لم تعد إلا صورة باهتة عن إمبراطورية القرن السابع عشر، وأن الدول الهندية المتعاقبة كانت عاجزة عن تأمين الحكم الثابت لنفسها، وحتى إمبراطورية الصين التي كانت في الماضي قوة عظمى كانت تبدو ضعيفة في -بداية القرن التاسع عشر- كانت إندونيسيا خاضعة للهولنديين، وكان جنوب شرقي آسيا يخرج عن سيطرة سادته الصينيين، فلم يكن في هاتين المنطقتين مقاومة قوية لحضارة أوربا المهيمنة والعدوانية. أما في بقية أنحاء العالم، أي في أفريقيا وجزر المحيط الهادي، فقد وجد المستعمرون البيض شعوبًا أكثر تخلُّفاً. إن الذي حمى هذه الأماكن من السيطرة الأجنبية لزمن طويل إنما هو العوائق الطبيعية كالمناخ وبعد المسافات والأمراض، ولكن القرن التاسع عشر قد أتى بأساليب جديدة للتغلب على تلك العوائق.

المعرفة والتقنية

لقد لعب تقدُّم المعرفة دورًا كبيرًا في بناء نظام عالمي جديد. وكانت معرفة الأوربيين بالجغرافية ميزة كبيرة بيدهم على حكومة الصين -مثلاً، حتى في بداية القرن التاسع عشر- كانت سواحل العالم وأشكال قاراته الأساسية معروفة -عندئذ- بصورة جيدة، ما عدا مناطق القطب الجنوبي. وكان قسم كبير من أمريكا الشمالية قد استكشف، كما كان المستكشفون الإسبان والفرنسيون قد فتحوا منطقة الجنوب الغربي ورسموا الخرائط للبحيرات الكبرى ووادي المسيسيبي قبل -نهاية القرن السابع عشر- أما السهول الواقعة وراء المسيسيبي ومنطقة الشمال الغربي فقد تركت لمستكشفي القرن التاسع عشر، وأعظم اسمين في هذه القصة هما لويس وكلارك اللذان تعقّبا نهر ميسوري -حتى منابعه بين عامي ١٨٠٤-١٨٠٦- ثم عبرا مرتفعات جبال روكي ونزلا نهري سنيك وكولُمبيا حتى ساحل المحيط الهادي فيما كان يسمى أرض أوريغُن. كان الناس قد رأوا ذلك الساحل بما فيه لسان ڤانكوڤر البحري من ناحية المحيط، ولكن هذا كان أول عبور بري إليه. وسرعان ما تبعهم التجار والمستوطنون إلى الشمال الغربي. ومع هذا بقيت مساحات كبيرة من سطح العالم مجهولة، فكانت هناك جزر كثيرة في امتدادات المحيط الهادي تنتظر من يكتشفها، كما بقي جزء كبير من داخل أفريقيا وأمريكا الجنوبية بل بعض أنحاء آسيا أيضًا غير مستكشفة. أما في عام ١٩١٤ فكانت الصورة قد تبدّلت، وكانت الأراضي غير المستكشفة في العالم قليلة جدًا.

أفريقيا

عند نهاية القرن الثامن عشر، كانت قد ابتدأت الجهود المتواصلة والمنظمة للوصول إلى أعماق أفريقيا. فقد وصل البريطانيون إلى جنوبي الصحراء الكبرى وإلى مناطق نهر النيجر، ويبدو أن رجلاً ألمانيًا كان أول أوربي يعبر الصحراء الكبرى – منذ الأزمنة الرومانية– وقد انطلق من القاهرة ومات قبل أن يصل إلى النيجر بقليل. في هذه الأثناء انطلقت حملات أخرى من الساحل الغربي، كانت آخرها الحملة التي قام بها المستكشف الاسكتلندي العظيم مونغو بارك في عام ١٨٠٥، والتي بينت مدى الأخطار التي تترصَّد من يقوم بمحاولات كهذه، فقد شارك فيها أربعون أوربيًا انطلقوا من الساحل، لم يبق منهم أحياء عندما وصلوا إلى أعالي نهر النيجر إلا أحد عشر شخصًا، وعندما صارت البعثة جاهزة للعودة لم يبق إلا خمسة، وكان أحدهم قد أصيب بالجنون. ثم انطلقت هذه الحفنة الصغيرة من جديد، ولكنهم جميعًا قتلوا أو غرقوا في الطريق. وبالرغم من هذا ظلّ المستكشفون يرحلون إلى أفريقيا. ففي عام ١٨٢٨ وصل رحل فرنسي إلى طنجة من الجنوب، وكان بذلك أول أوربي يزور تُمبُكتو ويعود سالمًا –وبعد سنوات قليلة– وصل الناس إلى مصب نهر النيجر للمرة الأولى من الداخل. وشيئًا فشيئًا صارت تتراكم المعرفة بالصحراء الكبرى وبالسهول الواقعة إلى الجنوب منها. وفي هذه الأثناء كانت تجري سلسلة من الحملات من الساحل الشرقي بحثًا عن منبع نهر النيل.

ليڤينغستُن

لقد ألهمت الحماسة الجغرافية والعلمية أكثر المستكشفين، ولكن أشهرهم كان المبشر الديني الاسكتلندي ديڤيد ليڤينغستُن. كانت هناك بعثات مسيحية كثيرة

تعمل في أفريقيا عندما رسا ليڤينغستُن في جنوب القارة في عام ١٨٤١، ولكنه استحوذ على خيال مواطنيه وربط أفكار الحضارة الأوربية بالتنصير في أفريقيا بصورة لا مثيل لها، وقد أصبح بطلاً شعبيًا حقيقيًا. لقد ذهب أولاً نحو الشمال باحثًا عن مواقع لمحطات تبشير جديدة، وبعد أن عبر صحراء كالاهاري مع زوجته وطفله ووصل إلى نهر الزامبيز قرر أن يسير مسافة ١,٥٠٠ ميل -٢,٤٠٠ كم- غربًا عبر أراض مجهولة إلى المحيط الأطلسي، فبلغه عند لواندا في عام ١٨٥٤. وقرر عندئذ، أن يستدير ويقفل راجعًا، وقد عاد بالفعل.

وتلت ذلك رحلات كثيرة. ففي عام ١٨٦٦ انضم ليڤينغستُن إلى عمليات البحث عن منابع النيل، وقد روعه ما رآه من مآس سببها النخاسون العرب - كانت النخاسة قد منعت على الساحل الغربي منذ زمن بعيد باتفاق دولي- وعبر القارة مرة ثانية سيرًا على الأقدام متّبعًا هذه المرة مجرى نهر الكونغو الأعلى نزولاً من المنطقة الواقعة إلى الغرب من بحيرة طنجنيقة. وبينما كان يقوم بهذا المسير حصلت واحدة من أشهر الحوادث في تاريخ الاستكشاف قاطبة، هي لقاؤه في عام ١٨٧١ بالمراسل الصحفي الأمريكي هنري ستانلي، الذي أُرسل بحثًا عن هذا المستكشف الشهير. وإن أبلغ رواية لهذه القصة الشهيرة هي كلمات ستانلي نفسها إذ يقول: «كنت أود أن أجري نحوه، ولكنني كنت جبانًا في حضرة هذا الرجل؛ كنت أود أن أعانقه، ولكنني ما كنت أعلم كيف سيستقبلني. ففعلت -عندئذ- ما أملاه علي جبني وكبريائي الزائف، وسرت إليه بتؤدة، ونزعت قبعتي وقلت: الدكتور ليڤينغستُن، على ما أظن ؟».

لقد توفي ليڤينغستُن في عام ١٨٧٣ وهو ساجد يصلي في آخر رحلاته الرهيبة، وقام خدامه الأوفياء بدفن قلبه ثم حملوا جسده المحنّط طوال -أحد عشر

شهرًا– في مسيرة ألف ميل حتى الساحل –في ذلك الحين– كان عصر استكشاف أفريقيا قد شارف على نهايته –وخلال سنوات قليلة– رسمت خرائط دقيقة لأنهار النيجر والزامبيز والنيل والكونغو. صحيح أن تفاصيل كثيرة لم تكن معروفة بعد، إلا أن عصر السكك الحديدية والطرق والتلغراف كان قد بزغ، وأخيرًا راحت عتمة الجهل المكتنفة لأرض أفريقيا تنقشع بصورة متزايدة ومتسارعة عامًا بعد عام.

لقد استحوذ استكشاف أفريقيا على خيال الناس في أوربا، والأمريكتين في القرن التاسع عشر لأسباب كثيرة ومتنوعة. كان هناك الاندفاع لتنصير شعوب القارة الأصلية، وهذا ما جعل ليفينغستُن يتمتَّع بجاذبية تشبه جاذبية لاعبي كرة القدم أو المغنين الشعبيين في أيامنا. وكانت هناك أيضًا مصلحة الأفراد والحكومات الذين يدعمون الحملات بحثًا عن الثروات الطبيعية التي تحتويها أفريقيا. ثم كان هناك تأثير الحركة المناهضة للاسترقاق، وشعور الأوربيين بالذنب تجاه أفريقيا بسبب الأضرار التي سبَّبها لها النخاسون الأوربيون في الماضي. حتى المنافسات بين الدول كان لها دورها، إذ راحت الحكومات تسعى للحصول على معلومات يمكنها أن تبني عليها مطالبها بالأراضي أو بالنفوذ على الحكام الأفارقة. وكانت هذه العوامل تفعل فعلها –أحيانًا– بصورة متسارعة، إذ كثيرًا ما كانت الحكومات الأوربية تسعى لبسط نفوذها في أفريقيا خوفًا من أن تسبقها إليها بلد أخرى.

استكشاف أوستراليا

إن الدوافع المذكورة لا تنطبق على هذه الأرض الكبيرة التي كانت تنتظر استكشافها في عام ١٨٠١، أي قارة أوستراليا. لقد كان عدد السكان الأصليين في أوستراليا –قليلاً نسبيًا– كما أنهم كانوا أكثر تخلُّفاً في حضارتهم من شعوب أفريقيا،

وحتى زمن متقدم من القرن التاسع عشر، لم يكتشف فيها الكثير من الموارد الطبيعية. كانت أوستراليا بعيدة عن أوربا وعن أمريكا، و لم يدخلها أحد –حتى نهاية القرن الثامن عشر– بينما كان الأوربيون يعرفون جزءاً كبيرًا من سواحل أفريقيا –قبل ذلك بزمن طويل– و لم يكن ثمة تنافس بين الدول فيها يدفع استكشافها إلى الأمام.

كان الأوستراليون أنفسهم أهم مستكشفي قارتهم، وراحت حملاتهم تشق طريقها نحو الداخل ضمن صعوبات هائلة في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وكان الأمر شبيهًا باختراق غرب أمريكا الشمالية. و لم تبدأ الهجمات الكبرى الأولى على الصحارى إلا بعد استيطان أوستراليا الجنوبية وفكتوريا. ففي عامي ١٨٤٠-١٨٤١ قام رجل إنكليزي بمسير رهيب على طول الساحل الجنوبي الصحراوي للقارة، حتى ألباني في الغرب، ولكن القارة لم تُعبر بصورة كاملة –حتى عام ١٨٦٠– عندما قطعت حملة مزودة بالجمال المستوردة للنقل المسافة من ملبورن حتى خليج كاربنتاريا في الشمال. ثم تم عبور آخر من أدليد إلى يورت داروين في عام ١٨٦٢. وبعد ذلك راحت خريطة أوستراليا تكتمل رويدًا رويدًا. وقد ساهم الأوستراليون الحقيقيون، أي السكان الأصليين للبلاد، في هذه العملية مساهمة كبيرة ولكنها منسية، فهم الذين كانوا يزودون المستكشفين بالمعرفة والمهارات الضرورية، مثل أماكن وجود الماء وطريقة استخراجه وأنواع اليرقانات التي تؤكل، وهذا ما مكّنهم من البقاء على قيد الحياة.

القطب الشمالي والقطب الجنوبي

كانت منطقتا القطبين الشمالي والجنوبي مسرحين لجهود كبرى غيرها في مجال الاستكشاف في هذه المرحلة التي استحوذت على الاهتمام الشعبي. و لم يتوقف

الناس عن الحلم بإمكانية العبور إلى آسيا عن طريق الالتفاف حول أمريكا الشمالية أو سيبيريا، وعادت الحكومة البريطانية فعرضت من جديد في عام ١٨١٨ جائزة مقدارها ٢٠,٠٠ جنيه لأول شخص يقوم بهذه الرحلة، فراحت محاولات المستكشفين تشد انتباه الناس إلى مسافات أبعد نحو الشمال. وقد حاول ضابط بحري بريطاني أن يبلغ القطب الشمالي فوصل حتى خط ٨٢°، ٤٥َ في عام ١٨٢٧ منطلقًا من سبيتزبرغن، وظل هذا الإنجاز رقمًا قياسيًا طوال -خمسين سنة- مع أن رحلاً آخر وصل إلى القطب الشمالي المغناطيسي بعد -أربع سنوات من ذلك- واستمرت في هذه الأثناء المحاولات للبحث عن ممر شمالي غربي، إلى أن دخل النروجي أمندسن في عام ١٩٠٦ مضيق بيرنغ للمرة الأولى بعد أن أبحر بسفينة عبر شمالي كندا وألاسكا. ويبدو أن الأمريكي بيري قد سبقه إلى القطب الشمالي بعد بضع سنوات، ولكن هذا الأمر ليس مؤكدًا تمامًا، إلا أن أمندسن صار -فيما بعد- من أول الذين حلقوا فوق القطب الشمالي في طائرة، وذلك في عام ١٩٢٦. وكان قد أحرز قبل هذا انتصارًا أعظم في قارة أنتاركتيكا.

كان كوك أول إنسان عبر بالسفينة دائرة أنتاركتيكا، وكانت حملة روسية هي أول من رأى اليابسة فيها في عام ١٩٢١، وقد وصل البحارة البريطاني الكابتن روس إلى مسافة ٧١٠ أميال -١١٣٦ كم- عن القطب الجنوبي ورسم الخريطة لألف ميل -١٦٠٠ كم- من ساحل أنتاركتيكا في عام ١٨٤٢. وكان هذا أيضًا رقمًا قياسيًا استمر -حتى نهاية القرن- عندما استطاعت جماعة من المستكشفين أن تمضي أول شتاء في هذه القارة وقطعت مسافة أبعد نحو الجنوب على المزالج. وصارت المعلومات تتراكم -الآن- بصورة أسرع، واضطرت حملة سويدية لأن تمضي شتاءين متتالين في أنتاركتيكا قبل أن ينقذوها في عام ١٩٠٣، وقد تم لها هذا

الإنجاز بفضل سوء حظها، إذ إن الثلج قد حطّم سفينتها وأغرقها. وكانت الحملات -عندئذ- قد تسارعت، فوصل فريق بريطاني إلى مسافة ٩٧ ميلاً -١٥٥ كم- عن القطب الجنوبي في عام ١٩٠٩ قبل أن يرتدّ عائدًا. وأخيرًا بلغه أمندسن في عام ١٩١١ في يوم ١٦ كانون الأول -ديسمبر- ويمكننا اعتبار هذا التاريخ رمزًا لنهاية هذا العصر الكبير من الاستكشاف الذي ابتدأ في القرن الخامس عشر.

استيطان الرجل الأبيض

من الطرق التي غيَّر بها الأوربيون مجرى تاريخ العالم زرعهم لمستوطناتهم في القارات الأخرى. ففي عام ١٨٠٠ كانت هناك الولايات المتحدة، ومجموعات سكانية كبيرة من أصول إسبانية وبرتغالية في أمريكا الوسطى والجنوبية. وكان هناك أيضًا مستوطنون بريطانيون وفرنسيون في كندا، وهولنديون في رأس الرجاء الصالح، وعدد قليل من البريطانيين أكثرهم من المحكومين في نيو ساوث ويلز بأوستراليا. وفي عام ١٩١٤ كانت هذه المجموعات السكانية قد نمت نموًا واسعًا وأصبحت دولاً جديدة وناضجة.

إذا استثنينا أمريكا الوسطى والجنوبية، وجدنا أن بريطانيا كانت المصدر الأساسي لأولئك المستوطنين. وهناك سببان أساسيَّان لذلك. أولهما كثرة المهاجرين منها، وثانيهما النفور العميق لدى حكامها من حكم مستوطناتهم، إذ إنهم كانوا يريدونها أن تبلغ بسرعة طور النضج والاستقلال، وكانت ذكريات حرب الاستقلال الأمريكية وجراحها عميقة، فكان الإنكليز يعتبرون أن المستوطنات سوف تنقلب عليهم في النهاية، وأنها على كل حال تكلف مبالغ باهظة. وعندما بدأت هذه الأفكار بالانقشاع والزوال لم يعد من الممكن وقف تيار الاستقلال في المستوطنات البريطانية. لقد ظلَّ العلم البريطاني طوال القرن يرفرف على إمبراطورية لا تغرب عنها الشمس حقًا، ولكن الإنكليز كانوا ينظرون إلى تلك المساحات الوردية الكبيرة على الخريطة بمشاعر متضاربة، ومن دون حماس كبير.

كندا

كانت كندا البريطانية تعيش إلى جوار جمهورية ولدت من الثورة ضد التاج البريطاني، وكان الكثيرون من مواطني أمريكا يعتقدون أن الولايات المتحدة سوف تمتصها في النهاية. وقد جرت حرب بين الولايات المتحدة وبريطانيا من ١٨١٢ إلى نهاية ١٨١٤ فكانت هي المحاولة الوحيدة التي قامت بها أمريكا لغزو كندا، إلا أنها لم تفلح. ولكن مشاكل الحدود ظلّت مستمرة طوال -نصف قرن تقريبًا- في داخل كندا كانت هناك مشكلة حكم مجموعتين من المستوطنين، هما الفرنسيون الذين وصلوا إلى هناك أولاً واستوطنوا بشكل أساسي في كيبك، والبريطانيون الذين وصلوا بعدهم، وكان بعضهم من المستوطنات الأمريكية السابقة ولكن الكثيرين منهم كانوا اسكتلنديين، وقد استقروا بشكل أساسي في المقاطعات البحرية وفي الغرب. في عام ١٨٣٧ اشترك أفراد من الشعبين معًا في ثورة ساعدهم فيها الأمريكان، وقد قمعت تلك الثورة ولكن الحكومة البريطانية بدأت تتخذ خطوات أعطت فيها للكنديين أولاً السيطرة على شؤونهم الداخلية ثم استقلالهم الكامل تحت رئاسة تاج بريطانيا. وتأسّس دومينيون كندا كدولة اتحادية في عام ١٨٦٧ وصارت لها حكومتها الوطنية، فكانت تلك خاتمة مرحلة من تاريخها -ومنذ ذلك الحين- يمكننا اعتبار كندا دولة مستقلة، ولو أنها ظلّت مرتبطة ببريطانيا بكثير من الروابط العملية والعاطفية.

كانت كندا في عام ١٨٦٧ بلدًا فقيرًا وقليل السكان، وقد افتتحت فيها أول سكة حديدية عبر القارة بعد -عشرين سنة- فكانت ذات أهمية عظيمة لأنها ضمّت البلاد كلها كوحدة اقتصادية وحكومية واحدة -وقد استخدمت في عام ١٨٨٥ لنقل الجنود من أجل إخماد ثورة في الشمال الغربي- وكما حدث في الولايات

المتحدة، كانت السكك الحديدية تكملة لعمل السفن البخارية في ربط العالم الجديد بالمراكز الكبرى للسكان في أوربا. لقد وصل إلى كندا ٥٠٠,٠٠٠ أوربي بين عامي ١٨١٥ و١٨٦٠، فساهموا مع التكاثر الطبيعي في رفع عدد سكانها إلى ٣ ملايين في ذلك العام، ولكن بسبب تسرب الكثيرين منهم إلى الولايات المتحدة لن يتضاعف هذا العدد -حتى عام ١٩٠٠- عندما بدأت فورة جديدة من الاستيطان والنمو السريع.

أوستراليا ونيوزيلندا

كان نمو عدد سكان أوستراليا في البداية أكبر منه في كندا. لقد كانت الدفعة الأولى من المستوطنين التي وصلت إلى أوستراليا في عام ١٧٨٨ مكوَّنة من ٧٣٦ شخصًا، وكان هؤلاء مجموعة من المحكومين والنساء والحراس، وقد تكاثروا حتى بلغ عددهم ١٠٠,٠٠٠ مستوطن -تقريبًا في ثلاثينيات القرن التاسع عشر- ومليونًا في حوالى عام ١٨٦٠. وكانت مشاكل الحكم في أوستراليا أقل منها في كندا ولم يكن لها جيران أقوياء، ولكن اقتصادها المتقلقل والنقل المستمر للمحكومين -وقد رسا آخرهم في عام ١٨٦٧- قد سبَّبا الكثير من المتاعب لحكّامها البريطانيين. وكان خروف المرينوس هو الحل الأول للمشكلة الاقتصادية، ثم جاءت السفن ذات البرادات القادرة على نقل اللحوم. في عام ١٨٥٠ منحت كل واحدة من المستوطنات التي تتألف منها أوستراليا حكمًا ذاتيًا داخليًا، ثم سحبت القوات البريطانية في عام ١٨٧٠، وولدت دولة أوستراليا بعد ذلك -وكانت دولة اتحادية مثل كندا- في الأول من كانون الثاني (يناير) من عام ١٩٠١، أي في أول يوم من القرن العشرين.

لقد ساعد تحسُّن المواصلات أوستراليا مثلما ساعد كندا من قبلها. وبدأ أول خط منتظم من السفن البخارية من إنكلترا إلى سيدني في عام ١٨٥٦. وقد سهَّل هذا الأمر عملية الهجرة، وكذلك السكك الحديدية -ولو أن كل مستوطنة قد اتخذت عرضًا مختلفًا لسككها مسبِّبة بذلك قدرًا كبيرًا من الفوضى- وفي عام ١٨٧٢ مُد خط تلغرافي من أدليد إلى داروين في الشمال، وسرعان ما أمكن الاتصال من هناك بإندونيسيا والهند -وبالتالي بأوربا- عبر خط مباشر. لقد كان أغلب المستوطنين من المملكة المتحدة، ومع ازدياد أعدادهم تزايدت أيضًا المقاومة لاستيطان الصينيين واليابانيين، واتخذت المستوطنات كل على حدة سياسات "أوستراليا البيضاء". كما حصلت أمور مشابهة على الساحل الغربي لكندا وفي الولايات المتحدة حدَّت من هجرة الشرقيين إليها؛ فربما كانت هجرات الأوربيين هذه إلى أنحاء العالم أكثر نجاحًا من هجرات الشعوب السابقة في صد منافسيها وإبعادهم.

وبموافقة جميع الأطراف تم ضم القيود على الهجرة إلى اتفاقيات عام ١٩٠١ التي أسِّست عليها دولة أوستراليا. وعندما هزمت اليابان روسيا في الحرب تجدَّدت المخاوف من «الخطر الأصفر» الكامن في الشمال. ولهذا السبب قامت أوستراليا بالاستيلاء على نيو غينيا البريطانية لأسباب استراتيجية وسمتها بابوا. وهكذا أصبحت أوستراليا بدورها قوة استعمارية، وابتدأ بناء البحرية الأوسترالية -بعد سنوات قليلة- وتم تبني التدريب العسكري الإلزامي في عام ١٩١٠. في هذه الأثناء كان يتشكَّل مجتمع أوستراليا، وهو بالأساس مجتمع بريطاني ولكنه أكثر ديمقراطية بكثير وأكثر تسامحًا في مواقفه الاجتماعية. وقد ذهل بعض الأوربيين من بعض نواحي ديمقراطيته، مثل حق التصويت الذي كانت النساء يتمتَّعن به في أوستراليا في

تسعينيات القرن التاسع عشر، ومن تشريعاته السخيَّة في مجال العمل والخدمات الاجتماعية.

وظهرت في نيوزيلندا أيضًا دولة جديدة ذات ثقافة بريطانية راجحة، ولكنها أكثر ديمقراطية وتشبه أوستراليا من ناحية أنها أسخى من الوطن الأم في نظامها الاجتماعي وخدمات الرفاهة. لقد كان مستوطنوها الأوائل من صيادي الحيتان والمحكومين الفارين من أوستراليا والتجار الباحثين عن مكاسب هزيلة من بيع الأسلحة النارية لشعوب الماوري الأصلية، وقد بلغت سمعتهم من السوء ما جعل الحكومة البريطانية تمتنع عن اتخاذ المسؤولية نحو هذه الجزر أصلاً. وكان المبشرون الأوائل يعملون بكد ونشاط، وكان ثمة أسقف أنغليكاني في نيوزيلندا -منذ عام ١٨٢٧- ولكن المستوطنين المحترمين لم يحظوا بالتشجيع والمساندة إلى أن لاح خطر استيلاء الفرنسيين على الجزر. فعقدت -عندئذ- معاهدات مع زعماء الماوري في عام ١٨٤٠ قبلوا فيها بالسيادة البريطانية، وبدأ بذلك التاريخ الاستعماري القصير لنيوزيلندا.

لقد كان المستوطنون جشعين، فاستولوا على أراضي شعب الماوري ودفعوهم إلى الثورة مرتين. ولكن الماوري لم يكونوا ضعفاء مثل السكان الأصليين في كندا وأوستراليا، بل كانوا كثيري العدد وذوي قوة عسكرية كبيرة. ومع هذا نمت المستوطنة بسرعة، خاصة في الجزيرة الجنوبية التي كانت أعداد الماوري فيها قليلة، حتى بلغ عدد المستوطنين ٣٠٠,٠٠٠ في عام ١٨٧٥. وربما كان الأهم من هذا أن عدد الخراف قد بلغ -عندئذ- عشرة ملايين في الجزيرة الجنوبية وحدها. ووجدت نيوزيلندا في الصوف بضاعة مناسبة تعتمد عليها من أجل التصدير. ثم جاءت سفن الشحن المبردة في عام ١٨٨٢ فصار بإمكان المزارع أن يربي الخراف

للحم فضلاً عن الصوف، كما مهَّدت هذه الوسيلة من النقل الطريق لتصدير مشتقات الحليب. كانت الجزيرتان تحت حاكم محلي واحد -منذ عام ١٨٧٥- ولم تحتفظ لندن بمسؤوليتها إلا على شؤون السكان الأصليين. واتخذ النيوزيلنديون مثل الأوستراليين خطوات نحو صد المهاجرين الآسيويين، ووضعوا قانونًا ينص على ٨ ساعات من العمل في اليوم وعلى نظام تعويضات للشيخوخة في تسعينيات القرن التاسع عشر، كما أنهم منحوا النساء حق التصويت. وأخيرًا اعترف في عام ١٩٠٧ بنيوزيلندا كدولة مستقلة ضمن الإمبراطورية البريطانية (دومينيون).

جنوب أفريقيا

كانت أوستراليا ونيوزيلندا تتمتَّعان في عام ١٨٩٩ بدرجات مختلفة قليلاً من السيادة القانونية، ولكنهما كانتا من الناحية العملية حرتين من السيطرة البريطانية مثل كندا. ولهذا كان من الغريب أن ترسل هذه الدول الثلاث كلها قوات للقتال إلى جانب البلد الأم عندما نشبت الحرب في جنوب أفريقيا في ذلك العام.

كانت خلفية هذه الحرب قصة طويلة وأليمة من الصراع بين الإنكليز والهولنديين. كان الهولنديون قد وصلوا إلى جنوب أفريقيا في القرن السابع عشر، وكان عددهم حوالى ٢٥,٠٠٠ في عام ١٨٠٠. وبعكس الحال في أمريكا الشمالية أو أوستراليا، لاحقًا، كان في جنوب أفريقيا بالأصل مجموعة كبيرة من السكان المحليين لم يرحلوا ولن يفنوا، بل ازدادت أعدادهم بمرور الزمن -وحتى في عام ١٩٠٠- بعد أن كانت أعداد كبيرة جدًا من البيض -أكثرهم بريطانيون- قد رحلت إلى جنوب أفريقيا، لم يكن سكانها البيض يشكّلون إلا حوالى ربع عدد السكان السود. وكان الحكام البريطانيون والمزارعون الهولنديون يحملون آراء

متضاربة حول معاملة الأفارقة الأصليين، وقد منعهم هذا الخلاف من التفاهم فيما بينهم. ولكن كانت هناك صعوبات أخرى، إذ إن الهولنديين كانوا يشكّلون مجتمعًا مغلقًا بتقاليده ولغته وديانته، ولم يكونوا راغبين في أن يفسد الغرباء أساليب حياتهم.

وبدأت المتاعب بعد عام ١٨١٥ بقليل عندما ضم البريطانيون هذه المنطقة، وكانوا قد احتلوا رأس الرجاء الصالح بسبب أهميته الاستراتيجية أثناء الحرب مع نابوليون. وسرعان ما بدأ المستوطنون البريطانيون بالوصول. وكان برفقتهم مبشرون تبنّوا من توهم قضية الدفاع عن حقوق السكان الأصليين وراحوا يسعون لتنصيرهم، فأغاظ هذا الأمر الهولنديين. كما أصبحت الإنكليزية هي اللغة الرسمية بدلاً من الهولندية وحلّت الترتيبات القضائية البريطانية محل الترتيبات القديمة. وعندما ألغي الرق في كافة أنحاء الإمبراطورية البريطانية في عام ١٨٣٤ تذمر الهولنديون كثيرًا من شروط التعويض. وبالنظر إلى هذه الأسباب كلها لم يكن من الغريب أن تبدأ في عام ١٨٣٥ الهجرة الكبيرة، التي سار فيها حوالى ١٠,٠٠٠ من البور -وهو الاسم الذي كان يطلق على الهولنديين- مع عائلاتهم وقطعانهم وممتلكاتهم نحو الشمال عابرين نهر الفال. وكانت هذه الهجرة أساس جمهورية البور التي ظهرت لاحقًا في الترانسفال(*) -وبعد سنوات قليلة- تأسّست سلطة بريطانية أخرى في ناتال بهدف حماية أهل البلاد الأصليين من البور هناك، فأدت إلى رحيل المزيد من المستوطنين ذوي الأصول الهولندية شمالاً للانضمام إلى أبناء جلدتهم.

وتلت ذلك -خمسون سنة- من المرارة والاقتتال أحيانًا والمحاولات لإيجاد حلول لمشكلة حكم جنوب أفريقيا. وكانت الغنيمة المتنازع عليها تنمو باستمرار.

* أي ما وراء نهر الفال.

لقد وصل المزيد من المستوطنين البريطانيين، واكتشف الألماس في نهر الأورانج ثم الذهب في منطقة الراند بالترانسفال التابعة للبور. ونشبت حروب مع أهل البلاد الأصليين، خاصة من الزولو، رفعت تكاليف الحكم كثيرًا. وفي تسعينيات القرن التاسع عشر بات زعماء البور مقتنعين بأن البريطانيين مزمعون على تدمير جمهورياتهم، بينما كان البريطانيون يعتقدون أن البور قد ينالون مرفأ بحريًا على المحيط الهندي فيشكِّلوا خطرًا على اتصالاتهم بالهند. وكانت النتيجة حدوث حرب جنوب أفريقيا -أو حرب البور الثانية- بين عامي ١٨٩٩-١٩٠٢.

لقد أحرز البور عددًا من النجاحات الباهرة في البداية، وتمكَّنوا من الاستمرار بحرب العصابات لزمن طويل بعد هزيمة جيوشهم الأساسيَّة. ولكنهم في النهاية اضطروا للاستسلام، فاستولى البريطانيون على الجمهوريات السابقة ووعدوا بوضع مؤسَّسات تمثيلية -خلال وقت قريب- وسرعان ما تم هذا بالفعل، وفي عام ١٩٠٧ كانت الانتخابات قد منحت البور حكمًا ذاتيًا داخليًا في الترانسفال من جديد، وما لبثوا أن أقروا قوانين ضد هجرة الآسيويين -خاصة الهنود- وبعد سنتين وضعت مسودة دستور لاتحاد جنوب أفريقيا سمحت لكل مقاطعة بأن تنظم بنفسها ترتيبات التصويت فيها، وقد حصرت أراضي البور السابقة حق التصويت بالبيض على الفور، بعكس المستوطنات البريطانية السابقة، وبدا أن صراعات الهولنديين والإنكليز قد سويت أخيرًا. وفي يوم ٣١ أيار (مايو) من عام ١٩١٠ أقرَّ البرلمان البريطاني قانون جنوب أفريقيا، فظهرت بذلك دولة جديدة ضمن الإمبراطورية البريطانية سوف يكون لها مستقبل حافل بالأحداث.

كانت المستعمرات البريطانية السابقة هي أهم أراضي الاستيطان الأوربي التي تحوَّلت إلى دول. و لم يحدث هذا في غيرها من المستوطنات الأوربية الأساسيَّة، مع

أن الفرنسيين والإيطاليين استقروا بأعداد كبيرة في شمال أفريقيا -خلال القرن التاسع عشر- فإذا استثنينا الجزائر، التي لم تعد تعامل قانونيًا كجزء من فرنسا، وجدنا أن مناطق الاستيطان هذه إما بقيت اسميًا تحت حكم السلطات الأصلية للبلاد كما في تونس، أو أنها كانت مستعمرات مباشرة لا أمل لها بالاستقلال، كما كانت الحال في ليبيا وطرابلس الغرب اللتين استولى عليهما الإيطاليون من العثمانيين -قبل عام ١٩١٤ بقليل- ولم يحدث فيهما أي استيطان يذكر.

أمريكا اللاتينية

المكان الآخر الوحيد الذي ظهرت فيه دول قومية من مستوطنات أوربية هو أمريكا الجنوبية. كان الاحتلال الفرنسي لإسبانيا والبرتغال قد سبَّب انقطاعًا في الروابط بين هذين البلدين ومستوطناتهما في الأمريكتين أثناء الحروب مع نابوليون. وكان الأشخاص المولودون في أمريكا من أصول أوربية يسمون الكريول، وكانوا قد رأوا كيف قام أهل أمريكا الشمالية بكسر نير الحكم البريطاني، فبدا لهم أن هذا هو الوقت الملائم لفعل الشيء نفسه مع إسبانيا. وهكذا نشبت في عام ١٨١٠ سلسلة من الانتفاضات في أماكن متباعدة وابتدأت بذلك "حروب الاستقلال". ثم دخل القصة طرفان خارجيان، أولهما هو الولايات المتَّحدة، التي أعلنت في عام ١٨٢٣ أنه لا يجوز لأي قوة أوربية أن تعتبر الأمريكتين مكانًا للمزيد من الفتوحات والاستيطان. وقد سمي هذا «مبدأ مونرو» على اسم الرئيس الذي أعلنه، وكان يعتمد على قوة خارجية أخرى هي بريطانيا، التي أسعدها أن ترى أمريكا الجنوبية والوسطى مستقلتين عن إسبانيا والبرتغال لأسباب تجارية. ولما كانت البحرية الملكية هي القوة الوحيدة القادرة على سحق أي محاولة لاستعادة تلك الجمهوريات الجديدة، فقد ضمن لها هذا الوضع البقاء والاستمرار.

ونشأت من حروب الاستقلال هذه مجموعة من الدول الجديدة كانت أكثرها تحت حكم دكتاتورين عسكريين -بينما حكم البرازيل لفترة من الزمن إمبراطور من العائلة المالكة البرتغالية- وكان من المستحيل قيام اتحاد -فيما بينها- مثل الذي تم في القارة الشمالية، بالنظر إلى جغرافية البلاد وتاريخها. ولكن هذه الدول الجديدة لم تكن معرضة لخطر خارجي، كما أن اندماجها في دولة واحدة ما كان ليزيل نقاط ضعفها الداخلية الكثيرة. وقد أدّت النـــزاعات والحروب أخيرًا إلى ظهور أربع جمهوريات في البر الرئيسي لأمريكا الوسطى بحلول عام ١٩٠٠ -كانت أكبرها المكسيك- ودولتين في جزر الكاريبـــي -سرعان ما أضيفت إليهما دولة ثالثة هي كوبا- وعشر جمهوريات في أمريكا الجنوبية. وقد بدا سياسيوها على درجة كبيرة من الشبه بالسياسيين الأوربيين، أقلّه من ناحية مواقفهم وخطاباتهم العلنية، وإن الإمبراطور الفرنسي نابوليون الثالث هو الذي ابتكر تسمية «أمريكا اللاتينية» لوصف هذه القارة في منتصف القرن التاسع عشر.

لقد احتذبت أمريكا الجنوبية المهاجرين الأوربيين بصورة أقوى بكثير من أمريكا الوسطى، ولكنها ظلّت دون جاذبية أمريكا الشمالية، فمن بين الـــ ٤١ مليون أوربي الذين عبروا الأطلسي بين عامي ١٨٤٥ و ١٩١٤ لم يذهب إلا ٦ ملايين إلى الجنوب من نهر ريو غرانده. ومع ذلك فقد ثبّتت هذه الهجرات الطابع الأوربي لهذه المجتمعات، التي كان الكثيرون من سكانها هنودًا أمريكيين أو من أصل أفريقي كما هي الحال في البرازيل وبعض جزر الكاريبـــي. ولكن زيادة عدد السكان في أمريكا الوسطى والجنوبية لم تكن مثل سرعتها في الولايات المتحدة بالإجمال، إذ كانت أعدادهم في هذه المنطقة كلها بحدود الـــ ٨٠ مليونًا في عام ١٩١٤.

الإمبراطوريات تبلغ ذروتها

كان وجود هذه الدول الجديدة ذات الأصول الأوربية عاملاً حاسمًا في التطوُّر المستقبلي للعالم، ولكن التعبير الأوضح عن هيمنة الأوربيين إنما كان إمبراطورياتهم الاستعمارية وحكمهم المباشر للشعوب غير الأوربية. فقد كانت بريطانيا وروسيا تحكمان حوالى ثلث مساحة الكرة الأرضية في عام ١٩١٤، وكانت الإمبراطورية البريطانية تضم حوالى ٤٠٠ مليون نسمة، أي خمس البشرية في -ذلك الوقت تقريبًا- وكان حوالى ٣٥ مليونًا منهم يعيشون في المملكة المتحدة. أما الفرنسيون فقد بلغ عدد رعاياهم في مستعمراتهم ٥٠ مليونًا، وهو أيضًا أكبر من عدد سكان فرنسا نفسها؛ ثم كانت هناك ملايين غيرها من البشر - ومساحات شاسعة من الأراضي أيضًا - خاضعة لقوى أوربية أخرى. وكانت هذه السيطرة المباشرة على الأرض وسكانها واحدة من أبرز العلامات على أن الأوربيين كانوا حقًا سادة العالم عند بداية القرن العشرين.

كانت هذه الصورة مختلفة كل الاختلاف عما كانت عليه في عام ١٨٠٠، ففي عام ١٩٠٠ كانت البلاد الوحيدة غير الخاضعة لحكم البيض المباشر خارج الأمريكتين هي الصين والإمبراطوريتان العثمانية والفارسية -اللتان تقلصتا كثيرًا- واليابان وحفنة من البلدان الأصغر. وقد تم الانتقال إلى هذه الحال بسرعة كبيرة، خاصة -في الثلاثين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر- فازداد الحديث كثيرًا في عام ١٩٠٠ عن الإمبراطوريات والإمبريالية أو الاستعمار imperialism ، ويبدو أن

هذه الكلمة بدأت تستخدم في اللغة الإنكليزية في خمسينيات القرن التاسع عشر. وكان الجميع متفقين على أن الإمبراطوريات حقيقة بارزة من حقائق العصر، ولو أنهم لم يؤيدوها جميعًا. والحقيقة أن العالم لم يعرف قط قرنًا بلغ فيه الاستعمار هذا الحد ولا إمبراطوريات بلغت في المظهر مثل هذا النجاح.

إن الإمبراطوريات موجودة منذ بدايات الحضارة -تقريبًا- ولكنها كانت تختلف كثيرًا -فيما بينها- باختلاف الزمان والمكان. فيبدو أن المسؤولين في إمبراطورية الصين مثلاً كانوا قانعين بأن تعترف الشعوب الخاضعة لهم بسيادة إمبراطورهم عن طريق أداء الجزية بصورة دورية وإبداء الاحترام والتوقير فحسب، ولو ظلَّ المبدأ الأساسي هو أن البشرية كلها خاضعة له. وليس من الغريب أن تكون للإمبراطوريات الأوربية في -القرن التاسع عشر- هي الأخرى ملامحها الخاصة بها.

إن أبرز ملامح تلك الإمبراطوريات هو امتدادها الجغرافي العجيب، وقد صارت بعضها في النهاية تدعي لنفسها الحق في مساحات الجليد الشاسعة في قارة أنتاركتيكا، بينما راحت بعضها الأخرى تتنازع على الأراضي الجافة في الصحراء الكبرى -وكلتاهما تبدوان منطقتين منفرتين للوهلة الأولى- ولم يعد هناك مكان في العالم لا يهتم به بناة الإمبراطوريات ولا يسعون للامتداد فيه. وتعود بعض أسباب هذا التوسُّع إلى سهولة الوصول إلى تلك الأنحاء من العالم بفضل جهود الاستكشاف والتقنية والعلم، وبفضل القوة العسكرية العاتية لهذه الإمبراطوريات. ولم يكن هناك من بين الدول غير الأوربية إلا دولتان صدتا تلك الموجة الاستعمارية قبل عام ١٩١٤ فحافظتا بذلك على استقلالهما، وهما الإثيوبيون الذين تمكَّنوا من تدمير جيش إيطالي غزا بلدهم في عام ١٨٩٦ ، واليابانيون الذين بلغوا درجة عالية في تبني الأساليب الأوربية من أجل أن يتمكنوا من البقاء.

تبين هاتان الحقيقتان أن الاستعمار في -القرن التاسع عشر- كان بالأصل استعمارًا أوربيًا، ولم تشارك فيه إلا دولة آسيوية واحدة هي اليابان، أما الإمبراطوريات الصينية والعثمانية والفارسية التي كانت كلها قد قامت بفتوحات عظيمة في الماضي فقد أصبحت في -القرن التاسع عشر- دولاً خاسرة وكانت تتقلص بدلاً من أن تتّسع. وقد ازداد عدد الدول التي تستحوذ على أراض جديدة، وكانت كلها أوربية باستثناء الولايات المتحدة واليابان. وكانت بعضها تشيد إمبراطورياتها منذ زمن بعيد، مثل روسيا وبريطانيا وفرنسا. كانت إسبانيا واحدة من الدول الاستعمارية القديمة في أوربا، ولكن خساراتها تجاوزت مكاسبها خلال القرن حتى خرجت من السباق في نهايته، ولو أنها ضمّت بعض الأراضي الجديدة. ثم كان هناك الشعبان الهولندي والبرتغالي، اللذان برزا في مرحلة أبكر من بناء الإمبراطوريات، وأصبحا الآن في وضع يشبه وضع إسبانيا. أما ألمانيا وإيطاليا، اللتان لم يكن لهما وجود بعد في عام ١٨٥٠، فكانتا تكسبان أيضًا أراضي جديدة في الخارج، ومثلهما بلجيكا، التي لم تظهر إلا في عام ١٨٣٠.

كان هذا العصر إذًا عصر الاستعمار الأوربي بالدرجة الأولى، ولو أن الولايات المتحدة التحقت به في النهاية. ولكن حالتها كانت حالة خاصة. فقد لا يبدو توسُّع أراضي الولايات المتحدة في القارة الأمريكية عادة كواحدة من حالات امتداد الإمبراطوريات -مثل توسُّع روسيا في آسيا- ولكنه في الحقيقة قد استمر طوال القرن التاسع عشر، كما أنه في الوقت نفسه ينسجم مع النمط العام، أي نمط الاستعمار الذي قامت به شعوب «بيضاء» أي من أصول وثقافات أوربية - ماعدا اليابان. وكانت هذه العملية أيضًا جزءًا من عملية أساسيَّة أخرى كانت تجري في القرن التاسع عشر، هي نمو قوة عالمية جديدة.

قوة عالمية جديدة

لقد سيطر الأمريكيون بين الاستقلال وعام ١٨٥٠ على نصف القارة ، فارتفع عددهم من ٦ ملايين في عام ١٨٠٠ إلى ٢٣,٥ مليون بعد -خمسين عامًا- وكانوا -منذ ذلك الحين- منصهرين في «بوتقة» واحدة، كما وصفها أحد كتاب القرن التاسع عشر، أي أن تجربة القارة الجديدة وبيئتها ومؤسسات الجمهورية قد قولبتهم وصنعت منهم أمة جديدة. كان الكثيرون من الأمريكيين قد اختاروا طوعًا عبور الأطلسي إلى بلدهم الجديدة، أو رافقوا والديهم وأقرباءهم الذين اختاروا ذلك، وحتى الذين ولدوا في أمريكا نشؤوا في أسر قام بعض أفرادها بهذا الخيار، وقد ساهمت هذه الأمور في تعزيز شعور وطني قوي، أي أن الولايات المتحدة كانت تتميَّز عن جميع القوى الكبرى بأن الناس اختاروا الانتماء إليها طوعًا. كانت حدودها غنية بعد بالأراضي والموارد الجاهزة للاستثمار، وكان اقتصادها التجاري والصناعي في الشرق يتَّسع ويُقدِّم فرصًا من نوع آخر، لذلك كان الأمريكيون يعلمون تمامًا أن أحوالهم أفضل من أحوال الشعوب الأوربية الأخرى.

لقد ضمت الولايات المتحدة خلال -القرن التاسع عشر- أعدادًا من المهاجرين مساوية لأعدادهم في بقية بلاد العالم مجتمعة. وكان الكثيرون منهم يصلون إليها غير قادرين على التحدُّث بالإنكليزية، ومع ذلك بقيت اللغة الإنكليزية لغة البلاد، وظل الرواد الأمريكيون يتطلّعون زمنًا طويلاً إلى إنكلترا في تراثهم الثقافي وفي الكثير من أفكارهم. ولم ينتخب رئيس جمهورية أمريكي لا يحمل اسمًا إنكليزيًا

أو اسكتلنديًا أو إيرلنديًا حتى عام ١٨٣٧ - ولن يظهر غيره حتى عام ١٩٠١- وكانت الكثير من المؤسَّسات الأساسيَّة أيضًا إنكليزية، مثل الأفكار القانونية والتشديد على المسيحية البروتستنتية والإيمان بقدسية الأملاك الشخصية، وكانت هذه كلها دعامات الجمهورية نفسها.

كانت هاتان الدولتان «حرتين» بالمعايير الأوربية، ولكن معنى هذه الحرية كان مختلفًا في كل منهما. إذ لم تكن إنكلترا ديمقراطية، أما الولايات المتحدة فكانت كذلك. ولم يشكِّل هذا الأمر في -بداية القرن التاسع عشر- تهديدًا للطبقات القائدة القديمة في السياسة الأمريكية، إلى أن استلم الرئاسة في -ثلاثينيات القرن التاسع عشر- الرئيس آندرو جاكسون، الذي يعتبر أول رئيس يحظى بتأييد ديمقراطي حقيقي ويتحدَّث باسم جماهير واسعة من الأمريكيين على أساس برنامج وطني. ومنذ أيامه راح يبرز موضوع هام في السياسة الأمريكية، هو أن إرادة الأمة ككل كما يعبر عنها في التصويت الديمقراطي أعلى من مصالح الأقليات التي يعبِّر عنها الدستور، خاصة مصالح الولايات منفردة.

التوسعات الأولى

لم يكن العالم الخارجي مهتمًا بما كان يجري داخل الولايات المتحدة، ماعدا الملكيات التي بقيت لها في عام ١٧٨٣ أراض في أمريكا الشمالية، أي بريطانيا وفرنسا وإسبانيا وروسيا. وعندما ألقى جورج واشنطن خطابه الوداعي لمواطنيه بمناسبة تركه منصبه في عام ١٧٩٦ أوصاهم بتجنب التورُّط السياسي مع أوربا، ولم يكن في كلامه ما يشير إلى الدور العالمي الذي سوف تلعبه بلاده ذات يوم. صحيح أن الولايات المتحدة تحاربت لفترة وجيزة مع بريطانيا في عام ١٨١٢، إلا أنها لم

تلعب دورًا هامًا في العلاقات الدولية أثناء الثورة الفرنسية والحقبة النابوليونية. ولم يكن الأجانب -ماعدا البريطانيين- يهتمون بالولايات المتحدة، لأن الأمريكيين لم يكونوا يهتمون بهم. ومن السهل أن نفهم هذا الانعزال إذا تذكرنا أن المستوطنات القديمة على المحيط الأطلسي لم تتجاوز في عام ١٨٠٠ وادي أوهايو غربًا. لقد كان عدد السكان في الولايات المتحدة قليلاً -حوالى ٦ أمثال عدد سكان لندن في ذلك الحين- وكان الكثيرون منهم قد أداروا ظهورهم للعالم القديم عمدًا، وكان لديهم ما يكفيهم من المشاغل في هذا البلد الجديد -ومنذ البداية- كانت نظرة الأمريكيين تتصف بميل عميق لما سمي -فيما بعد- «النـــزعة الانعزالية»، وقد شدَّد على هذه النـــزعة حدث هام هو أهم أعمال الدولة الأمريكية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، أي «صفقة شراء لويزيانا»، إذ اشترت الولايات المتحدة في عام ١٨٠٣ بمبلغ ١١,٢٥٠,٠٠٠ دولار من فرنسا أرضًا أوسع من مساحة الجمهورية كلها -في ذلك الحين- وقد منحت هذه الأرض الجديدة للدولة الفتية ولايات مستقبلية هي لويزيانا وآركنسو (آركنساس) وآيوا ونبراسكا وداكوتا الشمالية وداكوتا الجنوبية وجزء كبير من كولورادو، فضلاً عن أنها أمَّنت لها منفذًا إلى النصف الغربي من القارة الواقع وراء نهر المسيسيبـــي، والذي كانت تفصلها عنه في السابق أراضي الإسبان ثم الفرنسيين. وقد بدأ التوازن الكلي للولايات المتحدة بالتغيُّر عندما راح المهاجرون يدخلون هذه الأراضي الجديدة.

كانت حرب عام ١٨١٢ حربًا لا مبرر لها وفاشلة تمامًا، ولكنها كانت معلمًا آخر في قصة التوسُّع هذه، وفي تطور السياسة الأمريكية والشعور الوطني الأمريكي أيضًا، ففي تلك المرحلة اخترع رســام كاريكاتوري صورة العم ســام

Uncle Sam (US) رمزًا للدولة، وفيها لحن نشيد «الراية المرصّعة بالنجوم» الذي صار اليوم النشيد الوطني للولايات المتحدة. وجعلت الحرب الطرفين حريصين على تسوية الخلافات بينهما، ولم يعد من بعدها ثمة خطر كبير من نشوب حرب جديدة بين إنكلترا وأمريكا على كندا، بل سوف تحل النـزاعات حول الحدود في المستقبل عن طريق التفاوض السلمي. وقد حلّت أبرز مسائل الحدود قبل -منتصف القرن- ولم يعد أي رجل دولة إنكليزي يحلم بأخذ المزيد من الأراضي إلى الجنوب من خط عرض ٤٩. وبعد معاهدة غِنْت التي أنهت الحرب بات من الواضح أن الولايات المتحدة سوف تكون الدولة الأهم في ذاك الشطر من العالم.

صارت بحوزة الولايات المتحدة -الآن- أراض واسعة تنتظر من يسكنها، وسوف تمتد حدودها بصورة أوسع من هذا بعد. ومع امتداد منطقة الاستيطان إلى الغرب من جبال الألّيغني ثم إلى الغرب من نهر المسيسيبي صار الكثيرون من الأمريكيين يشعرون أن لهم مصيرًا خاصًا، وبالتالي الحق، في الهيمنة على القارة من أقصاها إلى أقصاها، فبدأت تسمع عبارة "المصير الجلي"، وكان هذا نذير شؤم لغيرهم من شعوب أمريكا، فإذا كانت كندا آمنة لأنها مستوطنة تابعة لقوة كبرى، فإن هنود أمريكا لم يكونوا بأمان، بل إنهم قد جُرفوا من أراضيهم وانتزعت منهم مناطق صيدهم وسكنهم، وكانوا يقتلون إذا هم قاوموا، وكانوا يعتبرونهم همجًا لا يحق لهم أن يقاوموا اندفاع حضارة أسمى من حضارتهم، فكان هذا واحدًا من الجوانب المظلمة لقصة التوسّع في أمريكا.

ومن الجوانب المظلمة الأخرى قصة المكسيك. فبعد حروب الاستقلال في أمريكا الجنوبية حلّت جمهورية المكسيك محلّ الجيران الإسبان للولايات المتحدة في

الجنوب، وسوف تكون هذه الجمهورية هي الضحية الأساسيَّة لذاك "المصير الجلي". لقد ثار المستوطنون الأمريكان في المكسيك ضد حكمها وأسَّسوا جمهورية تكساس، وسرعان ما ضمتها الولايات المتحدة إلى أراضيها. فنشبت عندها الحرب بينها وبين المكسيك، وهزمت المكسيك فيها واضطرت في عام ١٨٤٨ لعقد صلح تخلّت بموجبه عن تكساس وعن الأراضي التي سوف تشكّل ذات يوم ولايات يوتا ونيڤادا وكاليفورنيا والقسم الأكبر من أريزونا. ثم اشترت الولايات المتحدة في عام ١٨٥٣ بعض الأراضي الأخرى من المكسيك فاكتملت بذلك الصورة العامة لأراضيها وبقيت على حالها -حتى اليوم- وفي عام ١٨٦٧ اشترت ألاسكا من الروس، وكان هؤلاء أيضًا قد تنازلوا -منذ زمن بعيد- عن مطالبهم السابقة بالمحطات التي أسَّسوها ذات يوم في كاليفورنيا.

الرق والانفصال

لم يكن الأمريكان ينظرون إلى توسُّعهم المظفَّر في القارة الأمريكية بالمعايير الأخلاقية التي كانوا يطبقونها على الاستعمار الأوربي، ولكنه كان يسبِّب لديهم مشكلة أخلاقية من نوع آخر. وسبب ذلك أن هذا التوسُّع أثار مواضيع دستورية وسياسية في مجال الصدام القديم بين الأغلبية الديمقراطية ومصالح الولايات المنفردة ضمن الاتحاد. كما اختلط هذا الموضوع بموضوع آخر، هو مصائر السود الأمريكيين، الذين كانوا أكبر مجموعة من الأشخاص الخاضعين للقانون الأمريكي لم تستفد من الحمايات الديمقراطية التي يؤمِّنها ذلك القانون؛ وهكذا بات مسرح الأحداث مهيئًا لصراع مأساوي كبير.

عندما أصبح جورج واشنطن رئيسًا للجمهورية كان عدد السود في الولايات المتحدة حوالى ٧٠٠,٠٠٠، وكانت الأكثرية العظمى منهم أرقاء، وكانوا ملكًا مطلقًا لسادتهم، الذين يمكنهم أن يطلبوا منهم القيام بأي قدر من العمل يرغبون به، وأن يؤدبوهم إذا رفضوا إلى حد الجلد وغيره من العقوبات الجسدية، كما يمكنهم بيعهم أو التخلي عنهم بوصية لسادة جدد. وكان أكثرهم يعيشون في الولايات الجنوبية، حيث كانوا يستخدمون للعمل في الحقول أو الخدمة في البيوت. وكان بعضهم يعاملون معاملة حسنة وبعضهم معاملة سيئة، فكان بعض السادة متوحّشين عمدًا، وبعضهم عطوفين مثل الأب على أبنائه. ولكن سواء أكان الأرقاء سعداء أم تعساء فإنهم لم يكونوا أحرارًا مثل الأمريكان البيض، بل كانوا ملكًا لهم.

قلائل هم الأشخاص الذين طرحوا الشكوك حول هذا الترتيب للأمور. لقد كان واشنطن نفسه يملك عبيدًا، ومثله جميع "الآباء المؤسِّسين" تقريبًا. ولكن في عام ١٨٥٠ كان السود في أمريكا قد أصبحوا مشكلة سياسية فظيعة. فقد ازدادت أعدادهم كثيرًا -٤ ملايين في عام ١٨٦٠- وكانوا منتشرين في ولايات أكثر مما كان الوضع عليه في أيام واشنطن. ولما كان استيراد الأرقاء من أفريقيا قد أصبح غير شرعي فقد كان أكثرهم مولودين في أمريكا. وازدادت أعدادهم بسبب ارتفاع الحاجة للعبيد مع انتشار زراعة القطن إلى مناطق جديدة. لقد كان للذهب الأبيض King Cotton سوق مضمونة في مصانع النسيج بإنكلترا التي كانت أمريكا المورد الأساسي لها، وقد تضاعف المحصول الإجمالي بين -بداية القرن وعشرينياته- ثم تضاعف مرة ثانية خلال -السنوات العشر التالية- وفي عام ١٨٦٠ كان ثلثا قيمة الصادرات الإجمالية للولايات المتحدة يأتيان من القطن.

لقد بدّل هذا التغيُّر الهائل الشطر الجنوبي من الولايات المتحدة، فانتشرت زراعة القطن ومعها العبودية عبر الجنوب مبتعدتين عن ولايات ساحل الأطلسي القديمة حيث نشأت العبودية في البداية إلى ألاباما ومسيسيــــي وتينيسي وآركنسو. فصارت هذه الولايات أكثر فأكثر اعتمادًا على الرق، وصار أكثر أهل الجنوب يعتبرونه أساس كل ما يجعلهم مختلفين عن أهل الشمال. وفي منتصف القرن كان بعضهم قد بدؤوا يعتبرون أنفسهم أشبه بأمة منفصلة ضمن الولايات المتحدة، وأن الأشياء التي تميزهم كانت مهدَّدة من الخارج من قبل الحكومة في واشنطن.

وسبب هذا الفرق هو أن موضوع الرق قد اختلط بموضوع توسُّع أراضي الولايات المتحدة. فمع افتتاح الغرب بعد صفقة لويزيانا وظهور ولايات جديدة فيه صارت الأسئلة الكبرى تهيمن على أجوائها: هل يجب السماح بالرق في الولايات الجديدة بما أنه موجود في الولايات الأقدم؟ أم أنه يمكن حظره فيها بقوانين من وضع الكونغرس؟ كان أهل الجنوب يقولون إنه لا يمكن حظر الرق، وإذا كان ذلك ممكنًا فإنه لا يجوز أن يحدث إلا بقرار سكان هذه الولايات الجديدة أنفسهم، لأن الدستور ترك أمر الرق بيد السلطات في كل ولاية. ولكن معارضي الرق كانوا ينكرون هذا، وكانوا يقولون إنه يمكن لمرسوم من الكونغرس أن يحظره في أي أراض جديدة تنضم للولايات المتحدة. وهكذا صار الخلاف يدور حول معنى الدستور، فهل أسَّس الدستور هيئة تشريعية وطنية تسمو قراراتها على الولايات المنفردة في النهاية، أم أن للولايات حقوقًا معينة لا يجوز أن ينتزعها منها شيء ولو كان قانونًا من وضع الكونغرس؟

كانت معالجة هذه المسائل بصورة سلمية تزداد صعوبة باستمرار، خاصة بسبب نشاطات ابتدأت -منذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر- ضد الرق، وصار

أصحابها يسمون «الإلغائيين». لقد كان بعض المناهضين للرق يريدون -فقط- أن يمنعوا امتداده إلى الولايات الجديدة، أما الإلغائيون فكانوا يريدون إلغاءه حتى في الولايات التي لم يشكّك أحد بحقه في الوجود فيها. وكان هؤلاء يتمتّعون بميزة هي أن الرأي العام كان -منذ القرن الثامن عشر- يتحول ضد العبودية في جميع البلاد المتحضّرة -وأكثرها لم تكن فيها أعداد كبيرة من العبيد ولا حتى في الخارج- وكان الرق قد منع بصورة مؤقتة في المستوطنات الفرنسية في عام ١٧٩٤، وفي البريطانية بصورة دائمة في عام ١٨٣٤. أما في الولايات المتحدة فكان في حالة من الازدياد السريع بينما كان يتراجع في البلاد الأخرى. وقد أشعر هذا الأمر الكثيرين من الأمريكان بالارتباك والقلق. ولكن الشيء الأهم هو أن الديمقراطية كانت إلى جانب الإلغائيين، إذ إنهم كانوا يقولون إن القرار يجب أن يتم بأغلبية شعب الولايات المتحدة، وإن عليهم إذا اقتضى الأمر أن يغيّروا ما قاله الدستور قبل خمسة أو ستة عقود حول حقوق الولايات المنفردة.

وراح الإلغائيون يرفعون حرارة هذا الجدال بأعمالهم الاستفزازية، فكانوا يساعدون العبيد على الهرب من الجنوب، ويقاومون إعادتهم عن طريق المحاكم في الشمال، وينشرون الدعاية لقضيتهم. أما السياسيون فكانوا يفعلون ما بوسعهم لترتيب حلول وسط، وقد ظلّت هذه الترتيبات كافية لزمن طويل، فلم يشعر الجنوب أنه مهدَّد، ولم تنهر روح التسوية هذه إلا في -خمسينيات القرن التاسع عشر- كان لابد -عندئذ- من تنظيم أرض جديدة هي أرض كانساس وتحويلها إلى ولاية، فراح الإلغائيون وخصومهم يتحاربون -فيما بينهم- لتحديد ما إذا كان سيسمح بالعبودية في هذه الولاية الجديدة، فوقع قتلى وبدأ الناس يتحدثون عن «كانساس النازفة». وبرغ من هذا الموضوع حزب جديد هو الحزب الجمهوري،

الذي قال إن الكونغرس هو الذي يجب أن يقرر مصير كانساس، وبالتالي فقد اعتبره الجنوب على الفور عدوًا له. وفي الانتخابات الرئاسية لعام ١٨٦٠ قال الجمهوريون إن العبودية يجب حظرها في أي أرض جديدة سوف تضم إلى الاتحاد، أي أنهم لم يكونوا إلغائيين، ولكن الكثيرين من السياسيين في الجنوب كانوا رافضين حتى لهذا المطلب. وعندما انتصر في تلك الانتخابات مرشح الحزب الجمهوري أعلنت ولاية كارولاينا الجنوبية في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٦٠ أنها سوف تنفصل عن الاتحاد احتجاجًا. وخلال شهر واحد -تقريبًا- كانت ست ولايات أخرى قد انضمت إليها. وقد أسَّست هذه الولايات اتحادًا جديدًا، هو الولايات الاتحادية الأمريكية، التي كان لها دستورها وحكومتها ورئيسها.

الحرب الأهلية

وهكذا ابتدأت أكبر المآسي في التاريخ الأمريكي، لأن كلاً من الطرفين كانت لديه حجج قوية لا يمكن دحضها. فكنت تجد في الشمال أكثر الولايات الباقية ضمن الاتحاد والشعور الأقوى بضرورة إلغاء العبودية، وهناك قالت الحكومة إن للكونغرس السلطة في وضع قوانين ملزمة للاتحاد برمته، لأنه يمثّل الأغلبية. ولم يطالب الجمهوريون بإبطال العبودية في الجنوب، بل بعدم السماح بها في الولايات الجديدة. فرد أهل الجنوب على هذا بأن من حق من لا يوافقون على ذلك أن ينسحبوا من اتحاد أنشئ على أساس تفاهم مختلف. وكانوا يسألون لماذا لا يكون سكان كارولاينا الجنوبية وبقية الولايات الجنوبية أحرارًا في إدارة شؤونهم الداخلية مثل الهنغاريين أو الإيطاليين المطالبين بحرية بلادهم في أوربا؟ وفوق هذا، كان الجنوبيون يخشون أنهم إذا تنازلوا للكونغرس عن حق التشريع حول موضوع الرق

في جميع أنحاء الاتحاد فإنه سرعان ما سيبدأ بوضع القوانين حول الشؤون الداخلية في الولايات الجنوبية. ولقد قسَّمت هذه الحجج الأصدقاء والجيران بل حتى الأسر نفسها، كما هي الحال -دومًا- في القضايا الكبرى والمأساوية، وجلبت على الولايات المتحدة صراعًا هائلاً ودمويًا كان الناس يسمونه «الثورة» أو «الحرب بين الولايات» حسب موقفهم منه، ولكن أكثر المؤرخين مازالوا يسمونه الحرب الأهلية.

كان رئيس الجمهورية الجديد للولايات المتحدة محاميًا من ولاية إيلينوي، هو أبراهام لنكولن، وهو أعظم رجل شغل هذا المنصب حتى اليوم. كان لنكولن مزمعًا على بذل كل ما باستطاعته من جهد لكي يمكّن من عودة الولايات الجنوبية إلى الاتحاد، ولكنه كان أكثر عزمًا على الحفاظ على الاتحاد. لقد عبَّأ أولاً القوات الفدرالية لكي يعيد الحكم في الولايات الجنوبية إلى وضعه الطبيعي، ولكن الإلغائيين لم يرضوا بهذا لأنهم كانوا يريدون المزيد. وقد قال لنكولن ذات مرة: «إذا أمكنني أن أنقذ الاتحاد من دون تحرير أي عبد فسوف أفعل، وإذا أمكنني أن أنقذه بتحرير العبيد جميعًا فسوف أفعل». ولكنه بعد ذلك أعلن تحرير جميع العبيد في الولايات المتحدة في يوم رأس السنة من عام ١٨٦٣، لأنه شعر أن لا بد من ذلك من أجل كسب الحرب. إلا أن هذا الإعلان قد زاد من عزم الجنوب على المقاومة، وقد لزم -عامان ونصف العام- بعد ذلك لهزم الاتحاد الجنوبي. وفي عام ١٨٦٥، بعد تلك الهزيمة وبعد اغتيال لنكولن، اتخذت الخطوة الأخيرة وغُيِّر الدستور بحظر العبودية في الولايات المتحدة.

لقد كانت تلك الحرب حربًا فظيعة، قتل فيها أكثر من ٦٠٠,٠٠٠ أمريكي من أصل ٣٠ مليونًا عند بدايتها، أي أكثر من الذين قتلوا في أي حرب خاضتها

الولايات المتحدة ضد بلد أخرى -منذ ذلك الحين- وقد مات أكثر هؤلاء من الأمراض، ولكن البنادق والمدافع الجديدة التي تحشى من الخلف، فضلاً عن السكك الحديدية التي مكّنت من حشد أعداد ومواد كثيرة، قد حوّلت ساحات القتال إلى مجازر مروِّعة. وكان الجنوب يعاني من نقاط ضعف عديدة منذ البداية، فقد كانت أعداده أقل -كانت النسبة حوالى ٢ إلى ١- وكان هيكله الصناعي ضعيفًا، ولم يكن لديه سوى محصول القطن يبيعه لشراء المواد من الخارج. ولكنه كان يضم في -الوقت نفسه- جنودًا أكفاء، وكان شعبه مؤمنًا بأنه يقاتل من أجل بقائه، كما أن العبيد فيه لم ينقلبوا عليه. وهكذا لزم في النهاية أربع سنوات من القتال الوحشي، فحُصر الجنوب بالولايات القديمة الواقعة على البحر شيئًا فشيئًا، وعاش معاناة رهيبة في تخريب أراضيه وفي خسارة الأرواح.

ولكن الحرب الأهلية كانت حربًا حاسمة، بعكس الكثير من الحروب الأخرى، لأنها سوَّت بعض المسائل العامة إلى الأبد، لا من أجل أمريكا وحدها، بل من أجل البشرية جمعاء. لقد ضمنت أولاً أن الأمريكتين سوف تظلان تحت سيطرة قوة عظمى واحدة، وزال خطر انقسام الولايات المتحدة. وإن استغلال قوة واحدة عظمى لثروات هذه الرقعة الكبيرة من الأرض سوف يحدد -خلال القرن التالي- نتيجة حربين عالميتين. وحددت الحرب أيضًا أن هذه الأرض الواسعة سوف تكون تحت حكم ديمقراطي، فكان هذا انتصارًا للديمقراطية. لقد أعطى لنكولن ذات مرة تعريفًا شهيرًا للديمقراطية هو أنها «حكم الشعب من قبل الشعب ومن أجل الشعب». ولم يتحقق هذا المثال بمعناه الكامل بعد في أي ركن من أركان العالم، ولكن الحرب الأهلية حدَّدت أن الكلمة الأخيرة في المستقبل سوف تكون للأكثرية من خلال حكومة وطنية للولايات المتحدة، وليس للولايات منفردة.

أما بالنسبة إلى أولئك الذين صارت الحرب تخاض من أجلهم في النهاية، أي السود، فقد كانت النتيجة واضحة من الناحية القانونية والدستورية، ألا وهي نهاية العبودية وتحوّلهم إلى مواطنين أمريكيين لهم نفس الحقوق الدستورية والقانونية التي لسواهم من الأمريكان. ولكن ليست هذه القصة كلها، فرغم أن الملايين من العبيد في الجنوب وجدوا أنفسهم فجأة أحرارًا -وظلّوا يعيشون في الجنوب- إلا أنهم كانوا في -الوقت نفسه- غير متعلّمين ولا يعرفون غير العمل في الحقول، و لم يكن بينهم إلا القليل من الزعماء لقيادتهم. لقد احتلت جيوش الشمال أجزاء من الجنوب لبضع سنوات، وعندما كانوا هناك كانوا يحمونهم في استخدام حقوقهم الجديدة. ولكن عندما رحلت الجيوش وجد السود أنفسهم بين البيض الذين يبغضون أشد البغض تلك التغييرات التي جلبتها القوانين الجديدة على أساليب حياتهم، ويكرهونهم لأنهم يرون فيهم رمز هزيمة الجنوب. فراحوا يضايقونهم ويضغطون عليهم اقتصاديًا لقمعهم، وقد ساءت العلاقات بين العرقين في الجنوب كثيرًا بعد -عشرين عامًا- من الحرب عما كانت عليه من قبل، كما تراجعت أوضاع السود و لم تتحسَّن؛ والحقيقة أن مسألة العلاقات بين العرقين قد ولدت عندما ماتت العبودية.

وأدَّت الحرب -أيضًا- إلى اتخاذ السياسة في أمريكا شكل نظام مؤلَّف من حزبين مازال مستمرًا -حتى اليوم- فمازال الحزبان الجمهوري والديمقراطي اللذان كانا المتنازعين الأساسيين في انتخابات عام ١٨٦٠ يتشاطران الرئاسة بينهما -منذ ذلك الحين- وسوف ترتبط قضية الديمقراطيين طوال عقود عديدة بالجنوب ويرتبط المذهب الجمهوري بالشمال، بينما كان الاتحاد يخرج من كابوس الحرب لكي يتابع مسيرة التوسُّع التي انقطعت في عام ١٨٦١.

الفورة الاقتصادية الأمريكية

سرعان ما أصبح تيار المد الاقتصادي إلى جانب الجمهوريين مع عودة التوسُّع الكبير بعد انقطاعه القصير أثناء الحرب. كان أبرز مظاهر هذا التوسُّع قبل ذلك هو توسُّع الأراضي، أما الآن، فسوف يصبح توسُّعًا اقتصاديًا. ففي سبعينيات القرن التاسع عشر كانت أمريكا على عتبة عصر سوف يبلغ مواطنوها فيه أعلى دخل للفرد في العالم كله. وقد بدا في خضم هذه النشوة والثقة والآمال الكبيرة أن جميع المشاكل السياسية قد حُلَّتْ. وتحوَّلت أمريكا على عهد إدارالها الجمهورية إلى الانشغال بالتقدُّم الاقتصادي وليس بالجدالات السياسية، وهو وضع سوف يتكرَّر في المستقبل. صحيح أن الجنوب ظلَّ بعيدًا عن هذا الازدهار الجديد وأنه ازداد تخلُّفًا عن الشمال، إلا أن الأمريكان في الشمال والغرب كانوا يتطلَّعون بثقة إلى قدوم أيام أفضل بعد. وقد شعر الأجانب أيضًا بذلك، لهذا كنت تراهم يفدون إلى الولايات المتحدة بأعداد متزايدة، وقد بلغ عددهم مليونين ونصف المليون في خمسينيات القرن التاسع عشر وحدها. وأضيفت هذه الأعداد الوافدة إلى السكان الذين ارتفعوا من حوالى خمسة ملايين وربع المليون في عام ١٨٠٠ إلى ما يقرب من أربعين مليونًا في عام ١٨٧٠. وكان نصف هؤلاء -تقريبًا- يعيشون، عندئذ، إلى الغرب من جبال أَلّغيني كما كانت الأغلبية العظمى منهم في المناطق الريفية. كان بناء السكك الحديدية يفتح السهول الكبرى للاستيطان والاستثمار اللذين لم يكونا قد بدآ بعد، وفي عام ١٨٦٩ تم دق المسمار الذهبي -أي الأخير- في أول امتداد للسكك الحديدية يصل أقصى القارة بأقصاها. وسوف تجد الولايات المتحدة في الغرب الجديد أعظم توسُّع زراعي لها، فبفضل نقص اليد العاملة أثناء سنوات الحرب كانت الآلات تستخدم بأعداد كبيرة تدل على أن الزراعة قد بلغت مستوى جديدًا تمامًا، وكانت تلك

بداية مرحلة جديدة في الثورة الزراعية في العالم سوف تجعل من أمريكا الشمالية واحدًا من أهراء أوربا، وقد بلغ عدد الحصَّادات الميكانيكية العاملة وحدها ربع مليون عند نهاية الحرب. ومن الناحية الصناعية أيضًا كانت تنتظر الولايات المتحدة سنوات عظيمة، فمع أنها لم تكن بعد قوة صناعية تقارن ببريطانيا -كان عدد الأمريكان العاملين في الصناعة أقل من مليونين في عام ١٨٧٠- إلا أن الأساس كان قد وضع. وكانت السوق المحليَّة الواسعة والغنية تبشر الصناعة الأمريكية بغد مشرق.

لقد نسي الأمريكان وهم على عتبة أكثر حقب تاريخهم ثقة، ونجاحًا أن هناك خاسرين في هذه العملية، وكان هذا الإغفال سهلاً لأن النظام الأمريكي كان بالإجمال يعمل بصورة حسنة. لقد انضم -الآن- السود والفقراء من البيض أيضًا إلى الهنود الذين كانوا يخسرون باطراد طوال -قرنين ونصف القرن- فصار هؤلاء جميعًا هم الخاسرون المنسيون. أما الفقراء الجدد في المدن الشمالية التي كانت تزداد نموًا فلا يمكن اعتبارهم من بين الخاسرين نسبيًا، لأن أوضاعهم كانت مثل أوضاع الفقراء في مانشستر أو نابولي مثلاً، بل أفضل منها. وإن رغبتهم بالقدوم إلى الولايات المتحدة دليل على أنها كانت -منذ ذلك الحين- قوة جاذبة كبرى. ولم تكن قوتها مادية فحسب بل معنويَّة، أيضًا، فإلى جانب «البؤساء المنبوذين» كنت تجد أيضًا «الجماهير المحتشدة التوَّاقة إلى استنشاق الحرية». ومازالت الولايات المتحدة في عام ١٨٧٠ مصدر وحي وإلهام سياسي للراديكاليين الأوربيين.

الإمبريالية الأمريكية فيما وراء البحار

لم يعلن عن زوال «حدود الاستيطان» حتى تسعينيات القرن التاسع عشر، فاكتملت بذلك عملية إعمار الغرب بالسكان. ولكن -منذ نهاية الحرب الأهلية-

وربط ساحلي الولايات المتحدة بالسكك الحديدية والتلغراف كثر الحديث عن مصالح الولايات المتحدة في الخارج وعن الحاجة لرعايتها. وأدى هذا عند نهاية القرن إلى قرار أمريكي بالانضمام إلى حركة الاستعمار مثل جميع الدول الأخرى. وكانت لهذا الاستعمار ملامحه الخاصة مثل جميع أشكال الاستعمار المختلفة. من تلك الملامح شعور الكثيرين من الأمريكان بعدم الراحة نحوه، فكانوا يقولون إن جمهوريتهم نفسها قد ولدت من ثورة ضد قوة مستعمرة فلا يجوز لها أن تقوم باستعمار غيرها بدورها. ولم يكن في الدستور بنود تتعلّق بحكم مستعمرات، بل فقط بالأراضي التي قد تصبح في النهاية ولايات كاملة ضمن الاتحاد، فكيف يمكن إذًا استعمار أراض تبعد مئات أو حتى آلاف الأميال؟ والحقيقة أن هذه الحجة كانت غافلة عن أن أراضي الولايات المتحدة قد ضُمت ضمن ظروف مشكوك فيها أصلاً، وحتى شراء ألاسكا من روسيا عن طريق الاتفاق كان توسيعًا لحكم الولايات المتحدة على أرض أجنبية ليست امتدادًا لأراضيها. إلا أن الاستعمار الأمريكي قد تابع تقدُّمه بالرغم من ذلك.

لقد دفعت الجغرافية الأمريكيين وراء سواحلهم باتجاهين، أحدهما نحو الغرب عبر المحيط الهادي، والآخر نحو الجنوب إلى الكاريبـــي وأمريكا الجنوبية. كانوا قد بنوا لأنفسهم تجارة وصيد حيتان هامين في الشرق الأقصى -منذ زمن بعيد، ومنذ عشرينيات القرن التاسع عشر- كان للبحرية الأمريكية أسطول هناك. وقد وصل الأمريكيون الأوائل إلى هاواي في -الوقت نفسه تقريبًا- وما إن رأت الحكومة الأمريكية القوى الأخرى تنال الامتيازات من الإمبراطورية الصينية حتى راحت تعقد معها اتفاقيات مشابهة، ثم أُرسل القبطان بيري لإكراه اليابانيين على فتح موانئهم للتجارة الخارجية.

في النصف الثاني من القرن صار الأمريكان يشاركون في إدارة جزيرة ساموا، كما حصلوا على جزيرة هاواي ثم أخذوا من إسبانيا جزر الفلبين وغوام. وكانت دوافعهم في ذلك معقّدة، فبعضهم كانوا حريصين على رعاية مصالح بلادهم وحصولها على بعض الأراضي مثل الدول الأخرى، وكان بعضهم يتحدَّث عن الاقتصاد الوطني وعن الحاجة للأسواق من أجل التصدير، ولكن هذه الحجة لا أساس لها لأن الولايات المتحدة كانت تتمتَّع بسوق داخلية هائلة من أجل مصنوعاتها. أما بعضهم الآخر فقد فهموا أفكار داروين، أو ما حسبوا أنها أفكاره، على أن الصراع بين الشعوب مثل الصراع بين الأجناس في الطبيعة من أجل البقاء، وأن الشعوب الأقوى هي التي تنتصر في النهاية، وأن انتصارها هذا يكون بحكمها للشعوب الأخرى.

ولكن الحقيقة أن الاستعمار الأمريكي لم يستمر طويلاً من ناحية الاستيلاء على أراض جديدة، وقد جاء الضم الأخير لهاواي في تموز (يوليو) ١٨٩٨ في فورة من العدوانية والتوسُّع كانت ضحيتهما الأساسيَّة هي القوة الاستعمارية القديمة إسبانيا. ففي شهر شباط (فبراير) ١٨٩٨ انفجرت طرّادة أمريكية اسمها السفينة مين بصورة غامضة -بينما- كانت في المرفأ في هافانا بجزيرة كوبا، وكانت كوبا في ذلك الحين ملكًا لإسبانيا. وكانت المصالح الاقتصادية الأمريكية هامة في هذه الجزيرة -منذ زمن بعيد- ولطالما تعاطف الأمريكان مع الثورة في كوبا التي عجز الإسبان عن السيطرة عليها رغم جهودهم الكبيرة ووحشيتهم. وأعلنت الولايات المتحدة الحرب على إسبانيا من دون سبب وجيه، إذ لا يعلم أحد -حتى الآن- لماذا انفجرت السفينة مين. وقد قال أحد الرؤساء الأمريكيين اللاحقين عن تلك الحرب إنها كانت "حربًا صغيرة رائعة". لقد هزم البحارة والجنود الأمريكان الإسبان في

كوبا، وأغرقوا أسطول إسبانيا الأطلسي برمته في معركة لم يصب فيها الأمريكان إلا بخدوش بسيطة. أما على الطرف الآخر من المحيط الهادي فقد دُمر أسطول إسبانيا في تلك المنطقة في خليج مانيلا كما دعم الأمريكان حركة ثورية للإطاحة بالحكم الإسباني في الفلبين. وأثناء السلم الذي عقد بعد ذلك صارت كل من غوام والفلبين وبورتو ريكو للولايات المتحدة، واستعادت كوبا استقلالها ولكن بشروط سمحت للولايات المتحدة بإعادة احتلالها في ظروف معينة، كما حدث بين عامي ١٩٠٦ و١٩٠٨ مثلاً.

منطقة الكاريبـــي

لقد خمد الحماس للفتح الاستعماري بعد الحرب الإسبانية بسرعة، ولكن الجبهة الجنوبية ظلّت تشغل بال الولايات المتحدة بطريقة خاصة. كان التفسير القديم لمبدأ مونرو هو أن ذلك الشطر من العالم ذو أهمية خاصة للولايات المتحدة، وأنه يحق لها بالتالي أن تتصرّف فيه دفاعًا عن مصالحها. وظهرت -الآن- ناحية جديدة لهذه المصالح، لأن التقنية الحديثة باتت قادرة على حفر قناة عبر البرزخ الواقع بين أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية يصل المحيط الهادي بالمحيط الأطلسي عبر منطقة الكاريبـــي. وكان الاستراتيجيون الأمريكان ذوي اهتمام خاص بالإمكانيات التي سوف تفتحها هذه القناة. وإن صعود القوة البحرية اليابانية قد جعل الحفاظ على أسطول قوي في المحيط الهادي أمرًا أهم من -أي وقت مضى- وسوف يصبح إمداده أسهل وأسرع بكثير إذا تم عن طريق، بنما، بدلاً من أن يتم من حول رأس هورن -كيب هورن- في الطرف الأقصى من أمريكا الجنوبية.

في عام ١٩٠٣ رفضت الحكومة الكولومبية معاهدة ترمي للحصول على جزء من أراضيها من أجل أن تمر عبرها القناة. ولهذا دُبرت بدعم أمريكي ثورة في

بنما، التي كان مخططاً أن تمر القناة فيها. ومنعت الولايات المتحدة قمع الثورة، فظهرت جمهورية جديدة في، بنما، سلّمت للأمريكيين السلطة القضائية وسمحت لهم باحتلال شريط من الأرض سوف يصبح منطقة، قناة بنما، كما أنها تنازلت للولايات المتحدة عن حق التدخُّل في شؤونها إذا اقتضت الحاجة من أجل الحفاظ على الأمن. فابتدأ بعدها العمل بالقناة، وكانت ذات هندسة متميِّزة كما كانت مزوَّدة بأهواس -تجهيزات لرفع السفن أو خفضها من مستوى إلى آخر- بعكس قناة السويس، وقد أمكن افتتاحها في عام ١٩١٤.

لقد غيَّرت قناة بنما استراتيجية أمريكا، وسبَّبت منعطفًا جديدًا في سياستها في منطقة الكاريبـــي بأسرها. ولما كانت القناة مفتاح دفاعات أمريكا البحرية فقد كان لا بد من حمايتها حماية خاصة. فراحت الولايات المتحدة تزيد من تدخُّلها في شؤون جمهوريات أمريكا الوسطى والكاريبـــي وبقوات مسلحة أحيانًا، لأن الأمريكان كانوا يقولون إن اختلال الأمن فيها قد يخلق وضعًا يمكن لقوة معادية للولايات المتحدة أن تستغله. أما الأمريكان الذين لم ترق لهم هذه الحجة فسرعان ما هاجموها على أنها استعمار تحت زي جديد.

وسرعان ما بدأت مخاوف أولئك الأمريكيين المناهضين للاستعمار بالتحقق في الشرق الأقصى، فبعد الاستيلاء على جزر الفلبين -بوقت قصير- تحوَّلت الثورة المعادية للإسبان فيها ضد الأمريكان، وبدأت حرب عصابات طويلة ومكلفة. وعندما تمَّت السيطرة عليها في عام ١٩٠٢ كان الرأي الأمريكي متلهفًا لتسليم الحكم للفلبينيين إذا كان ذلك ممكنًا بطريقة آمنة. ولكن هذا الأمر كان صعبًا، و لم يتم -حتى ثلاثينيات القرن العشرين- كما كان هناك خطر أن تتقدَّم قوة استعمارية أخرى فتأخذ الجزر إذا تركتها الولايات المتحدة، مثل اليابان. وقد يهدِّد هذا الأمر

المصالح الأمريكية في المنطقة، خاصة مصالحها التجارية مع الصين. إن خوف الأمريكان مما قد يحدث إذا انهارت الصين جعلهم يدعمون ما سموه سياسة «الباب المفتوح» هناك، فقالوا إن على القوى الأجنبية أن ترفع أيديها عن الصين، وأن تحافظ على المعاهدات التي تمنحها حقوق التجارة، وأن تتنافس -فيما بينها- بسلام عن طريق الوسائل الاقتصادية. ولما كانت هذه سياسة بريطانيا بالأصل فلن يكون للولايات المتحدة من معارض إذا سارت على هذا الخط.

إن الرئيس ثيودور روزفلت، مدبِّر -ثورة بنما- التي مكّنت من بناء القناة، كان أيضًا أول رئيس يؤكِّد على حق التدخُّل في دول الكاريبـــي، وقد اعتُبر هذا نتيجة طبيعية لمبدأ مونرو. لقد أرسل روزفلت قوات بحرية إلى سانتو دومينغو لضمان تسديدها ديونها للمستثمرين الأجانب، فحرم بالتالي القوى الأجنبية من أي عذر للتدخُّل فيها. وقد سمي جيرانها هذا التدخُّل على عهد خلفائه «دبلوماسية الدولار». ثم أرسل الرئيس تافْت قوات بحرية إلى نيكاراغوا. أما الرئيس وُدرو وِلسُن، الذي استلم الرئاسة في عام ١٩١٢، فقد قال الكثير في شجب الأساليب الاستعمارية واستنكارها، ولكنه عمليّاً سار على طريق من سبقوه. فاحتلت القوات البحرية الأمريكية سانتو دومينغو من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩١٦، وتم قمع الحكومة أخيرًا من أجل فرض دستور جديد من قبل الأمريكان. واحتلت هايتي لفترة من الزمن في عام ١٩١٥. إلا أن أكثر مثال صارخ عن تدخُّل وِلسُن إنما كان في المكسيك. فعندما استلم دكتاتور عسكري الحكم هناك امتنع وِلسُن عن الاعتراف به بحجة أن نظامه ليس بمستوى المعايير الأخلاقية للولايات المتحدة. ورست القوات البحرية في ڤيرا كروز في عام ١٩١٤، ولم تنسحب إلا بعد خلع الدكتاتور من منصبه بالقوة. ثم عادت الحملات التأديبية الأمريكية إلى المكسيك -

بعد سنوات قليلة- ولكن الحقيقة أنها كانت في هذه المرة استجابة لغارة قام بها قائد مكسيكي على ولاية نيو مكسيكو.

كان الكثيرون من الأمريكان في -ذلك الحين- ينفرون نفورًا عميقًا من المغامرات الخارجية، لأنها كلفتهم الكثير من المال ولم تأتِ بمكسب ما، كما أنه لم يمكن ثمة فرصة لمزيد من التوسُّع في أي مكان إلا في منطقة الكاريبـــي، لأن بقية العالم كانت قد اقتسمتها القوى الأخرى اقتسامًا كاملاً تقريبًا. وعندما اندلعت حرب كبرى في أوربا في عام ١٩١٤ ظل الأمريكيون يكرهون التورُّط في المشاكل الخارجية.

آسيا في العصر الأوربي

الصين

كانت هناك في عام ١٨٠٠ إمبراطوريتان كبيرتان في مرحلتين مختلفتين من الانحلال، وكانتا تواجهان من دون أن تعلما قرنًا كاملاً من الذل والمهانة على أيدي الشعوب البيضاء. إحدى هاتين الإمبراطوريتين هي الصين، التي تقول الرواية الشهيرة إن نابوليون وصفها بأنها «عملاق نائم فلا توقظوه». ولكن بعد سنوات طويلة من موت نابوليون راح الأوربيون يوقظون هذا العملاق من دون أن يروا خطرًا في تجاهل نصيحته تلك. كانت قوة المنشو قد تقوّضت في الداخل وضعفت في الخارج عن أيامها العظيمة في -بداية القرن الثامن عشر- ومع هذا فقد صرف مسؤولوها في عام ١٧٩٣ مبعوثًا بريطانيًا وحملوه رسالة متعالية إلى حاكمه الملك جورج الثالث فيما سمّوه «جزيرتكم النائية الموحشة، المعزولة عن العالم ببحار ممتدة تحول دونها». وكان هذا الموقف متفقًا تمامًا مع نظرتهم الأزلية إلى العالم الخارجي، إذ كانت الصين عندهم مركز الحضارة، و«المملكة الوسطى» المحاطة بشعوب تابعة لها وخاضعة لنفوذ حضارتها -كأهل التبت وفيتنام وكوريا مثلاً- أما وراء هؤلاء فبرابرة دونيون لا شأن لهم.

إلا أن المنشو كانوا في -ذلك الحين- قد تجاوزوا ذروة قوتهم. كانت الثورات الكبيرة قد بدأت تمزّق السلام الداخلي الطويل، وهذه هي العلامة

التقليدية الدالة على انحلال السلطة الإمبراطورية. إن الارتفاع الكبير في عدد السكان -منذ منتصف القرن السابع عشر- قد وصل به إلى أكثر بكثير من مثلين -خلال القرن ونصف القرن التاليين- حتى بلغ في عام ١٨٠٠ ثلاثمئة وثلاثين مليونًا. وكانت هذه الزيادة أكبر من قدرة الزراعة في الصين، فكانت كل الأراضي القابلة للزراعة مستخدمة تقريبًا، وحتى أشق الجهود لم تكن بقادرة على زرع محاصيل أكبر بالمعرفة والتقنية المتوفرتين. وإن الاضطرابات الكبيرة التي سبَّبتها الثورات كانت تعبر عن معاناة رعايا الإمبراطورية، وكانت الجمعيات السرية والفرق الدينية تستغلها لإذكاء الحق القديم ضد السلالة - ولا ننس أن المنشو كانوا أجانب - وكانت المظالم الشعبية تزداد قسوة وشراسة بعد عام ١٨٠٠ لأن التضخُّم كان قد بدأ برفع الأسعار.

كانت السلالات السابقة تستمر -أحيانًا قرونًا طويلة- رغم الأزمنة العصيبة التي تمر بها، وقد استمرت سلالة التشنغ (المنشو) في النهاية حتى عام ١٩١١، ولكنها واجهت من الخارج خطرًا جديدًا لا سابق له. لم تكن المشاكل التي يسببها "البرابرة" الآتون عادة من آسيا الوسطى بالجديدة، بل إنهم قد أطاحوا في بعض الأحيان بسلالات قبل التشنغ. ولكن الأمر كان ينتهي دومًا بالاندماج الثقافي لأولئك البرابرة، فبعد كل غزو جديد كانت الإدارة الإمبراطورية تظلُّ في أيدي طبقة النبلاء الأدباء المتدربين على التقاليد الكونفوشية، ولم يكن الشعب يتأثَّر بتبدُّل الحكّام. ثم كان البرابرة «يتصيننون» بتأثير تلك الحضارة الأعلى التي سيطروا عليها. أما في القرن التاسع عشر فقد واجهت الصين للمرة الأولى برابرة لن تبهرهم حضارتها بل سوف ينظرون إليها بازدراء، ولم يكن الصينيون يميِّزون بين البيض بل كانوا يسمونهم كلهم feringhi وهو الشكل الذي تحوَّلت إليه عندهم كلمة

Franks*. بل إن الأوربيين هم الذين سوف يحاولون بث أفكارهم في حياة الصينيين وفي حكامهم، وكثيرًا ما كانوا يفعلون ذلك بأساليب عسكرية وسياسية.

فتح الصين على الغرب

لقد أتى هذا الخطر الجديد على الصين بأسرع مما كان متوقعاً -منذ القرن السادس عشر- لم يكن ميزان التجارة بين الصين وأوربا لمصلحة الأوربيين، إذ لم يكن لدى أوربا بضائع كثيرة يرغب بها الصينيون. لهذا كان التجار الأوربيون في الصين مضطرين لتسديد أثمان مشترياتهم نقدًا بشكل فضة، لأنها كانت أساس العملة في الصين. ولم يكن لديهم بضائع يبيعونها بالمقابل. فكانت الشركة البريطانية للهند الشرقية مثلاً مضطرة لشحن سبائك الفضة إلى الشرق من أجل دفع ثمن الشاي وغيره من البضائع التي كانت تحمّلها سفنها في كانتون في القرن الثامن عشر. إلا أن هذا الوضع تغيَّر في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، بل إنه تغيَّر بسرعة كبيرة.

إن الأفيون دواء مخدِّر يصنع من نبات الخشخاش وله تاريخ طويل في تسكين الألم. ولكنه مرغوب جدًا لأسباب أخرى أيضًا، إذ يبدو أنه يجعل الحياة الطف بأن يزيل منها المتاعب والهموم. ولهذا الغرض يستخدمه بعض الناس كما يستخدم غيرهم الكحول، وهو دواء آخر مرغوب له بعض الاستخدامات المشابهة. ولكن التشابه بين الاثنين ليس كاملاً، لأن الكحول قد يجعل المرء يبدي المزيد من الإثارة والصخب، بينما يعطي الأفيون شعورًا بالاطمئنان المترافق بتبلد الحس والنعاس الذي ينتهي بالنوم والأحلام السعيدة. ويمكن تناول الأفيون ومشتقاته بأشكال كثيرة، من

* أي الفرنج أو الإفرنج

أكثرها شيوعًا استنشاق دخانه من غليون مثل غليون التبغ، وهكذا كان الصينيون في الجنوب يتناولونه، وسرعان ما صار لديهم هوس به. فوجد البريطانيون في الأفيون أخيرًا بضاعة يرغب بها الصينيون ويمكن زراعتها في الهند.

إن الأفيون يسبِّب الإدمان مثل الكثير من الأدوية المخدِّرة، أي أن المرء يصبح معتمدًا عليه فيخرج عن القواعد المألوفة للحياة الاجتماعية من أجل أن يشبع توقه إليه. والأنكى من ذلك أن التأثيرات الخاصة بهذا الدواء، أي تسبيبه للبلادة واللامبالاة بالمستقبل واللامسؤولية كانت كلها صفات يكرهها المسؤولون الصينيون كرهًا شديدًا. لذلك حظَّر مسؤولو المنشو استيراد هذا المخدِّر، وكانت له في نظرهم سيئة أخرى هي أنه قد يجعل الصين معتمدة على الأجانب لأنه يأتيها من الخارج. وعندما فرض الحظر صودرت شحنات من الأفيون وأتلفت.

وهكذا بدأ استيقاظ الصين. لقد احتج التجَّار البريطانيون احتجاجًا عنيفًا إثر إحراق كمية كبيرة من الأفيون في عام ١٨٣٩ في كانتون، وأخبرهم اللورد پالمرستُن المسؤول عن الشؤون الخارجية في لندن جوابًا منطقيًا، هو أن حكومته لا تستطيع التدخُّل لمساعدة رعاياها في خرق قوانين البلد التي يطلبون المتاجرة فيها. ولكن المسؤولين البريطانيين في الصين كان لهم موقف مختلف من هذا الأمر، وسرعان ما ابتدؤوا عملياتهم العدوانية. وفشلت محاولات تسوية النــزاع محليًا، فحدثت عمليات بحرية أكبر بكثير ونشب ما عرف «بحرب الأفيون» التي رست فيها قوات بريطانية لاحتلال عدد من المرافئ الجنوبية وغيرها من المواقع. وضايقت بريطانيا الصين وفرضت عليها في عام ١٨٤٢ معاهدة سلام تفتح بموجبها خمسة من موانئها للتجارة الخارجية، وتضع نسبة واحدة ثابتة من الضرائب على المستوردات، وتتنازل لها فيها عن هونغ كونغ؛ وكانت هذه كلها عمليَّات تدخّل في سيادتها الداخلية. إن الإنكليز

لا يشعرون اليوم بالفخر من هذه الحادثة، ولكن الحضارة -في ذلك الحين- لم تكن تعني ملء الجيوب بالمال، فقط، بل كان الغرض منها أيضًا التغلب على التخلف. وكان يراد من التجارة الحرَّة عدا عن خلق الازدهار الاقتصادي للطرفين أن تمكّن المسيحية والحملات الإنسانية من تحسين ما كانوا يعتبرونه وحشية ذلك المجتمع الوثني، مثل إخضاعه للنساء واستمرار أساليب التعذيب فيه بتأييد من القانون.

وخلال عشر سنوات كان الأمريكان والفرنسيون قد وقعوا هم -أيضًا- مع الإمبراطورية «معاهدات غير متكافئة» كما سميت -فيما بعد- أكسبتهم حقوقًا في التجارة والتمثيل الدبلوماسي، ومنحتهم حماية قانونية خاصة لمواطنيهم، وسمحت في النهاية للمبشّرين وقبلت بالتسامح نحو المسيحية. وهكذا بدأ في -أربعينيات القرن التاسع عشر- التقويض الواضح لسلطة الإمبراطورية ومكانتها، مع أن هذا الأمر لم يكن هدف الحكومات الأوربية. لقد أكرهت المعاهدات سلالة المنشو على الاعتراف بنهاية ذلك المبدأ الأزلي في علاقات الصين الخارجية الذي يعتبر جميع الشعوب الأجنبية شعوبًا تابعة لها، وصارت الدبلوماسية الصينية الآن مضطرة لقبول الأفكار الغربية عن سيادة الدول المنفردة. والأسوأ من هذا أن وصول التجار الأجانب والمبشّرين المسيحيين بأعداد متزايدة وعدم إمكانية مثولهم أمام المحاكم الصينية كان دليلاً على أن الحكومة الإمبراطورية غير قادرة على مقاومة إرادة أولئك البرابرة الذين كانت تزدريهم من الناحية الرسمية.

كان المبشّرون يعظون ويعلمون بأساليب تقوّض التقاليد الكونفوشية والنظام الاجتماعي، ففكرة أن جميع البشر متساوون في نظر الله مثلاً كانت فكرة ثورية في الصين. كما أن المتنصرين على أيديهم راحوا يطلبون حماية القناصل والمحاكم الأوربية، وكانوا يحاولون العيش في مناطق أوربية لا يستطيع المسؤولون الصينيون

أن يضايقوهم فيها. وعندما كان المبشِّرون يواجهون عداء شعبيًا - وكان هذا الأمر شائعًا - كان المسؤولون يتعرَّضون للضرر، لأنهم إذا حموهم فسوف يصبحون مكروهين من الشعب، وإذا لم يحموهم فقد يُقتل بعضهم ويرسل القنصل الأوربي في طلب سفينة حربية أو جنود من أجل القبض على القتلة، فتظهر الإدارة الإمبراطورية -عندئذ- بمظهر العاجزة عن حماية أهل البلاد من الأجانب.

لقد حدثت هذه الضغوط على خلفيَّة من الضيق الاجتماعي المتفاقم والخطر المتزايد من الثورة. ولكن المنشو ومسؤوليهم لزمهم وقت طويل لكي يعترفوا بأن إمبراطوريتهم تقترب من أزمة قد تنتهي بالقضاء عليها. وكان بعضهم يرون تقديم بعض التنازلات للأجانب، ولكن جميع المسؤولين -تقريبًا- كانوا يشعرون أن هذه ليست أول مرة تتعرَّض فيها الصين للمصاعب، وأنها قد تجاوزتها في كل مرة واجهتها في الماضي. كان آخر غزو للأفكار الأجنبية قد أتى من البوذية، وقد تم استيعابه بنجاح في النهاية، وكانوا واثقين من أن تفوُّق ثقافتهم سوف يعيد للصين مكانتها التي تستحقها في العالم، مهما بدت الأمور سيئة. وكان البعض يرغبون بأن يتعلَّموا من البرابرة بعض أسرار سفنهم البخارية ومدافعهم لكي تستطيع الإمبراطورية استخدامها، ولكن حتى الصينيون المتعلمون لم يكونوا يعتقدون بضرورة تبديل الأساليب التقليدية أو التخلي عنها، ولم يدركوا أنهم كانوا بحاجة إلى أفكار جديدة تمامًا إذا شاءت إمبراطوريتهم أن تنجو وتستمر.

التنازلات والتراجع

إن هذه المواقف قد جعلت من الصعب جدًا على الصين أن ترد بفعالية على تأثير الحضارة الأوربية. كان من استجاباتها أنها استعارت الآلات واستخدمت القادة

العسكريين الأوربيين ولكن بفتور -مثلما استخدمت السلالات السابقة قادة برابرة من صحارى آسيا الوسطى- وفي ستينيات القرن التاسع عشر، استُخدم الأوربيون للمساعدة العسكرية في السيطرة على واحدة من أكبر ثورات القرن، أي ثورة تايبنغ، التي استمرت من عام ١٨٥٠ حتى عام ١٨٦٤. لقد بدأت هذه الثورة بصورة محليَّة تحت زعامة قائد بيّن أنه قادر على كسب نفوذ واسع، وكان يدين في بعض أفكاره إلى المبشِّرين الأمريكان، فكان ينادي بنوع من الشيوعية المسيحية. وقد سحقت هذه الثورة في النهاية، ولكن بعد أن أكره التشنغ على تقديم المزيد من التنازلات الدبلوماسية والتجارية للأجانب من أجل كسب الوقت وكسب دعمهم أيضًا في مواجهة الثورة. ولم يكن قمعها سهلاً حتى مع المساعدات الأجنبية، إذ يبدو أنها كلفت ما يقرب من عشرين مليون نسمة.

في خضم اضطرابات ثورة تايبنغ حصل غزو إنكليزي فرنسي بين عامي ١٨٥٧ و ١٨٦٠ وأدى إلى احتلال بكين وسلب القصر الصيفي وإحراقه قبل أن تنتزع معاهدات جديدة المزيد من التنازلات المذلّة من الصين. ففي عام ١٨٥٨ أعطيت أراضيها الواقعة إلى الشمال من نهر أمور إلى روسيا، ثم سلمت لها شبه جزيرة أوسُّوري بعد سنتين -وعليها سوف يبني الروس مدينة ڤلاديڤوستوك- كما تنازلت الصين -أيضًا- عن أراض واسعة لروسيا في آسيا الوسطى وراء مقاطعة سين كيانغ. ولم يكن جشع روسيا هذا بالأمر الغريب، إذ كانت لها أطول حدود برية مع الصين وكانت تندفع في آسيا الوسطى -منذ عقود عديدة قبل ذلك- وعلى نهر الأمور -أيضًا منذ أيام بطرس الأكبر- ولكن دولاً أوربية أخرى كانت تنهش أراضي تدّعي الصين السيادة عليها ولو أنها لم تحكمها بصورة مباشرة، فقد أخذ البريطانيون بورما، كما أخذ الفرنسيون جزءًا كبيرًا من الهند الصينية. وقبل

نهاية القرن كان الأوربيون يعاودون الاستيلاء على الأراضي في الصين نفسها، وربما دفعهم إلى ذلك استيلاء اليابان على فورموزا (تايوان) وخوفهم من أن يسبقهم منافسوهم في هذا السباق إذا ما انهارت الصين انهيارًا كاملاً. فثبَّت الروس أقدامهم في بورت آرثر، بينما أخذت إنكلترا وفرنسا وألمانيا مرافئ جديدة بشكل عقود إيجار طويلة الأمد، وحتى البرتغاليون، الذين كانوا في ماكاو -منذ زمن أطول من أي دولة أوربية في الصين، حوَّلوا عقد إيجارهم القديم إلى ملكية مباشرة -على زعمهم- وفي خلفية هذه الصورة كانت هناك سلسلة متواصلة من التنازلات والقروض والتدخُّلات في الإدارة الصينية جعلت كلها الصين تبدو في الواقع بلدًا تحت السيطرة الأجنبية، ولو أنها ظلَّت مستقلة من الناحية القانونية.

في عام ١٩٠٠ كان الأوربيون يتوقَّعون للصين أن تتمزَّق أو تنهار مثل الإمبراطورية العثمانية. ولم تبد -في ذلك الحين- عملاقًا يستيقظ بل كانت خاضعة للقتل بطريقة الألف جرح، وهي طريقة مشهورة للتعذيب في الصين، إذ راحت القوى الضارية الآتية من الغرب تنهش جسدها القطعة تلو القطعة. إلا أن بعض الصينيين كانوا مزمعين على عدم السماح لهذا الأمر بالحدوث -ومنذ سبعينيات القرن التاسع عشر- تأسَّست "جمعية التقوية الذاتية" للنظر في الأفكار والاختراعات الغربية التي قد تكون فيها فائدة للبلاد. وراح أفرادها يلفتون الانتباه إلى جهود بطرس الأكبر، وإلى الجهود المعاصرة في تحديث مجتمع كونفوشي آخر، هو مجتمع اليابان. وأرسل الطلاب للمرة الأولى إلى الخارج بصورة رسميَّة للدراسة في أوربا والولايات المتحدة. ولكن حتى أولئك الساعون للإصلاح كان من الصعب عليهم أن يتخيَّلوا جذوره في شيء غير التقاليد الكونفوشية.

الإصلاح والثورة

لقد ساءت الأمور عندما أصبح موضوع الإصلاح متداخلاً في سياسات البلاط. كان الإمبراطور قد ارتقى العرش طفلاً في عام ١٨٧٥، وسرعان ما صار على خلاف مع الإمبراطورة الأرملة عند بداية حكمه الفعلي في عام ١٨٨٩. وفي عام ١٨٩٨ بدا أخيرًا أن حزب الإصلاح قد بدأ يحرز بعض التقدُّم، وأُصدر سيل من المراسيم والقوانين الإصلاحية فيما عرف "بالمئة يوم من الإصلاح"، ولكن الإمبراطورة حشدت دعم مسؤولي المنشو وجنودهم الذين باتت مناصبهم وامتيازاتهم في خطر، فقبضت على الإمبراطور وحبسته وأطاحت بالمصلحين. وفي – نفس الوقت تقريبًا– ظهرت في بعض المقاطعات علامات التأييد الشعبي للأساليب القديمة، بشكل اضطرابات أحدثتها وحدات ميليشيا خاضعة لنفوذ جمعية سرية واسعة تسمى "جمعية القبضات المتناغمة"، وكان أفرادها يسمون باختصار "الملاكمين". كان هؤلاء معادين للأجانب عداء شديدًا وعنيفًا، وراحوا يهاجمون الصينيين الذي اعتنقوا الديانة المسيحية وسرعان ما بدؤوا يهاجمون المبشِّرين الأجانب أيضًا.

كان الملاكمون يحوزون سرًا على تأييد مسؤولي المنشو والبلاط، الذين كانوا يأملون باستخدامهم ضد الأجانب. وعندما علت احتجاجات الدبلوماسيين ومطالبتهم بقمع الحكومة للملاكمين اندلعت ثورة شاملة حرَّضتها الإمبراطورة وعملاؤها. فاستولت القوات الأوربيَّة على حصون صينية من أجل أن تضمن الطريق إلى پكين، حيث كانت توجد جالية أجنبية كبيرة لا بد من حمايتها. وأعلنت الإمبراطورة الحرب على جميع القوى الأجنبية، فقتل الوزير الألماني في پكين

ثم حوصرت المفوضيات فيها لأسابيع عديدة، وقتل في أماكن أخرى أكثر من مئتي شخص أجنبي أكثرهم من المبشرين.

ولكن العقاب كان سريعًا ومدمِّرًا. فقد أرسلت بعثة دولية قاتلت حتى وصلت إلى بكين وفكّت الحصار عن المفوضيات. واحتل الروس جنوب منشوريا، وهرب أفراد البلاط إلى العاصمة، ولكنهم اضطروا بعد أشهر قليلة إلى القبول بشروط الأوربيين، وهي: معاقبة الموظفين المسؤولين عن هذه الأحداث، ودفع تعويض هائل، وتدمير الحصون تدميرًا كاملاً، والقبول بوضع حاميات أجنبية على السكة الحديدية المؤدِّية إلى بكين، وتوسيع حي المفوضيَّات وتحصينه. وهكذا فشلت انتفاضة الملاكمين، كما أنها ألحقت المزيد من الضرر بنظام المنشو المتقلقل أصلاً؛ وأصبحت النظرة الداخلية -الآن- أكثر تزعزعًا من أي وقت مضى، وبدأ بعض الصينيين يفكِّرون بالثورة.

الحكم البريطاني في الهند

ازدادت في ذلك الحين المعارضة للحكم الاستعماري في شبه القارة الهندية أيضًا، ولو أن السلطة الاستعمارية فيها لم تعد بيد المغول من أهل البلاد بل صارت في أيد أوربية. كانت الهند قد أصبحت ذات أهمية عظيمة لدى البريطانيين، والحقيقة أن تاريخهم الاستعماري لا معنى له من دونها، وحتى شكل هذا التاريخ حدَّدته الهند، لأن أجزاء كثيرة من الإمبراطورية إنما ضمت إليها لأهميتها في الدفاع عن شبه القارة أو عن الطريق البحرية المؤدِّية إليها من إنكلترا -ومنذ عام ١٨٠٠ كان عدد الأشخاص الخاضعين للحكم البريطاني في الهند أكبر منه في أي من المستعمرات الأخرى — بل إنهم كانوا في عام ١٩٠٠ أكثر من جميع سكان الإمبراطورية معًا. وبمرور الزمن هاجرت أعداد كبيرة من الهنود إلى أنحاء أخرى من الإمبراطورية، فظهرت الجاليات الهندية حتى في فيجي وشرق أفريقيا وجزر الهند الغربية. وكانت التجارة مع الهند هامة دومًا، لأن شبه القارة كانت تستهلك كميات كبيرة من المصنوعات البريطانية. وقد ساهم الجنود من أبناء الهند في الدفاع عن أجزاء أخرى كثيرة من الإمبراطورية، وحاربوا في أزمنة مختلفة من أجل بريطانيا في جميع القارات ما عدا الأمريكتين. وأخيرًا كان التأثير المتبادل هامًا ومستمرًا بين ثقافتي شبه القارة وبريطانيا، ومازالت نتائج هذا التأثير جليَّة، حتى اليوم.

لقد صار بعض الناس يطلقون على الحكم البريطاني اسم الرَّاج the Raj لأنهم اعتبروه خلفًا لحكم المغول. ولم تكن هذه النتيجة لتخطر بالبال عندما كان هذا

الحكم في طور التشكُّل. وقد ظلّت شركة الهند الشرقية تحكم الهند البريطانية بالاسم في عام ١٨٠٠، ولكن حاكمها العام أصبح -منذ عام ١٧٨٤- يعين من قبل الحكومة البريطانية. كانت هذه الشركة قد أنشئت بهدف المتاجرة، وقد ظلّ عملاؤها زمنًا طويلاً يرون الهند من هذا المنظور، أي أنهم لم يطلبوا من الحكومة أكثر من أن تضمن لهم الاستمرار بأعمالهم. ولكن الشركة كانت -منذ القرن الثامن عشر- قد حصلت من حاكم البنغال المحلي على حقوق فرض الضرائب في أراضيه، وقد ورَّطها هذا الأمر في سياسات الهند وإنكلترا، وراحت حصة الحكومة البريطانية في إدارة الهند تنمو باطراد. في هذه الأثناء كانت امتيازات الشركة تتراجع باطراد أيضًا، ففقدت احتكارها للتجارة في الهند في عام ١٨١٣، وفي الصين أيضًا بعد عشرين عامًا. وهكذا صارت تعتمد على الضرائب في مدخولها وتسلك شيئًا فشيئًا سلوك أي حكومة استعمارية عادية.

كان هذا النظام يسمى «الحكم الثنائي»، وقد استمر بالاسم -حتى عام ١٨٥٧- وكانت مشاركة الحكومة البريطانية فيه تزداد باستَمرار مع مرور الزمن. في هذه الأثناء كانت المزيد والمزيد من الدول الهندية تُضم إلى الإمبراطورية أو تخضع للسيطرة البريطانية عن طريق المعاهدات. وكان الإمبراطور المغولي عاجزًا عن مقاومة هذا التيار، مع أنه ظلّ الحاكم الاسمي لجزء كبير من شبه القارة. ولم تعد اللغة الفارسية لغة القانون والإدارة بل حلّت محلّها اللغة الإنكليزية. وسمح للمبشرين بالعمل في الهند بعد عام ١٨١٣، فبدؤوا يجتذبون المزيد من الهنود إلى اعتناق المسيحية، وقد كان هناك دومًا بعض المسيحيين الهنود في المستوطنات البرتغالية والفرنسية. وأُسِّست المعاهد والمدارس، كما بُنِيَ أول خط حديدي في الهند في -عام ١٨٥٣- وكان الحكام العامون البريطانيون يشجّعون هذه التغيُّرات تشجيعًا كبيرًا

ويعتبرونها إنجازات متنوِّرة، مثلما أدخلوا الشرائع القانونية الجديدة التي اعتبروها بديلاً أفضل من التقاليد الهندوسية والإسلامية. وقد ازداد عدد السكان فبلغ ٢٠٠ مليون نسمة -تقريبًا- في عام ١٨٥٠، وكان حوالى ٧٠% منهم هندوسًا و٢٠% مسلمين.

التمرُّد ونتائجه

راح المزيد من الرجال الإنكليز -والنساء الإنكليزيات أيضًا بعد افتتاح خطوط السفن البخارية إلى أوربا- يفدون إلى الهند سعيًا وراء الأعمال، ولكنهم ظلّوا نقطًا صغيرة في ذلك المحيط المؤلّف من جماهير الهنود الهائلة. أما الهنود فقد ظلّ سوادهم بمنأى في حياتهم اليومية عن تأثير الحكم البريطاني، وكانوا يعيشون في قراهم حيث كانت تقاليدهم هي التي تحدّد نمط تلك الحياة. وكان يبدو أن الحكم سوف يظلّ دومًا على حاله، أي حكمًا استبداديًا متنوّرًا، ولم يكن يخطر ببال أحد أن الهنود قد يحكمون أنفسهم في يوم من الأيام. ثم حدثت فجأة في عام ١٨٥٧ صدمة رهيبة زعزعت ثقة البريطانيين هذه. فقد اندلعت سلسلة من الانتفاضات بعد تمرُّد قام به جنود محليون في البنغال اعتقدوا أن النوع الجديد من الخراطيش الذي قدم لهم كان مزيتًا بدهن حيواني تعتبره ديانتهم نجسًا وتُحرِّم عليهم تداوله. ثم تبعتها ثورات أخرى، وسرعان ما صار الحكم في شمال الهند في خطر. واجتذب المتمرّدون دعم هنود آخرين من مسلمين وهندوس على السواء، من الذين كانوا يخشون التحديث الذي جلبه البريطانيون وخطره على عاداتهم وتقاليدهم. كما انتهز بعض الحكام المحليين الهندوس والمسلمين هذه الفرصة من أجل محاولة استرداد استقلالهم. ولكن أكثر الهنود في القسم الأكبر من البلاد لم يشاركوا في هذه الحركة التي سميت «تمرد الهند».

ورغم أن البريطانيين كانوا قلائل فقد ردُّوا على هذا التمرُّد بلا رحمة وبمساعدة الجنود الموالين لهم. وقد زال الخطر خلال -أشهر قليلة- ومالبثت أن جاءت بعد ذلك العقوبات العنيفة، فخُلع الإمبراطور المغولي الذي نادى به المتمردون قائدًا لهم، وانتهى حكم شركة الهند الشرقية، وأصبح الحاكم العام نائبًا للملك يرفع التقارير مباشرة إلى الحكومة في لندن. وسوف يظل الحكم البريطاني في الهند -منذ ذلك الحين حتى نهايته بعد تسعين سنة- هو حكم التاج نفسه بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

لقد سبَّب هذا التمرُّد تطوُّرات أخرى ربما ما كانت لتحدث من تلقاء نفسها، فرغم أن المتمرِّدين لم يحرزوا أيًا من أهدافهم المحافظة والرجعية، فإن تمرُّدهم كان حاسمًا من ناحية أنه سبَّب لدى البريطانيين، خاصة المقيمين منهم في الهند، صدمة لن ينسوها أبدًا -ومنذ ذلك الحين- صار البريطانيون والهنود يعيشون حياتهم بشكل منفصل ولا يشتركون إلا في شؤون العمل. وصار البريطانيون يشعرون أن الهند بلد غريبة لا يمكن فهمها، وأن شعبها ذو عقلية مثل عقلية الأطفال لا يمكن الوثوق بها بل لا بد من ضبطهم ولو بالقوة إذا اقتضى الأمر. إلا أن هذا الأمر لا يجوز أن ينسينا وجود المئات من الإنكليز في الهند، ووجود الكثيرين منهم في حكومتها، وأنهم كانوا يدرسون لغاتها وثقافتها وحضارتها بشغف كبير، فالحقيقة أن العلماء البريطانيين هم الذين استهلوا الدراسة الجديَّة للهند الكلاسيكية. كما أن التأثير المتبادل بين الهنود والبريطانيين سوف يستمر سواء شاء الطرفان أم أبيا. وكان لابد للعلاقات التجارية مع بريطانيا وبقية الإمبراطورية من أن تُغيِّر الحياة الإقتصادية في الهند رويدًا.رويدًا. وإن الأفكار والمبادئ التي كانت تُعلَّم في المدارس والمعاهد الهندية وتُمارسْ من قبل الإدارة قد ساهمت في تشكيل أفكار الكثيرين من شباب

الهند حول المستقبل الذي يجب أن يكون لبلادهم، وكثيرًا ما كانوا يتصوَّرون هذا المستقبل بحسب المبادئ الأوربية، بمؤسَّساها السياسية الديمقراطية والتمثيلية، وكدولة مبنيَّة على مفهوم القومية، وهو مفهوم غربي.

من الناحية الأخرى كان دور بريطانيا كدولة عظمى يتشكَّل بفعل القوة التي تقدِّمها لها الهند وبالضرورات الجديدة التي تفرضها. وقد قال أحد نواب الملك "طالما أننا نحكم الهند فسوف نظل أكبر قوة في العالم؛ أما إذا خسرناها فسوف نهبط فورًا إلى قوة من الدرجة الثالثة". ومن أجل الحفاظ على الهند آمنة سوف يتورط البريطانيون في اقتتال متواصل مع قبائل الحدود الشمالية الغربية، وفي فتح بلوشستان وكشمير، وفي صراعات دبلوماسية مع روسيا حول مسألة النفوذ في أفغانستان — وهي مسألة كادت في إحدى مراحلها أن تسبِّب اندلاع الحرب. وفي –ثمانينيات القرن التاسع عشر– ضُمت بورما من أجل حماية الهند من تقدُّم فرنسي محتمل من الهند الصينية، وبعد سنوات قليلة، أُخذت دول مَلَقا للغرض نفسه، كما أُرسلت حملة إلى لاسا في التبت في عام ١٩٠٧ لضمان سلامتها من النفوذ الأجنبي. وقد أثرت الهند بالطبع في تفكير البريطانيين الاستراتيجي نحو أفريقيا، إذ إنها واقعة على طريق البواخر عبر قناة السويس ورأس الرجاء الصالح.

كان حكم الهند يعني حكم ٣٠٠ مليون نسمة في شبه القارة كلها ماعدا بعض الجيوب البرتغالية والفرنسية الصغيرة. وفي عام ١٨٩٢ لم يكن هناك إلا ٩١٨ موظفًا أبيض للقيام بهذا العمل، وكان هناك في العادة جندي بريطاني واحد لكل ٤٠٠٠ هندي. من الواضح إذًا أن حكم بريطانيا للهند لم يكن يعتمد على العدد، بل على أساسين آخرين، أولهما مشاركة الهنود ومساعدتهم ورضاهم من الناحيتين

المدنية والعسكرية، وثانيهما عدم التدخُّل الزائد. إذ إن البريطانيين صاروا بعد التمرُّد المذكور يخشون اختلال الأمن العام ويحرصون على ألا يتدخَّلوا كثيرًا في تقاليد الهنود كي لا يعادوهم. لقد منعوا قتل الطفلات الصغيرات الذي كان الوالدان يقدمان عليه من أجل التخلُّص من الحاجة لدفع البائنة (الدوطة) في المستقبل، ولكنهم لم يتدخَّلوا لمنع تزويج الأطفال. وقد نظَّموا حقوق الأمراء الهنود ودعَّموا حكمهم.

إلا أن العواقب الاقتصادية والثقافية للسلطة البريطانية كانت تغيِّر الهند باستمرار بطرق سوف تجعل الحفاظ على الحكم البريطاني فيها أمرًا صعبًا في النهاية. لقد قام الصناعيون والنقابيون العماليون البريطانيون من على بعد آلاف الأميال باستخدام البرلمان لإعاقة رجال الأعمال الهنود المتلهفين للاستفادة من أطول فترة حكم مستقر عرفتها الهند، وأزعج هذا الأمر التجار والمصنعين في الهند. وكان الشباب الهنود من النخبة الهندوسية يدرسون في الجامعات البريطانية أو يدرسون المحاماة حسب المناهج الإنكليزية، وعندما يعودون إلى بلادهم كان يؤرقهم أن ينظر إليهم الإنكليز نفس النظرة المتعاليَّة التي ينظرون بها إلى الهنود الآخرين. وكانوا يتساءلون لماذا لا تطبق مبادئ تساوي الفرص والديمقراطية في الهند أيضًا، وكان هذا في الحقيقة دليلاً على نفوذ الحضارة البريطانية. وهكذا راحت القومية الهندية تتبلور وتأخذ أشكالاً سياسيَّة بتأثير هذه العوامل وغيرها. وكانت بعض القرى قد شجَّعت على هذا التطوُّر بتأييدها للمزيد من الحكم الذاتي المحلي. ولكن هذا الوعي القومي حالت دونه الانقسامات بين الهندوس والمسلمين، فكان هذا من الأسباب التي أبقت قبضة الحكم البريطاني قوية في عام ١٩١٤؛ إلا أن القوى العاملة على تقويض ذلك الحكم ما برحت تتراكم.

قوة آسيوية جديدة

كان اليابانيون في -القرن التاسع عشر- يراقبون الأحداث في الصين والهند باهتمام بالغ. وكانت اليابان في عام ١٨٠٠ مجهولة لدى الأوربيين ما عدا العدد القليل من الهولنديين، ولكن العلامات كانت تدل على أن الأمور لا يمكن أن تستمر طويلاً على هذه الحال. لقد كان الأوربيون أقوى بكثير مما كانوا عليه قبل، مئتي عام، بينما كان اليابانيون أضعف بكثير، وسوف يصعب عليهم صد الأجانب إذا أراد هؤلاء حقًا اختراق عزلة اليابان، وإذا تم لهم ذلك فليتأمل اليابانيون ما حلّ بالصين والهند. وقد سبَّب السلام الطويل ونمو المصالح الاقتصادية الجديدة في اليابان ضغوطًا اجتماعية كبيرة، وكانت قوتُها العسكرية عتيقة بالية، لذلك كانت ستواجه الضغوط الأوربية والأمريكية المحتملة من موقع ضعف. وكان بعض اليابانيين يعلمون ذلك، وقد بدؤوا بالالتفاف حول القوانين التي كانت تمنع دخول الأفكار الأجنبية عن طريق استيراد الكتب المتعلقة بما كان يسمى "العلوم الهولندية". وحتى نظام الشوغونية كان قد سمح بترجمة بعض الكتب الأوربية التي تعالج مواضيع تقنيَّة. لقد كان اليابانيون شعبًا حاذقًا أبدى قدرة كبيرة على النسخ والاستعارة، وكان هذا الموقف مختلفًا كل الاختلاف عن الموقف المتعالي الذي واجه به الصينيون التأثيرات الغربيَّة. فقد استطاعت مثلاً مجموعة من الأطباء اليابانيين في عام ١٧٧١ أن تقوم بأول عملية تشريح لجسم الإنسان -على جثة مجرم- من دون أن يكون بين أيديها إلا صور من كتاب هولندي. وكانت قدرة اليابانيين على التعلُّم وعلى تبني الأساليب

الجديدة الفعّالة ميزة كبيرة في مواجهة التحدّي الأجنبي، ولكنهم لم يكونوا متفقين على الطريق الذي ينبغي عليهم سلوكه، فكان بعضهم يتحدّث عن «طرد البرابرة»، وبعضهم الآخر عن "فتح البلاد"، وكان لكل من هذين الطريقين مخاطره.

إن المعاملة الفظة التي لقيتها الصين على يد الدول الأوروبية وعلى رأسها بريطانيا، والتي أكرهت هذه الإمبراطورية ذات الماضي العظيم على القبول بمعاهدات مذلّة، كانت في النهاية ذات تأثير حاسم. في عام ١٨٤٢ سمحت اليابان للسفن الأجنبية بالتزوُّد بالمؤن حين الحاجة، ولكن لم يسمح بعد للأفراد بدخول البلاد. وبعد ذلك استلم رئيس الولايات المتّحدة في عام ١٨٥١ مسألة معاملة البحارة الأمريكان الذين تتعرّض سفنهم للغرق على سواحل اليابان، ومسألة إيواء صيادي الحيتان والسفن الأمريكية العاملة في تجارة الشرق الأقصى وتزويدها بالمؤن. فتقرَّر إرسال أسطول بحري إلى اليابان لضمان فتح مرافئها للأجانب، وأبحر القبطان بيري في عام ١٨٥٣ ضمن خليج يدو، وكانت يدو تعتمد على المؤن الآتية من البحر. أما اليابانيون فقد أذهلتهم الأسلحة النارية المتفوّقة التي كانت لدى الأمريكان وسفنهم البخارية. وقبلوا بوجود قنصل أمريكي وفتحوا مرفأين من مرافئهم للتجارة مع أمريكا. ثم جرت معاهدات مع قوى أوربية سمحت لغيرهم من التجار الأجانب بدخول اليابان ووافقت على إقامة البعثات الدبلوماسية.

إصلاح الميجي*

لقد بدا لليابانيين أن بلدهم قد تصير بيد الأجانب مثل الصين إذا هم لم يهتموا للأمر. وكان من الواضح أن نظام التوكوغاوا غير قادر على معالجة الأزمة.

* تسمية معناها «الحكم المتنور» تغطي سنوات حكم الإمبراطور ميجي تنو، أي ١٨٦٧-١٩١٢

وراح زعماء العشيرتين الكبيرين يتعلّمون الأساليب العسكرية الأوربية ويرسلون البعثات إلى الخارج للتعلّم من البرابرة. وقد أذهلهم بيري، وربما أذهلهم أيضًا القطار البخاري الصغير الذي جلبه معه وعرضه متباهيًا على سكة بنيت خصيصًا له في الحفل الكبير الذي أقيم بمناسبة توقيع المعاهدة الأولى، كما أذهلتهم الكميات العجيبة التي استهلكت فيه من الوسكي والشمپانيا. وبعد وصوله بزمن قصير نشأت في بعض أراضي العشائر أولى المؤسَّسات الصناعية على الطريقة الغربية، ومواقع بناء السفن ومعامل الأسلحة والقطن. ثم كانت الخطوة الثانية هي تنظيم المعارضة العسكرية للتوكوغاوا. لقد لاح في البداية أن البلاد قد تنهار من جديد في حال من الانقسام والفوضى، ولكن النبلاء المعارضين للشوغونية التجأوا إلى قوة مركزية جديدة، بل هي في الحقيقة قوة قديمة أعيد أحياؤها، فقاموا بانقلاب في كيوتو في الثالث من كانون الثاني (يناير) ١٨٦٨ استولوا فيه على البلاط الإمبراطوري. ثم ألغي منصب الشوغون الوراثي وأعيد الإمبراطور من كواليس الحكم إلى مركز الساحة، وثبتت مسؤوليته المباشرة في حكم البلاد. وكان رمز هذا التغيُّر هو نقل البلاط إلى يدو، فكانت تلك بداية حركة الإصلاح على عهد ميجي، والتي كانت عبارة عن ثورة حقيقية، وهي التي استهلت عملية التحديث المدروسة في اليابان.

وراح زعماء اليابان الجدد يسعون لدفع المبادرات الأولى للعشائر نحو الأمام. وكان هدفهم أن يتعلّموا ما أمكنهم من الدول الغربيّة، وأن يستخدموا ذلك العلم في تحديث بلادهم من دون أن يتغرّبوا أو يفقدوا تراثهم، وقد نجحوا في هذا الأمر نجاحًا كبيرًا –وبعد سنوات قليلة– في كانون الثاني (يناير) من عام ١٨٦٠، قاموا بإنجاز يدل أبلغ دلالة على ما يستطيعون الإتيان به بمواردهم المحليّة البسيطة، فقد

أبحرت السفينة كانرين-مارو، وهي سفينة شراعية ذات محرك بخاري لا تزيد قوته عن المئة حصان ولا يمكن استخدامها إلا للمناورة في المرفأ، من يدو إلى سان فرنسيسكو حيث رست بعد -خمسة أسابيع فقط- وقد أبحر بها طاقمها بأشرعتها عبر المحيط الهادي، فكان بذلك أول طاقم ياباني يقطع هذه المسافة، وقد تم له ذلك -بعد سبع سنوات فقط- من إدخال بيري للسفن البخارية إلى خليج يدو. وبعد ذلك بدأ اليابانيون يذهبون لتعلُّم الملاحة للمرة الأولى في هولندا، وقد كتب أحد أفرادِ الطاقم الشباب -فيما بعد- مقارنة رائعة وبليغة يقول فيها «حتى بطرس الأكبر قيصر روسيا الذي ذهب إلى هولندا لدراسة الملاحة ما كان باستطاعته رغم كل ما قام به أن يأتي بمثل هذا الإنجاز الذي أتى به اليابانيون».

التحديث وحدوده

لقد واجه اليابانيون مهمة التحديث بشعور عال من الكبرياء الوطنية، وترافق هذا الشعور بحرصهم الشديد على النجاة من مصير الصينيين والهنود، وهذا ما دعم إرادتهم في التعلُّم وفي استعارة المعارف والتقنيَّات، وسوف تُغيِّر هذه الأمور اليابان بصورة سريعة. كان إلغاء النظام شبه الإقطاعي القديم المتمثِّل بحكم العشائر باسم الإمبراطور هو الخطوة الأولى نحو خلق دولة قومية. وقد لعبت المنافسات بين العشائر دورًا كبيرًا في القضاء على سلطة التوكوغاوا، ثم قدَّمت العشائر الكبرى المثال والقدوة بأن سلَّمت أراضيها للإمبراطور «لكي يسود حكم واحد متسق في كافة أنحاء الإمبراطورية» كما قالت. وتم تبني الكثير من مؤسَّسات الحكم الأوربية، فقسِّمت البلاد إداريًا إلى مقاطعات، وفي عام ١٨٨٩ تم تأسيس برلمان ذي مجلسين تشريعيين. وكانت اليابان قد تبنَّت نظام التجنيد العسكري الإلزامي لكي يكون

لديها جيش على النمط الأوربي، كما أسَّست أول نظام بريد فيها وأول خط حديدي وأول صحيفة يومية، وتبنَّت أيضًا التقويم الأوربي.

ولكن أشياء كثيرة من الماضي ظلّت مستمرة، خاصة في العبادات الوطنية وفي التبجيل الذي كانوا يؤدونه للسلطة الإمبراطورية. وفي عام ١٨٩٠ وضع بيان في مجال التعليم ظلّ يقرأ على أجيال طلاب المدارس في اليابان في أيام الاحتفالات – طوال الخمسين سنة القادمة– وكان يحثهم على الحفاظ على القيم التقليدية، من احترام للوالدين وطاعة وتضحية بالنفس إذا اقتضى الأمر من أجل قضية الأمة. كما ظلّت تقاليد الساموراي حيَّة، أيضًا، فقد ظلّ بعضهم يناصرون سادهم المستائين من الثورة –خلال السنوات العشر التالية– لعملية الإصلاح، إلى أن هزمهم الجيش المجنّد الجديد. فصار أكثرهم –عندئذ– راغبين بالالتحاق بالخدمة المدنيَّة للنظام الجديد أو بجيشه أو بحريته، أما سادهم فقد عُوِّض لهم عن فقدان أراضيهم بمداخيل ضمنتها الحكومة، وظلُّوا يتمتَّعون بمقدار كبير من النفوذ، وسرعان ما صار بعضهم أعضاء في مجلس النبلاء الجديد. وهكذا ظلّت أشياء كثيرة في اليابان على حالها رغم تحديث البلاد السريع الذي قد يلفت أنظار المراقب الخارجي.

إلا أن بعض التغيُّرات كانت واضحة جدًا. فقد بدأ استخدام الآلات التي تعمل بالطاقة في صناعة غزل الحرير في –سبعينيات القرن التاسع عشر– وسرعان ما صار واسع الانتشار، ولو أن أكثر من نصف الحرير المغزول في اليابان ظلّ يصنع باليد بعد عشرين سنة. وفي أوائل تسعينيات القرن صارت لليابان صناعة قطنية جديدة –ولو أن عدد المغازل فيها كان يعادل واحدًا بالمئة من عددها في بريطانيا– ولكن النمو الصناعي السريع لم يبدأ إلا في النصف الثاني من التسعينيات، فارتفع الإنتاج السنوي للفحم فيها من ٥ ملايين طن في عام ١٨٩٥ إلى أربعة أمثاله

تقريبًا، في عام ١٩١٤، كما ارتفع إنتاج الحرير الخام في المرحلة نفسها بمقدار ثلاثة أمثال، بينما ارتفع إنتاج القطن المغزول بمقدار ستة أمثال، وأضحت اليابان في عام ١٩١٤ أكثر الدول صناعية في آسيا.

لقد كان دور الزراعة في هذا الاندفاع الاقتصادي الكبير أقل وضوحًا من دور الصناعة ولكنه كان في الحقيقة أكثر منه أهميَّة. فقد ارتفع الإنتاج الزراعي للفرد الواحد أكثر بكثير من مثلين بين عامي ١٨٦٨ و١٩١٤. ولكن هذا الارتفاع لم يؤثِّر كثيرًا في حياة الغالبية العظمى من اليابانيين الذين ظلّوا فلاحين. وكان على الزراعة أن تؤمِّن الضرائب لتمويل الاستثمار الرأسمالي اللازم للصناعة والخدمات والإدارة الجديدة والتعليم، وظلّ الفلاحون فقراء يرزحون تحت عبئها الثقيل. ولم يطرأ تغيُّر يذكر على أساليب الحياة في القرى، وبقيت النساء مسحوقات ومضَّطهدات ومقيَّدات بالتقاليد القديمة البالية؛ إلا أن اليابان كانت قد لحقت بالعالم الحديث.

السماء تتلبد بالغيوم

إنها لمفارقة غريبة أن اقتراب سلطة الأوربيين من ذروهّا في الأنحاء الأخرى من العالم قد ترافق بازدياد علامات التقلقل وعدم الاستقرار في أوربا نفسها، حيث ظهرت علامات النظام الدولي الجديد بوضوح في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مثلما ظهرت في أنحاء أخرى. وإن أفضل نقطة للانطلاق هي عام ١٨٤٨، لا بسبب أهميته كمرحلة من مراحل الثورة الاجتماعية، بل لأنه معلم هام في قصة القومية الأوربية يكشف عن مدى قوهّا، كما أنه يفصل بين مرحلة أولى من السلام الدولي الطويل ومرحلة ثانية من الحرب، ولو كان من الصعب على الناس أن يروا ذلك في حينه. لقد نشبت -خلال ربع القرن التالي- حرب بين بريطانيا وفرنسا وتركيا وسردينيا من جانب، وروسيا من الجانب الآخر -حرب «القرم» ١٨٥٤-١٨٥٦- ثم بين فرنسا المتحالفة مع سردينيا ضد النمسا (١٨٥٩)، ثم ثلاث حروب أخرى خاضتها بروسيا ضد الدنمرك (١٨٦٤)، والنمسا -١٨٦٦، وانضمت إليها إيطاليا إلى جانب بروسيا- وفرنسا (١٨٧٠). وكانت أولى هذه الحروب -أي حرب القرم- تدور في الحقيقة حول مسألة قديمة، هي هل يجوز السماح لروسيا بأن تهيمن على تركيًا وربما بأن تطيح بها؟ أما الحروب الأخرى فكانت كلها تدور حول بناء دول قومية.

أمم جديدة

لقد هُزمت النمسا في ألمانيا، حيث اضطر الهابسبرغ للاعتراف بسيادة بروسيا، كما هُزمت في إيطاليا ولم تبق لها فيها أراض كثيرة بعد عام ١٨٦٦،

لذلك وجدت نفسها مضطرة لتقديم التنازلات لقوميَّات أخرى ضمن حدودها، إذ لم تعد الملكيَّة النمساوية بقادرة على مقاومة مطالبها. وهكذا تمَّ ترتيب حل وسط في عام ١٨٦٧ مع أحد شعوب الإمبراطورية، وهو الشعب المجري، فمُنحوا قدرًا كبيرًا من الاستقلال فيما سمي -منذ ذلك الحين- «الملكية الثنائية»، لأنها كانت في الحقيقة عبارة عن وحدتين مستقلتين ومنضمتين تحت حاكم واحد في الدولة النمساوية الهنغارية. وأصبح فرانتز جوزف -الآن- إمبراطورًا في أحد شطري بلاده وملكًا في الشطر الآخر. أما بقية شعوب الإمبراطورية فقد ظلَّ أملها خائبًا، والحقيقة أن «الملكية الثنائية» كانت بمثابة رشوة لهنغاريا سمحت للمجريين الذين يحكمونها بالانضمام إلى النمساويين في قمع الصرب والسلوڤينيين والرومانيين والسلوڤاك وغيرهم.

كما نشأت خلال -تلك السنوات- دول قومية أخرى. وكان من النتائج المتأخِّرة لحرب القرم نشوء دولة قومية مستقلة هي دولة رومانيا، ولو أن هذا الاسم لم يستخدم حتى -ستينيات القرن التاسع عشر- ثم إن توحيد كل من إيطاليا وألمانيا والتنازلات التي قُدِّمت للمجريين قد زادت من اندفاع الشعوب الأخرى في وسط أوربا وفي البلقان -خاصة التي كانت تحت حكم الأتراك- في مطالبتها باستقلالها السياسي هي الأخرى. وهكذا كانت نتائج هذه السنوات معقَّدة جدًا ولكنها على درجة كبيرة من الأهمية، وإذا نظرت إلى الخارطة قبلها وبعدها رأيت مدى تأثيرها الواسع. إن أوسع رجال الدولة أثرًا في إحداث هذه التبدُّلات هما الوزير البروسي بسمارك والإيطالي كاڤور، وقد غيَّرا خريطة الدبلوماسية الأوربية وظروفها حسب الصورة التي كان الناس يتمنونها في عام ١٨٤٨، ولكن لمصلحة النـــزعة المحافظة ومن أجل قمع النـــزعات القومية الثورية التي كانا يخشيانها.

وهكذا باتت أوربا في عام ١٨٧١ مكوَّنة بشكل أساسي من دول قومية. إلا أن هذه البنيَّة كانت تعاني من عيبين اثنين. أولهما وجود أماكن مازالت تخبئ المتاعب للمستقبل، ومنها إيرلندا، إذ يبدو أن بريطانيا قد شارفت على منحها حكمًا ذاتيًا تحت رئاسة التاج في -أواخر القرن التاسع عشر- ولكن السياسات الحزبيَّة أحبطت تلك المساعي. وظلَّت النروج والسويد في دولة واحدة إلى أن انفصلتا بصورة سلمية في عام ١٩٠٥. أما روسيا فقد ظلَّت -مثل بروسيا والنمسا- تحكم جزءًا كبيرًا من بولندا، وكانت فيها شعوب مستاءة هي شعوب البلطيق والشعب الفنلندي. وفي الشطر الهنغاري من المملكية الثنائية شعر كل من الكروات والرومانيين والسلوفاك والسلوفينيين والصرب بالقمع. والأهم من هذا كله أن الأتراك ظلّوا يحكمون البلغار والمقدونيين والألبان والبوسنيين -حتى عام ١٨٧٨، عندما انتقل الحكم الحقيقي للبوسنة إلى يد النمساويين، مع أن السلطان العثماني احتفظ بسلطته الاسمية عليها- والحقيقة أن البلقان كانت كابوسًا مرعبًا من وجهة نظر القوميين بالنظر إلى التداخل العجيب بين شعوبها ولغاتها ودياناتها.

في تلك الأثناء كان توازن القوى في أوربا قد تغيَّر تمامًا، فقد انتهى التحالف المقدَّس القديم بين الدول المحافظة في القرم، وظهرت إمبراطورية ألمانيا جديدة -تأسست رسميًا في عام ١٨٧١- لتحلَّ محلَّ فرنسا كقوة مسيطرة في أوربا، وكان هذا هو الجانب السياسي لتغيُّر هام في السكان وفي الاتجاهات الاقتصادية، وسوف تظل الهيمنة الألمانية مشكلة أساسية تواجه رجال الدول الأوربيين حتى عام ١٩٤٥.

السيطرة الألمانية

مع هذا تمكّنت القوى العظمى من التعايش جنبًا إلى جنب بسلام -طوال أكثر من أربعين عامًا بعد ١٨٧١- وكان هذا إنجازا عظيمًا بالنظر إلى الأخطار الكثيرة والمتزايدة الكامنة تحت سطح الحياة الدولية -خلال هذه الفترة- كانت ألمانيا قد أكرهت فرنسا على عقد الصلح بشروط مهينة في عام ١٨٧١، وعلى التخلي عن إثنتين من مقاطعاتها، أي الألزاس واللورين، وعلى دفع تعويض هائل - ومنذ تلك اللحظة- بات من الواضح أن ألمانيا الجديدة قد حلّت محلّ فرنسا في سيطرتها الطويلة في أوربا. لقد كان عدد سكانها في ازدياد، وكانت تمر بطور من النمو السريع، وكان اقتصادها يزداد قوة على قوة، بل إنه كان ينمو بسرعة تضاهي بريطانيا، لهذا أصبحت ألمانيا في عام ١٩٠٠ أكبر قوة عسكرية في قارة أوربا. إلا أن فرنسا لم ترض قط بفقدان مقاطعتيها.

كانت إيطاليا دولة أحدث بقليل من ألمانيا، وكانت قد أخذت مدينة روما من البابا لتمنح نفسها في عام ١٨٧٠ العاصمة التاريخية التي طالما تاق إليها الإيطاليون. إن الدول الحديثة كثيرًا ما تكون حساسة وصعبة في شؤونها الخارجية، ويكون حكّامها واعين جدًا للانقسامات والضعف في الداخل وللرغبة بالتغلب عليها عن طريق اتباع سياسات صاخبة في الخارج من أجل اجتذاب المشاعر الوطنية واسترضائها. فراح زعماء إيطاليا يقومون بالمغامرات الاستعمارية، التي بلغت ذروتها في الحرب مع تركيا في عام ١٩١١ من أجل الاستيلاء على أجزاء من شمال أفريقيا، بينما ظلّ غيرهم من الإيطاليين يذكّرون مواطنيهم بالجاليات الإيطالية التي تعيش تحت حكم النمسا، والتي كانوا يقولون إنها "غير معتقة" وإن أراضيها يجب أن «تحرر»، وكان هذا سببًا آخر من أسباب الاضطراب.

أما ألمانيا فلم يبد أنها قد تكون مصدرًا لأخطار جديدة، ولم يكن فيها أحد ذو شأن يريد أن يوحِّد الألمان جميعًا تحت حكم واحد. وقد بقيت شؤونها الخارجية -طوال عشرين عامًا تقريبًا- بيد رجل واحد عالي الذكاء وذي مزاج حاد وعنيد هو النبيل البروسي الكونت أوتو فون بسمارك، الذي كان هدفه الأساسي هو أن تستمر الحياة في ألمانيا بزعامة الطبقة الحاكمة البروسية. كان بسمارك قد دبَّر حروب ألمانيا في -ستينيات القرن التاسع عشر- وعندما اكتملت تلك الحروب بنجاح صار يخشى الاضطراب الاجتماعي بل حتى الثورة في الداخل إذا ما حدثت حرب أخرى، فبذل أقصى جهده لتجنب ذلك. وكانت إدارته لشؤون أقوى الدول الأوربية عاملاً حاسمًا في الحفاظ على السلام. إلا أن ألمانيا كانت تتغيَّر رغمًا عن إرادة بسمارك. وقد أدَّى نمو عدد سكانها وقوتها الصناعية إلى نشوء أفكار ومواقف ومطالب جديدة، وصارت هذه القوى تلعب دورًا متزايدًا في تشكيل السياسة الخارجية لألمانيا بعد أن صُرف بسمارك من الخدمة في عام ١٨٩٠. وكان بعض الألمان من ذوي النفوذ يسعون لكي تحظى بلادهم باحترام ومكانة أكبر على المستوى الدولي، وكانوا يسمون ذلك «مكانًا تحت الشمس»، كما أنهم في الوقت نفسه صاروا يشعرون بمزيد من الغيرة والخوف من الدول الأخرى.

منذ أيام بسمارك كان قد ظهر احتمال انهيار التوازن الأوربي على مستوى الدبلوماسية، فكانت الأقليات القومية -مثلاً- تزداد صخبًا في الإمبراطورية العثمانية وفي إمبراطورية الهابسبرغ. والأهم من هذا أن الحكَّام والشعب معًا قد فقدوا بالتدريج الشعور بأن السلام أنسب لهم من الحرب من أجل الوصول إلى الأهداف التي يسعون إليها، بل كان يبدو -أحيانًا- أن الناس يرحبون بالحرب، إذ كانت ذكريات آخر الحروب الأوربية قد بهتت في أذهانهم.

كان بسمارك قد حاول أن يضمن السلام وأمَّن ألمانيا عن طريق عقد التحالفات مع روسيا والدولة النمساوية الهنغارية وإيطاليا. فمنع فرنسا بذلك من محاولة الانتقام بعد عام ١٨٧١، إذ لم يعد باستطاعتها أن تجد حليفًا يساعدها ولا كان بإمكانها أن تهزم ألمانيا بمفردها. وقد عمل بسمارك بكد ونشاط لكي يضمن الصداقات بين حلفائه، ويضمن أيضًا أن تبقى بريطانيا ملتزمة بانعزالها عن الشؤون الأوربية التي لا تخصها مباشرة. ولكن التنافس القديم بين روسيا وإمبراطورية الهابسبرغ في جنوب شرقي أوربا ظلَّ خطرًا مستمرًا على سياسته. ويعود هذا التنافس إلى مسألة القرن الثامن عشر، التي طرحت -منذ بداية التراجع الطويل للإمبراطورية العثمانية- ألا وهي: من الذي سوف يحلّ محلّها؟ إذ لم يكن النمساويون يرغبون بأن يحلّ الروس محلّها، لأنهم -عندئذ- سوف يسدون أمامهم الطريق نحو الجنوب على طول نهر الدانوب. كما لم يكن الروس يرغبون بأن يحل النمساويون محلها، لأنهم -عندئذ- سوف يسدون أمامهم طريق الاستيلاء على مدخل البحر الأسود. وعندما حارب الروس الأتراك بين عامي ١٨٧٦-١٨٧٨ بدا أن النمساويين والبريطانيين قد ينضمون لمساعدة الإمبراطورية العثمانية مثلما فعل الأخيرون في عام ١٨٥٦. ولكن بسمارك نجح في تجنُّب الخطر في مؤتمر كبير عقد في برلين استطاع فيه أن يكافئ الجميع أو يسكتهم، فأعاد بذلك العلاقات الروسية النمساوية إلى مسار سلس، حتى السنوات الأولى من القرن العشرين.

كان بسمارك قد شعر أنه إذا وصلت الأمور إلى مواجهة صريحة بين ملكية هابسبرغ وروسيا فسوف يتوجَّب عليه أن يقف إلى جانب الأولى، وقد أدى هذا بخلفائه إلى إهمال تحالفهم مع روسيا. وفي عام ١٨٩٢ عقدت روسيا تحالفًا مع فرنسا، وكان أمرًا طبيعيًا أن يتحالف هذان المنافسان الاستعماريان لبريطانيا، وقد

سبَّب تحالفهما ضغطًا عليها بالفعل. كما أنه أخرج فرنسا من عزلتها، وقد تقدر ذات يوم على مواجهة ألمانيا. وهكذا بدأت أوربا بالانقسام إلى معسكرين من دون أن يلاحظ أحد هذا الأمر.

روسيا القيصرية

كانت روسيا مصدرًا واضحًا للقلق وعدم الاستقرار. لم يكن ثمة شك في أنها كانت تعد بين القوى العظمى في عام ١٩٠٠، ولكن من الصعب أن نقول أكثر من هذا. كانت طاقتها البشرية الواسعة ومواردها الطبيعية الهائلة توحي بأن من المحتَّم أن تهيمن على شؤون أوربا الشرقية، بل ربما على شؤون قسم كبير من آسيا أيضًا. ولكنك كنت ترى فيها -أيضًا- نقاط ضعف عديدة وواضحة، فقد كانت متأخِّرة عن أوربا الغربية من نواح عديدة. وكانت نسبيًا أضعف مما كانت عليه في عام ١٨٠٠، عندما كانت تشبه أوربا من ناحية أنها غير صناعية وأن أكثر سكانها من أهل الريف والمدن الصغيرة -رغم أنها كانت عندئذ فريدة من حيث حجمها وتاريخها وموقعها الجغرافي- بيد أن الأمور قد تغيَّرت بعد مئة عام.

كانت الطريق نحو تحديث المجتمع الروسي مزروعة بالعقبات. فقد كان هناك أولاً تقليد الحكم الأوتوقراطي، إذ لم تُضبط سلطة القيصر مثلما ضُبط الحكم المطلق من قبل المصالح الراسخة التي فرضت نفسها في البلاد الأخرى. فإذا كان للإصلاح أن يصل إلى روسيا فقد عليه أن يأتي من فوق، إذ لم يكن ثمة طرق يأتي فيها من خلال مطالب الشعب، ولهذا تأخَّر الإصلاح فيها كثيرًا. وربما كان القيصر إسكندر الأول يرجو إدخال إصلاحات مثلما ظن البعض، ولكنه في النهاية خيَّب آمال الذين تطلَّعوا إليه في ذلك. أما خليفته نيقولا الأول فكان رجلاً باردًا ومتوحشًا ومشبعًا

بنظرة عسكرية ضيقة، ولم يفكر في السماح باية درجة من التحرر، قط، لذلك صارت الأوتوقراطية الروسية -خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر- أكثر جمودًا من ذي قبل، وصارت البلاد أكثر عزلة عما يجري خارجها من أي وقت مضى.

وأدى هذا إلى العجز عن حل مشاكل روسيا وبالتالي إلى إضعافها وإعاقة النمو الاقتصادي فيها. لقد كانت لدى روسيا في -القرن الثامن عشر- صناعات هامة في مجال استخراج المعادن وتصنيعها، ولكن الدول الأخرى سرعان ما سبقتها في هذا المجال بمرور القرن التاسع عشر. كما أن الزراعة فيها عجزت عن تحقيق الارتفاعات في الإنتاج التي كنت تراها في الدول الأخرى، بينما كان عدد سكانها يتابع نموه، فازدادت حال أكثر الروس سوءًا على سوء. ويبدو أن ارتفاع إنتاج الحبوب -خلال القرن التاسع عشر- لم يقدر قط على اللحاق بارتفاع عدد السكان. وكان من الأسباب الهامة لذلك استمرار مؤسَّسة عتيقة بالية في روسيا، هي عبودية الأرض.

فبينما كانت عبودية الأرض تنحسر وتختفي في البلاد الأخرى كانت في روسيا تزداد انتشارًا وقسوة، وشاعت تمردات العبيد وهجماتهم على المشرفين عليهم، بل إن أحدها كاد يؤدي إلى ثورة واسعة النطاق. وفوق هذا حرمت العبودية الفلاح من حوافز تحسين الزراعة، ومنعت الحركة الحرة للقوى العاملة المطلوبة في المصانع الجديدة. كما أن الفقر قد حدَّ من حاجة الفلاح للبضائع المصنعة. ولكن من ناحية أخرى يجب أن نعترف بأن هذه العبودية كانت متأصّلة في المجتمع الروسي تأصلاً عميقًا إلى حد أن إلغاءها المفاجئ قد يسبب انهيار الحكومة نفسها، لأن الأوتوقراطية كانت تعتمد على أصحاب الأراضي والعزب للقيام بالأعباء التي كانت تقوم بها الحكومة المحلية في البلاد الأخرى.

لقد دفعت الهزيمة في حرب القرم الحكومة إلى الإصلاح -ومات نيقولا الأول في آخر سنوات الحرب- وكان الإجراء الحاسم والأساسي لجميع الإجراءات الأخرى هو تحرير عبيد الأرض في عام ١٨٦١ -أي قبل أربع سنوات من إلغاء الرق في الولايات المتحدة- ويعود الفضل في هذا الإنجاز العظيم إلى النظام نفسه، وقد حصل بعد قدر كبير من التفكير. كان جوهر الإصلاح هو أن أولئك العبيد لم يعودوا ملكًا خاصًا لأصحاب العزب بل أصبحوا أفرادًا أحرارًا قانونيًا. ولم يعن هذا عمليًا الحرية الكاملة لهم، لأن ترتيبات عديدة جعلت من الصعب على الفلاحين أن يأخذوا إذنًا بمغادرة قراهم الأصليَّة، وقد أبطأت هذه القيود عملية التغيير، ولكنها في النهاية مهَّدت الطريق لتحديث الزراعة والصناعة في روسيا.

لقد تمَّت هذه الإصلاحات على عهد الاسكندر الثاني، الذي يعرف «بالقيصر المحرر» لأنه قضى على عبودية الأرض، وقد أتى حكمه بإصلاحات أخرى أيضًا، إلا أنها لم تمس قط المبدأ المركزي للأوتوقراطية، إذ إنها قد مُنحت كلها مَن القيصر نفسه مثل عطايا، ولم يعترف بها كحقوق للشعب الروسي بل كان بإمكانه أن يسحبها. وكان هذا من الأسباب التي جعلت بعض أعداء النظام يرفضون القبول به وبإصلاحاته، واستمر هؤلاء في مؤامراتهم وصراعهم للإطاحة بالدولة، وكثيرًا ما كانوا يغتالون المسؤولين، وقد اغتالوا قيصرًا ذات مرة. وشدَّد هذا بالطبع مخاوف المحافظين الذين كانوا يعتبرون أنه لا يجوز تقديم أية تنازلات، وأن التنازلات التي قُدِّمَت لابد من سحبها.

لقد ظلَّ معظم الفلاحين يعيشون في ضيق شديد، وكانوا يعانون من أعباء الضرائب الفادحة التي كانت تُمَوِّلْ بناء السكك الحديدية وغيرها من أشكال الاستثمار، كما أن اتساع التطور الاقتصادي أدى إلى نشوء أعداد متزايدة من

رجال الأعمال والمزارعين ذوي الأفكار التحررية الذين كانوا في حال من الغضب والسخط، فليس من الغريب إذًا أن تندلع الثورة على عهد نيقولا الثاني، وهو آخر القياصرة وأقلّهم خيالاً وسعة أفق من نواح عديدة. لقد عانت روسيا في عام ١٩٠٤ من هزائم فادحة في حربها مع اليابان، ثم اندلعت الثورة من جديد في العام التالي وبدأ النظام يترنّح، فقدّم المزيد من التنازلات، وتأسّس نوع من البرلمان أو المجلس الاستشاري يدعى الدوما، ولم يكن ذا شأن كبير ولكنه كان دليلاً على أن عملية تدريب الروس البطيئة على الحكم الذاتي سوف تبدأ أخيرًا. والمؤسف أن مجلس الدوما لم يعش إلا -سنوات قليلة- إلى أن تورّطت البلاد في حرب أخرى فأدّت إلى الحد من سلطاته.

ولكن مكانة روسيا كقوة عظمى بدت راسخة من جديد في عام ١٩١٤، إذ أضحت على طريق التحوُّل إلى قوة صناعية، ومع أنها كانت متأخّرة في هذا المجال عن ألمانيا وإنكلترا فإن إنتاجها كان ينمو بسرعة أكبر منهما، وبات من الواضح أن بانتظارها مستقبلاً صناعيًا عظيمًا. وبدأت المشكلة الزراعية تستقيم أخيرًا، وقد سرّعت التشريعات الجديدة نشوء طبقة جديدة من المزارعين الفلاحين الأغنياء الذين يسمون الكولاك، وهم أشبه بمزارعي اليوَمَن في إنكلترا، المهتمين بالفعالية وبتحقيق الأرباح؛ فبدأت جهود هؤلاء أخيرًا برفع الإنتاجية.

ومع ازدياد ثقة روسيا بنفسها بات حكّامها واثقين بقدرتها على الدفاع عن مصالحها، وبأن جيشها يمتلك الوسائل اللازمة لذلك، بفضل شبكة السكك الحديدية والقاعدة الصناعية اللتين مابرحتا تنموان وتتسعان. ولكن مع أنها كانت بالاسم بلدًا أوربيًّة، فقد كنت من ناحية أخرى تجد فيها أحيانًا فقرًا رهيبًا مثل الذي تجده في آسيا. وظلّت الكنيسة تتدخّل في شؤون الحكم والمجتمع مع أن هذه

الأمور كانت قد زالت -منذ حوالى قرن كامل- في أكثر أنحاء أوربا. وكان فيها عدد قليل من الجامعات والمدارس الجيدة وبعض العلماء والأدباء المتميِّزين، ولكن السواد الأعظم من شعبها كان من الفلاحين الأميين. والأنكى من كل ذلك أن الحكم ظلَّ مرتكزًا في النهاية على سلطة الأوتوقراط التي تعتبر مستمدَّة من الله نفسه. ونتيجة لهذه الأشياء كلها كانت روسيا البلد الوحيدة التي توجد فيها حركة ثورية خطيرة ومتلهّفة للإطاحة بالنظام عن طريق القوة.

كان خلفاء بسمارك في قيادة شؤون ألمانيا أقل كفاءة وحكمة منه. كما كانت لديهم أوضاع سياسية داخلية أكثر تعقيدًا، وكانت هناك مصالح جديدة تصرخ مطالبة بالاهتمام، وكان بعضها يقتضي تغييرات في السياسة الخارجية. لقد سعوا -أحيانًا- لدعم وتأييد الإمبراطور الألماني ڤيلهلم الثاني، وهو شاب سريع الانفعال والتهيُّج، وكان هذا عاملاً حاسمًا لأن سلطاته كانت واسعة، وسوف تصبح ألمانيا على عهده عنصرًا لا يمكن التنبُّؤ به في الكيمياء الدبلوماسية -خلال القرن التالي، بل حتى في تسعينيات القرن التاسع عشر.

لقد حقَّقت الدبلوماسية الأوربية إنجازًا آخر قبل أن ينهار ذلك السلام الطويل، وهذا الإنجاز هو تسوية مجموعة كبيرة من مسائل المستعمرات من دون حرب. فالحقيقة أن الحرب عندما نشبت في النهاية كانت حول مواضيع أوربية وليس حول الإمبراطوريات الأوربية في الخارج كما كان متوقَّعًا، ولو لاح في بعض الأحيان أن بريطانيا قد تدخل حربًا ضد روسيا أو فرنسا. وكان جوهر هذا الإنجاز هو اقتسام أفريقيا كلها -تقريبًا- بصورة سلميَّة بين الأوربيين بحلول -نهاية القرن، خصوصًا بعد عام ١٨٨١- وقد تمَّ هذا الأمر من خلال سلسلة طويلة من الاتفاقيات بين القوى منفردة، وهكذا نالت بريطانيا بحلول عام ١٩١٤ حماية على

مصر، وصارت ليبيا العثمانية بيد الإيطاليين، وسيطر الفرنسيون على الجزائر، كما تشاركوا مع الإسبان في السيطرة الفعلية على المغرب، بينما كان الساحل الغربي لأفريقيا مقسَّمًا بين القوى الأوربية ماعدا دولة ليبيريا الصغيرة والمتخلِّفة. وكانت الصحراء الكبرى وحوض السنغال وجزء كبير من الكونغو للفرنسيين، والبقية للبلجيكيين. أما أراضي البريطانيين فكانت تمتد من رأس الرجاء الصالح إلى حدود الكونغو، ولكن كان يفصلها عن الساحل وجود الألمان في طنجنيقة والبرتغاليين في موزمبيق. إلا أن أراضي بريطانيا كانت تمتد من كينيا نحو الداخل حتى حدود السودان. وهكذا بقيت إثيوبيا وليبيريا هما الدولتان الوحيدتان المستقلتان في أفريقيا.

وحصلت في بقاع أخرى من العالم تسويات كبيرة أيضًا، فقد تمَّ اقتسام المحيط الهادي، ووسَّع كل من البريطانيين والفرنسيين والروس أراضيهم في آسيا؛ وفي نهاية القرن صرت تسمع عن الاقتسام السلمي للصين نفسها، ولم يعد ثمة شك في أن الأوربيين مازالوا يحدِّدون تنظيم العالم خارج الأمريكتين.

١٣

العصر الأخير:
الشوط الطويل

التاريخ القريب

يبدو أن التغيُّر التاريخي يجري بشكل منحنى تصاعدي، أي أنه يزداد حدَّةً وتسارعًا بمرور الزمن. وليس النمو السريع في السيطرة على الطبيعة إلا علامة واحدة من علامات كثيرة، فإن السياسة أيضًا قد تغيَّرت بالسرعة نفسها، و«القوى العظمى» الأوربية التي كانت قائمة في - عام ١٩٠٠- لم تعد أي منها اليوم قوة عظمى، ولم تبق منها إلا اثنتان ما زالتا تحكمان ولو شكلياً كما كانتا تُحكمان في بداية القرن، وهما بريطانيا وفرنسا، والأولى ملكيَّة دستورية والثانية جمهوريَّة. أما خارج أوربا فإن الإمبراطوريات الاستعمارية التي كانت تبدو متينة وراسخة - منذ مئة عام قبل ذلك- قد اختفت بين ليلة وضحاها في - خمسينيات وستينيات القرن العشرين - ومن الصعب أن يميِّز المرء طريقه في هذه الصورة التاريخية الدائمة التغيُّر، أو حتى أن يميِّز الحقائق الأساسيَّة التي سبَّبت تلك الانقلابات الكبيرة، ولا تبرز منها بوضوح إلا حقائق قليلة.

إحدى تلك الحقائق هي اكتمال عملية كانت قد بدأت قبل -بضع مئات من السنين- أي عملية تحوُّل العالم كله أخيرًا إلى عالم واحد حقًا. فقد جعلت

التقنيَّة والسياسة والاقتصاد، ثم الثقافة أيضًا، من العالم عالمًا واحدًا، ولو أن الذين يدركون ذلك هم قلائل. ويدين هذا التحوُّل بالكثير إلى سيطرة الشعوب ذات الأصول الأوربية على الأرض كلها، ولكن هذه السيطرة قد انتهت من الناحيتين السياسية والعسكرية، إذ انهارت إمبراطوريات الأمس وصارت «مثلها مثل نينوى وصور»، بحسب تعبير رجل إنكليزي من -أواخر العصر الفيكتوري- إلا أن هذا الانهيار قد ترافق بنجاح فريد على الصعيد الثقافي، لأن العالم تبنَّى الكثير من الحضارة الأوربية، وإن تأثيرها اليوم أوسع وأبين من -أي وقت مضى- سواء أعلم غير الأوربيين من أين أتت أم لم يعلموا، وهي سبب أساسي من أسباب هذا «العالم الواحد» الذي ذكرناه. أما الحقيقة الثالثة الواضحة فهي العلم، فقد أصبح العلم - تقريبًا- ديانة العصر، ويتوقَّع الجميع منه أن يأتي دومًا بالمعجزات، بل يستغربون إذا لم تحدث. لقد بدَّل العلم حياتنا، وكان له الدور الأكبر في جعل تاريخ هذا القرن تاريخًا ديناميًا ومتسارعًا. وإن بعض الناس لا تبهجهم هذه الحقيقة بل ترعبهم، وهم يخشون أن يكون هذا التغيُّر أسرع من قدرة البشرية بتقاليدها ومعايير سلوكها على التعامل معه من دون حصول كوارث. ومن حسن حظ المؤرِّخين أن ليس عليهم أن يتنبؤوا بالمستقبل، بل لا يجوز لهم أن يفعلوا ذلك، إذ إنهم لا يعلمون إلا عن الماضي، والماضي مليء بالأمثلة عن التنبوات الفاشلة، فالأحرى بهم إذًا أن يتحدَّثوا عن الأشياء التي حدثت. وأفضل مكان للبداية هو تلك التطوُّرات والتيارات الممتدة - خلال القرن الماضي- والتي لم تتخلَّلها إلا انقطاعات قليلة.

السكان

كان عدد سكان العالم في عام ١٩٠٠ حوالى ١,٦٠٠ مليون نسمة، ثم أصبح حوالى ٢,٥٠٠ مليون في عام ١٩٥٠. وبينما يكتب الكاتب هذه الكلمات (١٩٩٣) تجاوز عددهم الـ ٥,٠٠٠ مليون. لقد ازداد هذا العدد بمقدار ١,٠٠٠ مليون –خلال الخمسة عشر عامًا الماضية– وقد يبلغ العدد الكلي ما يقرب من ٦,٠٠٠ مليون أو أقل بقليل قبل –نهاية هذا القرن (أي القرن العشرين)– وهذا واحد من أفضل الأمثلة عن التغيُّر المتسارع. لقد أصبح نمو السكان اليوم أسرع بكثير جدًا مما كان عليه في الماضي، وسبَّب هذا الأمر مخاوف واسعة، فصار البعض يخشون حدوث كوارث من النوع الذي تنبأ به مالتوس، مثلما كان الأمر عند بداية القرن. وإن سوء استخدام البيئة والازدحام والتنافس على الموارد تدلُّ كلها على نمو غير متساو –أبدًا– بين الدول والشعوب المختلفة، ويبدو أنه سوف يستمر على هذا النحو.

تحاول بعض المجتمعات اليوم أن تتحكَّم بشكلها وحجمها، ولكن هذا الأمر غير مضمون، كما أن الكثير من البلاد الفقيرة لن تقدر لزمن طويل أن تبطئ نمو سكانها بشكل كبير. ولم يبدأ معدَّل الولادات بالهبوط في القرن الماضي إلا في بلاد قليلة، وقد حدث هذا بعد أن ارتفع مستوى المعيشة فيها فمال الناس للعائلات الأصغر. وإن تقدُّم الطب والتغذية والصحة سوف يجعل الأمور أسوأ لفترة ما، لأنه سوف يبقي على الرضع والمرضى والمسنين الذين كانوا يموتون في الأزمنة الماضية بينما صاروا ينجون، الآن، فتزداد أعدادهم وتزداد معها مشاركتهم في موارد تنمو

بصورة أبطأ من نمو عدد السكان. وسوف يظهر فوق هذا تأثير انخفاض معدل الوفيّات في العالم كما ظهر في أوربا بين عامي ١٨٠٠ و١٩٠٠، وعندما يحدث ذلك سوف يرتفع عدد السكان بسرعة أكبر أيضًا.

إن بعض نتائج هذه التغيُّرات باتت واضحة -منذ الآن- إذ لم تعد المجتمعات المتطوِّرة بشكل أهرام، بل صارت أشبه بعواميد تستدق نحو الأعلى، لأن نسبة الأشخاص الأكبر سنًا هي أكبر بكثير مما كانت عليه قبل قرن مضى. أما في البلاد الأفقر فالعكس هو الصحيح، لأن فيها عادة نسبة غالبة من الأشخاص الأصغر سنًا. إن ثلثي سكان الصين تحت -سن الثالثة والثلاثين- وتبلغ معدَّلات النمو أرقامًا مخيفة في دول كثيرة، فقد ارتفع عدد سكان المكسيك أربعة أمثال بين عامي ١٩٠٠ و١٩٧٥، بينما ارتفع عدد سكان البرازيل ستة أمثال. وقليلة هي الدول النامية التي نجحت إلى حد ما في إبطاء معدَّل نمو السكان فيها أو كبحه. إن طرح تقاليد الماضي أمر صعب جدًا، خاصة عندما يتعلَّق الأمر بشيء يهم الفرد إلى حد كبير مثل النشاط الجنسي.

لطالما كانت قوة الدول مرتبطة بعدد سكانها ولو مع بعض التحفّظات؛ ومن المفيد أن نقارن الدول المستقلّة العشر الأكثر سكانًا في عامي ١٩٠٠ و١٩٩٠، وإن كانت الأرقام تقريبية:

مقارنة لأعداد السكان بين عامي ١٩٠٠ و١٩٩٠ بالملايين

	١٩٠٠		١٩٩٠
الصين	٤٧٥ م	الصين	١,٢٠٠ م
روسيا	١٣٣ م	الهند	٨٠٠ م

الولايات المتحدة	٧٦ م	الاتحاد السوفييتي	٢٩٠ م
الدولة النمساوية الهنغارية	٤٦ م	الولايات المتحدة	٢٤٨ م
اليابان	٤٥ م	إندونيسيا	١٨٠ م
ألمانيا	٤٣ م	البرازيل	١٥٠ م
المملكة المتحدة	٤٢ م	اليابان	١٢٥ م
فرنسا	٤١ م	الباكستان	١٠٨ م
إيطاليا	٣٤ م	نيجيريا	١٠٥ م
الإمبراطورية العثمانية	٢٥ م	بنغلاديش	١٠٥ م

يبين هذا الجدول بعض التغيُّرات النسبيَّة المدهشة. وتحتوي كل من هاتين القائمتين على أقوى ثلاث دول في العالم في أيامها، مهما كانت معايير القوة التي نختارها. إلا أن عدد السكان وحده لم تعد له اليوم الأهمية التي كانت له في عام ١٩٠٠. إن الصين هي بالتأكيد قوة عظمى، ويبدو أنها سوف تظلُّ كذلك بفضل عدد سكانها وحده لأنه يجعلها لا تقهر عسكريًا، كما أن ثورتها الاجتماعية قد بدأت بزيادة ثروتها أيضًا. أما في غيرها من الدول المزدحمة بالسكان فما زال الفقر يبدو عقبة لا سبيل لتجاوزها، سواء أكان فقرًا مطلقًا أي أن الموارد الطبيعية ضئيلة -كما في بنغلاديش- أو نسبيًا أي أن زيادة عدد السكان تبتلعها لأنها أسرع منها -كما كانت الحال في إندونيسيا حتى وقت قريب- في أوائل السبعينيات كان يعتقد أن الهند باتت على أبواب الاكتفاء الذاتي في الغذاء، لأن إنتاجها الزراعي تضاعف بمقدار مثلين بين عامي ١٩٤٨ و ١٩٧٣، إلا أن هذه الزيادة بالكاد استطاعت أن تجاري نمو عدد السكان، الذي بلغ مليون نسمة في الشهر الواحد.

نمو الثروة

صحيح أن أعدادًا كبيرة من البشر عانت من المجاعة، إلا أن أعدادًا أكبر منهم قد تمكَّنت من الحياة، ويعني هذا أن إنتاج العالم قد ازداد، أي أنه قد صار عالمًا أغنى، فهل يمكن لهذا التيار أن يستمر؟ ليس هذا السؤال من شأن المؤرخ، بل إن كل ما يستطيع المؤرخ قوله هو أن تيار الاقتصاد العالمي على المدى الطويل، وإذا نظرنا إليه نظرة عامة جدًا، هو نحو الصعود. فقد كان هناك صعود طويل ومستمر من النشاط والثروة انقطع في عام ١٩١٤ بسبب ظروف الحرب العالمية الأولى، ثم عاد نمو الثروة -جزئيًا في العشرينيات- ليتبعه كساد عالمي وتمزُّق في الاقتصاد العالمي في الثلاثينيات، ثم الحرب بين عامي ١٩٣٩-١٩٤٥ التي أتت بالمزيد من التشوهات ولكنها سبَّبت -أيضًا- تعافيًا هائلاً في الإنتاج، وعاد النمو ليتابع مسيرته عالميًا بعد -عام ١٩٥٠- ويصبح أكثر اعتمادًا بعضه على بعض بالرغم من الانقسامات السياسية الجديدة. ومازال هذا التيار مستمرًا حتى اليوم رغم حدوث بعض النكسات في السبعينيات ثم في الثمانينيات.

في عام ١٩٠٠ كانت بعض الدول تؤمن إيمانًا راسخًا بأن النمو الاقتصادي سوف يستمر، وفي الثمانينيات كانت هذه الفكرة قد انتشرت على نطاق أوسع بكثير، بل إن الكثيرين -الآن- يشعرون بالأسى إذا لم تثبت الحقائق اليومية هذه الفكرة، وإن هذا لتغيُّرٌ هائل في تفكير البشر. ولكن رغم أن هذا النمو يصحُّ على جميع دول العالم -تقريبًا- فإن توزُّعه ليس متساويًا. لقد ارتفع الناتج المحلّي الإجمالي

GDP في كافة أنحاء العالم -تقريبًا منذ عام ١٩٠٠- وأدّى أحد الحسابات إلى التقديرات التالية لدخل الفرد محسوبًا بقيمة الدولار في عام ١٩٨٨:

الناتج المحلي الإجمالي للفرد في عامي ١٩٠٠ و ١٩٨٨

	١٩٠٠	١٩٨٨
البرازيل	٤٣٦	٢,٤٥١
إيطاليا	١,٣٤٣	١٤,٤٣٢
السويد	١,٤٨٢	٢١,١٥٥
فرنسا	١,٦٠٠	١٧,٠٠٤
اليابان	٦٧٧	٢٣,٣٢٣
المملكة المتحدة	٢,٧٩٨	١٤,٤٧٧
الولايات المتحدة	٢,٩١١	١٩,٨١٥

إن هذه الأرقام انتقائية وقابلة للشك، وهي بحاجة لتفسير حذر، ولكنها تشير إلى حقيقة أن العالم أصبح أكثر غنى، بينما بقيت بعض الدول فقيرة إلى حد فظيع، ففي عام ١٩٨٨ كان الناتج المحلّي الإجمالي الرسمي للفرد في كل من أفغانستان ومدغشقر ولاوس وتنـــزانيا وإثيوبيا وكمبوديا وموزمبيق أقل من ١٥٠ دولارًا.

لقد نزعت الثروة للنمو بصورة أسرع مع تقدُّم القرن، مثلها مثل عدد السكان. وإن السلام يسود بين القوى العظمى -منذ عام ١٩٤٥- ورغم جميع العمليات التي تشبه العمليات الحربية الجارية فنادرًا ما تحاربت هذه القوى فيما بينها بصورة صريحة؛ بل إن التنافس بينها كثيرًا ما شجّع على انتقال الموارد والمعرفة فزاد من ارتفاع الثروة الحقيقية.

وقد حصلت أولى تلك الانتقالات في أواخر الأربعينيات، عندما مكنت المساعدات الأمريكية من تعافي أوربا كمركز عالمي أساسي للإنتاج الصناعي. إن التوسُّع الاقتصادي الهائل في الاقتصاد الأمريكي أثناء الحرب والذي أخرجها من الكساد السابق -فضلاً عن مناعة أمريكا من الأذى المادي الذي سبَّبته تلك الحرب- قد مكَّن من إحراز انتصار كبير، وأعاد بناء القوة الاقتصادية الأمريكية، كما عزَّز التوسُّع الهائل في التجارة العالمية -طوال ثلاثين سنة تقريبًا- وقد ساعدت الظروف الدولية في ذلك، إذ لم يكن ثمَّة مصدر بديل لرأس المال بذلك الحجم. كانت الدول أشد رغبة من -أي وقت مضى- في وضع مؤسَّسات من أجل التعاون فيما بينها على تنظيم الاقتصاد الدولي، وكانت مصمِّمة على تجنُّب العودة إلى الفوضى الاقتصادية المدمِّرة التي حدثت في الثلاثينيات، فدفعها هذا إلى إنشاء صندوق النقد الدولي والبنك الدولي والاتفاقية العامة على التعرفات والتجارة (GATT). وإن هذا الاستقرار الاقتصادي في العالم غير الشيوعي قد عزَّز بعد عام ١٩٥٠ عقدين من النمو في التجارة العالمية بمقدار ٧ بالمئة -تقريبًا- في العام بالقيم الحقيقية.

لقد ساهم العلماء والمهندسون -أيضًا- من ناحية أقل وضوحًا في النمو الاقتصادي على المدى البعيد، وذلك عن طريق التقنيَّة وتحسين العمليات والأنظمة وعقلنتها، فكان هذا منحنى تصاعديًا آخر أصبح واضحًا، خصوصًا في -النصف الثاني من القرن العشرين- وقد أدَّت هذه التطوُّرات إلى حدوث نمو عظيم في مجال إنتاج الغذاء. إن مبيدات الأعشاب الضارة والحشرات لم تتوفر بصورة تجارية إلا في الأربعينيات والخمسينيات، ولكن مكننة الزراعة كانت -عندئذ- شائعة في البلاد المتطوِّرة، وكان رمزها الواضح هو استخدام الجرارات. أما الآن فلم تعد المكننة مقتصرة على الحقول، إذ مكَّنت الكهرباء من استخدام الآلات في عمليات الحلب

وتجفيف الحبوب ودرسها وتدفئة حظائر الحيوانات في الشتاء، ثم جاء أخيرًا الكمبيوتر والأتمتة. وانخفضت بذلك أهمية المجهود البشري، ففي الولايات المتحدة وأوربا الغربيَّة مازالت القوة العاملة في مجال الزراعة تتقلص والإنتاجية لمساحة معينة ترتفع. ولكن يبدو أن أعداد المزارعين الذين يعملون لكفافهم في العالم هي اليوم أكبر مما كانت في عام ١٩٠٠، وذلك بسبب زيادة أعداد البشر أصلاً. كما أن حصَّة هؤلاء المزارعين النسبيَّة من مساحة الأراضي المزروعة في العالم ومن قيمة المنتوجات الزراعية قد انخفضت.

الأغنياء والفقراء

إن الوفرة الزراعية ليست موزَّعة بصورة متساوية وكثيرًا ما تعرَّضت للنكسات. فقد كانت مزارع روسيا تزود ذات يوم مدن أوربا الوسطى والغربيَّة بالحبوب، ولكن الاتحاد السوفييتي عانى في عام ١٩٤٧ من مجاعة شديدة أدَّت من جديد إلى سماع روايات عن أكل لحوم البشر. وإن تحسُّن الإنتاجية الذي تمَّ على -مدى مئة عام سابقة- قد توقَّف في بعض دول أوربا الشرقية بعد عام ١٩٤٥، بل إن بعضها مرت بمجال من التراجع خلال العقود الثلاثة التالية. ومازالت زراعة الكفاف شائعة والإنتاجية منخفضة في الدول ذات أعداد السكان الكبيرة والمتزايدة بسرعة. فقبل الحرب العالمية الأولى مباشرة كان إنتاج الحنطة في بريطانيا للأكْر الواحد أكثر بمثلين ونصف من إنتاج الهند، وفي عام ١٩٦٨ أصبح أكبر بخمسة أمثال -تقريبًا- وفي الفترة نفسها رفع الأمريكان إنتاجهم من الأرز من ٤,٢٥ إلى حوالى ١٢ طنًا للأكْر، بينما لم يرتفع في بورما - وهي التي تعتبر أهراء الأرز في آسيا - إلا من ٣,٨ إلى ٤,٢. إن الزراعة المتطوِّرة توجد عادة في الدول المتطوِّرة من نواح أخرى،

أما الدول الأمس حاجة لزراعة الغذاء فيصعب عليها أن تنتجه بصورة أرخص من العالم المتطوِّر، إلا إذا كان لديها اختصاص زراعي معين. وهكذا تجد الروس والهنود والصينيين، وهم منتجون كبار للأرز، يشترون اليوم الحنطة من أمريكا وكندا.

إن هناك مقياسًا بسيطًا لتفاوت توزيع الثروة، هو مقياس الاستهلاك. ويستهلك نصف البشرية -تقريبًا حوالى ستة أسباع إنتاج العالم- بينما يتقاسم النصف الآخر البقية. والكهرباء مثال جيد لأن أكثرها يستخدم في نفس البلد التي تنتجها ولا يتاجر بها بين الدول إلا بمقدار ضئيل نسبيًا. فعند -نهاية ثمانينيات القرن العشرين- كانت الولايات المتَّحدة تنتج من الكهرباء للفرد مقدارًا أكبر مما تنتجه الهند بأربعين مرة، وأكبر من الصين بـــ ٢٣ مرة، وأكبر من سويسرا بمقدار ١,٣ مرات فقط. إن الفقراء لم يزدادوا فقرًا عادة إلا في بعض الحالات، ولكن الأغنياء هم الذين ازدادوا غنى بصورة كبيرة. وحتى التحسينات المذهلة في الإنتاج عجزت عن تغيير وضع الدول الفقيرة بالقياس إلى الغنية بسبب ارتفاع أعداد السكان، كما أن الدول الغنية ابتدأت بالأساس من مستوى أعلى. وإن أكثر الدول التي كانت تتمتَّع بأعلى مستويات للمعيشة في عام ١٩٠٠ مازالت تتمتَّع بها اليوم، وهي الدول الصناعية الكبرى في العالم المتطور.

العالم الصناعي

لقد مرَّت صورة الصناعة في العالم بتغيُّرات واسعة في توزيعها وفي طبيعتها - منذ بداية القرن العشرين- في عام ١٩٧٠ ظلَّت ثلاثة من التجمُّعات الصناعية الكبرى في العالم هي نفسها التي كانت في عام ١٩٣٩، أي الولايات المتحدة وأوروبا الغربيَّة والاتحاد السوفييتي. أما في عام ١٩٩٠ فقد أصبحت اليابان في المركز

الثالث بينما تراجع الاتحاد السوفييتي وراء ألمانيا. وإن الصناعات الثقيلة التي طالما ظلّت عماد القوة الاقتصادية لم تعد اليوم عاملاً حاسمًا، فمن بين أكبر ثلاث دول مصنّعة للفولاذ في عام ١٩٠٠، ظلّت أول اثنتين منها -أي الولايات المتحدة وألمانيا- بين الدول الخمس الأولى بعد ثمانين سنة -مع أن ألمانيا تقلّص حجمها عما كان عليه في عام ١٩٠٠- ولكنهما أصبحتا في المركزين الثالث والخامس بالترتيب، بينما أتت المملكة المتحدة التي كانت الثالثة في عام ١٩٠٠ في المركز العاشر في التجارة العالمية، وأصبحت كل من إسبانيا ورومانيا والبرازيل قريبة جدًا منها. وكثيرًا ما وجدت الصناعات الجديدة بيئة أفضل في بعض الدول النامية منها في الاقتصادات الناضجة، ففي عام ١٩٨٨ كان الإنتاج المحلّي الإجمالي للفرد في تايوان أكبر بحوالى ١٨ مرة منه في الهند، وفي كوريا الجنوبية أكبر بحوالى ١٥ مرة.

لقد ظهرت صناعات جديدة لم يكن لها وجود حتى في عام ١٩٤٥، مثل الإلكترونيات والبلاستيك. كان الفحم قد حلّ محلّ الماء الجاري والخشب في القرن التاسع عشر كمصدر أساسي للطاقة في الصناعة، ولكن الطاقات الهدروكهربائية والنفط والغاز الطبيعي انضمت إليه قبل عام ١٩٣٩ بزمن طويل، وأضيفت إلى هذه كلها مؤخّرًا الطاقة الناجمة عن الانشطار النووي. ولكننا نستطيع أن نميّز ضمن هذه التبدُّلات السريعة خطًا مستمرًا -منذ زمن بعيد- هو النمو الهائل في إنتاج البضائع المصنوعة لاستخدام المستهلك الفرد ومتعته بصورة مباشرة. ولهذه البضائع أشكال لا تعد ولا تحصى نكتفي بمثال واحد منها: في تسعينيات القرن التاسع عشر اخترع الفرنسي پانار آلة غريبة ذات أربع عجلات يمكننا اعتبارها اليوم جد السيارة الحديثة. وعندما جرى أول معرض للسيارات في لندن في عام ١٨٩٦ كانت أعدادها قليلة بعد، وكانت لعبًا غالية الثمن للأغنياء، إلى أن أنشأ هنري فورد في

عام ١٩٠٧ خط إنتاج مصممًا خصيصًا للسوق الواسعة بسعر منخفض. وفي عام ١٩١٥ كانت تصنع مليون سيارة فورد في العام الواحد، وبعد أحد عشر عامًا كان الطراز Model T يباع بأقل من ٣٠٠ دولار. لقد أمّن فورد بهذا للجماهير سلعة كانت تعتبر سلعة كمالية غالية، فغيَّر العالم بقدر ما غيره قدوم السكك الحديدية قبل قرن واحد، لأن الآخرين راحوا يقلدون اختراعه ويسيرون على أسلوبه. فساهم بذلك في نشر وسيلة من وسائل الراحة والمتعة، وفي نشر شكل جديد من أشكال التلوث أيضًا في كافة أنحاء العالم.

وفي ثمانينيات القرن العشرين كانت قد ظهرت صناعة سيارات عالمية ومتكاملة دوليًا. إن ثلاثة أرباع السيارات التي في العالم تصنعها اليوم ثماني شركات كبرى. ويدين النمو الاقتصادي لليابان بعد عام ١٩٦٠ بالكثير لصناعة السيارات فيها، ولكنها أصبحت في عام ١٩٩٠ تخفف هذه الصناعة بشكل مقصود استباقًا للمنافسة الخارجية. وقد نتجت عن السيارة تغيُّرات أخرى، فإن نصف الرجال الآليين المستخدمين في الصناعة العالمية اليوم يعملون في عملية اللحام في مصانع السيارات -والربع الآخر يقوم بعملية الدهان فيها- وأدى هذا الاختراع أيضًا على المدى الطويل إلى خلق طلب كبير على البترول -ولو أن هذا الأمر كان يلوح قبل عام ١٩١٤- كما أصبح الكثير من الناس يعملون في مهن معتمدة على السيارة. وقد ساهم فورد في تبديل طبيعة العملية الإنتاجية عن طريق الاستفادة من ابتكارات غيره في تنفيذ أفكاره، مثل الكثيرين من ذوي الأفكار الثورية. فهو لم يخترع خط التجميع الذي تتَّصف به الطريقة الحديثة في الصناعة بانتقال السلعة من عامل إلى آخر -أو من رجل آلي إلى آخر- ولكنه وسَّع استخداماته بشكل كبير. وكثيرًا ما استهجن الناس التأثير النفسي لهذه الطريقة

على العامل، ولكنها كانت ضرورية من أجل توسيع المشاركة في الثروة. وقد رأى فورد أن هذا النوع من العمل ممل، فصار يدفع رواتب أعلى للتعويض عن ذلك، وساهم بهذا في تغذيَّة الازدهار الاقتصادي عن طريق رفع القدرة الشرائية وبالتالي زيادة الطلب على البضائع.

الاتصالات

لقد تطوَّرت الصناعة تطوُّرًا ثوريًّا -منذ عام ١٩٤٥- بفضل تقنيّة المعلومات، أي اختراع وإدارة الآلات الإلكترونية الخاصة بمعالجتها، ونادرًا ما جاءت موجات التجديد بمثل هذه السرعة. وقد تمّ قسم كبير من الاختراع والتطوير في هذا المجال أثناء الحرب العالمية الثانية، وسرعان ما انتشر خلال عقود قليلة إلى مجالات واسعة من الخدمات والعمليات الصناعية. لقد ارتفعت طاقة الكمبيوترات وسرعتها ارتفاعًا سريعًا، كما انخفض حجمها وتحسَّنت طرق الإظهار فيها، فأمكن بذلك ترتيب ومعالجة كميات أكبر بكثير من المعلومات بسرعة لا سابق لها. وجلبت هذه التغيُّرات الكمية تبدُّلات نوعيَّة، فعمليات الحساب التي كانت تحتاج -حتى زمن قريب- حياة الكثير من علماء الرياضيات لإنجازها يمكن القيام بها -الآن خلال دقائق قليلة- ولم يتسارع التطوُّر الفكري بهذه الصورة المفاجئة -من قبل قط، وفي الوقت نفسه- ازدادت سعة الكمبيوترات وقوَّتها بسرعة مذهلة، فصار من السهل وضعها ضمن حيِّز أصغر فأصغر -وخلال ثلاثين سنة- صارت «الشريحة الدقيقة» التي بحجم بطاقة الائتمان قادرة على القيام بعمل كان يحتاج في البداية جهازًا بحجم غرفة المعيشة. وتظهر التأثيرات الكبيرة لهذه التطوُّرات في جميع نشاطات البشر، من جمع الثروات إلى خوض الحروب.

إلا أن الكمبيوترات ليست إلا الحلقة الأخيرة في سلسلة طويلة من الاختراعات في مجال الاتصالات. فقد -أتى القرن التاسع عشر- باستخدام البخار في النقل البري والبحري، ثم جاء المحرك الذي يعمل على البترول أو محرك الانفجار الداخلي والترام الكهربائي. وكان المنطاد اختراعًا من القرن الثامن عشر، وقد وجدت أولى المناطيد القابلة للتوجيه -ذات المحرك- قبل عام ١٩٠٠، ولكن أول عملية تحليق لآلة أثقل من الهواء ذات محرك وقادرة على حمل الإنسان لم تتم -حتى عام ١٩٠٣- وبعد ثمانين سنة من ذلك التاريخ أصبحت قيمة البضائع المستوردة والمصدَّرة عبر مطار هيثرو، وهو أوسع مطارات لندن، أكبر منها في أي مرفأ بحري آخر في بريطانيا، كما صارت الطائرات اليوم هي الطريقة المألوفة في الأسفار البعيدة، وهي تقدِّم خدمة ما كان بإمكان أحد أن يتصوَّرها -عند بداية القرن- وكان نقل المعلومات في ذلك الحين قد مرَّ بثورة -منذ حوالى نصف قرن- فكانت الأعمدة التي تحمل الأسلاك للتلغراف الكهربائي على طول السكك الحديدية مشهدًا مألوفًا؛ وما إن استغل ماركوني النظرية الكهرطيسية -أي الكهربائية المغناطيسية- لإرسال أولى الرسائل اللاسلكية حتى استغنت أجهزة الإرسال والاستقبال عن وسائل الربط المادية، فيما بينها. إن أول رسالة لاسلكية عبرت الأطلسي كانت في عام ١٩٠١، أي في أول عام من هذا القرن الذي تأثَّر بهذا الاختراع أيما تأثُّر. وفي عام ١٩٣٠ لم يعد أكثر الأشخاص الذين يملكون مستقبلات لاسلكية -وكان هناك الملايين منهم- يعتقدون أنه يجب إبقاء النوافذ مفتوحة لكي تصل إليهم موجات البث. وكان البث الإذاعي الواسع النطاق جاريًا -في ذلك الحين- في أكثر الدول الكبرى.

وسرعان ما أصبح نقل الصورة سهلاً مثل نقل الصوت. ففي عام ١٨٩٦ جرى أول عرض سينمائي في لندن في معهد ريجنت ستريت بوليتكنيك. وفي عام

١٩١٤ صارت هناك ٣,٥٠٠ دار عرض للسينما في بريطانيا ودور كثيرة غيرها في الدول الأخرى. ونشأت صناعة أفلام السينما، خاصة في الولايات المتحدة، ولو أن الهند سوف تصبح في النهاية أغزر الدول إنتاجًا سينمائيًا في العالم -ومنذ عام ١٩٣٩- كانت السينما والمذياع قد بدآ بتغيير العادات والأذواق والأفكار، وقد استخدمهما السياسيون والحكومات ورجال الأعمال المتلهّفون للترويج لبضائعهم. وربما كان تأثير هاتين الوسيلتين الإعلاميتين في معرفة ما يمكن للحياة أن تقدّمه من النواحي المادية أوسع حتى من تأثير التعليم الابتدائي ومحو الأمية والصحف، رغم التوسُّع العالمي الهائل في هذه الوسائل. ومع أن روسيا السوفييتية والهند واليابان قد صنعت كلها أفلامًا متميِّزة للاستهلاك المحلي، فقد نشرت السينما في أكثر الأحيان الأفكار والمعايير المبنيَّة على الحياة في أمريكا الشمالية وأوربا.

أما تأثير التلفزيون فكان أكبر حتى من هذا. لقد تمَّ أول بث بدائي للصور على يد رجل ألماني في عام ١٩١١، وفي عام ١٩٣٦ افتتحت الـــ (بي بي سي) أول خدمة منتظمة للبث التلفزيوني. ولكن التلفزيون لم يثبت قدميه إلا بعد عام ١٩٤٥، وكان ذلك أولاً في الولايات المتحدة ثم أصبح وسيلة إعلامية شائعة بعد -عشرين سنة- في الدول الصناعية الكبرى. وهو -الآن- المصدر الأساسي لدى جماهير الناس للتسلية والمعلومات في كافة أنحاء العالم. ومازال الجُدل مستمرًا حول تأثيرات التلفزيون، ولكن لا ريب أنه قد أخذ الكثير من جاذبية الصحف والمذياع والسينما. وربما افتتح عصرًا جديدًا من الاتصالات صارت فيه الصور تلعب الدور الأساسي بدلاً من القراءة، وربما كانت هذه أكبر قوة في التغيير الثقافي والاجتماعي، منذ اختراع الطباعة، لأنها تبعد الناس عن الكلمات وتجتذبهم نحو الصور، وتبعدهم عن التفكير وتدفعهم إلى الانفعالات بمدّها وجزرها وإلى الانطباعات غير الدقيقة.

طرق جديدة في رؤية العالم

يميل المرء عند النظر إلى العالم قبل عام ١٩١٤ إلى اعتباره عالمًا مختلفًا كل الاختلاف عن عالمنا، ولكن الحقيقة أن الكثير من الأفكار والمواقف في القرن العشرين، لا يمكن فهمها ما لم تدرك جذورها العميقة الكامنة في القرن التاسع عشر. صحيح أن ثقافة ذلك القرن كانت ثقافة واثقة ومتفائلة وتحرُّريَّة، إلا أنها كانت تشير -في الوقت نفسه- إلى عصر قادم من التشاؤم والمحن. كان بعض الناس يرون في حرية التعبير والنقاش سلاحًا ذا حدين، وإذا استثنينا الأشخاص المعلمين وجدنا أن الملايين من الأوربيين كانوا غير متعلمين، ومؤمنين بالخرافات، وأن الدين بشكله القديم البالي ظلّ هو الناظم الأساسي لحياتهم. فهل من المفيد -حقًا- أن تضعف إيمانهم بتلك الأفكار التي يرتكزون عليها في تحديد ما هو مقبول وما هو غير مقبول؟ وإذا سمحنا لكل شيء بأن يصبح في النهاية موضعًا للشك ولم نقبل بأي معايير على أنها بديهية، أفلسنا نحطم بذلك أسس المجتمعات أصلاً؟ إن المجتمع بحاجة إلى بعض الافتراضات غير القابلة للشك.

تعود بعض تلك الشكوك إلى القلق الذي سبَّبه عصر التنوير نفسه، بينما نشأ بعضها الآخر من مشاكل جديدة. لقد كان عنصر الشك في الحضارة الغربيَّة عاملاً من عوامل التخريب الذاتي، ويمكننا أن نراه في أعمال تشارلز داروين، وهي من أعظم الإنجازات العلمية في -القرن التاسع عشر- وأشهرها. وكثيرًا ما أسيء فهم أفكار داروين أو بسطت إلى درجة زائدة؛ إلا أن ما قاله، أو ما ظن الناس أنه قاله، قد صاغ طرقًا جديدة في التفكير بأمور كثيرة عدا عن البيولوجيا. يتحدَّث داروين

في كتابه أصل الأنواع (١٨٥٩) عن عملية الاصطفاء الطبيعي التي تسمح باستمرار الأنواع الأصلح في عالم الطبيعة. وقد ظنَّ بعض الناس أن عالم البشر يعمل بطريقة مشابهة، فصار بعضهم يبررون التنافس الاقتصادي بلا أي قيد على هذا الأساس، وكانوا يقولون إن هذا التنافس يضمن تفوُّق ذوي الصفات الأفضل من شجاعة وذكاء وتصميم وفطنة في الأمور العملية. وكانت هذه فكرة مريحة للذين لا يعلمون ماذا يجب أن يفعلوا تجاه الخاسرين في مسابقة الحياة، فكأنَّهم كانوا يقولون ضمنًا إن اللوم لا يقع على أحد، بل إن محنتهم هذه هي نتيجة لعملية طبيعية.

مذهب الحتمية

يسمى هذا النوع من الأفكار -أحيانًا- أفكارًا "حتمية"، وجوهرها أن بعض الحقائق، خاصة الحقائق المادية، هي التي تحدِّد ما سوف يحدث على المدى الطويل، وأن الجهود الفردية ليست قادرة على تغيير ذلك بأي قدر هام. وهكذا فإن الأشخاص الذين كانوا يرفضون مثل أجدادهم فكرة أن الله يحكم العالم صاروا -الآن- مستعدين لتقبُّل فكرة أن العالم تحكمه عمليات ماديَّة غير عاقلة. فإذا عدنا للمثال المذكور عن أفكار داروين، وجدنا أن العوامل المحدِّدة للتطور في هذه الحالة هي الميراث الجيني، الذي يجعل بعض الأشخاص ناجحين وبعضهم غير ناجحين. ولكن النظريَّات البيولوجية لم تكن المصدر الوحيد لأفكار مذهب الحتميَّة هذا، فقد كان بعض المفكرين يشدِّدون على أهمية الجغرافية أو المناخ، وبعضهم الآخر على العوامل الاقتصادية. وكانت العقائد «الماركسية» الرسميَّة التي يؤيِّدها اشتراكيو المنظَّمة الدولية الثانية من هذا النوع، ويبدو أن خلاصتها هي أن العالم يجري على هذا الشكل بسبب القوى الاقتصادية، وأنه يتجه بصورة مطَّردة وحتميَّة نحو انتصار

البروليتاريا على مضطَّهديها، وأن لا شيء يقدر على منع ذلك - وهي فكرة مريحة جدًا أو مؤرِّقة جدًا بحسب موقعك من دراما التاريخ.

كانت نظريات الحتميَّة بأشكالها المختلفة أوسع انتشارًا وقبولاً -عند نهاية القرن التاسع عشر منها عند بدايته- وتشترك جميعها بناحية واحدة، هي أنها تضعف شعور الناس بالمسؤولية تجاه حياتهم وبأنهم أحرار في اتخاذ القرارات التي تشكِّل تلك الحياة. لهذا فهي مختلفة جدًا عن الأفكار المسيحية الكامنة في جذور الحضارة الأوربية، وعن الأفكار المثالية حول حريَّة الفرد وسعيه نحو الحقيقة كما كان يحلم بها مفكِّرو النهضة والتنوير، ومختلفة حتى عن الثقة التي كانت لدى الرجال الذين افتتحوا العصر الصناعي، لأن هؤلاء جميعًا كانوا يؤمنون أن قرارات الأفراد وأفعالهم الاختياريَّة ذات أهميَّة كبيرة ويمكنها أن تغيِّر العالم في النهاية. أما هذه الأفكار الحتميَّة الجديدة فكانت علامة على تفشِّي الشكوك لدى الناس على مستوى عميق جدًا حول أمور هي في صميم ثقافتهم.

إلا أن كل مفهوم جديد ظهر في -القرن التاسع عشر- سرعان ما وجد له مفهومًا آخر يعارضه ضمن ذلك الجو العام من الغليان الفكري. لهذا يصعب أن نقول ماذا كان «المجتمع» «يعتقد» بالإجمال، وربما لم تكن هذه المحاولة منطقيَّة أصلاً. كان الناس يشيرون إلى ما يرون حولهم من أشياء تقزِّم الفرد وتسلبه سلطته على التحكُّم بحياته، مثل نمو المدن العملاقة التي لا يعرف فيها الناس بعضهم بعضًا، وتوسُّع الإمبراطوريات الصناعية التي أصبحوا فيها أشبه بأسنان عجلات صغيرة ضمن آلات ضخمة، وإلى ازدياد سلطة الحكومات أيضًا؛ فكانوا يقولون إن هذه التطوُّرات كلها تترك فيهم شعورًا بالسلبيَّة واللامبالاة والعجز. ولكننا نستطيع أن

نقول من ناحية أخرى إن الملايين من الناس كانوا يتمتَّعون في حياهم اليوميَّة بحريَّة أكبر مما كان الأمر في الماضي، لأن العلم والتقنيَّة أعطياهم تحكُّمًا ببيئتهم لا سابق له. فقد مكَّنتهم الكهرباء مثلاً من استخدام أفضل لوقتهم، لأنها أمَّنت لهم وسائل أرخص وأنظف وأبسط في إضاءة بيوهم وورشاهم. وأعطى اختراع الدراجة الملايين منهم حريَّة جديدة في الحركة صاروا يستخدموها في الترفيه والعمل معًا. ومع انتشار فكرة منع الحمل سهَّلَ عليهم أن يشكِّلوا حياهم العائلية كما يشاؤون وألا يتركوا الأمور للصدفة. إلا أن هذه الحريَّة في الأمور العمليَّة اليوميَّة لا بد أن تكون دفعت نظرة الناس في المجتمعات المتقدِّمة نحو ما يسمى «النـــزعة المادية». ولا يقصد بالنـــزعة الماديَّة مجرد زيادة الولع بالأشياء التي تؤمِّن الراحة والمتعة، بل هي تشمل -أيضًا- أفكارًا تعود إلى النـــزعة التجريبية لدى بعض مفكري عصر التنوير. ومن العلامات الهامة الأخرى الانحسار البطيء للإيمان بعالم ما فوق الطبيعة، إذ صار الناس يعتقدون أن الحياة يمكن تفسيرها بأساليب ماديَّة صرفة، وأن العالم يمكن التحكُّم به من أجل تأمين شروط مادية أفضل لحياة البشر باستمرار. وكانت هذه النظرة متفائلة جدًا من إحدى نواحيها، ولكنها تشير أيضًا إلى أن البشر أنفسهم ليسوا إلا نتيجة لقوى مادية، فكيف يمكن لهم إذًا ألا يخضعوا للقوانين المادية التي تحكم بقية العالم؟ وإذا كان هذا صحيحًا، فكيف يمكن أن تكون لهم أية قيمة خاصة أو جوهرية تؤهِّلهم لأن يعاملوا معاملة خاصة؟

التمييز العنصري

كانت بعض تلك النظريَّات الماديَّة الحتميَّة الصاعدة تدور حول موضوع العرق، وكانت تتضمَّن أفكارًا شريرة وخطيرة، فقد تبنَّى عدد من الكتاب

والمفكرين أفكارًا ربطوها ربطًا غامضًا بأفكار داروين، وادَّعوا أن العروق البشرية لا تختلف -فيما بينها- بالصفات الجسمانية -فقط- مثل لون الجلد وشكل الملامح ونوع الشعر وغيرها، ولا بثقافاتها وحدها مثل اللغة والمؤسَّسات، بل إنها تتباين -أيضًا- في صفات فطرية من حيث تفكيرها وقدراتها. وكان بعضهم يقولون إن بعض العروق تحتل مرتبة أعلى في سلم التطوُّر، أو تحقق أهدافًا طبيعية أسمى من أهداف العروق الأخرى. وفي جميع الحالات -تقريبًا- كانت هذه النظريَّات تقول إن «العرق» الأبيض هو أفضل العروق قاطبة، بل إن بعض أهل أوربا وأمريكا الشمالية صاروا يميزون ضمن العرق الأبيض نفسه ويؤكدون أن البيض «التوتون» أو «الأنكلوسكسون» هم أسمى من «المتوسطيين» أو «اللاتين». واليوم بدأ أفراد من «عروق» أخرى يتَّبعون نفس هذا السلوك المتعجرف ويدَّعون أنهم متفوقون على غيرهم بالفطرة.

من السهل أن نفهم كيف استطاعت هذه الأفكار المنحرفة أن تجد لنفسها مكانًا ضمن التيار السائد من بحث عن عوامل كبيرة حاسمة تفسِّر للناس الصورة الإجمالية للأمور. والمؤسف أن الناس كانوا يتصرفون بحسبها، كما راح السياسيون والمروجون لأفكارهم يستخدمونها لإثارتهم وتخويفهم من «الخطر الأصفر» - أي الشعوب المغولانية التي زعموا أن توسُّعها يهدد أوربا. كما استخدمت الأفكار العنصرية لتبرير النـــزعة الوطنية، أو ادعاء الحق بحكم شعوب اعتبرت «بطبيعتها» دون الشعوب البيضاء لأنها متخلِّفة. ولكن أهمية هذه الأفكار ظلت قبل عام ١٩١٤ أقل بكثير مما صارت عليه -فيما بعد- إذ إنها قد أدَّت -عندئذ- إلى عواقب مريعة حقًا.

العداء للسامية

كان اليهود مضَّطهدين -طوال العصور الوسطى- وكان أكثر عذر وجده الناس مقنعًا لاضطهادهم هذا هو أنهم يستحقونه، فهم الذين صلبوا يسوع المسيح مؤسِّس الديانة المسيحية؛ ولم يذكر أصحاب هذه الأفكار أن المسيحيين الأوائل والمسيح نفسه كانوا جميعهم يهودًا أتقياء. لقد كانت هذه التهمة طريقة فعَّالة في إثارة الدهماء في مجتمع العصور الوسطى، وكانت دومًا قادرة على استغلال العواطف الدينية لأهداف شريرة. وكانت لدى الناس -أيضًا- أسباب أخرى لكراهية اليهود، فقد كان هؤلاء -منذ زمن بعيد- المقرضين الوحيدين للأموال، وكان لهم وجود بارز في عالم التجارة، وكثيرًا ما كان المسيحيون مدينين لهم، ولم يكن لليهود مكان واضح وضروري في المجتمع الزراعي في أوربا العصور الوسطى - وحتى اليوم يعتبر بعض الناس أن المصرفيين يمكن الاستغناء عنهم. كما أن اليهود كانوا يتجمَّعون معًا في المدن، وكانوا متميِّزين عن غيرهم بصورة واضحة حتى في لباسهم، مع أن أعدادهم كانت قليلة نسبيًا.

لقد زالت أيام الاضطهاد والشغب والقتل رويدًا رويدًا في أوربا الغربيَّة، ولكن المزيد من اليهود كانوا ينتقلون شرقًا أثناء العصور الوسطى إلى المملكة البولندية الليتوانية. وشيئًا فشيئًا صارت الأعداد الأقل منهم في المقاطعات المتَّحدة (هولندا) وإنكلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا تعامل بصورة أكثر تسامحًا، خاصة بعد الثورة الفرنسية. وقد تحرَّر اليهود كثيرًا في -بداية القرن التاسع عشر- في جميع الدول الغربيَّة من الظلم القانوني والاجتماعي الذي كان مفروضًا عليهم، وصاروا في عام ١٩٠٠ يعيشون عادة حياة طبيعية، على الأقل بين الطبقات الوسطى والعليا

من المجتمع، ولكنّهم ظلّوا في -أكثر الأحيان- غير مندمجين فيه، وكانوا يشكّلون جماعة متميّزة بديانتها وتعليمها ولغتها. وكانت العبريّة لغة الديانة اليهودية، بينما كان أكثر اليهود في أوربا الشرقية يتحدّثون اللغة الييدية، وهي مزيج من اللهجة الألمانية ومن العبرية. إلا أن الظلم الاجتماعي ظلّ مستمرًا، وحتى اليهود الذين برزوا بروزًا عظيمًا في مجالات الفنون والعلوم والتجارة والمال كانوا يظلّون عادة على هامش الحلقات الحاكمة في أوربا، وإن كان هذا الوصف لا يصحُّ على يهود الولايات المتّحدة وجنوب أفريقيا.

كانت هذه هي الخلفيّة التي انتشرت عليها الأفكار الداروينية الكاذبة حول العرق في -النصف الثاني من القرن التاسع عشر- إن العداء للسامية لم يخمد قط، وكانت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية تُشجّعه وكذلك النظام القيصري. وكان البعض يتهمون اليهود وغيرهم، كالماسونيين مثلاً، بتسبيب الثورة الفرنسية. وعندما حدثت أزمة تجارية ومالية كبيرة في ألمانيا والنمسا في سبعينيات القرن التاسع عشر اتُّهم الكثيرون المصرفيين والممولين اليهود بأنهم سبب فقدانهم لمدّخراتهم. كان اليهود يهاجرون من أوربا الشرقية، خاصة من الجاليات ذات التفكير المحافظ والتقليدي في پولندا وليتوانيا، وكانوا يتميّزون عن غيرهم بلباسهم ومظهرهم، وقد أدّى قدومهم إلى المدن الكبرى في أوربا الوسطى، خاصة ڤيينا، إلى الاصطدام بأهل البلاد حول موضوع الوظائف. وقد حصلت في فرنسا سلسلة من الفضائح المالية في ثمانينيات القرن أدّت إلى بيع أكثر من مئة ألف نسخة فيها من كتاب يهاجم اليهود، مع أن فرنسا كانت أكثر الدول تسامحًا في القارة الأوربية، وكان عدد اليهود فيها على الأرجح أقلّ من عدد الذين اشتروا ذلك الكتاب.

ولكن اليهود لم يكونوا يخشون العودة إلى وضعهم السابق من ناحية الدونية القانونية في أية دولة أوربيَّة غربيَّة، بل ازداد البارزون منهم تقبُّلاً في المجتمع، وكانوا يدخلون المهن العلمية بأعداد متزايدة، ويشتغلون بالسياسة ويرتقون فيها إلى المناصب العليا، كما استمرَّ ازدهارهم في مجال الأعمال وسهَّلَ عليهم بلوغ التعليم العالي، وكانوا بالإجمال يتطلّعون إلى المزيد والمزيد من الاندماج في المجتمعات التي كانوا فيها مواطنين مساوين لجميع المواطنين الآخرين. وقد ساهم اليهود مساهمة كبيرة بالأخص في الولايات المتحدة، وكان لهم فيها بالذات نفوذ كبير. ولم يكن هناك قبل عام ١٩١٤ إلا عدد قليل منهم يعتقدون أن على شعبهم السعي نحو هدف آخر غير الاندماج، وأن عليهم أن يشكّلوا أمة مثل أية أمة أخرى في أرض معينة وضمن دولة يهودية مستقلّة، وكان أولئك هم الصهاينة.

ولم تكن هذه الصورة مشوَّهة إلى حد كبير إلا في روسيا القيصرية. كان يعيش في روسيا حوالى -خمسة ملايين يهودي عند نهاية القرن التاسع عشر- أي خمس عدد اليهود الإجمالي في العالم، تقريبًا، وكان أكثرهم في منطقة پولندا وليتوانيا. وكانت الحكومة القيصرية تلجأ عمدًا إلى الأحقاد القديمة المبنيَّة على الخرافات، والتي أذكتها الكنيسة الأرثوذكسية، من أجل أن تبعد عن نفسها استياء رعاياها وتُفرِّق بعضهم عن بعض -ومنذ ثمانينيات القرن التاسع عشر- كثرت الاعتداءات المنظّمة ضد اليهود، فكانت بيوتهم ومحلاّتهم تسلب وتنهب، وكان المجرمون يهاجمون أحياءهم فيضربون سكانها ويقتلونهم -أحيانًا- أو يغتصبون فتياتهم. وكانت الشرطة تُنظِّم في -بعض الأحيان- هذا الشكل من الاعتداءات، وحتى عندما لا تنظّمها كانت السلطات تغض الطرف عن العصابات وتدعها تقوم

بالعمل بدلاً منها. ولم يردع النظام أن اليهود كانوا بارزين في مجالات الأدب والفن والأعمال، بل إنه في الحقيقة سلبهم بعض الحقوق القانونية التي كانت بحوزتهم، وزاد من صعوبة التحاقهم بالمدارس والجامعات. فليس من الغريب إذًا أن يكون اليهود قد برزوا كثيرًا في الجماعات الثوريَّة في روسيا، وبنسبة تفوق أعدادهم في المجتمع.

عدا عن روسيا، كانت الدولة الأوربيَّة الوحيدة التي يوجد فيها العداء للسامية بصورة شرعية عند -بداية القرن العشرين- هي رومانيا. لقد كان اليهود الرومانيون يحظون بقدر لا بأس به من التسامح في أيام حكم الأتراك، ولكن الاستقلال السياسي جلب معه العداء للسامية، فكان النضال من أجل حرية البلاد يعتبر حملة صليبية مسيحية ضد الإسلام، وصارت رومانيا الجديدة تعامل الجماعات اليهودية المستوطنة في مقطعات الدانوب -منذ قرون طويلة- معاملة الغرباء حتى عام ١٩١٩. إلا أن الأوربيين المثقفين في -ذلك الحين- لم يكونوا يعتبرون أوربا الشرقية معيارًا للحضارة التي ينتمون إليها.

معالجة الطبيعة

لقد رفع -القرن العشرون- العلوم الطبيعية إلى مرتبة لم تبلغها من -قبل قط- ولن تجد بين الإنجازات الفكرية في أي حقل من الحقول ما يجاري العلوم الطبيعية فيما قدَّمته من أجل تحسين فهمنا للعالم الطبيعي. إلا أن أكثر الناس مازالوا لا يدركون هذا إلا من خلال تطبيقاته التقنيَّة العمليَّة. في القرن التاسع عشر كانت أكثر التطبيقات العملية للعلوم تكتشف كنتيجة ثانوية للفضول العلمي، وكانت بعضها تحدث عن طريق الصدفة. ولكن في عام ١٩٠٠ كان العلماء قد أدركوا أن الأبحاث الموجَّهة والمركَّزة أمر مفيد -وبعد خمسين سنة أخرى- باتت الصناعة الحديثة معتمدة على العلم، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، واضحة أو غير واضحة. أما الآن فقد أصبحت هذه العلاقة أمرًا بديهيًا، ولا يستطيع المواطن العادي في دولة متطوِّرة اليوم أن يعيش حياة لا تعتمد على العلوم التطبيقية.

إن هذا التغلغل للعلم في كافة نواحي الحياة فضلاً عن إنجازاته المذهلة كان من أسباب الاعتراف المتزايد بأهميته. ومن العلامات الهامة على هذا الاعتراف الأموال التي تصرف على تطويره والعناية التي تبديها نحوه الحكومات. فأثناء حرب ١٩٣٩-١٩٤٥ نهض البريطانيون والأمريكان بمجهود جبار لإنتاج أسلحة ذرية، نتج عنه ما سمي «بمشروع مانهاتن»، الذي قُدِّر أن كلفته كانت مساوية لكلفة جميع الأبحاث العلمية التي قامت بها البشرية قبله -منذ بداية التاريخ المسجل- كما كان السعي نحو أسلحة أفضل سببًا أساسيًا للاستثمارات العلميَّة الهائلة التي قامت بها

الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي بعد عام ١٩٤٥. ولكن هذا الأمر لم يجعل العلم مرتبطًا بدول معينة، بل إن العكس هو الصحيح، فالحقيقة أن هناك بين علماء العالم تقليدًا عظيمًا عمره -قرون طويلة- من الاتصالات فيما بينهم، وإن لديهم أسبابًا نظرية وعملية وجيهة تجعلهم يتجاهلون الحدود بين الدول.

الفيزياء الجديدة

أما قصة تطوُّر العلوم النظريَّة فيمكن إكمالها من -سبعينيات القرن التاسع عشر- عندما نشر جيمس كلارك ماكسويل، وهو أول أستاذ في الفيزياء التجريبية بجامعة كيمبردج، كتابًا حول الكهرطيسية -أي علاقة الكهربائية بالمغناطيسية- تناول فيه بصورة فعَّالة مشاكل لم يتطرَّق إليها علم القرن السابع عشر -ومنذ ذلك الحين- لم تعد النظرة النيوتُنية تعتبر كافية -وهي التي تقول إن الكون خاضع لقوانين طبيعية منتظمة يمكن اكتشافها وذات طبيعة ميكانيكية، وإنه مكوَّن في جوهره من مادة لا يمكن تحطيمها توجد بتراكيب وترتيبات متنوعة- فقد صار لا بد -الآن- من ضم الحقول الكهرطيسية إلى هذه الصورة. وتلا ذلك تأسيس النظرية الفيزيائية الحديثة عن طريق التجارب العملية. بحلول عام ١٩١٤ كان رونتغن قد اكتشف الأشعة السينية -أشعة إكس- وبيكريل قد اكتشف النشاط الإشعاعي، وتومسُن قد تعرَّف على الإلكترون، وبيير وماري كوري قد عزلا الراديوم، ورذرفورد قد قام بأبحاث حول بنية الذرة. ونتجت عن هذه الاكتشافات كلها صورة جديدة للكون، فلم يعد كتلاً مجمَّعة من المادة، بل صار أشبه بأنظمة شمسيَّة دقيقة جدًا مكوَّنة من جزيئات مرتَّبة ضمن نسق معينة. وقد تبيَّن أنها تتصرَّف بطرق أزالت الحدود بين المادة والحقول الكهرطيسية. كما أن نسق

الجزيئات تلك ليست ثابتة، لأن أحدها قد يتحوَّل إلى آخر في الطبيعة، وهكذا يمكن للعناصر الكيميائية أن تتحوَّل إلى عناصر غيرها. وعندما بيَّن رذرفورد أن الذرَّات يمكن «شطرها» بسبب بنيتها الشبيهة بنظام من الجزيئات، كان معنى ذلك أن المادة يمكن التلاعب بها على هذا المستوى الجوهري -مع أنه كان قد قال في عام ١٩٣٥ إن الفيزياء الذرية لن يكون لها تطبيقات عمليَّة، ولم يقدم أحد على مخالفته في حينها). وسرعان ما تمَّ التعرُّف على جزيئين جديدين، ومازال العلماء -منذ ذلك الحين- يكتشفون جزيئات جديدة.

وبدأ بالظهور -قبل عام ١٩٣٠- إطار نظري جديد ليحلَّ محلَّ الإطار النيوتني. فبحلول عام ١٩٠٥ كان ماكس پلانك وألبرت آينشتاين قد بيَّنا تجريبيّاً ورياضيّاً أن قوانين نيوتن في الحركة غير قادرة على تفسير انتقال الطاقة في العالم المادي، لأن هذا الانتقال لا يحدث بشكل سيلان منتظم بل بشكل قفزات منفصلة صار كل منها يسمى الكم أو الكوانتُم. وقد بيَّن پلانك أن الإشعاع الحراري -من الشمس مثلاً- لا ينبعث بصورة متواصلة كما تقتضي فيزياء نيوتن، وقال إن هذا الأمر يصحُّ على جميع أشكال انتقال الطاقة. وقال آينشتاين إن الضوء لا ينتشر بصورة متواصلة بل بشكل جزيئات. وقد زعزعت هذه الاكتشافات معتقدات الناس وأرَّقتهم، ورغم أن نظرة نيوتن لم تعد كافية فإنه لم يكن هناك بعد نظرية عامة مثلها يمكن أن تحلَّ محلَّها.

بعد عمله حول الكوانتا كان آينشتاين قد نشر في عام ١٩٠٥ أفكاره عن النظريَّة الخاصة في النسبيَّة. وقد بيَّنت هذه النظرية مع أعمال لاحقة ثبتت بالتجربة في عام ١٩١٩ أنه لم يعد بالإمكان التمسُّك بالتمييز التقليدي بين المكان والزمان، وبين الكتلة والطاقة. ووجَّه آينشتاين انتباه زملائه إلى «كيان مكاني زماني متصل»

-زمكان- يمكن فيه فهم تداخل المكان والزمان والحركة، وأثبتت الأرصاد الفلكيَّة -بعد ذلك- أن هذا الوصف يفسِّر حقائق لا يمكن لنظريات نيوتن أن تفسِّرها بشكل كاف. وأخيرًا تمَّ تقدُّم نظري كبير على يد عالميِّ الرياضيات شرودنغر وهايزنبرغ، اللذين قدَّما إطارًا رياضيّاً لملاحظات بلانك، وللفيزياء الذريَّة. لقد استهلَّت ميكانيكا الكم على ما يبدو عصرًا جديدًا من الفيزياء، مع أنها سبَّبت المصاعب لنظرية النسبيَّة. وأدَّت التطوُّرات اللاحقة إلى التنبُّؤ بوجود جزيئات ذريَّة جديدة تمَّ التحقُّق منها -بعد ذلك- بالملاحظة، ومكَّنت في النهاية من إحراز إنجاز هائل، هو الاستفادة من طاقة الذرَّة أولاً، ثم تسخيرها عن طريق الأبحاث في مجال الأسلحة في -أربعينيات القرن العشرين- وقد بيَّن هذا الأمر أن آينشتاين قد صاغ علاقة رياضيَّة بين الكتلة والطاقة أثبتت التجربة صحتها.

في عام ١٩٥٠ كانت تبدُّلات العلم أوسع بكثير من موضوع زوال قوانين نيوتن كمجموعة من القوانين العامة المعترف بها -وقد ظلَّت على كل حال كافية لأكثر الأغراض العملية-. رغم تعقيده الرياضي كان عالم نيوتن في جوهره عالمًا ذا بنية بسيطة، ومبنيّاً على قوانين أساسيَّة يمكن للشخص العادي أن يفهمها. أما الصورة التي جاءت بها الفيزياء الجديدة فلم تكن سهلة الفهم -أبدًا ولا حتى في خطوطها العامة- فقد زال مفهوم القانون العام برمَّته ليحلَّ محلَّه مفهوم الاحتمال الإحصائي كأفضل ما يمكننا الحصول عليه. ثم انتشرت هذه النــزعة من الفيزياء إلى غيرها من العلوم. وهكذا تغيَّر مفهوم العلم فضلاً عن تغيُّر محتواه، كما أن الحدود بين العلوم انهارت تحت تدفُّق المعرفة الجديدة التي سمحت بها النظريات وأساليب التجربة الجديدة. وحصل تداخل بين العلوم، مثل تطبيق النظريات الفيزيائية في علم الأعصاب، أو تطبيق الرياضيَّات في علم البيولوجيا، وأصبحت فكرة التأليف

بين المعرفة التي كانت حلم -القرن التاسع عشر- أمرًا أبعد عن التحقيق. لقد صارت المعلومات الجديدة تتراكم بسرعة عجيبة، وقد لا يمكن معالجتها -أحيانًا- إلا في الكمبيوترات الحديثة، فكانت هذه صعوبة أخرى. ولم يحدث تقدُّم واضح نحو نظرية شاملة يمكن للشخص العادي أن يفهمها مثلما كانت الحال في نظريات نيوتن.

العلوم البيولوجية

كان هناك شعور في منتصف الخمسينيات بأن عصا القيادة قد انتقلت من العلوم الفيزيائية إلى العلوم البيولوجية. كان تقدُّم العلوم البيولوجية قد ابتدأ باختراع المجهر في -بداية القرن السابع عشر- وكشف هذا الاختراع أن النسيج الحي مؤلَّف من وحدات متميِّزة سُمِّيت -فيما بعد- بالخلايا. في القرن التاسع عشر عرف الناس أن الخلايا يمكنها أن تنقسم وأنها تتطوَّر بشكل منفرد. وفي عام ١٩٠٠ صارت دراسة الخلايا المنفردة تعتبر مقاربة أساسيَّة وواعدة لدراسة الحياة، وصار تطبيق الكيمياء فيها واحدًا من المناحي الأساسيَّة في الأبحاث البيولوجية. وكان علم البيولوجيا في القرن التاسع عشر قد استهلَّ -أيضًا- فرعًا جديدًا من العلوم هو علم الوراثة، أي دراسة انتقال الصفات من الأبوين إلى ذريتهما. وكان داروين قد ذكر مبدأ الوراثة كوسيلة لانتقال الصفات التي يشجعها الاصطفاء الطبيعي، ولكن أولى الخطوات نحو فهم الآلية التي يحدث فيها ذلك الانتقال قد تمَّت عن يد الراهب النمساوي غريغور مندل. فقد أجرى مندل سلسلة دقيقة من التجارب على مزاوجة نباتات البازلاء، فاستنتج منها وجود وحدات وراثية تتحكَّم بالتعبير عن الصفات التي تنتقل من الأبوين إلى ذريتهما، وصار مقبولاً أن هذه الوحدات ذات طبيعة مادية. وفي عام ١٩٠٩ أطلق عليها رجل دنمركي اسم «الجينات» gene.

ثم حلّت شفرة الكيمياء الخلوية شيئًا فشيئًا. كان معروفًا -منذ عام ١٨٧٣- أن ثمّة مادة في نواة الخليَّة قد تضم أكثر عنصر حاسم في تركيب المادة الحية. ثم كشفت التجارب عن وجود مكان للجينات على الصبغيات (الكروموسومات) يمكن رؤيته، وتبيَّن في الأربعينيات أن الجينات تتحكَّم بالتركيب الكيميائي للبروتين، وهو أهم مكوِّنات الخلايا. في عام ١٩٤٤ تم اتخاذ الخطوات الأولى نحو تحديد العامل الذي يسبِّب التغيُّرات في بعض الجراثيم ويتحكَّم بالتالي في بنية البروتين. وعرف في الخمسينيات أن هذا العامل هو الدّنا DNA، كما عرف في عام ١٩٥٣ أنه بشكل لولب مضاعف. وتكمن الأهميَّة الكبرى لهذه المادة في أنها حاملة المعلومات الجينية التي تحدِّد تركيب الجزيئات البروتينية الكامنة في أساس الحياة، وهكذا صار بالإمكان أخيرًا معرفة الآليات الكيميائية الكامنة وراء تنوُّع الظواهر البيولوجية. لقد كان هذا تحوُّلاً نفسيّاً في فهم الإنسان لذاته لا مثيل له -منذ أن قُبلت أفكار داروين في القرن السابق- ومازلنا بعيدين عن رؤية نتائجه الكثيرة.

ربما كانت معرفة بُنيَة الدّنا وتحليله أوضح خطوة نحو معالجة الطبيعة، وهي تشير إلى إمكانية تعديل أشكال الحياة بصورة مقصودة. وقد أدَّى هذا الاكتشاف مثل غيره إلى مزيد من المعرفة وإلى مجالات جديدة من الأبحاث والتطبيقات، وسرعان ما صارت تعابير "البيولوجيا الجزيئيّة" و"التقنيَّة البيولوجية" و"الهندسة الوراثية" تعابير مألوفة. لقد تبيَّن أن جينات بعض الكائنات الحيَّة يمكن تعديلها بحيث تمنح تلك الكائنات صفات جديدة ومرغوبة، فعن طريق معالجة عمليات نمو الخميرة وغيرها من الكائنات -مثلاً- يمكن إنتاج مواد وأنزيمات جديدة. وهكذا تمَّ أخيرًا تجاوز الخبرة التجريبية المتراكمة -منذ آلاف السنين- في صنع الخبز والنبيذ والجبن. ويمكن اليوم تعديل جينات الجراثيم لإنتاج المواد الكيميائية والهرمونات.

وفي أواخر الثمانينيات تم إطلاق برنامج أبحاث على نطاق العالم كله، هو مشروع الجينوم البشري -أي مجموع الجينات- وهو مشروع طموح للغاية هدفه رسم خريطة الجينات البشرية من أجل معرفة مكان وتركيب ووظيفة كل جين فيها -يوجد من ٥٠,٠٠٠ إلى ١٠٠,٠٠٠ جين في كل خليَّة، في كل منه ٣٠,٠٠٠ زوج من وحدات كيميائية أساسيَّة أربع تشكِّل الشفرة الوراثية- ويمكن -الآن- الكشف عن وجود بعض الجينات المعيبة، بل حق استبدال بعضها، وإن لهذا الأمر نتائج طبيَّة واجتماعية وأخلاقية هائلة. كما يمكن اليوم تحليل الدنا من أجل التعرُّف على شخص ما من خلال عينة من الدم أو السائل المنوي في المسائل الجنائية، ولو أن الجدل -مازال- مستمرًا حول حدود هذه الطريقة.

الفضاء

إن تحديد مستوى التأثيرات الثقافيَّة والاجتماعية والسياسيَّة للأفكار مشكلة قديمة عند المؤرخين. ورغم التطوُّرات العجيبة في الفيزياء والبيولوجيا فإن أكثر الناس قد لا يشعرون بأهميتها العلمية ولو بصورة تقريبية، ويصحُّ الشيء نفسه على التوسُّع الهائل الذي حصل مؤخرًا في عالمنا المادي بفضل رحال الفضاء والأقمار الصناعية. لقد بدأت أحلام استكشاف الفضاء ومعانيه بالظهور في الخيال العلمي في -السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر- وتعود التقنيَّة التي سمحت به إلى نفس الزمن -تقريبًا- فقبل عام ١٩١٤ كان العالم الروسي تسوليكوفسكي قد صمَّم صواريخ متعدِّدة المراحل وابتكر الكثير من المبادئ الأساسيَّة لريادة الفضاء. ثم انطلق أول صاروخ سوفييتي يعمل بالوقود السائل لمسافة ثلاثة أميال -تقريبًا، خمسة كيلومترات في عام ١٩٣٣- وانطلق صاروخ ذو مرحلتين بعد -ست سنوات

أخرى- ثم جاءت الحرب العالمية الثانية التي حفّزت ألمانيا على بدء مشروع صواريخ كبير، اعتمدت عليه الولايات المتحدة -فيما بعد- لتبدأ برنامجها في عام ١٩٥٥. إلا أن أكثر الناس يعتبرون أن عصر الفضاء قد ابتدأ في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٧، عندما أطلق السوفييت صاروخًا يحمل قمرًا صناعيًا من دون إنسان، هو سبوتنيك ١ ، الذي سرعان ما راح يدور في مساره حول الأرض وهو يبث الإشارات اللاسلكية. ولقد كانت تلك خاتمة حقبة الشك بإمكانية ريادة الإنسان للفضاء.

لقد سبَّب سبوتنيك ١ تداخل استكشاف الفضاء بالمنافسة بين القوتين العظميين. فابتدأ الأمريكان بأجهزة أكثر تواضعًا من الروس -وكان هؤلاء يسبقونهم أصلاً- ولم يكن وزن أول قمر صناعي أمريكي إلا ثلاثة أرطال -١,٥ كغ- بينما كان سبوتنيك ١ يزن ١٨٤ رطلاً -٨٣ كغ- وقد حطّم نجاحه ثقة الأمريكان بأن تقنيَّتهم سوف تتفوَّق -حتمًا- على تقنيَّة الاتحاد السوفييتي. وفشلت أول محاولة إطلاق أمريكية بعد قدر كبير من الدعاية لها، بينما استطاع الروس -خلال شهر واحد- من سبوتنيك ١ إطلاق سبوتنيك ٢، الذي نجح نجاحًا مذهلاً وكان وزنه نصف طن ويحمل أول مسافر إلى الفضاء، وهي كلبة هجينة سوداء وبيضاء اسمها لايكا، وقد غضب محبو الكلاب أيما غضب لأنها لن تعود إلى الأرض بعد دورانها -مدة ستة أشهر- حول الأرض. ثم افترق برنامجا الروس والأمريكان -بعد ذلك إلى حد ما- فصار الروس يركِّزون على القوة والحجم ورفع أثقال كبيرة عن طريق الصواريخ - وكانت الناحية العسكرية لهذا الاهتمام واضحة - بينما اهتم الأمريكان بجمع المعلومات وتطوير الأجهزة - ولهذا الاهتمام أيضًا نواح عسكرية عميقة ولو أنها أقل وضوحًا. ورغم كثرة الحديث في -ذلك الحين- عن «سباق الفضاء»، فإن المتسابقين كانا في الحقيقة يجريان نحو هدفين مختلفين.

ثم نجح الأمريكان في إطلاق القمر فانغارد في -آذار (مارس) ١٩٥٨- بعد فشله في -كانون الأول (ديسمبر) من العام السابق- فقطع ضمن الفضاء مسافة أبعد بكثير من أي قمر قبله، وقدَّم أكبر قدر من المعلومات القيمة -حتى ذلك الوقت- بالنسبة لحجمه الصغير. وفي -نهاية عام ١٩٥٨- كانوا قد نجحوا في إطلاق أول قمر صناعي لأغراض الاتصالات، وسرعان ما سجَّل سبقًا جديدًا هو استعادة قَمَرة -كبسولة- فضائية بعد عودتها إلى جو الأرض. بعد ذلك وضع الروس القمر سبوتنيك ٥ في مسار حول الأرض ونجحوا في استعادته، وهو قمر وزنه أربعة أطنان ونصف الطن يحمل كلبين وقد عاد إلى الأرض بسلام. وفي -العام التالي، في يوم ١٢ نيسان (أبريل) ١٩٦١- انطلق صاروخ روسي يحمل رجلاً هو يوري غاغارين، الذي هبط على الأرض بعد ١٠٨ دقائق من قيامه بدورة واحدة حولها. وهكذا بدأ غزو الفضاء من قبل أعظم الضواري على الأرض، أي الإنسان العاقل.

في -شهر أيار (مايو) ١٩٦١- أعلن الرئيس الأمريكي عزمه على أن تحاول الولايات المتحدة إرسال رجل إلى سطح القمر وإعادته إلى الأرض سالمًا قبل -نهاية العقد- وقال إن هذا المشروع يشكِّل هدفًا قوميًا طيبًا، وأنه سوف "يبهر البشرية"، وذو أهمية كبيرة في استكشاف الفضاء، وأنه سوف يكون على درجة لا مثيل لها من الصعوبة والتكلفة -وهذه الحجة الأخيرة غريبة بعض الشيء- وسرعان ما وُجد المال اللازم للمشروع. ومع أن الروس ظلُّوا يحرزون تقدُّمات باهرة فقد انتقل الألق بعد -عام ١٩٦٧- إلى الأمريكان. ففي -عام ١٩٦٨- أرسل الأمريكيون مركبة فيها ثلاثة رجال حول القمر وبثُّوا صورًا تلفزيونية لسطحه، وفي -أيار (مايو) ١٩٦٩- اقتربت المركبة التي أطلقها الصاروخ العاشر في المشروع إلى مسافة ستة

أميال (٩,٥ كم) عن القمر لتقييم تقنيَّات المرحلة الأخيرة من الهبوط. وبعد أسابيع قليلة، في -١٦ تموز (يوليو)- انطلق طاقم مكّون من ثلاثة رجال في المركبة أبولو ١١، التي هبطت مركبتها القمرية على سطح القمر -بعد أربعة أيام- وفي صباح اليوم التالي، ١٢ تموز، كان أول إنسان يطأ بقدمه سطح القمر هو نيل آرمسترونغ قائد البعثة. وهكذا تحقّق الهدف قبل -الوقت المحدد- ولم يكن هذا النصر تأكيدًا جديدًا على قدرة أمريكا فحسب، بل كان أيضًا علامة على آخر توسُّع لبيئة البشرية وأعظمها، أي بداية حياة الإنسان على الأجرام السماوية الأخرى.

قبل أن يغرس الأمريكيون علم بلادهم على سطح القمر كانت بعثة سوفييتية قد ألقت عليه راية صغيرة للاتحاد السوفييتي، وقد بدا هذا نذير شؤم بأن الشعور الوطني قد يسبِّب النـــزاعات في الفضاء. ولكن رغم أن تنافس الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي قد أدَّى بلا شك إلى ازدواج في الجهود والأخطاء وهدر كبير لها، فإن استكشاف الفضاء قد مال بمرور الزمن إلى التعاون بين الدولتين، ثم انضمت إليه -أيضًا- دول أخرى أوربية وآسيوية. ومن حسن الحظ أنه سرعان ما تمَّ الاتفاق على أن الأجرام السماوية ليست قابلة للاستملاك من قبل أية دولة، أي أن النـــزاع القديم على الجزر والمستعمرات لن يتكرَّر ثانية في الفضاء. وفي -تموز (يوليو) ١٩٧٥، وعلى ارتفاع ١٥٠ ميلاً (٢٤٠ كم)- فوق سطح الأرض، أضحى هذا التعاون بين الدول حقيقة مذهلة عندما تم ربط مركبتين سوفييتية وأمريكية إحداهما بالأخرى وراح طاقماهما يتنقلان بينهما، واستمر استكشاف الفضاء في جو دولي مسالم نسبيّاً بالرغم من الشكوك والمخاوف. لقد قام قمر صناعي غير مأهول بالاستكشاف البصري للفضاء الواقع وراء كوكب المشتري، كما تمَّ أول هبوط لمركبة استكشاف غير مأهولة على سطح المريخ، وجرت الرحلة

الأولى لمكوك الفضاء الأمريكي في عام ١٩٧٧، وهو أول مركبة فضائية يمكن إعادة استخدامها، وكانت هذه كلها إنجازات عظيمة. وقد أصبحت فكرة السفر في الفضاء فكرة مألوفة بسرعة عجيبة، بحيث لم يعد من المضحك كثيرًا في الثمانينيات أن يفكر المرء بحجز مكان في رحلات مأجورة، أو حتى بالدفن في الفضاء -إذا صح استخدام هذه الكلمة- ومع اقتراب العقد من نهايته جاء آخر إنجاز كبير لجهود الفضاء السوفييتي في عام ١٩٨٨عندما تمّ إطلاق قمر صناعي يمهّد الطريق لرحلة مستقبلية مأهولة إلى المريخ. ولكن تبيّن في التسعينيات أن الكلفة الباهظة لتلك الطموحات نسبة إلى فعاليتها لن تسمح لها بالتحقُّق القريب، ولا حتى في الولايات المتحدة.

المرأة

من أوضح التغيُّرات في -القرن العشرين- وأكثرها حدَّةً التغيُّرات التي حصلت في أوضاع المرأة، مع أنها بالطبع أثَّرت -أيضًا- تأثيرًا عميقًا وغير مباشر في النصف الآخر من المجتمع. مازال أمام هذه التغيُّرات طريق طويل، ولكنها تدل على منعطف تاريخي كبير وهام، ولم يعد من الممكن أن تعود إلى الوراء. وإن هذه التغيُّرات التي لم تبرز إلا مؤخرًا لها هي الأخرى جذور تاريخية عميقة، ولا يمكن تقييمها بصورة مفيدة إلا على المدى الطويل.

إن الدافع الإيجابي وراء تحرير المرأة وتوسيع خياراتها قد أتى كله من التقاليد الثقافية لأوربا الغربيَّة، وإذا أردنا أن نروي القصة كاملة فيجب علينا أن نبحث في التراثين الكلاسيكي واليهودي المسيحي عن البذور التي أعطت ثمارها الحالية. وليس لدينا هنا حيِّز كاف للعودة إلى -ذاك الماضي البعيد- ولكن هذه الخلفية يجب أن تظلَّ في أذهاننا. إن الكثير من الأفكار التي صارت اليوم بديهية حول ما يمكن للمرأة أن تفعله بحياتها وكيف يمكن للتعليم أن يساعدها في ذلك يمكن تمييزها بوضوح للمرة الأولى في -القرن الثامن عشر- ففي ذلك العصر ظهرت أولى المطالب الواضحة بمعاملة أكثر عدلاً للنساء. وقد لعبت الثورة الفرنسية دورًا هامًا في بروز تلك الأفكار، بصورة إيجابية وبصورة سلبيَّة أيضًا. إن كثرة الحديث عن "حقوق الإنسان" العالمية قد حرَّضت بعض النساء على المطالبة بحقوق أوسع لهن، كما أنها لوَّثت سمعتهن بصفة العصيان والتخريب. والحقيقة أن المرأة لم تحرز الشيء

الكثير في فرنسا نفسها، لأن الثوار رغم اندفاعهم الكبير لتحرير الرجل كانوا يعتبرون أن مكان المرأة الطبيعي هو في البيت. والنساء اللواتي حاولن المشاركة في السياسات الثورية تم تجاهلهن، بل إن إحدى قادتهن قد قطع رأسها على المقصلة. أما في إنكلترا فكانت النساء يتمتَّعن بقدر أكبر من الحريَّة في حياتهن اليوميَّة مما كانت عليه الحال في أكثر أنحاء أوربا، وقد تبنَّت امرأة بارزة هي ماري وُلستونكرافت قضية المرأة، ونشرت في عام ١٧٩٢ كتابًا عنوانه "دفاع عن حقوق المرأة"، فأثارت به بغضًا عنيفًا، وسمَّاها أحد السياسيين "ضبعًا في لباس امرأة"، لأن الحديث عن تغيير أدوار الجنسين كان يسبِّب بالطبع تخوُّفًا شديدًا بين الذكور. ويمكننا اعتبار كتابها هذا حجر الأساس للحركة النسائية الحديثة، وقد جلب إلى هذه القضية اهتمامًا أوسع من أي مؤلِّف قبله.

الحقوق السياسية

خلال القرن التاسع عشر، ازداد الضغط من أجل توسيع حقوق المرأة وتعزيزها. وازدهرت هذه القضيَّة ولو ببطء وبدرجات متفاوتة، وكانت قد أحرزت إنجازات كثيرة بحلول -عام ١٩١٤- فكانت النساء في بعض الدول قد كسبن حق التصويت في الانتخابات الوطنية، وهو ما اعتبرته بعضهن مفتاح السلطة السياسية. ففي عام ١٨٩٠ منحت ولاية وايومنغ الأمريكية النساء حق انتخاب أعضاء الكونغرس، ورئيس الولايات المتَّحدة -وكان لهن حق انتخاب الحكومات المحليَّة في ولايات عديدة أخرى، بل إن إحدى النساء قد ترشَّحت لمنصب رئاسة الجمهورية- وتبعت هذا النهج ثلاث ولايات أخرى خلال -السنوات العشر التالية- كما أعطت كل من نيوزيلندا وأوستراليا الغربيَّة والجنوبية النساء حق الاقتراع أيضًا. وحصلت النساء

الفنلنديات على حق الانتخاب في -عام ١٩٠٧- وانضمت ست ولايات أمريكية أخرى إلى هذه الحركة بحلول -عام ١٩١٤- وفي -ذلك الحين- صرت تجد الحركات السياسيَّة المنادية بحق الانتخاب للمرأة في دول كثيرة، حتى في الهند.

أما الدول التي لم يستجب فيها المشرِّعون الذكور لهذه الحجج فقد واجهت مطالبات شديدة حول هذا الموضوع. لقد لجأت بعض النساء في بريطانيا إلى العنف، فرحن يحطِّمن النوافذ ويصببن الحمض في علب البريد ويهاجمن السياسيين جسديًا من أجل لفت الانتباه إلى مطالبهن. ولكن الانتباه الذي كسبته حركة النساء المطالبات بحق الانتخاب لم يكن دومًا لصالحها، فقد سبَّبت عداءً شديدًا لدى الكثيرين من الرجال والنساء معًا، لأنه أثار المخاوف من تغيُّرات عميقة جدًا في العلاقات بين الجنسين. ومازالت الخطوات العنيفة باتجاه المساواة بين الجنسين تسبِّب ردود فعل مشابهة.

المرأة والمهن العلمية

إن القوى التي دفعت النساء إلى المزيد من المساواة والحريَّة كانت تعتمد على رغبة خصومهن في ذلك. كان انتشار فكرة تعليم المرأة قد بدَّل حياة الفتيات في أسر كثيرة بين عامي ١٨٠٠ و ١٩١٤. ففي هذا التاريخ الأخير كانت النساء يلتحقن بالجامعات في الولايات المتَّحدة وجميع الدول الأوربية الكبرى، وكانت مدارس البنات قد نمت نموًا كبيرًا، بينما، لم يكن التعليم متاحًا في عام ١٨٠٠ إلا في حالات نادرة ومن خلال مدرِّسين خصوصيين أو في بعض أديرة الراهبات. وكانت النساء قد بدأن بالمساهمة في العلوم؛ وإن أول امرأة شهيرة في هذا المجال هي ماري كوري، العالمة البولندية المولد التي نالت جائزة نوبل في الفيزياء مشاركة في عام ١٩٠٣، ثم خلفت

زوجها كأستاذة في السوربون في عام ١٩٠٦، ونالت جائزة نوبل ثانية بمفردها في الكيمياء بعد -خمس سنوات- من أجل أعمالها حول الراديوم -ولم تحصل النساء على حق التصويت في فرنسا التي عاشت فيها وتجنَّست حتى عام ١٩٤٦.

في عام ١٩١٤ صارت هناك نساء طبيبات ومحاميَّات ومدرِّسات جامعيَّات وعاملات في مجال الخدمات الاجتماعية. ومع أن التعليم بمستوياته العليا لم يكن متاحًا إلا لأقليَّة ضئيلة فقد ساهم في تبديل خيارات المهن المتاحة للمرأة. وكان بلوغ تلك المهن العلمية صعبًا بسبب قلة المرافق التعليمية في -القرن التاسع عشر- وبسبب المخاوف المتعلِّقة بحشمة المرأة. ومن النساء البارزات اللواتي خدمن جنسهن من هذه الناحية الإنكليزية فلورنس نايتنغيل، التي صارت معروفة بفضل إيجادها للخدمات الطبيَّة للجيش البريطاني في حرب القرم بجهودها المنفردة، ثم سعيها الذي لا يكل في سبيل تحسين وضع الجندي العادي، وقد نجحت في -ذلك أيضًا- واستفاد الجنود من هذا التطوُّر كما استفادت المرأة على المدى البعيد. ومن المساهمات الكثيرة للآنسة نايتنغيل في تحسين أحوال البشرية أنها خلقت مهنة جديدة للمرأة بأن جعلت مهنة التمريض مهنة محترمة. فحتى -ذلك الوقت- كانت النساء الوحيدات المحترمات اللواتي يعملن في رعاية المرضى هن أعضاء الجمعيّات الدينية من كاثوليكية وبروتستنتية — وكانت نايتنغيل قد تدرَّبت عند البروتستنت الألمان. وعدا عنهن كانت رعاية المرضى تترك بيد نساء جاهلات وغير مدرَّبات، كما أنهنَّ بلا أخلاق بل مجرمات -تمامًا- في بعض الأحيان. أما فلورنس نايتنغيل فقد أصرَّت على مستوى عال من النظافة والانضباط والاحترام لدى ممرضاتها، كما دربتهن بطريقة جديدة بحيث يمكنهن تقديم مساهمة منظَّمة وجديَّة في عملية شفاء المرضى، فكانت تلك مساهمة كبيرة في تطوُّر الطب أيضًا.

بحلول عام ١٩١٤ كانت السياسة والمهن العلميّة دلالات أكيدة على عبور نقطة حاسمة، ولو بقي الطريق طويلاً بعد. واستمر الصراع بنشاط على جبهات كثيرة من دون أن تكون الكثير من النساء واعيات لما كان يتم من أجلهن. لقد اعتبرت سيدة أمريكية هي -أميليا بلومر- أن النساء لسن مضطرات لارتداء التنورة، وكانت التنانير في -ذلك الحين طويلة- ويسهل تجمع الغبار فيها، فاخترعت نوعًا من البنطال رأته مناسبًا للمرأة، وأثارت قدرًا كبيرًا من السخرية عندما ارتدته. إلا أن اسمها قد دخل اللغة الإنكليزية في كلمة bloomers*، فخُلِّد اسمها بذلك في هذا الاختراع المتواضع. وإلى جانب تلك الجهود البطولية لدعاة حقوق المرأة، كانت تجري تغيُّرات أكثر أهمية لأنها سوف تؤثّر في حياة أعداد أكبر منهن، ولو أن الناس لم يكونوا في حينها واعين لمدى أهميتها.

عمل المرأة

في القرن الثامن عشر بدأ يظهر في بعض الأماكن أن الصناعة سوف تقدم للنساء طرقًا جديدة وكثيرة في كسب معيشتهن. لقد كانت النساء يكدحن دومًا في الحقول، ربما منذ اختراع الزراعة نفسها -ومازال الوضع كذلك اليوم في بلاد كثيرة- ولطالما كسبن معيشتهن من العمل كعبدات في البيوت، وعندما زالت العبودية أصبحن خادمات بيتيات مأجورات. وكنَّ -دومًا- يعملنَّ في غزل الخيوط في البيت، بينما كان النسج عادة مهنة للرجال لأن العمل على النول عمل شاق، ومن هنا أتت كلمة spinster*، لأن الغزل كان طريقة كسب الخبز اليومي للواتي لم

* سروال فضفاض مزموم عند الركبتين

* وهي تعني الغزّالة أو العانس

يحالفهن الحظ بالزواج. وقد غيَّر التصنيع حياة المرأة من هذه الناحيَّة، لأن ارتفاع الطلب على الخيوط المغزولة سهَّل عليهن أن يحصلنَّ على المزيد من العمل في البيت. ثم كانت الخطوة التالية هي الانتقال إلى المدينة، حيث ظهرت المعامل الأولى، من أجل العمل في غزل القطن. صحيح أن هذه المهنة لم تكن صحية أو محفِّزة للفكر، إلا أن حياة الفلاحة ليست، كذلك أيضًا، فكان هذا توسُّعًا حقيقيًا في خيارات المرأة.

وازداد حصول النساء على التعليم وعلى الوظائف الصناعيَّة كثيرًا في -القرن التاسع عشر- وظهرت في المجتمعات المتطوِّرة عشرات المهن الجديدة وملايين الوظائف الجديدة للنساء. أحيانًا- كان اختراع واحد يسبب تغيُّرًا كبيرًا، مثل الآلة الكاتبة التي لعبت دورًا هامًا جدًا، وأحيانًا- كان تغيُّر طريقة أداء الأمور هو السبب، مثل ظهور المحلاَّت الكبيرة لبيع المفرَّق. لقد ازدادت أعداد النساء العاملات في الطباعة على الآلة الكاتبة والسكرتيرات وعاملات الهاتف والبائعات في المحلاَّت والعاملات في المصانع، فصارت بعضهنَّ قادرات على كسب معيشتهن بأنفسهن، وعلى التمتُّع بحريَّة أكبر مما كان متاحًا لهن في العالم الخاضع للذكور -منذ عقود قليلة- وفي عام ١٩٠٠ كانت المهن الصناعية والتجارية تمنح الملايين من النساء للمرة الأولى فرصة الهروب من طغيان الأبوين الذي كان يستمر حتى -سن البلوغ- أو من الحياة الكادحة في أعمال البيت إذا تزوجن. وانتشرت هذه الفرص إلى أعداد أكبر فأكبر من النساء في بلاد كثيرة بمرور -القرن العشرين- وقد قاومها الرجال بالطبع لأنهم شعروا أن مهنهم وأدوارهم باتت مهدَّدة.

وإن التقنيَّة -أيضًا- قد قدَّمت للنساء أشكالاً أخرى من الحريَّة، فالاختراعات والابتكارات الكثيرة جدًا في جميع نواحي الحياة قد خفَّفت من عناء

عمل البيت وجعلته أكثر سهولة. وكانت بعض تلك الاختراعات بسيطة، مثل مد الماء الجاري إلى البيوت الذي وضع حدًّا للرحلات الطويلة الشاقة إلى مضخة الماء القريبة، ومد الغاز -أيضًا- لأغراض الإنارة ثم الطبخ، الذي خفَّف من وساخة وعناء استخدام مصابيح الزيت والمواقد المكشوفة. أما خارج البيت فقد تحسَّنت المحال التجارية وكثرت فيها البضائع المصنَّعة بالجملة، فتوسَّعت خيارات ربة المنــزل وسهل عليها أن تلبيَّ حاجات عائلتها. إن الأطعمة المستوردة التي أمَّنتها السفن البخارية والسكك الحديدية فضلاً عن عمليات معالجة الأغذية وتعليبها قد سهَّلت تأمين الطعام للعائلة وغيَّرت طبيعته، بعد أن كان معتمدًا على الذهاب إلى السوق مرتين في اليوم، كما هي الحال في أنحاء كثيرة من آسيا وأفريقيا -حتى الآن- وأنتجت الصناعة أنواعًا رخيصة من الصابون وصودا الغسيل، كما ظهرت أولى الأجهزة المنــزليَّة، مثل المكانس الكهربائية وآلات الغسيل للأغنياء والمكواة الأسطوانية اليدوية للفقراء، التي كانت كلها مستخدمة بحلول عام ١٩١٤. وكثيرًا ما يغفل المؤرِّخون هذه الابتكارات المتواضعة.

أما آخر قوة بدأت بالتأثير في حياة النساء (والرجال) -قبل عام ١٩١٤- فكانت منع الحمل، أي التحكُّم المقصود بعدد الأولاد بوسائل فيزيائية أو كيميائية، وكان هذا الأمر مقتصرًا على أكثر الدول تقدُّمًا، وحتى فيها لم يكن الناس يتحدَّثون عنه بشكل علني. كانت المجتمعات في الماضي تعتمد على قتل الأطفال أو تأخير الزواج، أما في عام ١٩١٤ فكانت وسائل منع الحمل قد بدأت تعطي آثارها المحسوسة في الدول الأكثر تطورًا في أوربا وأمريكا الشمالية. وفي -السنوات الأولى من القرن العشرين- كانت هذه النــزعة أوضح ما تكون بين الأغنياء والمتعلمين،

ولكن الفكرة انتشرت بسرعة إلا، حيث، واجهت معارضة دينية أو شعبية شديدة. وقد كانت هامة للجنسين -معًا- ولكنها أثّرت خصوصًا في النساء، لأنهنَّ صرنَ قادرات للمرة الأولى على تخفيف أعباء الحمل وتربية العائلة، وهي الأعباء التي هيمنت على حياة السواد الأعظم منهنَّ طوال تاريخ البشرية.

إن جميع القوى التي كانت تُغيِّر حياة المرأة قبل عام ١٩١٤ صارت تؤثّر بصورة أوسع وأقوى مع مرور -القرن العشرين- خاصة في الدول الأكثر تطوُّرًا. وإن قدوم حربين كبريين قد كانت له تأثيرات عميقة في جميع الدول، لأنهما ولّدتا الشك بتقاليد كثيرة ونبذها، وسبّبتا تعبئة قسرية من النواحي الاقتصادية والعسكرية وحتى الفكريَّة، فدفعتا ملايين النساء إلى أدوار جديدة لم تخل من الفائدة لهنَّ. وفي هذه الدول ظهر بأوضح شكل تأثير تطور الاتصالات. ولا يقتصر الأمر على الدعاية لقضية المرأة واستقلالها، بل ولّدت -أيضًا- مفاهيم جديدة عن أساليب جديدة من السلوك بفعل السينما أولاً، ثم التلفزيون الذي دخل البيت نفسه. وكانت الدعاية ذات أهمية كبيرة لأنها أدخلت إلى البيت المعرفة بحقائق جديدة، خاصة في مجال التقنيَّة، كما أنها أدخلت -أيضًا- قيمًا ومواقف جديدة.

العالم غير الغربي

إن من أبرز التطوُّرات انتشار ما يمكن أن نسميه إجمالاً النظرة «الغربيَّة» للمرأة إلى المجتمعات غير الغربيَّة. فمعاملة المرأة تختلف من مجتمع لآخر، وتتمتَّع النساء الأوربيات -منذ زمن طويل- بحياة أقل تقييدًا من حياة أخواتهن في آسيا وأفريقيا. وقد اتسعت الهوَّة كثيرًا في -الفترة الأخيرة- بين معاملة المرأة في الدول ذات الأصول الأوربيَّة والمجتمعات الأكثر تقليدية، فسبَّب هذا التباين مطالب التغيير

في هذه المجتمعات الأخيرة. وحتى المجتمعات المتخلّفة جدًا باتت تجد نفسها مضطرَّة لتقديم التنازلات -فيما يتعلق- بحريّة المرأة، وإنك تجد ممثليها في الهيئات الدولية والأمم المتَّحدة يؤيِّدون بالكلام خطوات تحسين وضعها، ولكن من دون أن يتمَّ شيء حقيقي على أرض الواقع. إن نصف العاملين في الزراعة في العالم هم نساء، ولا تجد هذا الأمر في الدول المتطوِّرة. ومازلت تجد المرأة في الهند وأفريقيا تكدح في أرض العائلة تحت إشراف رجال العائلة، ومازالت تعتمد على الزواج أو الصدقة من أسرتها كضمان وحيد ضد الجوع، ومازالت الرغبة الملحَّة بإنجاب الأطفال في بعض البلدان جدًا قويًا أمام تحرُّرها على الطريقة "الغربيَّة". ولكن الحقيقة أن أكثر المجتمعات تقليدية يمكن أن تتغيَّر، ويبدو أن مثال الحضارة "الغربيَّة" ذات الأصول الأوربيَّة سوف يغيِّر من جديد تقاليد بقية أنحاء العالم من خلال نفس العوامل التي أثَّرت في المجتمعات الغربيَّة، أي الفرص الاقتصادية والتعليمية ومن خلال التقنيَّة ومنع الحمل الذي أصبح بسيطًا جدًا بفضل الحبوب، فضلاً عن الحركات والحملات المقصودة التي يقودها دعاة تحرير المرأة. ولكن الأمر الجديد هو أن هذه القوى سوف تعمل عملها -الآن- في مجتمعات خالية من الخلفيَّة الثقافية المسيحية التحرريَّة التي كانت موجودة في أوربا وأمريكا الشمالية، كما أنها سوف تواجه مقاومة قويَّة بل عنيفة من السلطات التقليدية.

١٤

العصر الأخير: الجيشان

نحو حافة الهاوية

لقد جرت في -النصف الأول من القرن العشرين- حربان أوربيتان كبريان حطّمتا نظام القوى الأوربي القديم، وحطّمتا معه -أيضًا- على المستوى العميق اتفاقًا فكريًا واحدًا كان يضم البنى السياسية والاقتصادية للعالم المتحضّر عند -بداية القرن العشرين- كما أن الإمبراطوريات الاستعمارية التي رسمت شكل القرنين أو الثلاثة السابقة قد تقوّضت هي الأخرى. وإن هذه المواضيع كامنة في أساس الأحداث التي جرت، ولابد من أن تبقى حاضرة في أذهاننا عند روايتها، لأن القصة لا معنى لها من دونها.

لقد ابتدأت أولى الحربين الكبريين اللتين حطّمت أوربا نفسها فيهما في عام ١٩١٤، وكانت تلك نهاية سلام طويل بين القوى الأوربية العظمى استمر -منذ عام ١٨٧١- فانفجر أخيرًا الصراع العميق بين الدولة النمساوية الهنغارية وبين روسيا، وتورّطت فيه كل من ألمانيا وفرنسا وبريطانيا.

كانت الملكية الثنائية قد أغضبت الروس كثيرًا بضمها للبوسنـــة في عام ١٩٠٨، وهي مقاطعة كانت تحتلها مع أنها كانت قانونيًا ملكًا للدولة العثمانية.

وكان النمساويون يخشون -مثل بعض دول البلقان الأصغر- أن يتمكّن المصلحون في الإمبراطورية العثمانية من تجديد قوّتها، إذ كان قد بزغ حزب تركيا الفتاة الذي يطمح إلى ذلك. لذلك كان الهابسبرغ يرغبون بإحكام قبضتهم على البوسنة كي لا يستردها الأتراك، والأسوأ من هذا أن يستولي عليها الصرب. وكانت فيينا تعتقد أن صربيا تحاول توحيد جميع الشعوب السلافية الجنوبية، وكان عدد السلاف كبيرًا جدًا ضمن الملكية الثنائية، خاصة في شطرها الهنغاري، لذلك اعتبرت طموحات الصرب تلك خطرًا كبيرًا.

ولكن النمساويين لم يدركوا مدى الغضب الذي شعر به الروس، إذ إنهم لم يحصلوا بالمقابل على أي تعويض، فلم تعد روسيا تؤمن بإمكانية التفاهم مع الملكية الثنائية في تدبير أمور البلقان. وقد انزعج الصرب كثيرًا أيضًا، ولكن صربيا كانت أضعف من أن تقاوم؛ أما روسيا فكانت هي القوة السلافية الكبرى، وإذا ثارت المتاعب من جديد فقد يجد الصرب فيها حليفة مستعدّة لمساندتهم. وانتهت الأزمة أخيرًا من دون حرب، إلا أن السماء كانت قد أظلمت. كانت روسيا تنتظر بثقة -منذ قرن كامل- انهيار الإمبراطورية العثمانية، فهل يمكن أن ينقذها حزب تركيا الفتاة في اللحظة الأخيرة؟ وكان مضيقا القسطنطينية قد أصبحا -الآن- على أهمية كبيرة لروسيا، إذ إنها بدأت تصدّر كميات هائلة من الحبوب من مقاطعات البحر الأسود.

وكانت لدى روسيا أسباب عديدة تدفعها إلى أن تؤكّد من جديد مكانتها كقوة عظمى. فقد كانت على طريقها لأن تصبح قوة صناعية، ومع أنها كانت متأخّرة كثيرًا عن ألمانيا وإنكلترا فإن إنتاجها الصناعي كان ينمو بأسرع منهما. كما أن مشكلتها الزراعية بدأت تستقيم أخيرًا، لأن التشريعات الجديدة سرّعت

ظهور طبقة مزارعي الكولاك الجديدة المهتمة بالفعالية والربح، والتي نجحت جهودها في رفع الإنتاجية أخيرًا.

ومع ازدياد ثقة روسيا بنفسها صار حكّامها واثقين بقدرتهم على الدفاع عن مصالحها، وبأن الجيش الروسي يؤمّن لهم الوسيلة اللازمة لذلك بفضل شبكة الخطوط الحديدية المتنامية والقاعدة الصناعية المتوسّعة اللتين تدعمانه. ولكنك من ناحية أخرى كنت تجد فيها فقرًا مروّعًا مثل الذي كنت تراه في آسيا، مع أنها بالاسم دولة أوربية. كانت روسيا دولة متخلّفة بعد، وكان الدين فيها متداخلاً في شؤون الحكم والمجتمع بصورة لم يعد لها وجود في أوربا -منذ قرن كامل- صحيح أنها كانت تحوي عددًا قليلاً من الجامعات والمدارس الجيّدة وبعض العلماء والأدباء البارزين، إلا أن السواد الأعظم من شعبها كانوا فلاحين أميين. والأهم من كل هذا أن الحكم فيها ظلّ رغم ثورة عام ١٩٠٥ يعتمد في النهاية على سلطة الأوتوقراط، التي تعتبر مستمدّة من الله.

كانت ألمانيا وفرنسا متخاصمتين بسبب قضية الألزاس واللورين اللتين أخذتهما ألمانيا من فرنسا في عام ١٨٧١، وكان من المحتّم أن تتورّطا في أي صراع قد ينشأ بين النمساويين والروس، لأن فرنسا كانت حليفة لروسيا. وكان القادة العسكريون الألمان يخطّطون لتجنّب خوض الحرب على جبهتين -معًا- عن طريق هزم فرنسا أولاً، ثم نقل قواتهم إلى الجبهة الثانية، ومع أن أعداد الروس كانت أكبر من أعدادهم فقد كانت أبطأ منها حركة. وهكذا كان الألمان يخطّطون لهزيمة فرنسا في البداية في حملة سريعة -مثل حملة ١٨٧٠- عن طريق عبور دولة بلجيكا المحايدة، وكانوا يأملون أن القوى التي ضمنت حياد بلجيكا بجديّة كبيرة -منذ معاهدة عام

١٨٣٩ لن تمانعهم تلك الخطوة، أو أنها على الأقل سوف تغض الطرف- حتى يمر الأسبوع اللازم لتنفيذها- ولكن هذا الأمل كان مقامرة على أفضل تقدير.

لم تكن لدى ألمانيا أسباب للصراع مع بريطانيا، ولكن جماعات الضغط فيها المهتمة بشؤون الاستعمار وبتوسيع البحرية كانت تحاول إثارة مشاعر الألمان ضد بريطانيا تأييدًا لأهدافها، وقد سبَّب هذا قلقًا كبيرًا لدى البريطانيين من سياسة ألمانيا. وعندما ضايقت ألمانيا فرنسا حول نفوذها في المغرب بدأ بعض رجال الدولة البريطانيين يشعرون بضرورة وضع حد لذلك قبل أن ينتهي فيلهلم -غليوم- الثاني بالسيطرة على القارة الأوربية، مثلما فعل نابوليون ولويس الرابع عشر في أيامهما. فبدأت المحادثات العسكرية مع فرنسا لدراسة احتمالات التصرُّف في حال وجدت الدولتان نفسيهما في خندق واحد، وكان هذا تغيُّراً كبيرًا بالنسبة لهذين الخصمين التقليديين، وأعيد تنظيم الجيش البريطاني بحيث يمكن إرسال قوة منه إلى فرنسا. ولم يكن من الواضح في أية ظروف سوف ترسل، عدا عن أنها سوف تكون للمساعدة في حالة حدوث غزو ألماني.

كان الكثيرون من الإنكليز يسعون لإقامة علاقات طيِّبة مع ألمانيا، ولكن الألمان زادوا الأجواء تعكيرًا بجهودهم لبناء سلاح بحرية كبير. وشعر حكَّام إنكلترا أن تلك الجهود لا يمكن إلا أن يكون وراءها رغبة بمنافسة البحرية الملكية البريطانية. فدفعهم هذا الخوف إلى البدء ببعض الإصلاحات وعمليات إعادة التنظيم من أجل تقوية البحرية الملكية في مياه بلادها، ثم أطلقوا ثورة تقنيَّة عن طريق بناء سفينة حربيَّة ذات تصميم جديد كل الجدَّة. كانت تلك هي السفينة درِدنوط Dreadnought*، وكانت أقوى وأكبر وأسرع من أي سفينة كبرى في البحار،

* أي التي لا تخشى شيئًا.

وتحمل عددًا من المدافع الثقيلة أكبر بمرتين في عدّها الأساسية، فبطل بذلك عهد جميع السفن الحربية السابقة، وسرعان ما راح الجميع يبنون سفنًا من هذا الطراز الجديد -وصار النوع الأقدم يسمى ما قبل دردنوط- إلا أن ألمانيا أمعنت في تحدّيها لتفوق البحرية البريطانية، فبدأ بين الدولتين سباق لبناء سفن الدردنوط. وبعد بداية بطيئة قرّر البريطانيون أن يكسبوا السباق ولو لم يتمكّنوا من إيقافه، وسرعان ما سبقوا ألمانيا وصاروا في عام ١٩١٤ متقدّمين عليها بمسافة كبيرة. ولم تكسب ألمانيا شيئًا من برنامجها البحري، بل صرفت عليه مبالغ كبيرة من المال وسبّبت ضررًا كبيرًا لثقة البريطانيين بنواياها، كما سبّبت لنفسها عداوة الرأي العام البريطاني.

سرايفو

إلا أن وادي الدانوب ظلّ أكثر بؤر الصراع عرضة للانفجار، فقد ظلّت الحكومة النمساوية الهنغارية ترتاب بنوايا صربيا، وكانت روسيا تزداد بأسًا وخلال -سنوات قليلة- سوف تزداد جيوشها قوة بفضل إعادة تنظيمها وتجهيزها وسوف تكتمل شبكة الخطوط الحديدية الاستراتيجية فيها. فإذا أرادت فيينا تلقين الصرب درسًا فيجب أن يتمّ ذلك قبل أن يقوى الروس ويدعموهم عن طريق التهديد بالحرب. ولهذا السبب أدى اغتيال الأرشيدوق النمساوي في حزيران (يونيو) ١٩١٤ في مدينة سرايفو الصغيرة في البوسنة إلى اندلاع حرب عالمية. لقد كانت خطة الاغتيال هزيلة، وكذلك خطة حماية الأرشيدوق. كان فرانتز فرديناند قد حُذّر من خطر زيارة البوسنة لأنها تعجُّ بالسلاف الذي يمقتون الاحتلال النمساوي، وبدا كأن التاريخ المقرر للزيارة أي ٢٨ حزيران (يونيو) قد اختير عمدًا لإغاظتهم، لأنه يوم أكبر الاحتفالات الوطنية الصربية. وكانت قد جرت محاولات عديدة لاغتيال وجهاء من أسرة هابسبرغ في -السنوات الأخيرة- ومع هذا لم تُتخذ أي

احتياطات -خاصة تقريبًا- بل أرسل عدد قليل من أفراد الشرطة السريَّة من بودابست وتريستا، وكان على الشرطة المحليَّة التي لا يزيد عدد أفرادها على ١٢٠ رجلاً أن تحرس بنفسها الأرشيدوق خلال رحلته في سيارة مكشوفة عبر شوارع تمتد مسافة، أربعة أميال ٦,٥ كم تقريبًا.

في آخر صورة للأرشيدوق حيًّا تراه هو وزوجته يغادران دار البلدية ليركبا سيارتهما. في هذه اللحظة كان أحد المتآمرين يقف في مكان قريب، وقد سأل رجل شرطة أي واحدةٍ هي سيارة الأرشيدوق، فأجابه الشرطي السري، فألقى عليها المتآمر قنبلة من فوره. ولم يصب الأرشيدوق بأذى، ولكن أشخاصًا كثيرين جرحوا وكانت جراح بعضهم بليغة. إلا أن الأرشيدوق كان شجاعًا فقرَّر متابعة الرحلة ولكن مع تغيير الطريق، وانطلقت السيارات من دون أن يخبر أحد السائقين عن تغيير خطة السير. وعندما صاح الحاكم العسكري بأن سيارة الأرشيدوق تذهب في اتجاه خاطئ فرمل السائق -وهو تشيكي- فرملة شديدة وتوقفت السيارة تمامًا، وكان بين الواقفين هناك شاب اسمه غافريلو پرنسيپ، وهو أحد المتآمرين في عملية الاغتيال، فسحب مسدسه وأطلق النار عن كثب، ومات الأرشيدوق وزوجته على الفور. ثم قبض على پرنسيپ وانتهت الحادثة، وكانت أوروبا في طريقها إلى الحرب.

كان الإرهابيون قد سُلحوا من قبل جمعية صربية وطنية سريَّة، ولكن الملكية انتهزت هذا الاغتيال كفرصة رائعة لكي تلقن الحكومة الصربية درسًا، وصار بمقدورها -الآن- أن تفرض عليها إهانة تبعد السلاف عن التطلُّع إلى دعمها إلى الأبد. ووافق الألمان على أن الملكية يجب أن تتحرك، وبالقوة إذا اقتضى الأمر. وهكذا وجَّهت للصرب بعد -أربعة أسابيع- من حادثة الاغتيال تقريبًا، أي في يوم ٢٣ تموز -يوليو- إنذارًا يفرض عليهم مطالب باهظة. وقد قبلها الصرب كلها -

تقريبًا- عملاً بنصيحة الروس. ولكن النمساويين لم يكتفوا بهذا، بل أعلنوا الحرب على صربيا في ٢٨ تموز، أي بعد شهر واحد من الاغتيال.

وسارت الأحداث -الآن- نحو الكارثة بصورة تلقائية. فعندما بدأت روسيا تعبئتها لكي تضغط على الدولة النمساوية الهنغارية أعلن الألمان الحرب عليها فورًا. كما أعلنوا الحرب على فرنسا وغزوا بلجيكا مثلما كانوا يخططون -منذ زمن بعيد- وكان هذا الاعتداء على حياد بلجيكا هو الحجَّة اللازمة للحكومة البريطانية لكي توحِّد الرأي العام في البلاد، ثم تعلن الحرب على ألمانيا في الرابع من آب -أغسطس- والمفارقة الغريبة هي أن آخر قوتين كبريين أعلنتا الحرب إحداهما على الأخرى رسميًا كانتا الدولة النمساوية الهنغارية وروسيا، اللتين كانت مخاوفهما وخصوماتهما المتبادلة في أصل هذا الصراع.

ولن تجد لهذه الحرب سببًا واحدًا أو بسيطًا. فلو لم يذل النمساويون الروس في عام ١٩٠٩، ولو كان الأرشيدوق أقل شجاعة، ولو كان برنسيب جالسًا في مقهى آخر، ولو لم يبن الألمان أسطولاً... وإنك تستطيع أن تجد ألف شيء آخر لو حدث بطريقة مختلفة لكانت النتيجة مختلفة. ولكن كانت ستبقى في جميع الأحوال مشاكل عميقة لا بد من حلِّها. فماذا ستكون النتيجة الأخيرة لانهيار قوة الأتراك في البلقان؟ هل سوف تسيطر الحكومة الألمانية الإمبراطورية على أوربا؟ هل ستعود الألزاس واللورين إلى فرنسا ذات يوم؟ هل الملكية الثنائية قادرة على حكم رعاياها السلاف وإرضائهم بحكم الهابسبرغ؟ إن أية محاولة لحلِّ هذه المشاكل كانت ستؤدي، حتمًا، إلى خطر نشوب حرب شاملة.

الحرب العظمى ١٩١٤- ١٩١٨

من المفارقات الغريبة لحرب ١٩١٤ أن أعدادًا هائلة من الناس في كل بلد من بلدان العالم، ومن جميع الفئات والعقائد والأجناس، قد شاركت فيها برغبة وسعادة، ولم ير الكثيرون فيها كارثة بل فرصة. ولكن الذي تبيَّن هو أن الواقع مختلف -تمامًا- عما كان متوقَّعاً، فقد كانت الحرب أفظع وأبشع بكثير مما كان يتخيّل الذين سبّبوها، وسوف تعرف «بالحرب الكبرى» لأنها كانت أوسع بكثير من الصراعات السابقة، وأدّت إلى عمليات حربية في كافة أنحاء المعمورة. وقد استمرت أكثر من أربع سنوات، ولم يكن هذا بالأمر المألوف لأن الحروب التي جرت قبلها لم تسبّب مثل ذاك الاقتتال المستمر. وحدها الحرب الأهلية الأمريكية استبقت المجازر المديدة التي جرت بين عامي ١٩١٤- ١٩١٨، والتي راح ملايين الرجال فيها يتواجهون شهرًا بعد شهر، وعامًا بعد عام، لا تفصل بينهم إلا بضع مئات من الأمتار، وهم يحاولون إخضاع أعدائهم وإرضاخهم. كما أن الحرب البحرية كانت -منذ البداية- حربًا ضارية، وصارت أبشع حين راح كل طرف من الأطراف يحاول تجويع الطرف الآخر عن طريق الحصار. وحتى الجو أصبح أخيرًا مكانًا للقتال. لقد استخدمت الطائرات العسكرية في الحرب للمرة الأولى في عام ١٩١١ عندما هاجم الإيطاليون الإمبراطورية العثمانية في شمال أفريقيا، وكان الفرنسيون قد استخدموا المناطيد -قبل ذلك بأكثر من قرن- في حروب الثورة، إلا أن الأجواء أصبحت الآن للمرة الأولى مكانًا لمعارك تمتد بعيدًا وراء خطوط المعركة.

لقد تمكّنت الحرب بصورة لا سابق لها، فبنهايتها باتت أهمية الشاحنات مثل أهمية الخيول في تموين الجنود في ساحة المعركة. كانت السكك الحديدية قد بدّلت إمكانية حشد الجيوش -منذ القرن السابق- وأضيف إليها -الآن- النقل المعتمد على البترول. كما أن الأسلحة تحسّنت بالطبع بصورة مرعبة -إذا صح أن نسمي هذا تحسُّناً-. ففي عام ١٩١٤ كانت جميع الجيوش تمتلك البنادق التي تحشى من الخلف والرشاشات والمدافع، وقد أدّت قوتها ودقتها إلى مجازر واسعة. وكان جندي المشاة البريطاني العادي الذي ذهب إلى فرنسا في عام ١٩١٤ يحمل بين يديه بندقية يمكنها أن تصيب هدفًا بحجم الإنسان من على بعد نصف ميل (٠,٨ كم)، وكان يدعمه -مثل خصومه وحلفائه- رشاشات تطلق ٦٠٠ طلقة في الدقيقة، ومدافع تطلق ثلاث أو أربع مرات في الدقيقة بمدى قد يصل إلى حوالى ١٠,٠٠٠ ياردة -٩٠٠٠ م- ومدافع أثقل يمكنها أن تصيب أهدافًا على بعد ستة أو سبعة أميال -١٠-١١ كم- وبعض المدافع العملاقة ذات المدى الأبعد من هذا أيضًا. وكانت المجازر التي جلبتها هذه الأسلحة مجازر مستمرة لا تهدأ -فطوال أربع سنوات- كان حوالى ٥,٠٠٠ رجل يقتلون كل يوم في مكان ما، وكانت خسائر فرنسا وألمانيا من بين القوى العظمى هي الأكبر بالقياس إلى عدد سكانها، بينما كانت خسائر الأمريكان هي الأدنى -وقد دخلوا الحرب في عام ١٩١٧- لقد جرت في عام ١٩١٦ أمام قلعة ڤيردان الفرنسية معركة فظيعة استمرت خمسة أشهر خسر فيها الفرنسيون والألمان معًا أكثر من ٦٠٠,٠٠٠ إصابة من القتلى والجرحى والمفقودين، وفي اليوم الأول من معركة السوم التي جرت في العام نفسه خسر الجيش البريطاني ٢٠,٠٠٠ قتيل وحوالى ٤٠,٠٠٠ جريح -وكان في ذلك الحين مؤلفًا كله من متطوعين- وتجد على الصرح التذكاري الكبير الذي أقيم في ثيبغال

للجنود البريطانيين الذين ماتوا -خلال عام تقريبًا- في السوم أكثر من ٧٠,٠٠٠ اسم، وما هذه إلا أسماء الذين لم تكتشف جثثهم قط.

في جميع الحروب السابقة كان أكبر القتلة هو المرض، إذ كان الرجال يُحشرون معًا بأعداد كبيرة في ظروف غير ملائمة وبتجهيزات صحيَّة مؤقَّتة، وقد يكون الماء ملوثًا والطعام غير طازج، وكانت هذه كلها ظروفًا مثالية لانتشار الأوبئة من زحار -ديزنطاريا- وكوليرا وجدري وتيفوس. فقد قتلت الأمراض من الجنود البريطانيين ثلاثة أمثال العدد الذي قتله البور في حرب جنوب أفريقيا التي جرت بين عامي ١٨٩٩-١٩٠٢. أما في أيام الحرب الكبرى فقد كثرت المعلومات عن العلاج والوقاية، وكانت المجتمعات الصناعية قادرة على تموين جيوش هائلة في ساحة القتال بالطعام والألبسة المناسبة والمدد الطبية، وللمرة الأولى منذ توفر السجلات صار أكثر الضحايا العسكريين يسقطون بسبب عمليات الأعداء المباشرة.

وقد ازدادت معاناة المدنيين أيضًا مع توالي أيام الحرب، فكان الجوع والمرض يسبِّبان موت الأطفال والمسنين أولاً، لأنهم أضعف قدرة على تحملهما من الجنود الذين كانوا عادة رجالاً في ريعان العمر. وكان الحصار الذي يفرضه كل طرف يسعى -أيضًا- لتجويع المعامل وحرمانها من المعادن والمواد الكيميائية والوقود والآلات المستوردة. وكانت الحاجات العسكرية هائلة، من جزمات وبذلات وأسلاك شائكة وخشب للبناء وأدوات للحفر، وقد بلغت الحاجة لهذه الأشياء كلها مستوى لم يكن أحد يتصوَّره -قبل سنوات قليلة- أما الأسلحة والذخيرة فحدِّث ولا حرج؛ لقد كان يخصَّص لكتيبة المشاة البريطانية في عام ١٩١٤ رشاشان، وبعد -سنوات قليلة- صار لديها أكثر من خمسين رشاشًا، وأدى هذا بالطبع إلى ارتفاع

هائل في استخدام الذخيرة. وأدّت سرعة إطلاق القذائف إلى نفاد كمياتها في السنة الأولى من الحرب. وبعد ذلك حصلت عمليات القصف الهائلة، وإن عمليات القصف التي جرت قبل معركة السوم قد تمت من -خلال ألف مدفع تقريبًا- علي جبهة يبلغ طولها عشرة أميال -١٦ كم- وقد سمع دويها في هامستد هيث التي تبعد عنها حوالى ثلاثمئة ميل (٤٨٠ كم).

في عام ١٩١٨ كانت الحرب قد امتدت على نطاق العالم بأسره. وكانت «القوتان المركزيتان» -أي الدولة النمساوية-الهنغارية وألمانيا- منذ البداية ضد قوى «التحالف» -أي بريطانيا وفرنسا وروسيا- وخلال أشهر قليلة انضمت اليابان إلى قوى التحالف وانضمت تركيا إلى الجانب الآخر، ثم دخلت إيطاليا الحرب ضد الدولة النمساوية الهنغارية في عام ١٩١٥، وفي عام ١٩١٧ دخلت الولايات المتحدة الحرب إلى جانب الحلفاء. وعندما انتهت الحرب -بعد عام ونصف العام- لم يبق في أوربا إلا إسبانيا وسويسرا وهولندا والدول الاسكندينافية في حالة الحياد. حتى الصين انضمت شكليًا إلى قضية الحلفاء.

لقد أدى جمود الوضع العسكري في أوربا إلى توسُّع الحرب بسبب الأسلحة الحديثة ذات القوة الدفاعية العالية. فحتى بعد عمليات القصف المدمِّرة كان المدافعون يظلّون مسلحين برشاشات قادرة على إيقاف هجمة عن بعد بضعة آلاف من الأمتار بل بضع مئات -أحيانًا- لقد تمسَّك الألمان ببلجيكا وبجزء كبير من شمال فرنسا التي اكتسحوها -خلال الأسابيع الأولى- من الحرب، واستقرت حال الجبهة الغربيَّة في نوع من حرب الحصار كان ملايين الرجال يعيشون خلالها في الخنادق وتحت الأرض. أما على الجبهة الشرقية فإن القتال الذي لا يهدأ قد نال شيئًا فشيئًا من قوة الجيش الروسي وقوَّض الأساس السَّوقي (اللوجستي) الذي يعتمد عليه.

وفي سعيهم للخروج من هذا الطريق المسدود راح الناس يخترعون أسلحة جديدة، مثل الغاز السام والدبابة، كما راحوا يبحثون عن حلفاء ويسعون لزيادة أعدادهم، وجرَّبوا الحصار أيضًا. وعند نهاية عام ١٩١٦ كان الألمان قد فشلوا في كسب معارك الصيف التي جرت في فرنسا، وكانت روسيا واقفة على قدميها بعد، فاستنتجت القيادة العليا الألمانية أن ألمانيا سوف تخسر الحرب، وأن حصار البحرية البريطانية سوف يخنق البلاد ما لم تتحرَّك بسرعة. فقررت حصار بريطانيا بدورها باستخدام الغواصات، وراحت تغرق من دون أي إنذار كل سفينة متجهة نحو مرفأ بريطاني، سواء كانت محايدة أو معادية، مسلحة أو غير مسلحة، حاملة لمواد حربية أو غير حاملة لها. وقد سبَّب هذا التصرف أخيرًا دخول الولايات المتحدة في الحرب. فلم يعد على الحلفاء -بعد ذلك- إلا أن يكسبوا المعركة ضد الغواصات الألمانية، وصارت الكفَّة ترجح لصالحهم -بمرور الوقت- مع وضع أمريكا لجيوشها الهائلة في ساحة المعركة. وعندما انهارت روسيا بسبب الثورة في عام ١٩١٧ كانت تلك ضربة حظ أخيرة لألمانيا، التي استطاعت -عندئذ- أن تحوِّل قواتها إلى الجبهة الغربيَّة، وبواسطتها أطلق القادة الألمان في عام ١٩١٨ آخر هجماتهم الكبرى، إلا أنها منيت بالفشل. وعاد الحلفاء فردُّوا عليهم بهجمة مضادة، وفي أواخر الصيف كان الألمان وحلفاؤهم ينسحبون في كل مكان -ما عدا روسيا- وفي تشرين الأول (أكتوبر) طلبت ألمانيا وقف العمليات الحربية، فأعطيت هدنة قاسية جدًا، وفي الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨ ران الصمت أخيرًا على الجبهة الغربيَّة.

عالم ما بعد الحرب

عندما توقف القتال كان الكثيرون يظنون أن الأمور يمكن أن تعود إلى حالتها "الطبيعية"، ولكن هذا الأمر كان مستحيلاً. فقد زال عالم ١٩١٤ بلا رجعة، أقله في أوربا، وانهارت أربع إمبراطوريات في أوربا الشرقية والشرق الأدنى. كان الجيش الروسي رغم سوء تغذيته ومعداته وأسلحته قد حارب بشجاعة رائعة، بل إنه أحرز انتصارًا كبيرًا على النمساويين في عام ١٩١٦. إلا أنه في عام ١٩١٧ كان قد استنفد قواه، ولم تعد الصناعة الروسية وحدها بقادرة على تلبية حاجات جنودها. وكان أكثر هذا الجيش في بولندا، التي كانت واحدة من ساحات القتال الأساسية، وكانت الخطوط الحديدية الروسية قد انهارت في عام ١٩١٦، فكانت البلاد تدفع ثمن تأخرها في عملية التصنيع. ولم يكن الحلفاء قادرين على تزويد روسيا بالعدد والمؤن إلا من خلال مرافئها الشمالية التي تبقى مياهها متجمِّدة طوال قسم كبير من السنة، أو من ڤلاديڤوستوك التي تبعد ستة آلاف ميل (٩٦٠٠ كم) عن الجبهة الأمامية.

وابتدأت في عام ١٩١٧ «ثورة آذار (مارس)» بأحداث شغب في العاصمة سببها قلة الطعام – وكان الروس يسمونها «ثورة شباط (فبراير)» لأنهم كانوا يتبعون عندئذ تقويمًا مختلفًا– ثم تمرُّد الجنود الذين كان يفترض بهم قمع ذلك الشغب، وظهرت حكومة «مؤقّتة» أدَّت إلى تنحي القيصر عن العرش. وقد رحب حلفاء روسيا بهذا التغيُّر في البداية، لأن الحكومة الجديدة قالت إنها سوف تتابع

محاربتها للقوات المركزيَّة، وكانت حكومة ديمقراطية وبدا أنها حليف أفضل من النظام القيصري السابق. ولكن الشعب الروسي كان يريد السلام، وكان الكثيرون يريدون استغلال الثورة للإطاحة بالمظالم السابقة، فكان الفلاحون يطمعون بأراضي النبلاء، وكانت القوميات المقموعة راغبة بالاستقلال، وكان بعض العمال راغبين في القضاء على الملكية الخاصة للمصانع.

كان نفوذ الأغلبية الماركسية المتطرفة في الحزب الاشتراكي الروسي - أي البلاشفة - نفوذاً قوياً في المدن، فأزاحوا في تشرين الثاني (نوفمبر) -أي تشرين الأول - أكتوبر بحسب التقويم القديم- الحكومة المؤقتة من السلطة، ثم لزمهم عامان أو ثلاثة أعوام أخرى لكي يثبّتوا أقدامهم في مواجهة الغزو الأجنبي والحرب الأهلية ومعارضة الجماعات الثورية الأخرى إلى أن نجحوا في النهاية. وهكذا أصبحت روسيا أول دولة في العالم ذات حكومة ماركسية ومكرَّسة رسميًا لدعم قضية العمال في العالم كما يراها البلاشفة.

أما الدولة النمساوية الهنغارية فكانت بحلول أيلول (سبتمبر) ١٩١٨ قد بدأت بالتمزُّق بفعل الثورات. وبعد أسابيع قليلة أدَّت الثورة في ألمانيا بفيلهلم الثاني إلى التنحي عن السلطة. وكانت الثورات قد اندلعت قبل -ذلك بوقت طويل- في الإمبراطورية العثمانية في أراضيها العربية، وعندما انتهت الحرب لم يبق منها إلا تركيا نفسها، وسوف تنشأ من الأراضي العثمانية السابقة في الشرق الأدنى وشبه الجزيرة العربية سلسلة من الدول العربية الجديدة، فضلاً عن تركيا جديدة. أما من الأراضي السابقة لألمانيا والدولة النمساوية الهنغارية وروسيا فقد ظهرت ثلاث دول جديدة في البلطيق -هي لاتفيا وليتوانيا وإستونيا- ودولة جديدة اسمها تشيكوسلوفاكيا، وجمهورية نمساوية جديدة، وهنغاريا أصغر بكثير من السابق،

كما بعثت بولندا وولدت دولة سلافية جنوبية جديدة -سوف تسمى لاحقًا يوغسلافيا- تضم مملكتي صربيا ومونته نيغرو (الجبل الأسود) السابقتين. وقد استغرقت التفاصيل سنوات عديدة لكي تستقر، ولكن حقيقة تقسيم أوربا الشرقية إلى وحدات جديدة كانت أمرًا محسومًا -منذ- أن كانت رحى الحرب دائرة.

تسويات السلام

من بين معاهدات عام ١٩١٩ كانت أهمها هي المعاهدة التي عقدت مع ألمانيا. وكانت عملية التسوية كلها من صنع قادة القوى المنتصرة، أي بريطانيا وفرنسا وخصوصًا الولايات المتحدة. لقد نظر الأوربيون إلى الرئيس الأمريكي وُدرو وِلسون نظرة مثالية لأنه أعلن عن تأييده لمبادئ القومية والديمقراطية. ولكن الفرنسيين كانوا يريدون قبل كل شيء ضمانة ضد انتعاش قوة ألمانيا وقيامها بغزو جديد في المستقبل، وكان البريطانيون حريصين على إعادة توازن واقعي للقوى في أوربا. وكانت النتيجة سلسلة من الأعباء التي فرضت على ألمانيا عقابًا لها -كما أنها اضطرت لإعادة الألزاس واللورين وخسرت قسمًا كبيرًا من أراضيها في الشرق- ومجموعة من المحاولات المتفرقة وغير المنظمة لتسوية الحدود من أجل مراعاة مطالب الشعوب التي نشأت على أرض الواقع من الإمبراطوريتين الروسية والنمساوية الهنغارية. إلا أن الولايات المتحدة لم تصدّق في النهاية على معاهدة فرساي مع ألمانيا، كما أن روسيا لم تكن ممثلة في أي من مفاوضات السلام، وكانت هاتان الحقيقتان نذيري شؤم للمستقبل.

ليس من الغريب أن أوربا الجديدة لم ترض الجميع، بل إن بعضهم كان ينفر منها نفورًا عميقًا. ومع ذلك بدا أنها سوّت مسائل كثيرة كانت تؤرّق الناس طوال

القرن السابق، فقد صار بالإمكان التفكير على الأقل بإمكانية تحرر الشعوب المقموعة في أوربا من الحكم الأجنبي، وكان هذا هو الهم الأكبر لقوميي القرن التاسع عشر.

من المؤسف أن إرضاء بعض القوميين يؤدي دومًا إلى إغضاب بعضهم الآخر. فقد تم إحياء بولندا، ولكن الكثيرين من مواطنيها لم يكونوا بولنديين؛ وربما وافق التشيك والسلوفاك على العيش معًا في جمهوريتهم الديمقراطية الجديدة، ولكن الألمان في الأراضي التشيكية كانوا يفضلون البقاء تحت حكم الهابسبرغ. وربما رضي السلاف الجنوبيون والرومانيون بالتخلُّص من حكم المجريين، ولكن هؤلاء شعروا بالمرارة جراء فقدانهم لأراضيهم. وسرعان ما راح الكروات يتشكُّون من معاملة الصرب لهم في دولة يوغسلافيا الجديدة.

عصبة الأمم

كان من دواعي التفاؤل المحاولة التي جرت من أجل تنظيم الحياة الدولية بصورة جديدة وغير مسبوقة. فقد تمّ تأسيس «عصبة للأمم» مركزها في جنيف كخطوة أولى نحو تنظيم سلوك الدول المستقلة ذات السيادة، وتدين هذه العملية بالكثير للرئيس وُدرو ولسون الذي دفع بحماسة حلفاءه إلى تبنيها -مع أنه فشل بعد ذلك في إقناع مواطنيه بالانضمام إليها- وبدأت العصبة تتدخَّل ببعض النجاح في نزاعات بين الدول ربما كانت ستؤدي لولاها إلى الصراع المسلح، كما أنها تبنَّت المشاكل الاقتصادية ومآسي اللاجئين، الذين كان الملايين منهم يشكلون متطلبات شديدة على أوربا الوسطى والشرقية والشرق الأدنى بمواردها المحدودة والمثقلة أصلاً.

لقد كان تحطيم الإمبراطوريات وانتصار المطالب القومية المقموعة- منذ زمن طويل- وخلق عصبة الأمم هي أبرز ملامح النظام الدولي الجديد. ولم يلاحظ الناس في البداية أن مستقبل أوربا قد حدَّدته قوة خارجية للمرة الأولى -منذ- أن هدَّدها الأتراك في القرن السادس عشر. فقد انهار القادة العسكريون الألمان قبل عام مما توقَّع خصومهم لأنهم كانوا يعلمون أنهم سيخسرون الحرب متى ألقت أمريكا بثقلها الكامل في الميزان، وهكذا انقضت أيام السيطرة السياسية الأوربية على شؤون العالم، وكانت أكثر الدول الموقِّعة على معاهدة فرساي دولاً غير أوربية، وراحت الحركات القومية الجديدة تهدِّد ما بقي من الإمبراطوريات الاستعمارية. وكانت اليابان -أيضًا- قوة كبيرة منتصرة، وسوف يُسْمَعْ الكثير عن مطالبها -خلال السنوات القليلة القادمة- وأخيرًا فإن قوة أوربا الاقتصادية قد أصيب إصابات فادحة وبليغة بسبب الحرب، وعلى هذه الخلفية القاتمة سوف تواجه القارة خطرًا جديدًا وكبيرًا.

الثورة المؤسساتية

منذ -عام ١٧٨٩- كان بعض الأوربيين يأملون بحدوث الثورات الشعبية وبعضهم يخشون حدوثها، ويبدو تاريخ القرن التاسع عشر مؤيِّداً لكل من هذين الموقفين، للوهلة الأولى على الأقل؛ إذ حصلت بين عامي ١٨٢١ و١٩١٤ انتفاضات كثيرة، ودُبِّرت اغتيالات كثيرة، وقامت إضرابات كثيرة، وفجرت قنابل كثيرة، فكان ذاك العصر عصرًا عنيفًا جدًا. وكثيرًا ما كنت تجد القوى السياسية الجديدة، خاصة الاشتراكية الماركسية، تستخدم الشعارات الثورية وما يشبه الأساليب الثورية أيضًا. ولكن رغم كل هذا الهيجان لم تحصل ثورة شعبية ناجحة في أية دولة كبرى، وكانت الأنظمة تعالج انفجارات العنف والقلاقل الشعبية بثقة ومن دون صعوبة كبيرة. لقد كانت بعض الدول قد سمحت بليبرالية متزايدة في الترتيبات السياسية، فكانت هذه صمامات أمان للتعبير عن الغضب كما أنها كانت وسائل لتلبية المظالم الاجتماعية. ورغم أن بعض حكام أوربا كانوا يخشون الثورة في عام ١٩١٤، فإن استجابة شعوبهم لمتطلّبات الحرب قد بيَّنت لهم أنه لم يكن ثمة داع لذاك الخوف.

ولكن الأمور تغيَّرت بعد -عام ١٩١٨- لأن الحرب خربت السلطة التقليدية والرفاه الاقتصادي تخريبًا بشعًا وحطّمت البنى السياسية للنظام القديم. وعلاوة على هذا كله ظهرت للمرة الأولى دولة عظمى ينادي حكّامها، بنيّة صادقة أو غير صادقة، بالإطاحة بكل المجتمعات القائمة وإحلال نموذج مختلف محلّها. هذه الدولة

هي روسيا الجديدة، أي اتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفييتية (الاتحاد السوفييتي).

الاتحاد السوفييتي

إن أكثر رجلين عملا من أجل كسب السلطة للبلاشفة في روسيا هما ڤلاديمير إيليتش لينين وليون تروتسكي. قبل عام ١٩١٤ كان لينين قد علّم حزبه أن يكون نخبة ثورية صغيرة عالية التنظيم والانضباط، وأن يطهّر صفوفه بلا رحمة من كل من يحاول الاختلاف مع قرارات قيادة الحزب أو يرفض تفسيراتها لتعاليم كارل ماركس. وكانت بداية الحرب قد سبّبت لجوءه إلى الخارج، ولكنه عاد بمساعدة الألمان -الذين كانوا حريصين على القيام بأي شيء يمكن أن يسرّع انهيار روسيا- في عام ١٩١٧ بعد ثورة شباط (فبراير). ولا يدين انهيار الدولة القيصرية بشيء للبلاشفة، بل كان من عمل الجيش الألماني الذي حطّم إرادة شعب روسيا بالقتال. وما إن عاد لينين إلى روسيا حتى راح يمهّد الأرض لبناء دولة يقودها البلاشفة على أسس اشتراكية.

لقد قام لينين بحملة سياسية بارعة من أجل تقويض سلطة الحكومة الجديدة. وجاءت اللحظة المناسبة لإزاحتها من السلطة في تشرين الأول (أكتوبر)، فاحتلّ البلاشفة قصر الشتاء -مقر الحكومة- وغيره من النقاط الحساسة في العاصمة من دون سفك دماء -تقريبًا- وبفضل تكتيك تروتسكي وتخطيطه. كان مجلس السوفييت تحت سيطرتهم، وهو مكوّن من مجالس العمال والجنود التي نشأت في الصيف والتي يسود فيها المتعاطفون معهم، ومع هذا كان على البلاشفة أن يصارعوا صراعًا شديدًا خلال -الأشهر القليلة التالية- وقدّم تروتسكي -الآن- مساهمته

الثانية الهامة في الثورة عن طريق تنظيم وقيادة «الجيش الأحمر» الجديد، الذي سحق الراغبين بإعادة النظام القديم وصد البولنديين، ولو أن الألمان قد أكرهوا الاتحاد السوفييتي على عقد صلح مهين في برست- ليتوفسك. لقد كان استخدام الرعب من أجل سحق المعارضين في الداخل أو إرهابهم تقليدًا مألوفًا في روسيا بالطبع، ولم يتخلَّ حكامها الجدد عن أساليب الأوتوقراطية في ثورتهم.

لكن الأمر الأهم من هذا هو أن النظام الجديد قد أعطى الفقراء في المدن والفلاحين ما كانوا يريدونه، أي السلام والأرض. وقد قال أول قرار له إن على جميع الحكومات المتحاربة أن تناقش فورًا شروط السلام، ومن دون ضم أية أراض، ولم تستجب أي حكومة لهذا المطلب، ولكن هذا الأمر لم تكن له أهمية لأنه كان رسالة للروس مثلما هو رسالة للحكومات الأجنبية. أما القرار الثاني الذي أصدره مجلس السوفييت في اليوم التالي للاستيلاء على قصر الشتاء فقد أعلن أن الأراضي كلها ملك للشعب، وخلال -سنوات قليلة- انتقلت ملكية ٥٠٠ مليون أكر (٢٠٠ مليون هكتار) إلى الفلاحين الفقراء، وألغيت أملاك أصحاب الأراضي السابقين والكنيسة والعائلة المالكة. وهكذا صار لأكثرية هائلة من الروس حصة في النظام الجديد ومصلحة في الحفاظ عليه.

البقاء

كانت الحياة في بداية عهد الاتحاد السوفييتي حياة قاسية جدًا. كان الألمان قد انتزعوا شروط صلح وحشية، وكان الاقتتال -خلال الحرب الأهليَّة- شرسًا، فارتكبت الفظائع ودمَّر المزيد من الموارد الاقتصادية الهزيلة للبلاد. وقد حاولت بعض أجزاء الإمبراطورية القيصرية السابقة أن تنفصل عن النظام الجديد، فنجحت بعضها -فنلندا ومقاطعات البلطيق- وفشلت بعضها الآخر -أوكرانيا- وأدَّت مصادرة الطعام من الفلاحين من أجل إطعام المدن إلى المزيد من المقاومة للنظام، وبالتالي إلى قمع أشد وحشيَّة، وإن بعض الذين أيَّدوا البلاشفة في البداية قد انقلبوا ضدهم، ونشبت في عام ١٩٢١ في قاعدة كرونستات البحرية الكبيرة ثورة للملاَّحين طالبوا فيها بالانتخابات الديمقراطية وحرية الكلام والصحافة وتحرير جميع السجناء السياسيين، ولكنها قمعت بلا رحمة. وكانت تلك أيامًا عصيبة، ففي عام ١٩٢١ كانت نصف الأراضي المنتجة للحبوب في روسيا لا تنتج شيئًا، وحصلت مجاعة رهيبة اكتسحت قسمًا كبيرًا من جنوب البلاد إذ حلَّ بها الجفاف، فمات الملايين وصار الناجون يلجأون إلى أكل القش من سقوف البيوت وجلود عدة الفرس بل حتى لحوم البشر.

وقرَّر لينين ضرورة تقديم تنازلات، فمُنح المنتجون حرية أكبر في أخذ بضائعهم إلى السوق وبيعها بالأسعار المتداولة فيها، ولم يعجب هذا الأمر الشيوعيين المتشدِّدين ولكنه كان خطوة ناجحة. وراحت البلاد تستعيد عافيتها شيئًا فشيئًا، مع أن الإنتاج الصناعي والزراعي لم يرتفع إلى مستوى عام ١٩١٣ حتى عام ١٩٢٨.

وحتى في -ذلك الحين- كانت روسيا الجديدة أقل قوة بكثير مما كانت عليه في أيام القياصرة في عام ١٩١٤، وظلّت قاعدتها الاقتصادية والتقنيّة هزيلة جدًا رغم قوتها العسكرية الكبيرة من ناحية العدد. ولكن تغيُّراً هائلاً كان قد بدأ، وعادت روسيا من جديد إلى طريق التحديث الذي استهلّته على عهد القياصرة.

لقد أعطت الثورة روسيا حكّامًا كانوا متوحشين في نظر الغرب، ولكنهم كانوا واثقين ثقة عمياء بأن التاريخ إلى جانبهم وبأن القضيَّة الاشتراكية التي يشكّلون طليعتها كان من المحتّم أن تنتصر في كافة أنحاء العالم. وقُدّمت هذه العقيدة على أنها التفسير الصحيح لتعاليم كارل ماركس، فكانت أسطورة قوية تبث الشجاعة في النفوس. أما الروس غير الشيوعيين فكانوا يشعرون هم -أيضًا- أن ما يقومون به هو لمصلحة وطنهم ذي الإمكانيات الهائلة. لقد انتصرت الثورة في بلد تعاني من التخلف والفقر، ولم تكن هذه الحقيقة متّفقة مع التنبُّوات الماركسية، ولكنها قد تصبح أساس واحدة من أعظم القوى على سطح الأرض.

انحسار الثورة

كانت الثورة الروسية واستيلاء البلاشفة على السلطة حدثين هامين في تاريخ العالم. في عام ١٩١٩ تأسَّست في موسكو المنظّمة الاشتراكية الدولية الثالثة، التي سرعان ما عرفت باسم كومينترن *Comintern، وكان هدفها تنظيم الأحزاب «الشيوعية» دوليًا، وكانت هذه قد ظهرت في جميع الدول التي ألقي فيها اللوم على الأحزاب الاشتراكية السابقة لأنها أولاً فشلت في تجنُّب حرب ١٩١٤ ثم لم تشجع على الثورة بعد ذلك. وكان محك الاشتراكية الحقّة عند لينين هو الالتزام

* أي المنظمة الشيوعية الدولية.

بالكومينترن، وهكذا سرعان ما انقسم الاشتراكيون الماركسيون في كل بلد إلى معسكرين، يضم أحدهما الأحزاب المسماة عادة أحزابًا شيوعية، وهي تتطلّع إلى توجيهات موسكو كما أنها صارت من الناحية العملية أدوات السياسة السوفييتية الدولية. وكان أولئك الشيوعيون يشجبون شجبًا شديدًا ويحاربون الاشتراكيين الآخرين الذين بقوا في الأحزاب الاشتراكية السابقة، والذين كان الكثيرون منهم مخلصين مثلهم في قولهم إنهم ماركسيون. وهكذا حكم على «اليسار» الأوربي أن يبقى منقسمًا لعقود عديدة.

لقد سبَّب خطر الثورة الجديد هذا الرعب لدى البعض من غير الماركسيين، ولكنه سرعان ما خبا. فقد ظهرت حكومة بلشفية لفترة وجيزة في هنغاريا، كما قام الماركسيون بانقلابات قليلة في ألمانيا نجحت بعضها لفترات قصيرة. ولكن رغم سيطرة الاشتراكيين السياسية على حكومة الجمهورية الجديدة التي ظهرت هناك، فإنها كانت تتطّلع إلى القوى المحافظة من أجل منع الثورة، خاصة إلى الجنود المحترفين في الجيش القديم. والحقيقة أن السياسة الشيوعية جعلت توحيد المقاومة ضد النـــزعة المحافظة أمرًا أشد صعوبة، لأنها أخافت المعتدلين وأبعدت الحلفاء اليساريين المحتملين. وكثيرًا ما كان الخطر الاشتراكي في أوربا الشرقية والوسطى خطرًا قوميًا -في الوقت نفسه- ولم تنته الحرب هناك إلى أن عقدت معاهدة سلام في آذار (مارس) ١٩٢١ بين روسيا والجمهورية البولندية الجديدة وضعت حدودًا سوف تستمر -حتى عام ١٩٣٩- لقد كانت بولندا أكثر الدول عداء لروسيا بتقاليدها، وأكثرها عداء للبلاشفة بديانتها، كما أنها كانت أكبر الأمم الجديدة وأكثرها طموحًا. ولكن تلك الدول جميعًا كانت تخشى عودة روسيا إلى قوتها السابقة، وقد ساهمت هذه الرابطة في دفع الكثير منها -قبل عام ١٩٣٩- نحو حكومات دكتاتورية أو عسكرية.

مصاعب الديمقراطية

لقد غيَّرت الحرب الكبرى عالم الليبراليين والديمقراطيين مثلما غيَّرت عالم المحافظين والثوريين. فهي من ناحية أولى قد بعثت آمالاً كبيرة بظهور الدساتير الديمقراطية في بلاد كثيرة لم تعرفها من قبل قط. ولكن كانت هناك من ناحية أخرى حقائق اجتماعية واقتصادية كثيرة تثير الخوف والقلق. في عام ١٩١٨ كانت الظروف في الكثير من المدن الأوربية الكبرى ظروفًا مروّعة نتيجة للحصار. فقد تخرَّبت أجزاء كبيرة من فرنسا بفعل الاقتتال الضاري الذي لم تشهد البلاد من قبل مثيلاً له، فتحوَّلت مدن بأسرها إلى ركام ومحيت قرى عن بكرة أبيها. وكان الخراب المادي في أوربا الشرقية أقل شدة، ولكنها كانت بالأصل أقل منها نموًا، وقد توقَّفت عمليات الزراعة فيها مرة تلو المرة، ولم يكن مزارعو الحبوب في أوربا بقادرين على إطعام المدن الجائعة على كل حال ولو توفَّرت لديهم البذار واليد العاملة اللازمة، إذ لم تعد هناك بعد نهاية الحرب سكك حديدية.

كانت جميع الدول الأوربية قد بدَّدت مدخراتها وأموالها التي كان يجب أن تعود لتغذية الاستثمار، وانخفض إنتاجها خلال الحرب لأن اليد العاملة أخذت من المزارع والمصانع لتخدم في الجيوش. وقد هبط الإنتاج الصناعي لأوربا بين عامي ١٩١٣ و١٩٢٠ بمقدار الربع -تقريبًا- كانت ألمانيا أكبر قوة صناعية في أوربا قبل الحرب، ولكنها بعد معاهدة فرساي قد فرض عليها دفع «تعويضات» للحلفاء وقفت في طريق تعافيها. أما روسيا التي صارت بلشفية فلم تكن بقادرة ولا راغبة

في لعب الدور الهام الذي كانت تلعبه قبل الحرب في الاقتصاد الأوربي كمستوردة للمواد المصنَّعة ورأس المال ومصدِّرة للحبوب. وزالت الوحدة الاقتصادية التي كانت ملكية هابسبرغ تؤمِّنها لجزء كبير من وادي الدانوب، وجاءت الحدود السياسية الجديدة فقطعت ما كان بين أراضيها من روابط اقتصادية في الماضي. وقد بلغت بعض الدول الجديدة من العجز ما جعلها تخشى السماح لعربات قطاراتها بعبور الحدود خشية ألا تعود. وجاعت أوربا الشرقية خلال الشتاء الأول بعد الحرب، وعاد الجنود فلم يجدوا عملاً، وكان الأطفال والمسنون يموتون من الأمراض وسوء التغذيَّة. وفوق كل هذه المصائب بلغت واحدة من آخر الجائحات الكبرى ذروتها في عام ١٩١٩، عندما قتلت موجة من الإنفلونزا أعدادًا من الناس أكبر مما قتلته الحرب الكبرى نفسها، بين خمسة وعشرة ملايين في أوربا وحدها.

كان على الكثير من الدول «الجديدة» -ومنها ألمانيا- أن تجرِّب الديمقراطية للمرة الأولى ضمن هذه الظروف المريعة. وقد قامت اثنتان من الملكيات الدستورية القائمة، وهما بريطانيا وإيطاليا، بتوسيع جماهير الناخبين فيهما لتشمل جميع الذكور البالغين، كما أعطيت بعض النساء في بريطانيا حق التصويت في عام ١٩١٨ -ثم شملهن جميعًا في عام ١٩٢٩- وحاولت عصبة الأمم أن تساعد السياسات المتحضِّرة عن طريق تبنِّي حقوق الأقليَّات، التي ضمنتها بعض معاهدات السلام -مثل المعاهدة مع بولندا- كما أن عددًا من المسائل المعلَّقة منذ -مفاوضات فرساي للسلام- قد سوِّيت بواسطة استفتاءات عامة مباشرة للسكان القاطنين في المناطق المعنيَّة. وساهمت هذه الخطوات كلها في توسيع صورة الديمقراطية. إلا أن للقصة جانبًا آخر، فالبلاشفة قد أزاحوا الحكومة الديمقراطية في روسيا، وحلّوا الجمعية التأسيسية* الوحيدة المنتخبة

* الجمعية التأسيسية هي التي يحق لها وضع دستور.

انـــتخابًا حـــرًا في تاريخ روسيا بعد استيلائهم على السلطة بزمن قصير. وفي أوربا الشـــرقية والوســـطى قـــام المحافظون ذوو العقليَّة البالية والكارهون للجمهوريين والديمقراطـــيين والاشـــتراكيين معًا، والنادمون على زوال الإمبراطوريات القديمة، بوضـــع دكتاتوريين و«رجال أقوياء» في السلطة، وساعدهم في هذا المخاوف من الـــثورة البلشفية وتأثيراتها. وكانت الديمقراطية -أيضًا- في خطر من الذين خسروا بسببها، فالكثيرون لم تعجبهم تلك الاستفتاءات العامة التي أدَّت بهم إلى العيش تحت الحكـــم الأجـــنبي، كمـــا أن البعض في الدول المهزومة -خاصة في ألمانيا- كانوا يـــتذمَّرون مـــن أن الحلفـــاء يتحدَّثون كثيرًا عن الديمقراطية ولكنهم لا يسمحون لأعدائهم السابقين بإدارة شؤونهم من دون تدخُّل، ويعيقون اقتصاداتهم بالتعويضات التي يفرضونها عليهم.

الفاشية

استلمت السلطة في إيطاليا في العشرينيات حركة معادية للديمقراطية أعطت للسياسة تعبيرًا جديدًا هو الفاشية. وقد أيّدها وشجَّعها الإيطاليون الساعون لكسب الدعم من خلال إرهاب خصومهم والدعاية لقومهم ووحشيتهم وتبنّي الأساليب الدكتاتورية القاسية من أجل حلِّ مشاكل إيطاليا. فرغم أن إيطاليا كانت في الجانب المنتصر فقد شعر الكثيرون من أهلها بالمرارة لأنها لم تحصل على المزيد من المكاسب من خلال تسويات السلام. واستغل الفاشيون هذه المشاعر الوطنيَّة، فاتهموا حكومة إيطاليا الديمقراطية وحلفاءها الديمقراطيين بخيانة البلاد. لقد كانت خسائر إيطاليا فادحة بالقياس إلى عدد سكانها وثروتها، وكانت أضرار جسيمة قد لحقت باقتصادها، الذي لم يكن -قط- اقتصادًا قويًا، وبعد الحرب خرَّب التضخم أوضاع الناس في كافة مستويات المجتمع، وازدادت محنة الفقراء سوءًا على سوء، فارتفعت

الأسعار ارتفاعًا مذهلاً ولم يعودوا قادرين على شراء الطعام، بينما راحت البطالة تتفشَّى في المدن. وتحوَّل بعض الإيطاليين إلى الاشتراكية والشيوعية، ولكن الخوف من الثورة دفع بالكثيرين غيرهم إلى أحضان الفاشية.

في عام ١٩٢٢ صار هناك العديد من الفاشيين بين أعضاء البرلمان، وكان الفاشيون قد استخدموا العنف في مدن إيطالية كثيرة لطرد السلطات المحليَّة الشيوعية، كما حطَّموا مكاتب النقابات المهنية والصحف الاشتراكية. ولم تكن الحكومة القائمة تستطيع -أو تريد- أن تحافظ على القانون والأمن، فصار أكثر الإيطاليين في أماكن عديدة مستعدِّين على ما يبدو لترك الفاشيين يفعلون ما يريدون. وكان زعيمهم بلا منازع هو الصحفي الاشتراكي السابق بنيتو موسوليني. كان موسوليني ذا أسلوب منمَّق طنَّان يحاول أن يرهب به الآخرين، وكان داهية في أمور الخطابة والعلاقات العامة، ومع هذا يصعب أن نفهم -الآن- سبب نجاحه الكبير. فقد تمكَّن من خداع الملك وحمله على حلِّ الحكومة القائمة والسماح له بتشكيل حكومة جديدة فيها أعضاء من الأحزاب الأخرى. وما إن استلم زمام الحكم حتى راح يستخدمها لإحداث تبديلات جذرية خطوة فخطوة. وهو لم يفرض الدكتاتورية إلا بصورة تدريجية، ولكنه أبطل في عام ١٩٢٥ الدستور الليبرالي القديم العائد لعام ١٨٦١ فانتهت بذلك الحياة البرلمانية الديمقراطية. وسرعان ما راح يعتقل معارضي النظام، وقد قتل عددًا قليلاً منهم. ولم يكن نظام موسوليني بوحشية النظام البلشفي الذي كان معجبًا به، ولكنه كان سيئًا جدًا على كل حال. ورغم ادِّعاءاته بأنه يحلُّ مشاكل إيطاليا بأعماله الديناميكية والقوية فهو في الحقيقة لم يحلَّ شيئًا منها.

انحراف نحو الدكتاتورية

لم تكن روسيا السوفييتية وإيطاليا الفاشية الدولتين الوحيدتين اللتين أدارتا ظهريهما للديمقراطية بحلول عام ١٩٣٠، بل كانت كل من ليتوانيا ويوغسلافيا قد أصبحتا دكتاتوريتين أيضًا، وكانت تشيكوسلوفاكيا هي الدولة الوحيدة بين الدول «الجديدة» التي ظهرت في عام ١٩١٨ التي احتفظت بدستورها الديمقراطي بعد عشرين عامًا. بينما صارت كل من بلغاريا ورومانيا واليونان -من بين الدول التي كانت دستورية قبل عام ١٩١٤- بأيدي قادة عسكريين أو ملوك دكتاتوريين بحلول عام ١٩٣٨. أما على الطرف الآخر من أوربا فكان يحكم البرتغال -أيضًا- نظام دكتاتوري بينما كانت جمهورية إسبانيا الديمقراطية تختنق على يد قائدها فرانشسكو فرانكو. وليس من تفسير بسيط لهذا الوباء الذي حلَّ بالديمقراطية في كل مكان، فقد ساهمت كل من الصعوبات الاقتصادية والخوف من الشيوعية والقومية العنيفة في تقويضها، عدا عن الأقليات والمظالم المتعلقة بالحدود -منذ عام ١٩١٩- ولم تبق الديمقراطية حيَّة إلا في عدد قليل من الدول الغربيَّة والاسكندينافيَّة حيث كان الناس يألفون التقاليد اللازمة لعملها. أما في بعض الدول التي كان فيها تنافس قديم بين السلطتين الدينية والعلمانية فقد كان الكاثوليك يعتبرون الديمقراطية والليبرالية عدوتين للكنيسة. فليس من الغريب إذًا أن تكون الديمقراطية في أوربا قد خيَّبت الآمال العظيمة التي انتعشت أيما انتعاش في أيام الرئيس الأمريكي ولسُن وأحلامه المتفائلة.

ألمانيا ڤايمار

ومع هذا ظلَّ بعض الليبراليين متفائلين بعد -عشر سنوات من نهاية الحرب- وساعد في هذا عودة الازدهار، خاصة في ألمانيا. كانت «جمهورية ڤايمار» -التي

سميت على اسم المدينة التي وضع فيها دستورها- قد ابتدأت بعقبات كبيرة، وكان الكثيرون من الوطنيين الألمان يعتبرون الجمهورية نفسها إهانة -منذ البداية- لأنها إنما نشأت من هزيمة البلاد، كما أنها وقّعت شروط الصلح -وسوف يوجَّه اللوم إليها في ذلك دومًا- وولدت من رحم الثورة. ثم إنها واجهت صعوبات عملية جمة.

وبدأ السياسيون الاشتراكيون في الحكومة الجديدة يعطون بلادهم دستورًا ديمقراطيًا وليبراليًا، ولكن الاشتراكيين الراديكاليين تخلّوا عنهم فورًا بدلاً من التحالف معهم، وكانوا يطالبون بجمهورية ثوريَّة مبنيَّة على مجالس العمال والجنود -مثل السوفييت- وبقي الأمر معلقًا بضعة أشهر إلى أن أخمد الجيش أولئك الراديكاليين. في -ذلك الحين- كان قد ظهر الحزب الشيوعي الألماني KPD المتطلّع إلى قيادة موسكو كمنافس للحزب الديمقراطي الاجتماعي القديم SPD. فصار على جمهورية ڤايمار -الآن- أن تحارب الملكيين ذوي العقلية البالية من اليمين والشيوعيين من اليسار، بينما راح الحلفاء يزيدون الطين بلة بشروط السلام القاسية التي فرضوها عليها.

لقد ظلّت جمهورية ڤايمار مكروهة كرهًا عميقًا رغم أنها أنهت الحصار في عام ١٩١٩، وسرعان ما راح الناس يتهمون معاهدات ڤرساي بتسبيب التضخُّم الفظيع الذي عانت منه البلاد، إذ خسر المال قيمته بمعدَّل مذهل، وارتفعت الأسعار حوالى ١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ مرة بين عامي ١٩١٨ و١٩٢٣، وساهم هذا في انقلاب الطبقات الميسورة ذات المدَّخرات المالية ضد الجمهورية، كما أنها كانت تعتقد أن الجمهورية خاضعة لسيطرة الماركسيين.

ثم حدثت نقطة تحوُّل هامة في عام ١٩٢٤ عندما حصلت ألمانيا على قرض دولي كبير مهَّد الطريق لاستقرار عملتها. فتعافى الاقتصاد بصورة باهرة -خلال

السنوات القليلة التالية- وصار رجال الدولة والاقتصاديون الأجانب يرون أن ألمانيا لا يمكن لها إلا أن تلعب دورًا أساسياً في حياة أوربا، بالنظر إلى عدد سكانها الكبير ومخزونها الهائل من الخبرة والعبقرية والتنظيم والموارد الطبيعية والصناعية والمستوى العالي للثقافة فيها. ونتج عن هذا سؤال ظلّ بحاجة إلى جواب هو: إذا كانت ألمانيا تتمتّع بكل نقاط القوة هذه، فضلاً عن موقعها الاستراتيجي في قلب أوربا وتقاليدها العسكرية الفذّة وشعورها الوطني القوي، أفلن تلعب إذًا دورًا سياسيًا مهيمنًا كقوة عظمى في أوربا؟ وكانت هذه هي المشكلة الألمانية التي سيطرت على الدبلوماسية الأوربية بين عامي ١٩١٨ و١٩٣٩.

لقد جعل الازدهار الجمهورية تبدو بأمان، وانحسرت أخطار الثورة والعنف -أو بدت أنها انحسرت- وازدهرت ألمانيا على عهد جمهورية ڤايمار، فكانت مجتمعًا ديمقراطيًا حرًا يحظى بإعجاب كبير في الخارج بسبب حياته الفنية والعلمية والأدبية النشيطة. وكان دستورها يضمن للناس حقوقهم الأساسيَّة ومحكمتها العليًا تُعزِّزها، وقد أعطت الانتخابات فيها الدعم والتأييد لحكومات ائتلافية حريصة على المحافظة على الدستور. إلا أن الكثيرين من الألمان ظلّوا معادين لها، فكان الحزب الشيوعي يهاجم الحزب الديمقراطي الاجتماعي المؤيِّد لها هجومًا مريرًا، وكان الوطنيون والمحافظون ينظرون بحنين وأسى إلى أيام بسمارك العظيمة عندما كانت ألمانيا تسيطر على أوربا -أو تبدو أنها تسيطر عليها- كما أنهم صاروا يجتذبون تيارًا قوميًا جماهيريًا جديدًا يريد أن يدفن الخلافات الداخلية ضمن معتقد قَبَلي يؤمن بالروح القومية الخاصة بالشعب الألماني. صحيح أن معاهدة ڤرساي كانت تتلاشى في العشرينيات — مثل موضوع التعويضات التي كانت قد خُفِّفت - وأن معاهدة جديدة في لوكارنو بين الدول الأوربية الكبرى في عام ١٩٢٥ انضمت إليها ألمانيا

طوعًا قد وضعت حدًا للصراعات في الغرب على ما يبدو؛ إلا أن الأراضي التي خسرتها ألمانيا في الشرق ومصير الألمان في الدول الجديدة بأوربا الوسطى ظلّت مواضيع تهيّج مشاعر الغضب القوميّة.

أدولف هتلر

سوف يستغلّ هذه الأفكار واحد من الرجال القلائل الذين صاغوا بلا ريب مسيرة التاريخ الحديث وبصورة بشعة، ألا وهو أدولف هتلر. كان هتلر نمساويًا، وكانت حياته في البداية تعيسة، إلى أن وجد المتنفّس والرضا في الحرب الكبرى، وكان جنديًا كفأً وقد قلّد وسامين. وكانت الهزيمة تجربة مرة له، جعلته يكّرس بقية حياته من أجل تغيير المصير الذي كتب لألمانيا في عام ١٩١٨، فصار في عشرينيات القرن مهيّجًا قوميًا يشجب معاهدة فرساي، وقد شارك في محاولة للإطاحة بالحكومة المحليّة في بافاريا في عام ١٩٢٣ كخطوة أولى للزحف على برلين، ولكن المحاولة فشلت واعتقل لفترة من الزمن. إلا أنه استمر بالخطابة والكتابة، فكتب عندما كان في السجن كراسة سياسية غير مترابطة عنوانها «كفاحي»، وهي مزيج غريب من المفاهيم الداروينية عن الاصطفاء الطبيعي عن طريق الصراع، وعن العداء للسامية، وعن الإعجاب بإمبراطورية ألمانية من العصور الوسطى لم يكن لها وجود، وأشياء أخرى من هذا القبيل. وسرعان ما صار لهتلر جماعة صغيرة من الأتباع هي حزب العمال القومي الاشتراكي، الذي كان أعضاؤه يسمّون اختصارًا «النازيين».

لقد ساعد الازدهار الذي عرفته ألمانيا في -أواخر العشرينيات- في كبح زمام النازيين وغيرهم من الجماعات المتطرّفة، فلم يكن أمامهم إلا أن يبشّروا بأفكارهم

الغامضة والعنيفة ويتشاجروا مع خصومهم ويشجبوا معاهدة ڤرساي ويقولوا بتوحيد الألمان جميعًا في دولة قومية واحدة تضم إليها أراضي الأمة في الشرق. وكانوا ينادون بحملة واسعة ضد أعداء ألمانيا، خاصة منهم الماركسيين واليهود. وكانت لبعض أفكارهم هذه جذور عميقة في الثقافة الألمانية، وقد تبيَّن أنها ذات جاذبية كبيرة. ولكن النازيين كان لهم -أيضًا- مظهر حديث، فكانوا يتحدَّثون عن الثورة الاجتماعية وينبذون الديمقراطية الليبرالية بصورة جازمة وكاملة. و لم يأخذهم الناس على محمل الجد، و لم تكن شوكتهم قد قويت بعد في -نهاية العشرينيات- بل ظلّ الناس متفائلين بمستقبل الديمقراطية في ألمانيا.

الاقتصاد بين عامي ١٩١٩- ١٩٣٩

لقد تلقّت الصناعة في اليابان والهند دفعة هائلة أثناء الحرب، وازدهرت الدول الزراعية وراء المحيطات ومثلها الدول المصدِّرة للمواد الأولية اللازمة للصناعة، من قصدير ومطاط وخشب وخام حديد وبوكسيت ونترات. وكانت الولايات المتحدة أكثر الدول استفادة، فقد كانت بالأصل أكبر اقتصاد صناعي في عام ١٩١٤، وأصبحت -الآن- مصدّرة كبرى للبضائع المصنَّعة. وكانت بريطانيا تسيطر على البحار، فلم تستطع القوى المركزيَّة أن تستورد كميات كبيرة من المواد بسبب الحصار البحري الذي فرضته عليها، لهذا كان الحلفاء هم المستوردين الأساسيين للبضائع الصناعية والزراعية الأمريكية أثناء الحرب الكبرى، فكانت أموالهم تغذّي الفورة الاقتصادية التي عرفتها أمريكا في أثنائها.

وتغيرت -أيضًا- بنيَّة التجارة العالمية برمَّتها، فقبل عام ١٩١٤ كانت بريطانيا وألمانيا وفرنسا دولاً مصدِّرة لرأس المال، بينما كانت الولايات المتحدة مستوردة له. وعندما جاءت الحرب عكست الآية، إذ كان على الحلفاء أن يدفعوا ثمن ما يشترونه، وكان هذا ممكنًا نظريًا عن طريق تصدير بضائعهم، ولكن الحقيقة أن الأمريكان لم يكونوا بحاجة لها، كما أن الصناعة البريطانية كانت مشغولة بتلبية طلبات حكومتها. لهذا كان على الحلفاء تسديد فواتيرهم بالدولارات أو بعملة أخرى مقبولة -ويعني هذا الذهب في المحصِّلة، لأنه كان العملة الدولية في ذلك الحين- فلكي يتمكّنوا من جمع تلك الدولارات باعوا أولاً استثماراتهم في الولايات

المتحدة للأمريكيين، ثم راحوا يقترضون الأموال منهم. وهكذا لم تعد الولايات المتحدة دولة مدينة تدفع الفوائد على رؤوس الأموال التي تقترضها من الخارج، بل صارت دولة دائنة تُصدِّر رؤوس أموالها إلى الخارج. وقد أعطاها هذا الأمر بعد الحرب وزنًا جديدًا في الاقتصاد العالمي.

لقد تعرَّض الاقتصاد العالمي -بين عامي ١٩١٩ و١٩٣٩- إلى تقلُّبات واسعة جدًا. ويمكننا أن نقول بصورة عامة جدًا إن أوربا ظلَّت -حتى عام ١٩٢٤- مشغولة بإصلاح الأضرار التي سبَّبتها الحرب، ثم جاءت -حوالى خمس سنوات- من الازدهار والتفاؤل بدت فيها الأمور على ما يرام، إلى أن ابتدأت في عام ١٩٢٩ مرحلة من الانهيار انتشرت في كافة أنحاء العالم وبلغت أشدَّها في -أوائل الثلاثينيات- ولم تصطلح الأمور إلا عند نهاية العقد. من نتائج هذا الركود أن الحكومات في جميع الدول الصناعية صارت بحلول عام ١٩٣٩ تزداد تدخُّلاً في الاقتصاد، وزالت سياسة عدم التدخُّل القديمة التي كانت سائدة قبل عام ١٩١٤. ولم يكن هذا التغيُّر مخططًا له، وقد حصل بصورة تدريجية ومتباينة جدًا من دولة لأخرى، لهذا يسهل أن يغيب عن النظر رغم أهميته الكبيرة. ولكن أكثر الناس بالطبع لم يكونوا يلاحظون إلا المكاسب والأضرار التي تحصل في حياتهم الشخصية، مثل تبدُّل قيمة مدَّخراتهم بتقلُّب أسعار العملات، أو الانحدار من حياة الأمان إلى مهاوي اليأس بين ليلة وضحاها بسبب فقدانهم لوظائفهم.

كانت الأضرار الماديَّة للحرب قد أصلحت بحلول عام ١٩٢٥، وعادت المحاصيل إلى مستوياتها الطبيعية، وتجاوز الإنتاج الكلي للغذاء والمواد الأولية مستويات ما قبل الحرب، كما استقرَّت العملات بعد هجمات من التضخُّم الشديد. وعاد الرفاه الاقتصادي يلوح أخيرًا في أكثر الدول، مع أن إنتاج بريطانيا

وألمانيا وروسيا ظلّ دون مستويات عام ١٩١٣. واستمرت الأمور على ما يرام - خلال السنوات الأربع التالية- وكان عام ١٩٢٩ أفضل عام في التجارة الأوربية حتى عام ١٩٥٤- فقد ارتفع الإنتاج العالمي للبضائع المصنعة بأكثر من الربع، والتجارة العالمية بحوالى الخمس، وعادت العملات الأساسيَّة إلى الاستقرار، فصار بالإمكان مبادلتها بالذهب بأسعار ثابتة. وحتى الدول المتلكئة لحقت بالركب، فعاد الإنتاج الصناعي لبريطانيا إلى مستوى عام ١٩١٣ في عام ١٩٢٩، بينما كان إنتاج ألمانيا قد سبقه بمسافة بعيدة. أما الأسباب الأساسيَّة لهذا التطوُّر فهي تبدُّل المناخ السياسي في أوربا بفضل معاملة ألمانيا معاملة الند من جديد، وإصلاح الأضرار التي أحدثتها الحرب، وخصوصًا بفضل الازدهار الطويل في الولايات المتحدة، التي تشكِّل أكبر اقتصاد وطني في العالم.

كانت أمريكا قد سدَّدت ديونها الخارجية، وكانت فيها سوق داخلية كبيرة لبضائعها، كما أنها ساهمت في إعادة تجهيز دول أخرى. وقد حصل فيها ركود اقتصادي بسبب هبوط الطلب بعد الحرب مباشرة، خاصة في مجال الزراعة، ولكن سرعان ما بدأت أول سوق عالمية واسعة للبضائع المصنَّعة بالجملة تستجمع زخمها. فتراكمت الثروة وصار لدى الأمريكان مدَّخرات استثمروا قدرًا كبيرًا منها في أوربا، خاصة في ألمانيا. وعزَّز هذا الاستثمار التعافي الاقتصادي الذي حدث في منتصف العشرينيات. لقد اقترض الأوربيون بين عامي ١٩٢٥ و١٩٢٩ حوالى ٢,٩٠٠ مليون دولار من الأمريكان، وهذا فوق الديون المتبقِّية من أيام الحرب. وكان لهذه الديون الفضل في ازدهار أوربا، الذي امتد إلى بقية أنحاء العالم مع ازدياد شهيَّتها لمنتجات أفريقيا وأمريكا الجنوبية وآسيا والجزر الواقعة إلى الجنوب منها.

الركود الأمريكي والكساد العالمي

في عام ١٩٢٨ بدأ الازدهار الأمريكي بالاقتراب من نهايته. وراح الأمريكيون الذين أقرضوا أموالهم للدول الأوربية يسحبون قروضهم، فسبب هذا الأمر المصاعب للمقترضين، الذين صار عليهم في أفضل الحالات أن يقتصدوا في مصاريفهم ويخفّفوا من استهلاكهم من أجل تسديد ديونهم، وإن بعضهم لم يكن قادرًا على تسديدها فورًا. أما في الولايات المتحدة فبدأت الأعمال تنهار وانحسرت الثقة لأن المزيد والمزيد من الناس صاروا يريدون الحصول على أموالهم نقدًا بين أيديهم. وكان من المظاهر الكارثية لذلك انهيار سوق الأسهم في نيويورك في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٩، الذي يعرف «بانهيار وول ستريت». وقد حطّم هذا الانهيار ما بقي من الثقة في أمريكا. وفي عام ١٩٣٠ كانت الأموال الأمريكية المستثمرة في الخارج قد نضبت، وصار الأمريكان مضطرّين لتقليص مستورداتهم، فبات الكساد العالمي على الطريق.

إذا اعتبرنا مستويات الإنتاج الصناعي لعام ١٩٢٩ هي ١٠٠، فإن الإنتاج في الولايات المتحدة قد هبط بحلول عام ١٩٣٢ إلى ٥٢,٧، وفي ألمانيا إلى ٥٣,٣، وفي المملكة المتحدة إلى ٨٣,٥. وإن هذه الأرقام هي باختصار تعبير عن كارثة مروّعة. عندما قلّصت الدول المصنّعة إنتاجها خسر العمال وظائفهم، وهبط الطلب على الواردات، فلم يعد المشترون في الخارج بدورهم قادرين على شراء الصادرات المصنعة. ومع هبوط التجارة العالمية انخفضت أعمال شركات الشحن والتأمين والمصارف، ولم يعد المال متوفّراً لإقراض الراغبين بابتداء أعمال جديدة أو تحسين أعمالهم الموجودة، وهكذا تعاقبت التأثيرات السلبية الواحدة تلو الأخرى بلا نهاية. لقد هبط الدخل القومي لأغنى دولة في العالم، أي الولايات المتحدة، بمقدار ٣٨

بالمئة خلال -هذه السنوات- أي أنه لو وُزِّعَ العبء الناجم عن ذلك على جميع سكانها بالتساوي لانخفض مدخول كل إنسان في عام ١٩٣٢ إلى أقل من ثلثي قيمته قبل -ثلاث سنوات.

وقد حاولت الدول المدينة أن تخفض مستورداتها من أجل أن توفّر العملة الصعبة وتحمي أسواقها الداخلية، فانخفضت الأسعار نتيجة لذلك بسرعة أكبر وألحقت أضرارًا فادحة بمنتجي المواد الأولية في القارات الأخرى. وفوق كل هذا وقعت أزمة مالية كبيرة في أوربا عندما انهار مصرف نمساوي في عام ١٩٣١ فأدّى بذلك إلى انهيار قاعدة الذهب. وكانت المصانع في -ذلك الحين- تغلق أبوابها في كل مكان.

كانت الدوَل الصناعية أوضح الدول تضرُّرًا -وقد تجاوز عدد العاطلين عن العمل ٤٠,٠٠٠,٠٠٠ في أسوأ مراحل الأزمة- ولكن الكارثة لم تكن موزَّعة عليها بالتساوي، فروسيا التي كانت بلدًا فقيرًا كانت محميَّة بالنظر إلى نظامها السياسي والاقتصادي، إذ لم تكن قط معتمدة على التجارة العالمية. وفي أوربا كانت السويد أقل الدول تضرُّرًا، وكانت معاناة بريطانيا أقل من دول كثيرة غيرها، وقد جاءت معاناة فرنسا في وقت لاحق، بينما كانت الحصة الأثقل من نصيب ألمانيا. إلا أن أشدَّ الدول الصناعية تضرُّرًا كانت على الأرجح هي الولايات المتحدة واليابان. أما العالم غير الصناعي فقد عانى أكثر من هذا أيضًا، وأصيب المزارعون في أوربا الشرقية بخسائر جسيمة بسبب انهيار أسعار المواد الزراعية، إذ راح المنتجون يضاربون بعضهم بعضًا بأسعار ما برحت تتهاوى. وأما الفلاح في أمريكا الجنوبية وأفريقيا فقد أصابته الكارثة بأدهى أشكالها قاطبة، لأنه كان مرتبطًا عادة بمنتج واحد، مثل الحنطة أو السكر أو الكاكاو.

وظلّت الأسعار العالمية للمنتوجات الزراعية منخفضة طوال الثلاثينيات، بحيث صارت الحياة في النصف الثاني من العقد مريحة إذا كان لديك عمل وكنت تعيش في دولة صناعية، لأن كلفة المعيشة كانت منخفضة وأقل مما كانت عليه بالقيم الحقيقية في عام ١٩٢٩. وظلّت التجارة الدولية في عام ١٩٣٩ أقل من نصف مستواها في عام ١٩٢٩. ومن أسباب بطء التعافي من الركود أن الدول راحت تحاول حماية أنفسها وراء الضرائب العالية التي فرضتها على الواردات من أجل صد المنافسة الأجنبية، وكان من الطبيعي أن تلجأ إلى هذا الحل على المدى القصير، ولكنه أعاق الدول المصنّعة المعتمدة عل الصادرات. وقد ازداد تدخُّل الحكومات بصورة كبيرة جدًا بسبب تعالي مطالب الناس بأن تفعل شيئًا حيال هذا الركود. وكانت بعض أشكال هذا التدخُّل الحكومي مفيدة، فقد شجّع في الولايات المتحدة وبريطانيا -مثلاً- أنواعًا معيَّنة من الاستثمار، خاصة في مجال الأشغال العامة. كما أن تلك الأيام العصيبة قد زادت مطالبة الحكومات بتأمين الإعانات لمواطنيها، وهكذا فإن الدول التي كانت قد قطعت شوطًا بعيدًا نحو "دولة الرفاهة" -مثل الدول الاسكندينافية وبريطانيا- سارت -الآن- شوطًا أبعد. وكان العامل البريطاني العاطل عن العمل يحصّل في الثلاثينيات دخلاً حقيقيًا من حصته من الإعانات أعلى من دخل العامل الذي كان يكسب معيشته من عمله -عند بداية القرن- ولكن هذه الحقيقة لا تؤثّر كثيرًا في الصورة العامة، لأن استياء الناس من هذا النظام الاقتصادي القادر على الإتيان بمثل هذه الاضطرابات الشديدة في حياتهم قد سبَّب مطالب سياسية جديدة وعنيفة في كل مكان.

الاضطراب في آسيا

وكان العالم قد تغيَّر خارج القارة الأوربية أيضًا. فرغم أن الإمبراطوريات الاستعمارية القديمة قد استمرت -ماعدا إمبراطورية ألمانيا- فإن سلطة أوربا وراء البحار كانت في انحسار. ويصحُّ هذا الوصف بالأخص على آسيا. وكان عام ١٩١١ معلمًا هامًا في تاريخ هذه القارة، إذ تأسَّست فيه جمهورية صينية كانت خاتمة ألفي عام من الإمبراطورية فيها، كما كانت اليابان قد تحدَّثت وصارت قوة عظمى. ثم جاءت الحرب الكبرى، وانضمت كل من اليابان وجمهورية الصين الجديدة إلى الحلفاء، ولو أن اليابانيين تصرَّفوا بحذر فتجنَّبوا إرسال جيش إلى فرنسا طلبه منهم الحلفاء، ولم يرسل الصينيون إلا قوة عاملة. إلا أن البضائع المصنعة لهذين البلدين كانت هامة، وقد ازدهرت الصناعة في اليابان وفي الضواحي الصناعية الجديدة حول المدن الساحلية الكبيرة في الصين. والهند أيضًا كانت ذات أهمية اقتصادية كبيرة جدًا في الحرب، وقد حشد زعماؤها قومها بولاء خلف المجهود الحربي للإمبراطورية ومنهم عدد كبير من الزعماء الوطنيين الذين كانت بريطانيا قد بدأت بتقديم التنازلات لهم قبل عام ١٩١٤- وقد تمكَّن جيش الهند من حشد ملايين الرجال من دون الحاجة للتجنيد الإلزامي.

لقد حركت الحرب الأمور من نواح أخرى أيضًا، فقد تعلم بعض الآسيويين أفكارًا جديدة من خلال أسفارهم أثناء الحرب، إذ خدم حوالى مئة ألف رجل من الهند الصينية في الجيش الفرنسي بفرنسا، ولا بد أن يكونوا قد رأوا وجهًا

للإمبراطورية الفرنسية مختلفًا جدًا عن وجهها في سايغون أو هانوي. وكان الوطنيون في الهند والصين واليابان يتمنَّون أن يأتي السلام بالمزيد من التقدُّم -ولو من أنواع مختلفة- والحقيقة أن هذه الدول الثلاث كانت بالفعل ممثلة بصورة منفصلة في مؤتمر السلام. ولكن قبل أن ينعقد هذا المؤتمر بزمن طويل كانت الثورة البلشفية قد غيَّرت بصورة مباشرة مصير الملايين من الآسيويين وجزء كبير من القارة، ولا ننس أن القسم الآسيوي من روسيا أكبر من الهند بحوالي -أربع مرات- ويساوي حجم الصين مرتين -تقريبًا- كما أن الثورة سوف يكون لها تأثير أكبر في آسيا بطريقة غير مباشرة، لأن الروس راحوا على الفور يبنون لأنفسهم فيها نفوذًا سياسيًّا عن طريق الدعاوة، وظهرت الأحزاب الشيوعية الآسيوية في الأراضي المستعمرة من قبل القوى الأخرى وفي الدول المستقلة أيضًا. وتعمَّق شك القوى الاستعمارية بروسيا، خاصة في بريطانيا، التي لم تطمئنَّ يومًا إلى الهند ولا إلى العالم العربي.

الثورة في الصين

سوف تجد الشيوعية أرضًا خصبة تستغلها في الصين. فبعد أن ابتدأت الجمهورية الجديدة بدايتها العنيفة أدَّت الحرب الأهلية إلى الانقسام والفوضى، ولم يتم شيء لتلبية الحاجات الاجتماعية والاقتصادية الملحة لجماهير الفلاحين المتزايدة في البلاد، فظلَّت أعداد الذين لا أرض لهم والمدينين ترتفع باطراد، وازداد معها الفقر والجوع والبؤس. وقد استغلَّ اليابانيون ضعف الصين ليطالبوا الجمهورية الجديدة بالأراضي وغيرها من المطالب. ولكن في عام ١٩١٩ حدثت أول حركة جماهيرية واسعة لتأييد استقلال الصين عن التدخُّل الخارجي - وسميت «حركة الرابع من أيار (مايو)» على اسم اليوم الذي ابتدأت فيه - وقد

أدَّت إلى مقاطعة البضائع اليابانية، وإلى شجب واستنكار عنيفين للطريقة التي عوملت بها الصين في معاهدات السلام، التي منحت أراضي ألمانية سابقة في إقليم شان تونغ لليابان.

كان قادة الصين منقسمين، فكان بعضهم يتطلّع إلى الماركسية وإلى موسكو للإلهام والمساعدة، وقد تأسَّس حزب شيوعي صيني في عام ١٩٢١. إلا أن مهاجمة "الرأسمالية" أثارت المصاعب، لأن الكثيرين من الرأسماليين وأصحاب الأراضي في الصين كانوا يؤيدون حزب كوميتانغ الوطني الساعي نحو الإصلاح والتحديث. أثناء حياة الرئيس الأول للجمهورية سون ياتسن كان الحزبان الشيوعي والكوميتانغ يتعاونان كل منهما مع الآخر، وقد تمكّنا من كسب المزيد من التنازلات من الأجانب، خاصة من البريطانيين، وكان الروس يراقبون هذه التطوُّرات باستحسان. ولكن بعد موته في عام ١٩٢٥ قرَّر حزب الكوميتانغ أن يقضي على خطر خصومه، وقد تمَّ القضاء على الشيوعيين في المدن بعد مجازر كبيرة، إلا أنهم ظلّوا متحصنين في الريف حيث كانوا يحظون بدعم الفلاحين، ونظموا في عام ١٩٣٠ في مقاطعة كيانغ سي الجنوبية جيشًا وقالوا إنهم يحكمون خمسين مليون إنسان. فقرَّر حزب الكوميتانغ تدمير معقلهم هذا، وأكرهت هجماته في عام ١٩٣٤ الجيش الشيوعي على أن يبدأ في تشرين الأول (أكتوبر) «مسيرًا طويلاً» من أجل الحفاظ على نفسه. فانطلق حوالى ١٠٠,٠٠٠ جندي بينهم كثيرون مع عائلاتهم من إقليم كيانغ سي عبر الأرياف الجبلية. وانضمت إليهم وحدات شيوعية أخرى متفرِّقة. فوصلوا في عام ١٩٣٦ إلى إقليم شن سي في الشمال، وهي منطقة يتعذّر حصارها، وكان فلاحوها خاضعين لقمع وحشي وأكثر استعدادًا حتى من الجنوب لدعم الشيوعيين. لذلك لم يكسب حزب الكوميتانغ الحرب الأهلية، مع أنه طرد

الشيوعيين من الجنوب، لأن جيشهم قد نجا ولو تقلّص حجمه تقلُّصًا رهيبًا بنهاية المسير الطويل، ومن هنا أتت الملحمة الشهيرة للثورة الصينية.

لقد شعر اليابانيون -أيضًا- بالظلم من نتائج السلام، فرغم أنهم كسبوا من خلاله أراضي كثيرة فهم لم يحصلوا على إعلان مؤيد للمساواة العرقية في ميثاق عصبة الأمم كما كانوا يأملون، وشعروا أنهم عوملوا معاملة دونية. وكانت انتصارات اليابان على روسيا في حرب ١٩٠٤-١٩٠٥ وقوتها أيضًا مصادر وحي وإلهام لقادتها -وكانت تمتلك ثالث أكبر سلاح بحرية في العالم في عام ١٩١٨- وكانت في عام ١٩٢٩ قد أحرزت خلال -عشرين سنة- ارتفاعًا في إنتاج الفولاذ بمقدار عشرة أمثال، وفي إنتاج الأقمشة بمقدار ثلاثة أمثال، وفي إنتاج الفحم بمقدار مثلين. ولكنها كانت -أيضًا- بحاجة ماسة للأسواق الخارجية من أجل إطعام سكّانها الذين ارتفع عددهم من خمسة وأربعين إلى ستين مليونًا منذ -عام ١٩٠٠- وكانت هذه الأسواق في آسيا بشكل أساسي وقد انهارت أثناء الكساد العالمي. ففي عام ١٩٣١ كانت نصف مصانع اليابان متوقفة عن العمل وكان الملايين معدمين، ورأى بعض المتطرفين أن القوى العظمى الأخرى كانت في حال من التشوش والفوضى، وأنها لن تقدر على مقاومة اليابان إذا قامت بجهود حثيثة لتضمن أسواقها في الصين. ولكن إذا أرادت اليابان أن تكون القوة المهيمنة في آسيا، فيجب عليها أن تتحرك بسرعة، وقبل أن يتمكّن حزب الكوميتانغ من إعادة بناء استقلال الصين.

في عام ١٩٣١ كانت الحكومة الصينية على وشك إعادة تثبيت مطالبها القديمة في منشوريا، حيث كان لليابانيين استثمارات كبيرة -منذ أن انسحب منها الروس في عام ١٩٠٥- ونظّم المسؤولون اليابانيون المحليُّون اصطدامًا مع الجنود الصينيين اتخذوه ذريعة لاحتلال المقاطعة بأسرها. ونشأت دولة جديدة هي دولة

منشوكو التي كانت ألعوبة بيد اليابانيين. ثم حدث المزيد من الاقتتال، وفي عام ١٩٣٣ عبرت القوات اليابانية سور الصين واحتلّت للمرة الأولى جزءًا من أرض الصين التاريخية. ثم عاودوا الهجوم في عام ١٩٣٧ وبدأ بذلك ما سموه «حادثة الصين» وثماني سنوات من الصراع، وكانت هذه من إحدى النواحي بداية الحرب العالمية الثانية. أما القوى الغربيَّة فكانت مشغولة بأمور أخرى ولم تكن قادرة على التدخُّل. وفي عام ١٩٤١ كانت الصين معزولة عن العالم الخارجي، ولكن ذلك الهجوم عليها قد جعل حزبَ الكومينتانغ والحزب الشيوعي ينضمان معًا في تحالف حديد ضد اليابانيين.

وهكذا كسبت اليابان سباقها مع الصين في سبيل التحديث والسيطرة في شرق آسيا. إلا أن جهودها لكسب الحرب كانت تتطلّب المزيد والمزيد من الموارد الاقتصادية، وقد اقتضى هذا على المدى البعيد أن توسِّع صراعها إذا هي أرادت أن تضمن النفط والثروات المعدنية التي تحتاجها.

الثورة في الاتحاد السوفييتي

لقد لعبت الظروف دورًا في تشكيل الإمبراطورية الروسية الجديدة لا يقل أهمية عن دور الماركسية نفسها. ولم يكن بإمكان حكّامها أن يمحوا الماضي كله ويبدؤوا من جديد، بل كان عليهم أن يبدؤوا من أنقاض أكثر الدول الأوربيّة تخلُّفًا، إذ كانت روسيا بلدًا أميًّا أكثر سكانها من الفلاحين، وكانت همجية من نواح كثيرة، وكان عليهم أن يحكموا شعوبًا من أصول ولغات كثيرة ومختلفة قد ترغب بالانفصال. وكان الرعايا السابقون للقيصر معتادين على وحشية الحكم وعلى مضايقة الشرطة، ولم يكن حكّامهم الجدد قد أحكموا قبضتهم على البلاد بعد، فاستمروا على هذا الأسلوب نفسه. كان البلاشفة يؤمنون أن التاريخ إلى جانبهم ويبرِّر استخدامهم القوة لسحق المعارضة نحو الحزب، الذي كانوا يعتبرونه طليعة البروليتاريا، لذلك لم يظهروا الاحترام للحكم الديمقراطي أو الحقوق الشخصية إلا عندما كان التكتيك يتطلّب ذلك. كما أن المجاعة والحرب الأهلية جعلتهم أكثر وحشيَّة. وسرعان ما وضعوا شرطتهم السريَّة محل الشرطة السريَّة القديمة. وبحلول عام ١٩٢٢ كان الفوضويون وغيرهم من السياسيين اليساريين يسجنون، وكان الحزب الشيوعي قد طهَّر نفسه من خُمْس أعضائه -تقريبًا- صحيح أن التنازلات التي قدَّمها لينين قد سبَّبت ارتياحًا في الحياة السياسية والاقتصادية، إلا أن هذا الأمر لم يستمر طويلاً، بل جاء بعده إرهاب ومركزية اقتصادية لا سابق لهما، فكانت تلك ثورة حقيقية بدَّلت روسيا بأكثر مما بدَّلتها ثورة ١٩١٧.

ستالين

لقد هيمن لينين على السنوات الأولى من عمر الاتحاد السوفييتي، وكان خطيبًا ومناظرًا قويًا، وحتى الذين يخالفونه في سياساته كانوا معجبين بإخلاصه للحزب. ولكنه أصبح -منذ عام ١٩٢١- مريضًا في أكثر الأحيان، وتنامت المنافسات والصعوبات الشخصية بين زملائه. وعندما مات في عام ١٩٢٤ حصل صراع معقَّد داخل الحزب بزغ منه قائد جديد سوف تصبح سلطته أكبر بكثير مما كانت عليه سلطة لينين في أي يوم من الأيام. هذا القائد هو جوزف ستالين، وهو أهم شخصيَّة في تاريخ روسيا -منذ بطرس الأكبر- وللسبب نفسه أيضًا، وهو أن كليهما قد غيَّرا التاريخ، وكانا كلاهما متوحشين لا يعرفان الرحمة، على طريقة الأوتوقراط الكبار. كان ستالين من جورجيا، وكان البعض يرون فيه مستبدًا من النمط الشرقي، وكان أبرع في المناورات من زميله تروتسكي، الذي كان لامعًا ولكنه معتدٌّ بنفسه، فأرسله ستالين إلى المنفى بعد أن كان تروتسكي الشخصية الوحيدة القادرة على خلعه. إلا أن ستالين قد أخذ عن تروتسكي السياسة التي كان ينصح بها، وهي تحويل روسيا إلى دولة صناعية بأسرع ما يمكن.

ويمكننا اعتبار -بداية هذه الثورة في عام ١٩٢٨- عندما أطلقت أولى «خطتي الخمس السنوات» الاقتصاديتين. كانت تعاليم الماركسية الرسمية تقول دومًا إن الاقتصاد هو الذي يحدِّد شكل السياسة والحكم، أما ثورة ستالين التي تمت باسم الماركسية وخلَّف واجهة من النظريات الماركسية فقد كانت دليلاً على عكس هذه الفكرة تمامًا، أي أنك إذا أحكمت قبضتك على الحكم والشرطة والجيش أمكنك تغيير الاقتصاد بالقوة. ولقد دفعت روسيا ثمنًا باهظًا من المعاناة والجرائم الكبيرة حتى أصبحت في عام ١٩٤١ قوية وقادرة على مواجهة محنة الحرب من جديد.

في عام ١٩٢٨ عاد الإنتاج الصناعي والزراعي إلى مستويات ما قبل الحرب تقريبًا. وكانت «السياسة الاقتصادية الجديدة» التي تبنَّاها لينين قد أدَّت إلى نمو في عدد الشركات الخاصة وإلى ازدهار الفلاحين أصحاب المزارع أيضًا، الذين حصلوا أخيرًا على أسعار جيدة لحبوبهم. ولكن -خلال عشر سنوات- أي في عام ١٩٣٧، كانت الأعمال الخاصة قد قضي عليها، وقيل إن ارتفاعًا مذهلاً في الإنتاج الصناعي قد حدث، فارتفع إنتاج الحديد الخام أربعة أمثال -خلال عشر سنوات- وارتفع إنتاج الكهرباء سبعة أمثال. كما كان استثمار رأس المال عاليًا، وكان ٨٠% من الإنتاج الصناعي الروسي يأتي من مصانع بنيت -خلال السنوات العشر السابقة.

ولكن الشعب دفع الثمن غاليًا، فقد كبح النظام الاستهلاك كما هبطت الأجور الحقيقية لكي تتمكَّن الدولة من توفير المزيد من المال للاستثمار. ولم يتوزَّع هبوط مستويات المعيشة بالتساوي، بل إنه أصاب الفلاحين بدرجة أشد. ومن أجل إكراههم على التخلِّي عن الحبوب -التي كانوا سيأكلونها أو يمتنعون عن بيعها من أجل الحصول على أسعار أعلى- اشترى ستالين الأرض في المناطق الأساسية التي تزرع فيها الحبوب وحولها إلى مزارع "جماعية"، فنشبت مقاومة ضارية لهذه الإجراءات، وكان الحزب دومًا ضعيفًا في الريف وقد تمَّ سحق المعارضة عن طريق الشرطة السريَّة والجيش. وقتل الملايين من الفلاحين الفقراء وصغار الملاكين الأحسن حالاً أيضًا (الكولاك) في هذه الحرب التي كانت حربًا أهليَّة ثانية، وأخذت الحبوب لإطعام العمال في المدن الصناعية. وقد جاءت أسوأ الأزمات في عام ١٩٣٣، عندما حلَّت المجاعة بعد المجازر وعمليات التهجير الجماعية. وإن الأرقام الرسميَّة نفسها كانت تعترف بأن محصول الحبوب السنوي بقي -حتى عام ١٩٣٥- أقل منه في عام ١٩٢٨. وراح الفلاحون الغاضبون يذبحون حيواناتهم كيلا يضطروا

للتخلي عنها، فانخفض عدد رؤوس البقر من ٧٠ مليونًا في عام ١٩٢٨ إلى ٤٥ مليونًا في عام ١٩٣٥. واختفت -خلال سبع سنوات- خمسة ملايين عائلة في الشطر الأوربي من روسيا. وقد قال ستالين -فيما بعد- إن إدارة الأمور عن طريق الملكية الجماعية كانت امتحانًا لا يقل قسوة عن الحرب العالمية الثانية. إلا أن روسيا كانت قد أصبحت في -ذلك الحين- قوة صناعيَّة كبرى، وكان هذا هو هدف العملية برمَّتها.

إن الصمت الذي كان سائدًا حيال الحقائق الجارية، فضلاً عن الدعاية السياسية التي لا تهدأ، يساعدان في تفسير غياب المعارضة بين جماهير المدن لأعمال ستالين الوحشية في الأرياف. لقد كانت ثمة شكوك لدى زعماء الحزب، ولكن ستالين ما برح يحكم قبضته على الأمور. وجرت سلسلة كبيرة من عمليات التطهير والمحاكمة بين عامي ١٩٣٤ و١٩٣٨، وراح العالم ينظر مذهولاً وهو يرى البلاشفة السابقين يعترفون أمام المحاكم بجرائم غير معقولة، ثم يطلَق عليهم النار أو يختفون في السجون ومعسكرات الأشغال الشاقة التابعة للشرطة السريَّة. ولم تكن محاكمات الأشخاص المعروفين إلا غيضًا من فيض، فقد اختفى مئات الألوف من الموظفين المدنيين ومسؤولي الحزب، وأزيح نصف ضباط الجيش وأعدم تسعة أعشار قادته. وفي عام ١٩٣٩ كان أكثر من نصف المندوبين الذين حضروا مؤتمر الحزب لعام ١٩٣٤ قد اعتقلوا.

وهكذا أصبحت روسيـــا بين أيدي رجال ستالين، وفي عام ١٩٣٩ كان ٧٠٪ من أعضاء الحزب منضمين إليه -منذ عام ١٩٢٩- ونشأ جيل جديد يعتبر نظام ستالين أمرًا طبيعيًا ويعجب به. ولم يكونوا يتعلَّمون شيئًا عن الماضي إلا من خلال الرواية الرسمية للتاريخ، كما أن المكاسب الهائلة والواضحة التي أحرزها الاتحاد السوفييتي -منذ عام ١٩١٧- قد طرحت الشكوك جانبًا. كان الاتحاد

السوفييتي يغطي أكثر من سدس مساحة العالم، وقد استطاع على امتداد هذه الرقعة الشاسعة أن يخفّض الأميَّة تخفيضًا هائلاً، وأن يضع أسس شبكة من خدمات الرفاهة ويستغلّ الموارد الجديدة من الذكاء والموهبة والمهارة، وحرَّر المرأة وخلق نظامًا تعليميًا وعلميًا هائلاً يمدُّه بالتقنيين والمدرِّسين الذين يحتاجهم المجتمع الجديد. كما أنه بنى قوات مسلحة هائلة لحماية هذه المكاسب، وبعد أن كان الدفاع يستهلك أكثر بقليل من ٣% من ميزانية روسيا في عام ١٩٣٣ صار يستهلك ٣٢,٦% منها في عام ١٩٤٠.

هل كان بالإمكان يا ترى إحراز هذه المكاسب بوسائل أخرى، من دون هذه الوحشية وبمعاناة أقل؟ إن هذا السؤال مازال بلا جواب. لقد أعاد ستالين روسيا إلى طريق التحديث الذي استهله بطرس الأكبر، ولكنها ربما كانت ستصل إليه قبل ذلك لولا الحرب الكبرى، إذ إن اقتصادات السوق قد غيَّرت الدول الأخرى بنفس هذه الدرجة من الحدَّة -خلال القرنين السابقين- وكان من المحتَّم على روسيا أن تصبح قوة عالمية -عاجلاً أم آجلاً- بالنظر إلى مواردها الضخمة، ولن نعرف أبدًا ما إذا كان الإرهاب والاقتصاد الموجَّه ضروريين لذلك.

البديل الأمريكي

في عام ١٩١٨ كانت الولايات المتحدة أغنى الدول المنتصرة في الحرب وأقواها. وبعد -أربع عشرة سنة فقط- كان ربع قومًا العاملة عاطلاً عن العمل، وكان إنتاجها الصناعي قد هبط إلى النصف -تقريبًا- وصار البعض يعتقدون أن أمريكا باتت على طريق الثورة. إن فورة الازدهار التي عرفتها بعد الحرب فضلاً عن عزلتها قد جعلتاها غير مهيَّأة لأزمة كهذه. كانت الإدارات الجمهورية في العشرينيات تحكم البلاد من غير أن يؤرِّقها شيء إلا موضوع حظر المسكرات، وهي مشكلة نشأت من تعديل دستوري يمنع صنع المشروبات الكحولية وبيعها. وكانت له تأثيرات حادة الكثير منها مؤسفة، فقد شجَّع الجريمة المنظَّمة على دخول ميدان صنع المسكرات وبيعها بصورة غير شرعيَّة، وكانت تلك ضربة للحياة المدنية وللأخلاق العامة يعتقد البعض أن تأثيراتها لم تمح قط. ومن نتائجه الهامة -أيضًا- أنه قسَّم الحزب الديمقراطي فضمن للجمهوريين عهدًا طويلاً من التفوُّق عليهم.

في عام ١٩٢٨ استلم الرئاسة ثالث رئيس جمهوري جديد على التوالي، بينما كان الازدهار الاقتصادي يبدي علامات الوهن. وفي تشرين الأول (أكتوبر) من العام التالي حصل انهيار وول ستريت فاجتث جذور الثقة التي كانت عماد الاستثمار طوال عقد كامل. وفجأة تقلَّصت الدخول وانهارت الخدمات وتجارة المفرق، وحُبست الرهون العقارية فحُرم الراهنون من حق استرجاع العقارات المرهونة، وكثرت الإفلاسات ولم تعد المصارف قادرة على جمع الديون فأغلقت

أبوابها تاركة المودعين في حالة الإفلاس. وهكذا بدأ الكساد الكبير، ودفع الحزب الجمهوري الثمن في الانتخابات الرئاسية لعام ١٩٣٢.

العَقْد الجديد* The New Deal

كان الرئيس الجديد فرانكلِن روزفلت أول رئيس ديمقراطي منذ وِلسُن، وربما كان هو الذي أنقذ الديمقراطية في الولايات المتحدة. كان روزفلت سياسيًا بارعًا، وقد حظي بدعم واسع -وكسب ٤٢ ولاية من أصل ٤٨- لقد خلق ائتلافًا انتخابيًا جديدًا وحافظ على لَمِّ شمله، وكان مؤلّفًا من أكثر الناس معاناة من الكساد، أي المزارعين، والكاثوليك المتحدِّرين من أصول مهاجرة في الساحل الشرقي، والعمال الصناعيين ونقاباتهم، والسود، والطبقة الوسطى من البيض الليبراليين؛ وسوف يمنح هذا الائتلاف حزبه الغلبة في واشنطن حتى -عام ١٩٥٢- إلا أن أعظم انتصارات روزفلت كانت انتصارات نفسية، لأن الملايين من الأمريكان كانوا يؤمنون أنه يهتم لأحوالهم وأن لديه الإرادة اللازمة لمعالجة مشاكل البلاد. وقد قال لهم في خطاب توليته منصبه: "إن الشيء الوحيد الذي علينا أن نخافه إنما هو الخوف نفسه"، فتدفّقت على البيت الأبيض خلال -أسبوع واحد- نصف مليون رسالة شكر على رسالة الأمل هذه. كان الكونغرس مقتنعًا بإصدار تشريعات لمعالجة أكثر المشاكل إلحاحًا -وقد أنهى قانون حظر المسكرات أيضًا- فكان هذا أساس البرنامج الجديد الذي بدّل تاريخ أمريكا. صحيح أنه لم يكن شاملاً بالقدر الذي كان منتقدوه يخشون ومؤيدوه يتمنون، إلا أنه رفع الإعانات

* التسمية الإنكليزية مستوحاة من الجدة وتساوي الفرص عند إعادة توزيع أوراق اللعب deal — قاموس ميريام- وبستر (المترجم).

التي تقدّمها الدولة إلى مستوى جديد وأصلح النظام المصرفي وأنقذ الزراعة وأغدق الأموال الفدرالية على الولايات والمناطق الفقيرة. ورغم أنه لم يقدر على تخفيض البطالة عن ١٠٪ -حتى عام ١٩٤١- فقد بيَّن أن الديمقراطية الأمريكية قادرة على الاستجابة الفعَّالة في حالات الطوارئ. وكانت تلك دفعة قويَّة للديمقراطية لا في الولايات المتحدة وحدها بل في الخارج أيضًا. كما أنه قد حمى النظام الدستوري الأمريكي من أخطار أكبر قادمة كانت تلوح في الأفق، منذ عام ١٩٣٩.

الثورة في ألمانيا

في عام ١٩٣٣ استلمت الحركة النازية التي كانت صغيرة في الماضي زمام الأمور في ألمانيا، وكان هذا أهم تغيُّر سياسي في أوربا -منذ عام ١٩١٨- وفي عام ١٩٢٩ بينما أخذت الأجواء الاقتصادية تضطرب، باتت جمهورية ڤايمار في مهب الريح، وسرعان ما تحوَّلت العاصفة إلى إعصار بلغ أشدَّه -في عام ١٩٣٢- عندما وصل عدد العاطلين عن العمل في ألمانيا إلى ستة ملايين شخص، وصار الناس يخشون حدوث تضخُّم مثل الذي قضى على مدَّخَراتهم قبل -عشر سنوات- وقد حصد هتلر والنازيون الفوائد السياسية لتلك التطوُّرات. كانوا يجتذبون الألمان الكثيرين الراغبين باتخاذ إجراءات صارمة وبالوحدة الوطنية، واستغلوا نفاد صبر الناس بالسياسيين البرلمانيين الذين عجزوا عن منع الكارثة الاقتصادية، والرغبة بإيجاد أكباش فداء، والحقد على تسوية ڤرساي التي كان الكثيرون من الألمان يعتقدون أنها أساس مشاكلهم وأنها -أيضًا- غاشمة بحقهم. ومع تفاقم الأزمة ازدادت أعداد «قوات العاصفة» ازديادًا سريعًا، وهي تنظيمات شبه عسكرية للحركة النازية شُكِّلت بالأصل من أجل حماية اجتماعاتهم، ولكنها تحوَّلت إلى عصابات من قطاع الطرق الذين يتشاجرون في الشوارع مع أندادهم من الشيوعيين، وسرعان ما راحوا يرهبون خصومهم السياسيين -مثلما فعل الفاشيون الإيطاليون في البداية- واليهود أيضًا من دون أن تتدخَّل الشرطة. في عام ١٩٣٠ كسب النازيون ١٠٧ مقاعد في البرلمان - أي أقل بقليل من خمس العدد الكامل - فتحوَّلوا بذلك إلى قوة سياسية

كبرى. وفي تموز (يوليو) ١٩٣٢ أصبحوا في الانتخابات الجديدة أكبر حزب في البرلمان، فقرَّر رئيس الجمهورية المارشال هندنبرغ ضرورة منح زعيمهم الفرصة لكي يبيِّن ما إذا كان قادرًا على معالجة مشاكل البلاد. فطلب من هتلر أن يصبح مستشارًا، أي رئيسًا للحكومة. وفي ٣٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٣٣ استلم هتلر منصبه وطلب عقد انتخابات جديدة - وكان هذا من حقه — كما وعد بائتلاف مكوَّن من الجماعات المحافظة. وقد كتب لودندورف أعظم العسكريين الألمان في الحرب العالمية الأولى إلى هندنبرغ يدين عمله هذا ويتنبَّأ للبلاد بكارثة وطنية.

الثورة النازية

كان عمل هندنبرغ عملاً شرعيًا تمامًا، واستمر استلام النازيين للسلطة بأساليب دستورية. لقد حذَّرت صحيفة حزبهم ألمانيا من أنهم إذا حصلوا على ما يريدون فإن الانتخابات القادمة سوف تكون آخر انتخابات في البلاد، وما برحوا يعملون لكسبها. ولما كانوا هم الحكومة فقد كانوا يسيطرون على الإذاعة ويستخدمونها لدفع حملتهم. وكانت الشرطة تغضُّ الطرف عن الأعمال التي يقومون بها من إرهاب لخصومهم وضربهم جسديًا. وراح هتلر يتنقَّل بين أنحاء ألمانيا في طيارة كأسلوب جديد من الدعاية السياسية التي مكَّنته من الاستفادة القصوى من شخصيته الخلاَّبة. ولكن رغم أن سبعة عشر مليون شخص صوتوا للنازيين - أي حوالى ٤٤ بالمئة من أصوات الناخبين — فإنهم لم يحصلوا على أكثرية من المقاعد أو الأصوات. إلا أن هتلر طلب من البرلمان، حيث كانت له تحالفات متينة مع جماعات أخرى، سلطات استثنائية للحكم بقرار، وقد حصل عليها في آذار (مارس) ١٩٣٣. واستطاع النازيون -عندئذ- بدء ثورتهم مسلحين بهذه السلطات.

وسرعان ما أزاحوا حلفاءهم المؤقّتين من الحكومة، وكانوا قد سجنوا النواب الشيوعيين وحلّوا الحزبين الشيوعي والديمقراطي الاجتماعي، فأصبح الحزب النازي هو الحزب الوحيد المسموح به. ومُنِعَتْ الإضرابات وحُلّت النقابات المهنية وحصلت الآلاف من الاعتقالات والمئات من جرائم القتل السياسية، وتزعزعت الحياة في ألمانيا من رأسها إلى قدميها، وانتهكت الكنائس واضطهد أصحاب المهن العلمية وطُهِّرت الجامعات، وحتى منظمة الكشافة تمّ منعها -كما في روسيا- أما القوة المحافظة الوحيدة التي كان يخشاها هتلر، أي الجيش الألماني الذي كان وحده قادرًا على التصدّي لقوات العاصفة، فسرعان ما رضخ هو الآخر وحوّل ولاءه إلى هتلر، وقدّم له قسم ولاء -خاصًا- بعد موت هندنبرغ في عام ١٩٣٤.

كانت الدعاية السياسية تصوِّر ألمانيا بصورة بلد جديد ذي شعب موحد وديناميكي، ولكن النازيين لم ينجزوا شيئًا هامًا في الشؤون الداخلية، ولم يستمر شيء مما حقّقوه زمنًا طويلاً. لقد كان هناك برنامج أشغال عامة ابتدأ قبل أن يستلم هتلر السلطة، فتابعه النازيون وكثّفوا العمل به بحيث هبطت أرقام البطالة حوالى ٤٠ % خلال سنة واحدة، إلا أن التعافي الاقتصادي بلغ ذروته في عام ١٩٣٦ ولم ترتفع الدخول الحقيقية بعد ذلك. وكانت إعادة التسليح تُشكّل أولوية عليا لدى هتلر، وقد امتصت الأرباح التي كانت ستذهب إلى المستهلك. ومع هذا بقي النظام في السلطة وظلّ يحكم البلاد تحت إجراءات الطوارئ لعام ١٩٣٣.

وكانت أسباب هذه الثورة معقّدة، منها سبب نفسي هو أن هتلر أعاد للألمان شعورهم بكبريائهم، كما أنه أتى بسلسلة من النجاحات في الشؤون الخارجية لا غبار عليها. أما أتباعه فقد منحتهم الحركة شعورًا بالمكانة، مع أن زعماءها كانوا بالإجمال من الصنف الرديء. واستمد النازيون قوتهم -أيضًا- من

سياستهم العرقية المقيتة، التي كانت موجَّهة في البداية ضد اليهود ثم توسَّعت لتشمل غيرهم -فيما بعد- لقد كان هتلر يبغض اليهود ويتهمهم بتلويث الطهارة العرقية للألمان -ومنذ عام ١٩٣٥- بدأت القوانين الجديدة تحرمهم من حقوقهم القانونية والمدنية التي كانوا يتمتَّعون بها -منذ بداية القرن التاسع عشر- وكانوا يخضعون لإرهاب وحشي وتنتزع منهم ممتلكاتهم، وكانت بيوتهم ومحلاتهم وكنسهم تنتهك وتنهب. وكانوا أبرز ضحيَّة لهذا النظام الذي كان الإرهاب فيه يلعب دورًا أكبر فأكبر بدعم صارخ من الشرطة السريَّة -الغستابو- وفي عام ١٩٣٩ لم يعد في ألمانيا حرية صحافة ولا حرية كلام ولا حرية برلمان، وأضحى الاقتصاد يُدارْ بالقوة من أجل تأديب العمال وكبح أجورهم.

نحو حرب عالمية ثانية

كانت إنجازات هتلر الدائمة إنجازات هدَّامة كلها، فقد قاد ألمانيا في طريق انتهت بتحطيم وحدها القومية التي حققها لها بسمارك، كما سلَّمت أوربا الشرقية كلها -تقريبًا- للروس الذين كان يحتقرهم وتحت حكم البلاشفة الذين كان يبغضهم. وهلك الملايين في أثناء هذه العملية في حرب عالمية ثانية لم ينج منها الألمان أنفسهم. إلا أن سياسته الخارجية حقَّقت في البداية نجاحات هائلة.

لقد سعى هتلر لإبطال معاهدة فرساي وكسب الأراضي لألمانيا في الشرق على حساب الشعوب السلافية التي كان يعتبرها شعوبًا متدنِّية. وساعدته الظروف في ذلك، لأن آخر قوات الحلفاء المحتلة كانت قد غادرت ألمانيا في عام ١٩٣٠، وانهارت التعويضات أخيرًا مع الانهيار الاقتصادي. والأهم من هذا أن الدول الأخرى ظلَّت لزمن طويل غير راغبة بمقاومة مطالبه. فكان الكثيرون خاصة في إنكلترا يرون شروط الصلح قاسية للغاية ويشعرون بتأنيب الضمير نحوها. والأهمَّ من هذا أيضًا أن ذكريات الحرب الكبرى الفظيعة جعلت الناس مستعدِّين لتقديم أية تنازلات من أجل تجنُّب نشوب صراع مماثل، كما أن البعض كانوا يرون في *ألمانيا* النازية القوية حاجزًا أمام الشيوعية. أما الأمريكان فكانوا بعد عام ١٩٢٩ مشغولين تمامًا بهمومهم الداخلية، وأما الروس فكانت تقع بينهم وبين هتلر دول أخرى جديدة لا بد من كسب مساعدتها إذا أرادت روسيا فعل شيء ضد ألمانيا. كان موسوليني في البدء حذرًا من طموحات هتلر، ولكنه صار في النهاية حليفه فيما سمي

«بالمحور». وقد جعل هذا الوضع فرنسا وبريطانيا تتذكران بمرارة كيف اقتضت هزيمة ألمانيا في الحرب الكبرى -أربع سنوات- من القتال الدامي والحصار -وكانت روسيا إلى جانبهم في ثلاث منها- فضلاً عن مساعدة الولايات المتحدة أيضًا في النهاية.

لقد تبنَّى هتلر من توِّه مطلبًا كان من سبقوه قد قدَّموه، هو أن يحق لألمانيا أن تكون لها قوات مسلحة مثل القوى المنتصرة في عام ١٩١٨، فانسحب من عصبة الأمم -التي كانت تحاول الترويج لنـــزع السلاح- وأعاد التجنيد الإلزامي في عام ١٩٣٥، وكان هذا خرقًا واضحًا لمعاهدة ڤرساي، وأعلن أن لديه سلاح جو. ثم قضى على تسوية ڤرساي المتعلِّقة بالأراضي، فتحرَّك الجنود الألمان في آذار (مارس) ١٩٣٦ إلى حوض الراين، وهي الأراضي الألمانية التي كان محرَّمًا على ألمانيا أن تضع فيها جنودًا أو تبني تحصينات؛ ولم ترد فرنسا وبريطانيا على ذلك -وفي الوقت نفسه- قال هتلر إنه لن يلتزم -بعد الآن- بالحدود المتفق عليها في الغرب والتي قبلتها الحكومات الألمانية السابقة على عهد جمهورية ڤايمار. ولم تحرك عصبة الأمم ساكنًا لكبح هذه الأعمال العدوانية، ولكن البريطانيين والفرنسيين أخذوا يحسنون تسلحهم بصورة أسرع.

وقد سبَّب اندلاع الحرب الأهليَّة في إسبانيا -في عام ١٩٣٦- مشكلة أخرى. فقد كان الألمان والإيطاليون يساندون أحد الطرفين فيها، وكان الروس يساندون الطرف الآخر، ورأى الكثير من الناس أن الموضوع ليس إلا صراعًا إيديولوجيًا؛ وكان هناك مؤيدون لكل من الطرفين في الديمقراطيات، ولكن هذا الانقسام الشديد في الرأي العام أعاق الحكومتين الفرنسية والبريطانية في تعاملهما مع قوى المحور. وكانت لديهما مشاكل أخرى -أيضًا- منها مشكلة الاتحاد السوڤييتي، فصحيح أن

ستالين قد يساعدهم ضد هتلر إلا أنه لا يقدر على ذلك إلا بعبور أراضي بولندا وهي حليفة لفرنسا. وكان البعض يتساءلون كيف يمكن وضع الثقة بروسيا وهي تقوم بإعدام نصف أفراد أركانها العامة؟ ثم إنه كانت هناك مشاكل أخرى في بقاع أبعد، خاصة مشكلة التقدُّم الخطر لليابانيين في الشرق الأقصى.

لقد جلب عام ١٩٣٨ لهتلر المزيد من النجاح؛ ففي آذار (مارس) تم توحيد النمسا وألمانيا، واستطاع الاستفتاء العام أن يسكت منتقدي هذا الخرق لمعاهدة فرساي، ولم يسمع احتجاج كثير في فرنسا وبريطانيا مع أن الأراضي الألمانية صارت -الآن- تطوق تشيكوسلوفاكيا وهي دولة تحوي ثلاثة ملايين ألماني. وقرَّر هتلر استخدام سلاح الحقوق القومية وهو نداء كان يسمع كثيرًا أثناء معاهدة فرساي قبل ذلك -بتسع عشرة سنة- فطلب حق تقرير المصير لألمان السوديت كما كانوا يسمون -وهي منطقة جبلية شمال شرقي بوهيميا- واستطاع -خلال أسابيع- من المفاوضات أن يحصل على أكثر من هذا، لأن البريطانيين والفرنسيين كانوا يخشون أن يضطرُّوا للقتال من أجل تشيكوسلوفاكيا، وكانوا يعتقدون أن آخر عيوب تسوية فرساي يمكن إصلاحها عن طريق القبول بمطالبه، فقبلوا في اجتماع عقد في ميونيخ بتحويل مساحات واسعة من تشيكوسلوفاكيا إلى ألمانيا. وقد أعاق هذا التصرُّف الدولة الديمقراطية الوحيدة في أوربا الوسطى التي كانت -أيضًا- حليفتهم الحقيقية الوحيدة، كما أنه كان إهانة للروس لأنهم لم يستشاروا في هذا الأمر. واقتنع الألمان -عندئذ- أن هتلر رجل يجترح المعجزات ويمكن السير وراءه بثقة عمياء، أما هو فقد استنتج أن الديمقراطيات تتراجع دومًا أمام التهديد بالحرب.

كانت ميونيخ ذروة تلك السياسة التي سميت سياسة الاسترضاء - أي تلبية المظالم الألمانية التي اعتبرت مظالم معقولة. ولكن عندما استولى هتلر على ما بقي من

تشيكوسلوفاكيا في آذار (مارس) التالي -بحجة أن الجمهورية قد انهارت- حصل اشمئزاز كبير في بريطانيا، وأدخلت الحكومة التجنيد الإلزامي -في وقت السلم للمرة الأولى في تاريخ بريطانيا- وقدَّمت ضمانات للعديد من دول أوربا الشرقية بحمايتها من العدوان، ومنها بولندا. وكان الكثيرون من الألمان يريدون أن يستعيدوا من بولندا أراضيها الألمانية السابقة، خاصة الممر الذي يصل الجمهورية بالبحر ويفصل ألمانيا عن شرق بروسيا وعن مدينة دانتزيغ (غدانسك) الألمانية التاريخية؛ التي كانت -منذ عام ١٩١٩- «مدينة حرة» تحت حكم عصبة الأمم. وقد رحَّب البولنديون بضمانات بريطانيا ولكنهم أعلنوا عن رفضهم القاطع للسماح لقوات سوفييتية بدخول أراضيهم. وجعل هذا الوضع التعاون العسكري بين بريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفييتي أمرًا مستحيلاً. فرأى ستالين -عندئذ- أنه يستطيع عقد صفقة أفضل مع هتلر، ولما كان يشارك ألمانيا استياءها من حدود بولندا فقد عقد في آب (أغسطس) ١٩٣٩ معاهدة مع النظام النازي. وبدأت الحرب في الأول من أيلول (سبتمبر) عندما قامت ألمانيا بغزو بولندا.

الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩- ١٩٤٥

في الثالث من أيلول أعلنت الحكومتان البريطانية والفرنسية مكرهتين الحرب على ألمانيا، وهكذا ابتدأ صراع جديد لتحديد مكانها في أوربا. لقد كانت بولندا معزولة وسرعان ما غزتها القوات السوفييتية من الشرق، فانهارت وتقاسمها غزاتها من جديد. ثم قام الاتحاد السوفييتي بعد أشهر قليلة بابتلاع ليتوانيا ولاتفيا وإستونيا، وهكذا صار وجهًا لوجه مع ألمانيا بعد أن أضحت أكبر مما كانت عليه على عهد بسمارك، وأضحى هو أشبه بإمبراطورية قيصرية بعثت إلى الحياة من جديد.

انتصارات هتلر

لقد ظلّ البريطانيون والفرنسيون في الغرب في حالة الدفاع، إذ لم تفارقهم ذكرى مجازر حرب ١٩١٤-١٩١٨، وكانوا يتمنّون أن يتمكّن الحصار من تحقيق النصر لهم. ولكن هذا الحصار كان خطرًا على تزويد ألمانيا بالخامات المعدنيّة من اسكنديناڤيا، لذلك قام الألمان بحملة سريعة في نيسان (أبريل) ١٩٤٠ لاكتساح النروج والدنمرك، وقبل أن تكتمل هذه العملية هاجموا الغرب أيضاً، وسرعان ما انهارت هولندا وبلجيكا، بينما صُد الجيشان الفرنسي والبريطاني فقفلا على أعقابهما، وتمكّن الجيش البريطاني من أن ينقذ نفسه -على حساب خسارة معدّاته- بعملية إجلاء بحرية بارعة من مرفأ دنكرك. وبعد فترة وجيزة وقّع الفرنسيون هدنة تخلّوا فيها للاحتلال الألماني عن حوالى -ثلاثة أخماس- بلدهم بما فيها السواحل الشمالية بكاملها. وكان موسوليني في -ذلك الحين- قد

انضم إلى الجانب المنتصر، بحيث لم يعد في -نهاية حزيران (يونيو)- للألمان خصم واحد في الساحة في كل بر أوربا.

كان الاتحاد السوفييتي يتعاون مع ألمانيا عن طريق تزويدها بالمواد الأولية، وكان على الدول الحيادية القليلة الباقية أن تلزم جانب الحذر، لهذا بقيت بريطانيا وحدها ولم يكن لها من حلفاء إلا بعض الحكومات الشهمة القليلة من حكومات أوربية في المنفى ودول الكومنولث. ولكنها من ناحية أخرى كانت لها قاعدة متينة طالما هي تسيطر على البحار، كما كانت قد غيَّرت قيادتها السياسية مؤخَّرًا، فصارت لها حكومة ائتلافية جديدة بقيادة ونستون تشرشل، الذي كان بعيدًا عن العالم السياسي إلى حد ما، ولكنه أثبت أنه أعظم رجل إنكليزي في عصره. لقد راح تشرشل يحثُّ شعبه على بذل الجهود والتضحيَات بصورة لا يضاهيه فيها أي قائد بريطاني في الحرب من قبله، فكان هو رجل الساعة الذي جاء لينقذ بلاده. وتحقَّق النصر على الفور في معركة جويَّة كبرى جرت فوق جنوب إنكلترا في آب وأيلول -أغسطس وسبتمبر- من عام ١٩٤٠. ومن بعدها لم يعد بمقدور هتلر أن يأمل بأكثر من استقرار الأمور في الغرب، إذ لم يكن بمقدوره أن يغزو بريطانيا من دون أن يسيطر على الأجواء فوق القنال الإنكليزي (المانش).

إلا أن الصورة ظلَّت كئيبة أمام خصوم هتلر. وكان على البريطانيين أن يتحمَّلوا شتاء من القصف الليلي القاسي، ولو أنه كان أقل فظاعة بكثير مما عانت منه المدن الألمانية -فيما بعد، في ربيع عام ١٩٤١- أضاف هتلر يوغسلافيا واليونان إلى فتوحاته، وكان يلحق إصابات جسيمة بالشحن البريطاني عن طريق حرب الغواصات. إلا أنه عاد إلى حلم قديم، وأخبر قادته في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٠ بالتحضير لغزو الاتحاد السوفييتي.

١٩٤١: السنة الحاسمة

وبدأ الغزو في ٢٢ حزيران (يونيو) ١٩٤١، فألحق الألمان بسرعة خسائر هائلة بالجيوش الروسية واحتلّوا مساحات شاسعة من الأراضي. ورحّب بعض المواطنين السوفييت بالغزاة ترحيبًا حارًا، خاصة في أوكرانيا، ووصل الألمان إلى مرأى موسكو ولكنهم لم يتمكنوا من تحطيم المقاومة السوفييتية، ثم حلّ الشتاء ولم يكن الجيش الألماني مهيّأً له بشكل كاف، فكانت الهجمات المضادة الأولى من قبل السوفييت ناجحة. وعجز هتلر عن التقدُّم أمام هذه القوة البريّة الهائلة التي لم يتمكّن من هزمها. وبينما كانت هذه الأحداث جارية كان التعاطف مع بريطانيا والعداوة لألمانيا النازية يتناميان في الولايات المتحدة. ولكن الرأي الأمريكي ظلّ معارضًا بشدّة للتدخُّل المباشر في الحرب، ولم يتمكّن روزفلت من دفع السياسة الرسمية إلى الأمام إلا ببطء. فمُنح في عام ١٩٤١ سلطة إعارة أو تأجير المعدّات الدفاعية لأية دولة يبدو أمنها مرتبطًا بأمن الولايات المتحدة، وكان هذا الأمر ذا أهمية حاسمة، لأن الحصول على «ترسانة الديمقراطية» كما كان يسميها روزفلت كان أساسياً من أجل استمرار مجهود الحرب البريطاني أولاً ثم السوفييتي. وبينما كانت «معركة الأطلسي» بين قوافل السفن البريطانية والغواصات والسفن والطائرات الألمانية تزداد ضراوة، تمكّن روزفلت -أيضًا- من كسب التأييد لخطواته في حماية السفن الأمريكية التي قد تتعرّض لهجوم من ألمانيا.

في هذه الأثناء كانت اليابان في عام ١٩٤٠ قد استغلّت ارتباك بريطانيا وفرنسا لكي تحتلّ الهند الصينية وتغلق طريق بورما الذي كانت ترسل عبره المؤن إلى الصين. وتعاطفت الولايات المتحدة كثيرًا مع الصين، وسرعان ما منعت مواطنيها من تزويد اليابان بالبضائع ذات الأهمية الاستراتيجية، خاصة البترول. ونقل أسطول

أمريكا في المحيط الهادي من قاعدته في كاليفورنيا إلى بيرل هاربر في هاواي. وظلّت الآراء في طوكيو منقسمة لزمن طويل حول ما يتوجّب فعله، إلى أن قرّرت الحكومة اليابانية أخيرًا في -خريف عام ١٩٤١- أن تخوض الحرب ضد الولايات المتحدة. وكانت المعلومات الاستخباريَّة تدلُّ على أن روزفلت كان -بنهاية تشرين الثاني (نوفمبر)- يعلم أن الحرب باتت على الأبواب.

في يوم الأحد ٧ كانون الأول (ديسمبر) انطلقت أفواج من الطائرات اليابانية في الصباح الباكر مهاجمة قاعدة بيرل هاربر. وبحلول -الساعة التاسعة والنصف صباحًا- كانت قد محت الوحدات الجويَّة الأمريكية فيها عن بكرة أبيها وأغرقت ثلاث بوارج وعددًا من السفن الأخرى؛ إلا أن مبادرة اليابانيين بالعدوان هذه قد ضمنت تكاتف الأمريكان وراء إعلان الحرب في ٨ كانون الأول. ثم أقدمت ألمانيا على عمل أحمق بإعلانها الحرب على الولايات المتحدة في ١١ كانون الأول - فكانت تلك ثاني غلطة استراتيجية كبرى يرتكبها هتلر- وهكذا اندمجت جميع الحروب الدائرة في أنحاء العالم ضمن صراع واحد كبير.

لقد أحرز اليابانيون بسرعة سلسلة مذهلة من الانتصارات منحتهم إندونيسيا الهولندية والفلبين وملقا وجزءًا كبيرًا من بورما. وهدَّدوا الهند بالغزو، وكانت قواعدهم البحريَّة والجويَّة في جزر المحيط الهادي تشكّل درعًا بحريًّا هائلاً يمتد من نيو غينيا وجزر سلمون إلى الشمال حتى -جزر مارشال وجزيرة ويك- فصاروا بذلك يهدِّدون جزر ألويسيان (في ألاسكا) من جهة وأوستراليا من الجهة الأخرى. إلا أن استمتاعهم بهذا النصر كان قصيرًا، ففي أيار وحزيران (مايو ويونيو) ١٩٤٢ كسرت شوكة قوتهم الجوية البحرية في بحر المرجان (بحر كورال) وجزر ميدوي في عمليات بعيدة المدى قامت بها الطائرات من على ظهر ناقلات كانت تسير في

البحر من دون أن تظهر لها سفن الأعداء -ومنذ ذلك الحين- بدأت الهجمات الأمريكية المضادة في المحيط الهادي ببطء ولكن بعناد.

وفي نفس تلك السنة الحاسمة نجا الحلفاء من أقسى مراحل معركة الأطلسي، ومن بعدها راحت خسائرهم البحرية تنخفض وخسائر الغوّاصات الألمانية ترتفع باستمرار. أما على الجبهة الشرقية فقد بلغ الجيش الألماني أعمق اختراق للاتحاد السوفييتي، حيث وصل إلى القوقاس وكاد يبلغ بحر قزوين، ولكنّه انهار أمام هجمة من الجيش الروسي في الشتاء حرمته من ربع مليون من مقاتليه عندما حوصروا في ستالينغراد بحلول -نهاية العام- وفي الجبهة الداخلية -أيضًا- كان القصف قد بدأ يلحق شقاء حقيقيًا بالمدن الألمانية. وأخيرًا قام البريطانيون في شمال أفريقيا بحملة هجومية في مصر، ونزلت القوات الإنكليزية- الأمريكية في شمال أفريقيا فقضت على قوى المحور في عام ١٩٤٣ وعلى الإمبراطورية الإيطالية التي لم تعمّر طويلاً في تلك القارة -وكانت الأراضي الإيطالية في شرق أفريقيا قد استولي عليها أثناء عام ١٩٤٢- ومنذ ذلك الحين، لم يعد ثمّة شك بالنتيجة النهائية للحرب.

وظلّ الجيش الأحمر زمنًا طويلاً يحمل العبء الأساسي في محاربة ألمانيا. لقد زادت عمليات نزول القوات الإنكليزية- الأمريكية في إيطاليا في عام ١٩٤٣ من الضغط على قوى المحور، ولكن الحلفاء الغربيّين لم يتمكّنوا من إعادة دخول شمال فرنسا وتأسيس جبهة كبرى أخرى فيها إلا في حزيران (يونيو) ١٩٤٤. في ذلك الحين كان موسوليني قد أطيح به، وكان الألمان ينسحبون انسحابًا مستمرًا في كل مكان. وفي نهاية عام ١٩٤٤ كانت أراضي الاتحاد السوفييتي خالية من القوات الألمانية، وكان الجيش الأحمر قد بلغ عمق بولندا ورومانيا وبلغاريا. ثم دخل برلين أخيرًا في نيسان (أبريل) ١٩٤٥، فكانت تلك نهاية رائعة لإنجازاته

البطولية، بينما كان الحلفاء الغربيُّون قد بلغوا ساحل البلطيق واكتسحوا القسم الأكبر من جنوب ألمانيا والنمسا. وجاءت نهاية «الرايخ الثالث» - الذي كان قد أعلنه هتلر - في ٨ أيار (مايو) بعد انتحاره والاستسلام غير المشروط لما بقي من قوات ألمانيا.

ولم تكن اليابان بعيدة عن الهزيمة -أيضًا- فسلاحها الجوي قد زال، وأكثر أسطولها قد أغرق، كما أنها خسرت درعها الواقي من الجزر؛ وراحت أساطيل قاذفات القنابل الأمريكية تنطلق من قواعدها مدمِّرة مدنها الواحدة تلو الأخرى. ثم استخدم ضدها في شهر آب (أغسطس) سلاحان من نوع جديد تمامًا هما القنبلتان الذريتان، وهما أول قنبلتين لا تستخدمان المتفجِّرات التقليدية بل الطاقة الهائلة الكامنة في نواة الذرَّة، فسخِّرت بذلك ثورة الفيزياء في خدمة المعركة. لقد سقطت إحدى القنبلتين على هيروشيما، والثانية على ناغازاكي التي كان الاتصال الحقيقي بين الأوربيين واليابانيين قد ابتدأ فيها قبل ذلك -بأربعة قرون- وكانت نتائج هاتين القنبلتين مروِّعة، فقرَّر الإمبراطور -عندئذ- إنقاذ بلاده من المزيد من الكوارث عن طريق الاستسلام، وبهذا آلت الحرب العالمية الثانية أخيرًا إلى نهايتها.

المحصلة النهائية

ربما كان من الصحيح أنه لا يوجد إنسان واحد على الأرض لم يتأثَّر بالحرب العالمية الثانية، التي فاقت كل صراع عرفته البشرية قبلها بما سببته من رعب وخراب. وقد بذلت فيها موارد وطاقات لا سابق لها. ولم تكن المذابح الهائلة والخراب المادي إلا جزءًا يسيرًا مما كلفته، إلا أنها قضت على أفظع خطر تعرضت له الحضارة والإنسانية.

لقد احتاج الأمر سنوات كثيرة لكي تنكشف المآسي الكاملة لهذه الحرب، ولكن لها صورة حيَّة برزت بصورة مباشرة ومروِّعة بينما كانت جيوش الحلفاء تتقدَّم ضمن ألمانيا وأوربا الوسطى، فقد وجدوا أنفسهم يجتاحون معسكرات بلغت فيها الوحشيَّة السادية والإهمال الفظيع درجات لم تخطر ببال إنسان. كان السجناء فيها يعانون -منذ سنين- من التعذيب والتجويع والأعمال الشاقة التي تهدُّ الإنسان هدًّا، وكان هؤلاء -أحيانًا- معارضين سياسيين للنازيين -وأحيانًا- رهائن أو أيدي عاملة مستعبدة، -وأحيانًا أخرى- مجرد سجناء حرب. ولم يكن هذا أسوأ ما في الأمر، فإن أكثر الذين عانوا كانوا يهودًا حكم عليهم بالمعاملة غير الإنسانية والموت لمجرد أنهم يهود. لقد قام النازيون بجهود خاصة للقضاء على من اعتبروهم غير مرغوب بهم من الناحية الوراثية، وفي حالة اليهود كانوا يتحدثون عن «حل نهائي» «للمشكلة» اليهودية، وقد أطلقت تسمية المحرقة **Holocaust** بحق على ما فعلوه بهم. وقد لا تعرف الأرقام الكاملة بدقة أبدًا، ولكن خمسة ملايين يهودي، وربما ستة ملايين، قد هلكوا إما في غرف الغاز في معسكرات الاعتقال أو في المصانع والمقالع حيث كانوا يموتون من الإنهاك والجوع، أو في الحقول حيث كانت مفرزات خاصة تجمعهم وتطلق عليهم النار. لذلك كانت الإطاحة بالنظام الذي سبَّب هذه الأشياء كلَّها إنجازًا عظيمًا ونبيلاً، وانتصارًا للحضارة وكرامة الإنسان. ومن سخريَّة القَدَرْ أن أيًّا من قوى الحلفاء لم تخض الحرب بغرض الوصول إلى هذا الهدف الأخلاقي؛ بل كان المحارب الإيديولوجي الوحيد من -بداية هذا الصراع حتى نهايته- هو هتلر، وكانت أهدافه العنصرية مقيتة.

١٥

العصر الأخير:
حقبة متقلقلة

عالم ١٩٤٥

منظمة الأمم المتحدة

إن من أهم القرارات التي اتخذت خلال -الحرب العالمية الثانية- قرار تأسيس منظمة دولية جديدة. وقد ولدت منظمة الأمم المتحدة في سان فرنسيسكو في -عام ١٩٤٥- وكانت بنيتها تشبه بنية عصبة الأمم، فكانت الهيئتان الأساسيتان فيها هما مجلس صغير وجمعية عامة كبيرة كان فيها في البداية ممثلون دائمون عن إحدى وخمسين دولة. أما مجلس الأمن فلم يكن فيه إلا خمس أعضاء دائمين هم الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي وبريطانيا وفرنسا والصين، وكان أعضاؤه الآخرون يختارون بالتناوب من بين الدول الأخرى الأعضاء في الأمم المتحدة، وكانت له سلطات أوسع من مجلس عصبة الأمم، خاصة بسبب خوف السوفييت من أن تغلبهم أصوات الآخرين في الجمعية العامة. ونتيجة لذلك منح الأعضاء الدائمون سلطة النقض (الفيتو) من أجل الدفاع عن مصالحهم الأساسية. ولم يُرضِ هذا الأمر جميع الدول الصغيرة ولكن كان لا بد من تبنّيه إذا أُريدَ للمنظمة أن تعمل أصلاً.

وسرعان ما بدا نفوذ الجمعية العامة واضحًا كمكان للنقاش، وللمرة الأولى صار الجمهور العالمي مرتبطًا بعضه ببعض عن طريق المذياع والسينما ثم التلفزيون، وصار يتوقّع من الدول ذات السيادة أن تقدّم حججًا مقنعة لتصرفاتها. وقد لزمه وقت أطول بكثير لكي يصبح له تأثير فعّال في العديد من مشاكل العالم.

اجتمعت الجمعية العامة للمرة الأولى في لندن في عام ١٩٤٦. وقد نشب الشجار على الفور، فعندما قُدِّمتْ شكاوى من استمرار وجود الجنود السوفييت في آذربيجان الإيرانية والتي احتلت أثناء الحرب رد الروس فورًا بمهاجمة بريطانيا لأنها أبقت قوات لها في اليونان. وخلال أيام قليلة استخدم أول ڤيتو (وكان سوفييتيًا)، وسوف يتكرَّر هذا الأمر كثيرًا، وسرعان ما تحوَّلت الأداة التي تخيلتها القوى الأخرى وسيلة استثنائية لحماية المصالح الخاصة إلى أداة مألوفة في الدبلوماسية السوفييتية. ومنذ عام ١٩٤٦ بدا أن الاتحاد السوفييتي يتنازع في الأمم المتحدة مع كتلة غربيَّة غير متبلورة بعد، وقد ساهم هذا كثيرًا في تحويل المظاهر إلى واقع.

القوى العظمى

كان المسؤولون والشعب في الولايات المتحدة أقل ارتيابًا بالعالم في عام ١٩٤٥ مما صاروا عليه -فيما بعد- بينما كان الاتحاد السوفييتي يبدي قدرًا أكبر بكثير من الريبة والحذر. ولم تبق هناك في الحقيقة قوى عظمى في عام ١٩٤٥ عدا عن هاتين القوتين، فرغم الأوهام التي ظهرت في التركيب القانوني لمجلس الأمن كانت بريطانيا ترزح تحت ضغط كبير جدًا، وكانت فرنسا بالكاد تنهض من كابوس الاحتلال وتنهشها الانقسامات الداخلية، ولم تكن الصين قد بلغت مرتبة القوة العظمى قط في الأزمنة الحديثة. أما ألمانيا واليابان فكانتا محتلتين ومخربتين، ولو

أن دمار الثانية كان أقل بقليل من الأولى. لذلك كان الأمريكان والروس يتمتَّعون بتفوُّق عظيم على جميع منافسيهم، وكانوا هم المنتصرين الوحيدين، وهم وحدهم حصلوا على مكاسب إيجابية من الحرب.

كان الاتحاد السوفييتي قد اكتسب وضعًا أقوى مما بلغته روسيا القيصرية في أي يوم من أيامها، ولو أنه قد دفع الثمن باهظًا. وكان لديه درع أوربي واسع أكثره مكوَّن من أراض سوفييتية وبقيته مقسَّمة إلى دول ضعيفة وصديقة له، كما كانت له حاميات في شرق ألمانيا، وهي منطقة صناعية كبرى. أما وراء هذا الدرع فتقع يوغسلافيا وألبانيا، وهما الدولتان الشيوعيتان الوحيدتان اللتان نشأتا -منذ أيام الحرب- من دون مساعدة الاحتلال السوفييتي، وكانتا كلتاهما حليفتين لموسكو في عام ١٩٤٥. والأهم من هذا أن الهيمنة الاستراتيجية السوفييتية في أوربا الوسطى لم يكن يواجهها أي من الحواجز القديمة التي كانت تواجه سلطة روسيا. ولم يكن بإمكان بريطانيا وفرنسا المنهكتين أن تتصدَّيا للجيش الأحمر، فلم يكن ثمَّة قوة توازن قوة السوفييت إذا ما عاد الأمريكيون إلى بلادهم، وكانوا قد بدؤوا بالعودة في عام ١٩٤٥.

وكانت الجيوش الروسيَّة تقف -أيضًا- على حدود تركيا واليونان - حيث كانت انتفاضة شيوعية قد ابتدأت - كما كانت تحتل شمال إيران. وفي الشرق الأقصى كانت تحتل جزءًا كبيرًا من أراضي الصين في سين كيانغ فضلاً عن منغوليا وشمال كوريا وقاعدة بورت آرثر البحرية، وكانت قد أخذت من اليابان النصف الجنوبي من جزيرة سخالين وجزر الكوريل. وكانت توجد في الصين حركة شيوعية قوية تسيطر على جزء كبير من البلاد؛ وهكذا بات بإمكانك في عام ١٩٤٨ أن تسير من إرفُرت في شرق ألمانيا حتى شانغهاي من دون أن تطأ أرضًا غير شيوعية.

أما السلطة العالمية الجديدة للولايات المتَّحدة فلم تكن تعتمد كثيرًا على احتلال الأراضي. لقد كانت لديها هي الأخرى حامية في أوربا -عند نهاية الحرب- ولكن الناخبين الأمريكيين أرادوا عودتها إلى بلادها بأسرع وقت ممكن. أما القواعد البحريَّة والجويَّة الأمريكيَّة حول أوربا وآسيا فكان أمرها مختلفًا. إن القضاء على القوة البحريَّة اليابانيَّة والحصول على الجزر كقواعد جويَّة وبناء الأساطيل العملاقة قد حولت كلها المحيط الهادي إلى بحيرة أمريكية. والأهم من هذا أن الولايات المتحدة وحدها كانت تملك القنبلة الذرية. إلا أن الجذور الأعمق لإمبراطوريتها إنما كانت تكمن في قوتها الاقتصادية، ولقد كانت القوة الصناعية الأمريكية الهائلة حاسمة في تحقيق انتصار الحلفاء. ولم تتأذَّ الولايات المتحدة من هجمات الأعداء، بل ظلَّت أرضها ورأسمالها الثابت سليمين، والحقيقة أن مستوى المعيشة فيها قد ارتفع أثناء الحرب التي أنهت مرحلة الركود الاقتصادي. وأخيرًا كان منافسوها التجاريون والسياسيون السابقون يرزحون تحت عبء التعافي من الحرب وتكاليفه، بينما تحوَّلت هي إلى دولة دائنة كبرى لها رؤوس أموال تستثمرها في عالم ليس فيه أحد غيرها قادر على تقديمها. وكانت اقتصادات تلك الدول تميل بسبب قلَّة الموارد فيها إلى الدخول ضمن نطاق الولايات المتحدة، التي أضحى اقتصادها أكبر من أي -وقت مضى- وكانت نتيجة ذلك فورة في سلطة أمريكا المباشرة باتت واضحة، حتى قبل أن تنتهي الحرب.

حتى قبل، أن يتوقف الاقتتال في أوربا كان من الواضح أن الروس لن يُسْمَحَ لهم بالمشاركة في احتلال إيطاليا أو تفكيك إمبراطوريتها الاستعمارية، وأن على البريطانيين والأمريكان أن يقبلوا بالتسوية التي يريدها ستالين لبولندا. ولم يكن الأمريكان مسرورين بدوائر النفوذ الصريحة تلك خارج نطاق قارتهم أما الروس

فكانت تروق لهم، ولكن أيًا من القوتين لم تبد راغبة بالمواجهة. وكان الاهتمام الأساسي للقوات الأمريكية بعد النصر هو أن تُسرِّحْ جيوشها، وقد أوقفت ترتيبات الإعارة والإيجار -المساعدات المادية- حتى قبل استسلام اليابان، فأضعف هذا أصدقاءها الذين لم يكونوا قادرين على تأمين نظام أمن جديد بقواهم الذاتية وحدها. أما الاتحاد السوفييتي فقد مات أكثر من -عشرين مليونًا- من مواطنيه ودُمِرَ ربع رأسماله الإجمالي؛ وربما كان ستالين في عام ١٩٤٥ أقل وعيًا لقوة بلاده منه لضعفها.

أوربا في عام ١٩٤٥

إلا أن العلاقات بين القوتين العالميتين قد تدهورت بسرعة خلال -سنوات قليلة- خاصة بسبب الصراعات على أوربا التي كانت بحاجة ماسة لعملية إعادة بناء منظّمة. إن كلفة الخراب الحاصل فيها لم تحسب بدقة قط، ولكنه كان خرابًا روحيًا فضلاً عن ناحيته المادية. فقد زال المجتمع المتحضّر في أنحاء القارة وحلّت محلّه فظائع الترحيل والمذابح الجماعية؛ وإن الصراعات ضد القوى المحتلة الألمانية قد سبّبت انقسامات حديدة، فمع تقدُّم جيوش الحلفاء وتحريرها للبلاد راحت فرق الإعدام تعمل في إثرها وتصفّي الحسابات القديمة. وكان الذين هلكوا في فرنسا -خلال عمليات «التطهر»- التي رافقت تحرير البلاد أكثر من ضحايا الرعب الكبير في عام ١٧٩٣. والأهم من هذا أن الحياة الاقتصادية في أوربا قد تفكّكت. وإذا استثنينا روسيا فإن حوالى ١٥ مليون أوربي قد ماتوا أثناء الحرب. كما هدمت ملايين المساكن في ألمانيا والاتحاد السوفييتي، وكانت المصانع والاتصالات مخربة والعملات منهارة. ومع أن ألمانيا الصناعية كانت دولاب التوازن في الحياة الاقتصادية الأوربية

فقد كانت أول رغبة للحلفاء هي منعها من التعافي. وقد حمل الروس معهم الأدوات والمعدَّات من الشرق «كتعويضات» لإصلاح أراضيهم المخربة.

وحمل الاقتصاد السوفييتي عبء قرار ستالين بتطوير أسلحة ذريَّة وبالاحتفاظ بقوات مسلحة هائلة. ولم تكن السنوات الأولى بعد الحرب بالنسبة للمواطن السوفييتي تقلُّ كآبة عن سنوات سباق التصنيع في الثلاثينيات. إلا أن الاتحاد السوفييتي قد تمكَّن من تحقيق انفجار ذري في أول أيلول (سبتمبر) ١٩٤٩ ثم أعلن رسميًا في آذار (مارس) التالي أن لديه سلاحًا ذريًا. وكانت الصورة الدولية - عندئذ- قد تغيَّرت تغيُّرًا كليًّا.

الحرب الباردة

إن تعبير «الحرب الباردة» على فائدته يحمل خطر التبسيط الزائد للأمور، مثله مثل جميع الشعارات والعبارات العامة التي نستخدمها لوصف الأحداث، لأن تاريخ العالم بين عامين ١٩٤٥ و ١٩٩٠ كان دومًا أوسع بكثير من موضوع العداء بين قوتين عظميين وحلفائهما. ولكن يبقى من الصحيح أن هذا النـــزاع العالمي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي - والذي لم ينفجر بشكل حرب مباشرة قط، بل ظلّ صراعًا عنيدًا بالأساليب الإيديولوجية والسياسية والاقتصادية - قد هيمن على الشؤون الدولية طوال -أكثر من ثلاثين سنة- وكان يسمّم كل موضوع آخر واجهته البشرية ويعقّده.

في عام ١٩١٧ كانت قد ظهرت دولة ملتزمة التزامًا رسميًا بتغيير العالم عن طريق الثورة. وعندما بزغت روسيا من جديد بعد كسوف -مؤقت- كقوة عظمى في العشرينيات تمّ ذلك تحت إدارة جديدة سرعان ما بيّنت أنها تؤدي الأمور بشكل جديد وأن هناك أسلوبًا روسيًا جديدًا على المسرح الدولي؛ فلم يعد القادة السوفييت يقبلون مبادئ الحياة الدولية التي كانت تعتبر بديهية قبل ذلك إلا بالطريقة التي تناسبهم وفي الحالة التي تناسبهم. وفي عام ١٩٤٥ كان البعض يجدون من الصعب تصديق هذا الأمر، ورغم أهميته فقد أصبح بعد -خمس سنوات- موضوعًا مجردًا بعض الشيء. وكانت «الحرب الباردة» قد ابتدأت -حينذاك- وكان معناها بالدرجة الأولى عداءً شديدًا ومتناميًا بين الولايات المتّحدة والاتحاد السوفييتي.

بعد أن التقت الدول الغربيَّة بقوى حلفائها السوفييت في أوربا الوسطى عام ١٩٤٥ انسحبت كما كان متفقًا من أجزاء ألمانيا التي خصصت للاحتلال السوفييتي، وتقاسمت معه النمسا، بينما تركت بقية أوربا الشرقية إلى الشمال من اليونان تحت احتلال السوفييت أو سيطرتهم. و لم تكن هناك حكومات شيوعية -في ذلك الحين- إلا في يوغسلافيا وألبانيا. ولكن -قبل نهاية عام ١٩٤٥- كانت حكومة شيوعية أخرى قد تأسَّست في بلغاريا، وفي عام ١٩٤٧ ترك غير الشيوعيين الحكومات الائتلافية الاسمية في هنغاريا ورومانيا وبولندا؛ وعندما لحقت بها تشيكوسلوفاكيا في شباط (فبراير) من -العام التالي- بعد انقلاب تمَّ برعاية السوفييت صارت أوربا منقسمة إلى معسكرين اثنين. وكان الشيوعيون في أوربا الغربيَّة قد اتخذوا موقفًا ثوريًّا مؤيدًا للسوفييت بصورة صارخة.

كان روزفلت على ثقة بأن الولايات المتحدة تستطيع بالإجمال التفاهم مع الاتحاد السوفييتي، أما الرئيس ترومان (مات روزفلت في نيسان - أبريل ١٩٤٥) ومستشاروه فقد توصَّلوا شيئًا فشيئًا إلى مواقف مختلفة، خاصة بسبب تجربتهم في ألمانيا التي كانت القوى المحتلة الأربع -ورابعها فرنسا- تتخيَّل أن يتمَّ حكمها كوحدة واحدة. كانت هذه القوى تتشارك في إدارة برلين واحتلالها -منذ البداية- إلا أن جهود السوفييت لمنع تعافي ألمانيا قد أدَّت إلى انفصال متزايد عمليًّا لمنطقة الاحتلال السوفييتي عن مناطق احتلال القوى الأخرى الثلاث. ومن الواضح أن ستالين كان يخشى أي إعادة توحيد لألمانيا ما لم تتمَّ تحت حكومة يستطيع السيطرة عليها، وربما كانت لدى روسيا ذكريات كثيرة عن الهجمات من الغرب بصرف النظر عن الطبيعة الإيديولوجية لحكومتها لهذا كانت ترتاب بألمانيا الموحَّدة. وقد أدَّى هذا -في النهاية- إلى حلٍّ المشكلة الألمانية عن طريق التقسيم وهو حلٌّ لم يخطر

ببال أحد. وابتدأ ذلك عندما تمّ دمج مناطق الاحتلال الغربيّة دمجًا اقتصاديًا بينما ترسّخت الشيوعية في المنطقة السوفييتية عن طريق اتباع أساليب المحسوبية والترهيب. وفي عام ١٩٤٦ بدأت ترتسم الصورة الإجمالية لأوربا شرقية شيوعية بأكملها.

وعندما لفت ونستون تشرشل الانتباه في عام ١٩٤٦ إلى انقسام أوربا المتزايد «بستار حديدي» شجبه الكثيرون من البريطانيين والأمريكان، ولم تبدأ الآراء بالتبدُّل إلا مع زيادة استخدام الفيتو السوفييتي من أجل إحباط مساعي حلفائه السابقين، كما بدا بوضوح أن الشيوعيين في أوربا الغربيّة يُتلاعب بهم لمصالح روسيا؛ وربما كان ستالين يتوقّع الانهيار الاقتصادي في العالم الرأسمالي.

مبدأ ترومان وخطة مارشال

بدأت سياستا بريطانيا وأمريكا تتقاربان عندما بات من الواضح أن تدخُّل بريطانيا في اليونان قد مكّن من إجراء انتخابات حرّة فيها، بينما سبّب التدخُّل السوفييتي عكس ذلك في بولندا. واتخذ الرئيس ترومان في شباط (فبراير) ١٩٤٧ خطوة هامة للغاية، كان دافعه إليها إشارة من الحكومة البريطانية كانت أبلغ دليل على أن بريطانيا لم تعد قوة عالمية، إذ إن ميزان المدفوعات البريطاني كان يجبرها على سحب قواتها من اليونان. لقد تخرّب الاقتصاد البريطاني تخرّبًا بالغًا بسبب الحرب، وكانت الحاجة ماسة للاستثمار الداخلي وكانت أولى مراحل إزالة الاستعمار قد بدأت وهي عمليّات مكلفة. فكان العبء المالي أكبر مما يحتمل. وقرّر ترومان على الفور أن تملأ الولايات المتحدة الفراغ، وكان الموضوع أكبر من مجرد دعم دولتين ضد مضايقة السوفييت. صحيح أن تركيا واليونان كانتا الدولتين

الوحيدتين اللتين حصلتا على المساعدة -وبشكل مالي فقط- إلا أن ترومان قد عرض متعمِّدًا قيادة الولايات المتحدة على «الشعوب الحرة» في العالم لكي تقاوم بدعم أمريكي «محاولات إخضاعها من قبل الأقليّات المسلّحة أو من قبل الضغوط الخارجية». فكان هذا انعكاسًا لتيار الانعزال الذي كان الأمريكيون يتوقون إليه في عام ١٩٤٥. وربما كان قرار «احتواء» القوة السوفييتية هذا أهم قرار في الدبلوماسية الأمريكية -منذ- صفقة لويزيانا.

وبعد أشهر قليلة جاء مشروع مارشال -الذي سمي على اسم وزير الخارجية الأمريكي- لكي يتمِّم «مبدأ ترومان»، فعرض المساعدات الاقتصادية على الدول الأوربية بحيث تتعاون -فيما بينها- لكي تخطِّط معًا تعافيها الاقتصادي. وكان الهدف من ذلك شكلاً غير عسكري وغير عدواني من الاحتواء عن طريق إزالة أخطار الانهيار الاقتصادي. وكان وزير الخارجية البريطاني إرنست بيفن أول رجل دولة أوربي أدرك أبعاد هذا المشروع ومعانيه، وقد ألحّ مع الفرنسيين على أن تقبل أوربا الغربيَّة هذا العرض. أما الروس فلم يقبلوا بالمشاركة، ولا سمحوا للدول التابعة لهم بذلك، مع أن رفض الحكومة الائتلافية التشيكوسلوفاكية له قد ترافق بندم واضح. وهاجم الاتحاد السوفييتي هذه الخطة هجومًا عنيفًا وأسَّس أداة جديدة للحرب الإيديولوجية هي الكومينفورم في أيلول (سبتمبر) ١٩٤٧، التي بدأت على الفور بشجب ما كانت تسميه «الإمبريالية الأمريكية». وعندما أسَّست أوربا الغربيَّة منظمة التعاون الاقتصادي الأوربي OEEC لمعالجة مشروع مارشال نُظِّم النصف السوفييتي من أوربا بالمقابل في مجلس للتعاون المتبادل (كوميكون) كان واجهة للسوفييت لكي يدمجوا من ورائها الاقتصادات الموجَّهة في الشرق.

برلين وكوريا

كانت الحرب الباردة -كما صارت تسمى- قد ابتدأت بشكل واضح الآن، وسوف تستمر -حتى الثمانينيات- وراحت القوتان العظميان -كما صارتا تسميان- تسعيان لضمان أمنهما بكافة الأساليب عدا عن الحرب؛ وقد حصلت الأزمة الأولى حول برلين.

كانت القوى الغربيَّة تذكر ما حدث بعد عام ١٩١٨ وتسعى لتحقيق تعافي ألمانيا الاقتصادي كخطوة أولى نحو تعافي أوربا الغربيَّة بشكل عام، فطبقت في عام ١٩٤٨ ومن دون موافقة الروس إصلاحًا للعملة في مناطقها كانت الحاجة ماسة إليه. ولما كانت مساعدات خطة مارشال متوفِّرة للمناطق التي تحتلها القوى الغربيَّة فقط -بسبب قرارات السوفييت- فقد زاد هذا من تقسيم ألمانيا إلى شطرين -ومنذ ذلك الحين- صارت ألمانيا الشرقية على الطرف الآخر من الستار الحديدي بصورة قاطعة، بينما بدأت تظهر ألمانيا الغربيَّة المتميِّزة عنها. وقد قسَّم إصلاح العملة برلين أيضًا، وكانت استجابة السوفييت أنهم قطعوا الاتصالات بين المدينة المعزولة ضمن المنطقة السوفييتية وبين أوربا الغربيَّة. وراح النـــزاع يتصاعد، فأوقفت السلطات السوفييتية النقل الذي كان يوصل المؤن لسكان القسم الغربي من برلين - ولكن من دون أن تتدخَّل في وصول الحلفاء الغربيِّين إلى قواتهم في تلك الأجزاء من المدينة - وكان هدفها من ذلك هو أن تبين لسكان برلين أن القوى الغربيَّة غير قادرة على حمايتهم. وهكذا ابتدأت لعبة شدّ الحبل، فنظَّمت القوى الغربيَّة بتكلفة هائلة جسرًا

جويًّا حافظ على إمداد برلين الغربيَّة بالطعام والوقود والدواء، وكان مطارها الوحيد يستقبل أكثر من ألف طائرة في اليوم، وكان يصلها وسطيًا في اليوم الواحد ٥٠٠٠ طن من الفحم وحده. فكأن القوى الغربيَّة كانت تقول ضمنًا إن هذا الأمر لا يمكن إيقافه إلا بالقوة. وللمرة الأولى -منذ الحرب- عادت قاذفات القنابل الأمريكية إلى قواعدها في إنكلترا.

واستمر الحصار -لأكثر من سنة- من دون أن يصل قط إلى حد إطلاق النار، ولكنه كان حاسمًا لأنه أثبت أن الولاياتَ المتحدة كانت مستعدَّة للقتال من أجل هذه النقطة. ولم ينقطع الإمداد خلال الحصار ولا أُرهب البرلينيون الغربيُّون، ولكن المدينة صارت -الآن- مقسَّمة إلى قسمين. في هذه الأثناء وقعت القوى الغربيَّة معاهدة أسَّست فيها منظمة حلف شمال الأطلسي (الناتو) في نيسان (أبريل) من عام ١٩٤٩، وقبل أسابيع قليلة، من إنهاء الحصار عن طريق الاتفاق. فكانت تلك أول منظَّمة أوسع من أوربا تظهر، خلال الحرب الباردة، وقد انضمت إليها الولايات المتحدة وكندا وأكثر دول أوربا الغربيَّة -ما عدا السويد وسويسرا وإسبانيا- وكانت تنصُّ على المساعدة المتبادلة في حال تعرُّض أي عضو فيها للهجوم، وكانت خطوة جديدة بعيدًا عن تقاليد الرئيس واشنطن الانعزالية القديمة في موضوع السياسة الخارجية لأمريكا. وفي أيار (مايو) ظهرت دولة ألمانية جديدة من مناطق الاحتلال الثلاث هي الجمهورية الفدرالية، وفي تشرين الأول (أكتوبر) أسَّست الجمهورية الألمانية الديمقراطية في المنطقة السوفييتية. -ومنذ ذلك الحين- سوف تكون هناك دولتان ألمانيتان تفصل بينهما حدود من الأسلاك الشائكة والألغام.

ثم عادت الحرب الباردة فاندلعت في شرق آسيا. في عام ١٩٦٥ تقسَّمت كوريا، فاحتَّل الروس شمالها الصناعي والأمريكان جنوبها الزراعي. ثم انسحب

الاثنان وبذلت جهود لإجراء انتخابات على مستوى البلاد كلها ولكن من دون جدوى، فاعترفت الأمم المتحدة -عندئذ- بحكومة أسِّست في الجنوب كحكومة شرعيَّة وحيدة لجمهورية كوريا. كما ظهرت حكومة منفصلة في الشمال تدَّعي السيادة على البلاد كلها. وغزت القوات الكورية الشمالية الجنوب في حزيران (يونيو) ١٩٥٠، وخلال يومين، أرسل الرئيس ترومان قوات أمريكية لمحاربتها وهو يتصرَّف باسم الأمم المتحدة، وصوَّت مجلس الأمن على مقاومة العدوان ولكن الروس كانوا يقاطعونه - في ذلك الحين- فلم يقدروا على استخدام حق الڤيتو.

بعد بضعة أشهر لاح أن الكوريين الشماليين قد يطاح بهم، ولكن عندما اقترب القتال من حدود منشوريا تدخَّلت القوات الصينية وصدَّت جيش الأمم المتحدة - وأغلبه أمريكي- فطرح هذا الأمر احتمال قيام الولايات المتحدة بعمل عسكري مباشر ضد الصين، ربَّما بأسلحة ذريَّة. إلا أن الرئيس ترومان تصرَّف بحذر ورفض التورُّط في حرب أكبر على بر آسيا. ثم حصل المزيد من القتال الذي بيّن أن الصينيين يستطيعون الاستمرار في دعم الكوريين الشماليين ولكنهم عاجزون عن الإطاحة بكوريا الجنوبية ضد رغبة الأمريكان، فبدأت -عندئذ- محادثات الهدنة. واستلمت الحكم في أمريكا في عام ١٩٥٣ إدارة جمهورية جديدة معاديَّة تمامًا للشيوعية، وكانت تعلم أن الإدارة السابقة قد بيَّنت بشكل كاف إرادة أمريكا وقدرتها على دعم استقلال كوريا الجنوبية، فوقعت الهدنة في تموز (يوليو) ١٩٥٣. وهكذا كسب الأمريكان المعارك الأولى من الحرب الباردة في الشرق الأقصى وفي أوروبا.

قبل الهدنة الكورية بقليل مات ستالين، إلا أن السياسة السوڤييتية استمرت على نحوها السابق من دون تبدُّل، وسرعان ما كشف خلفاؤه أنهم يملكون هم أيضًا السلاح الذري المطوَّر الذي يعرف بالقنبلة الهدروجينية، فكانت تلك آخر الصروح

التذكارية لستالين، وقد ضمنت مكانة الاتحاد السوفييتي في عالم -ما بعد الحرب - إذا كان ثمة شك فيها- لقد سار ستالين بسياسات لينين القمعيَّة إلى خاتمتها المنطقية واستخدمها لإعادة بناء الجزء الأكبر من الإمبراطورية القيصرية بعد أن منح مواطنيه القدرة على النجاة من أشد ساعات المحنة -وبمساعدة حلفاء أقوياء- ولكن من الواضح أن روسيا كانت ستصبح قوة عظمى من جديد بدون الشيوعية، و لم يكافأ شعبها على تضحياته إلا بنجاته وبشعور بالمكانة الدولية، وقد ظلَّت الثقافة السياسية المبنيَّة على الانعزال عائقًا أمام تحديث البلاد وإعطائها طابعًا إنسانيًا.

في عام ١٩٥٣ كانت أوربا الغربيَّة قد أعيد بناؤها بفضل الدعم الاقتصادي الأمريكي، وكان حلف الناتو يحمي الدول الأعضاء فيه. وراحت الجمهوريتان الألمانيتان الفدرالية والديمقراطية تتباعدان أكثر فأكثر، وفي يومين متتالين من شهر آذار (مارس) ١٩٥٤ أعلن الروس السيادة الكاملة للجمهورية الشرقية ووقع رئيس ألمانيا الغربيَّة تعديلاً دستوريّاً يسمح بإعادة تسليح بلاده. وفي عام ١٩٥٥ انضمت الجمهورية الفدرالية إلى حلف الناتو، وردَّ الروس على ذلك بحلف وارسو الذي كان تحالفًا للدول التابعة لهم. ووافقت ألمانيا الشرقية على تسوية الأمور مع أعدائها القدامى، وأصبح خط نهري أودرا-نيسا هو الحدود مع بولندا. وهكذا انتهى حلم ألمانيا الكبرى - الذي طالما داعب مخيلة القوميين -في القرن التاسع عشر- ومخيلة هتلر أيضًا - بالقضاء على ألمانيا بسمارك نفسها. وكانت ألمانيا الغربيَّة الجديدة ذات بنيَّة فدرالية وطابع غير عسكري، وكان يسيطر عليها السياسيون الكاثوليك والديمقراطيون الاجتماعيون* الذين كان

---

* الديمقراطية الاجتماعية هي حركة سياسية تنادي بالانتقال التدريجي والسلمي من الرأسمالية إلى الاشتراكية - المورد

بسمارك يعتبرهم أعداء للدولة، بينما أصبحت پروسيا التاريخية -الآن- تحت حكم الشيوعيين الثوريين. ولم تحدث معاهدة سلام، ولكن مشكلة احتواء قوة ألمانيا قد سويت ضمنًا -طوال خمسة وثلاثين عامًا- وفي عام ١٩٥٥ ظهرت النمسا من جديد كدولة مستقلّة، وكانت القوات الأمريكية والبريطانية قد انسحبت من مدينة تريستا*.

في ذلك الحين -كان قد ظهر انقسام عالمي بين ما يمكن أن تسميه الاقتصادات الرأسمالية والاقتصادات الموجهة -أو التي سوف تصبح موجهة- وبعد عام ١٩٤٥ تمّ تجاوز جميع التقسيمات السابقة للسوق العالمية، وصار هناك أسلوبان لتوزيع الموارد سوف يقسمان العالم المتطوِّر أولاً ثم المناطق الأخرى -وأهمها شرق آسيا- لقد كان العنصر الأهم والحاسم في النظام الرأسمالي هو السوق، ولو أنها سوق مختلفة جدًا عن التي كانت تتخيّلها إيديولوجيات التجارة الحرَّة -في القرن التاسع عشر- كما أنها كانت سوقًا ناقصة من نواح كثيرة. أما النظام الثاني، أي مجموعة الدول الخاضعة للشيوعيين -وبعضها الآخر أيضًا- فكان عمادها هو السلطة السياسية العليا، أو هذا ما كانت تبغيه على الأقل. ولقد بقي هذا التمييز بين النظامين حقيقة أساسية في الحياة الاقتصادية العالمية -منذ عام ١٩٤٥ حتى الثمانينيات- ونقصت هيمنة الولايات المتّحدة على النظام الأول بمرور الزمن وهيمنة الاتحاد السوفييتي على الثاني -أيضًا- عما كان عليه الأمر في عام ١٩٥٠، ولكنهما مع ذلك ظلاً يعتبران نموذجين بديلين ومنفصلين -تمامًا- للنمو الاقتصادي. وقد زكّت الحرب الباردة التنافس بين الطرفين، وساهم هو بدوره في توسيع العداوة بينهما.

---

* مرفأ على بحر الأدرياتيك.

نهاية الإمبراطوريات الاستعمارية

إن أكبر انقلاب في السياسة العالمية -بعد عام ١٩٤٥- هو انتهاء الإمبراطوريات الأوربية. عند نهاية الحرب كانت الإمبراطوريات البريطانية والفرنسية والهولندية والبرتغالية والبلجيكية قائمة بعد -بينما اختفت الإيطالية بين عامي ١٩٤١ و١٩٤٣- ولكن بعد ثلاثين عامًا- صارت المساحة التي يحكمها الأوربيون من العالم أقل مما كانت عليه قبل أربعة قرون كاملة. وقد سبَّبت عملية تفكيك الإمبراطوريات ارتباكات وتوترات كبيرة لدى القوى الأوربية، وكانت تنطوي على مخاطر جمة، وإنه لمن أعظم إنجازات القرن أن حقبة إزالة الاستعمار قد تم اجتيازها من دون حرب عالمية أو صراعات محليَّة واسعة.

الشرق الأوسط الجديد

لقد حصلت آخر امتدادات الإمبراطوريات القديمة بين الحربين العالميتين، عندما منحت عصبة الأمم الفرنسيين والبريطانيين «انتدابات» على قسم كبير من الشرق الأدنى والأوسط كمرحلة أولى قبل أن تتحوَّل إلى دول. وكان يبدو أن مستقبل المنطقة يكمن في تشكيل بنى مؤسَّسة على فكرة القومية الأوربية، وأن هذا الترتيب قد يكون حلاً لمسألة من سيخلف الدولة العثمانية - أي كيف يجب تنظيم العالم العربي. ولكن الحقيقة أن القومية لم تكن إلا سرابًا. كان البريطانيون والفرنسيون قد اتفقوا أثناء الحرب على أن تقلّص تركيا إلى مساحتها الحالية -تقريبًا- وأن يثبت الفرنسيون أقدامهم في سورية العثمانية ويثبِّت البريطانيون أقدامهم في العراق،

ولكن هذا الترتيب جعل من الصعب عليهم أن يقرِّروا ماذا يجب أن يعطوا للحكَّام العرب. والتعقيد الآخر كان إعلان الحكومة البريطانية في عام ١٩١٧ أنها تنظر بعين العطف إلى تأسيس «وطن قومي» لليهود في فلسطين. وقد أرضى هذا الإعلان الصهاينة، ولكن لم يكن من الواضح ما إذا كانت بريطانيا تقصد بذلك دولة قومية يهودية، كما بدا أنه يتعارض مع الوعود المقدَّمة للعرب.

بين عامي ١٩١٨ و١٩٣٩ كان الشعور الوطني من النمط الأوربي أكثر تقدُّماً في مصر، حيث راح المثقفون وعامة الشعب في المدن يتظاهرون بصخب ضد الاستعمار الغربي، وراح البريطانيون يرخون قبضتهم رويدًا رويدًا، وقبلوا في عام ١٩٣٦ ألا يتركوا حاميتهم في منطقة قناة السويس إلا لعدد محدَّد من السنين. أما في بقية أنحاء العالم العربي فكانت المتاعب تأتي من عدد من الأسر الحاكمة - والمتنافسة عادة- من النمط التقليدي، كما وجد الفرنسيون أنفسهم مضطرين لمعالجة أمر الوطنيين في مدن سورية ولبنان. وبذل البريطانيون قصارى جهدهم للتخلّص من انتداباتهم بسرعة، وقد سبَّب لهم انتدابهم على فلسطين أكبر قدر من المصاعب.

إقامة إسرائيل

في عام ١٩١٤ كان يعيش في فلسطين حوالى ٩٠,٠٠٠ يهودي -ومنذ بداية الانتداب- كان السكان العرب يبدون تخوُّفهم من الهجرة اليهودية. وكان العرب يهاجمون البريطانيين إذا سمحوا بالمزيد من اليهود، واليهود يهاجمونهم إذا تحدَّثوا عن الحدِّ من هجرتهم. وسرعان ما بدأت الحكومات العربيَّة الجديدة في الجوار بالاهتمام بهذه المسألة. وقد حصلت أحداث شغب وقتل وأعمال إرهابية

ضد المستوطنات اليهودية. واقترح البريطانيون في عام ١٩٣٦ تقسيم فلسطين، ولكنَّ العرب رفضوا هذا الاقتراح -في ذلك الحين- كان هتلر قد استلم السلطة في ألمانيا، وكان اليهود في ألمانيا وأوربا الوسطى يخشون الاضطهاد ويرغبون بالقدوم إلى فلسطين، التي كان بعضهم يسميها -منذ ذلك الحين- إسرائيل. مع اقتراب حرب ١٩٣٩ واجه البريطانيون انتفاضة عربية واسعة تمكّنوا من قمعها، ولكنهم أثناء معالجتهم لها وضعوا حدّاً مطلقًا لعدد اليهود الذين سيسمح لهم بدخول فلسطين في المستقبل. وكانت علاقات بريطانيا بالدول العربية -عندئذ- قد بلغت درجة لا سابق لها من التعقيد والصعوبة. إن اقتراب الحرب في أوربا قد زاد أهمِّيَّة قناة السويس لدى بريطانيا، إذ صارت لها -الآن- مصلحة جديدة هي استمرار تدفّق النفط من العراق عن طريق خط الأنابيب المار عبر شرق الأردن وفلسطين إلى حيفا؛ وكان محكومًا على محاولات العدالة والإنصاف أن تفشل.

وعندما، اندلعت الحرب جلبت معها أزمة كبيرة. ولم تكن الحكومة البريطانية هي الوحيدة التي حدَّت من دخول اليهود الهاربين من برنامج القضاء عليهم على يد الألمان، ولكنها كانت تحكم فلسطين حيث يريد الكثيرون منهم أن يذهبوا، وكان من السهل على الدول الأخرى أن تطالب بحقهم في ذلك. وقد أضيف إرهاب الصهاينة -الآن- إلى عنف العرب، كما ازداد ضغط أمريكا لأن أصوات الناخبين اليهود كانت هامة لدى السياسيين الأمريكان. وإن الانتصار في الحرب قد زاد الأمور تفاقمًا، لأن الروس تبنُّوا القضية الصهيونية إذ رأوا فيها طريقة لتسبيب المتاعب لخصمهم في الحرب الباردة ولتوسيع نفوذهم في المنطقة.

وطرح البريطانيون الموضوع على الأمم المتحدة التي وافقت على مشروع تقسيم -صوت عليه كل من الولايات المتحدة وروسيا- ولكن العرب لم يقبلوا به.

وتصاعد العنف، وأعلنت بريطانيا -أخيرًا- أنها سوف تتخلى عن فلسطين، فغادرتها في يوم ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨، أي بعد يوم واحد من إعلان اليهود تأسيس دولة قومية جديدة هي دولة إسرائيل. وعلى الفور هاجمتها مصر وجيرانها العرب الذين قالوا إنهم يريدون حماية العرب الفلسطينيين، ولكن إسرائيل نجت وانتصرت. إلا أن انتصارها هذا قد تركها محاطة بأعداء مهزومين وتواقين للانتقام، كما صارت لديهم الآن مظلمة جديدة استفادوا منها كثيرًا من الناحية الدعائية، هي هجرة ٧٠٠,٠٠٠ عربي فلسطيني هربوا من إسرائيل كي لا يعيشوا تحت حكم اليهود. وبدا اليهود الآن مضطهِدين بدورهم، مع أن الكثيرين من العرب الفلسطينيين قد عادوا إلى إسرائيل في عام ١٩٤٩.

ثم حصلت -خلال السنوات القليلة التالية- ثلاثة تبدُّلات كبرى غيَّرت موقف العرب من جميع النواحي ما عدا عداءهم المستمر لإسرائيل. أول تلك التبدُّلات هو تفاقم الحرب الباردة، فقد كانت روسيا تتدخَّل في سياسات المنطقة -منذ زمن طويل- وانضمت إليها -الآن- الولايات المتحدة. والتبدُّل الثاني هو الارتفاع الحاد في استهلاك النفط في الدول الصناعية الكبرى وفي إنتاجه -خاصة من الحقول الهائلة الجديدة المكتشفة في الخليج الفارسي وشبه الجزيرة العربية وليبيا- وأما التبدُّل الثالث فهو تبدُّل سياسي معقَّد وطويل أزاح السيطرة الاستعمارية من العالم الإسلامي وأطاح بالكثير من الملوك المسلمين المتمسِّكين بالتقاليد ووضع محلَّهم أنظمة أكثر راديكالية وثورية.

كانت الخمسينيات عقدًا من التطوُّرات الكبرى. فقد اضطر الفرنسيون للتخلي عن لبنان وسورية بعد صراع، واعترفوا بالاستقلال الكامل للمغرب وتونس. وأطيح بملك مصر في عام ١٩٥٢، وفي عام ١٩٥٤ بدأت ثورة شاملة ضد

المستوطنين الأوربيين في الجزائر الفرنسية وكان عددهم يربو على المليون. وكان البريطانيون قد سحبوا حاميتهم من السويس عندما بزغ في مصر «رجل قوي» هو جمال عبد الناصر، الذي بدا أنه القائد المصلح المناهض للاستعمار الذي كان العرب ينتظرونه. وقد تآمر البريطانيون والفرنسيون والإسرائيليون على الإطاحة به في عملية السويس في عام ١٩٥٦، التي كانت آخر مغامرة على النمط القديم للاستعمار، ولكنَّها منيت بالفشل -مع أن المصريين أصيبوا بهزيمة كارثية- بينما راح نجم عبد الناصر يعلو ويزداد تألقًا.

ونالت الجزائر استقلالها أخيرًا في عام ١٩٦٢ من بعد معاناة رهيبة، وكانت ليبيا قد استقلت -أيضًا- وتخلَّصت من ملكها فراحت تتنافس مع سورية ومصر والمملكة العربية السعودية على قيادة العالم العربي. واستعدَّت الحكومتان المصرية والأردنية لمهاجمة إسرائيل من أجل تصحيح التوازن، إلا أن الإسرائيليين سبقوهم إلى الهجوم في عام ١٩٦٧ فألحقوا بالجيوش العربيَّة هزيمة كبرى، ومنحهم هذا النصر حدودًا أسهل على حمايتها وأعلنوا أنهم سوف يحتفظون بها، فلم يعد هناك مفر من نشوب حرب رابعة. وقد حدثت في عام ١٩٧٣، وفي هذه المرَّة هجم أعداء إسرائيل في لحظة غير مؤاتية لها، كما صار على العالم الصناعي أن يحسب حسابًا أكبر لأقوى الدول العربية، أي الدول المنتجة للبترول وهي دول صغيرة ولكنها ذات ثروات طائلة، وقد سبَّب قرارها برفع أسعار بترولها أزمة اقتصادية دولية بين ليلة وضحاها. وبدأ العالم يخشى حدوث ركود اقتصادي مثل الذي حدث في الثلاثينيات، فبدا -عندئذ- أن إسرائيل قد لا تستطيع الاعتماد إلى الأبد على الشعور بالذنب في أوربا والولايات المتَّحدة تجاه معاملة هتلر ليهود أوربا.

انسحاب الاستعمار من آسيا

كانت انتصارات اليابانيين -بين عامي ١٩٤١-١٩٤٢- ضربة حاسمة في وجه هيمنة البيض، خاصة عندما استسلم ٧٠,٠٠٠ جندي بريطاني وأوسترالي وهندي أمامهم في سنغافورة. ولم تقتصر الخسارة على الأراضي بل إن مكانة البيض المعنوية قد ضاعت هي الأخرى. لقد كانت مناصرة اليابانيين للمشاعر المناهضة للبيض - مثل الشعار القوي الذي يقول «آسيا للآسيويين» - من العوامل التي منعت عودة الاستعمار، والمفارقة أن مقاومة الزعماء المحليين لليابانيين كانت عاملاً آخر في ذلك. ولم يستعد الفرنسيون سلطتهم في الهند الصينية ولا الهولنديون سلطتهم في إندونيسيا في عام ١٩٤٥ إلا بفضل الوصول السريع للقوات البريطانية. وسوف يخسر كلاهما سيطرتهما -خلال بضع سنوات من جديد- إذ كانت حقبة الثورات ضد الاستعمار قد ابتدأت. وقد استفادت هذه الثورات من المنافسة بين القوى الكبرى — مثلها مثل ثورات الأمريكتين قبل قرن ونصف القرن — إلا أن المنافسة كانت هذه المرة منافسة الحرب الباردة، كما أن الثورات قد قام بها السكان الأصليون ضد الدخلاء وليس المستوطنون البيض وأحفادهم.

وكان انسحاب الاستعمار يتم -أحيانًا- من دون الحاجة إلى الثورة. إن أهم معلم في هذه القصة هو رحيل البريطانيين عن الهند في عام ١٩٤٧. لقد منح هذا الرحيل الحكم الذاتي لشبه قارة مكوَّنة من ٤٠٠ مليون نسمة، وحطَّم على الفور الوحدة السياسية الوحيدة التي تمتَّعت بها شعوبها. فظهرت دولة الهند ذات الأغلبية الهندوسية ودولة پاكستان المسلمة -والتي انقسمت فيما بعد مرة ثانية، عندما انفصلت عنها بنغلاديش في عام ١٩٧١ لتشكل دولة منفصلة- وقد ترافق ذلك بسفك كبير للدماء. وأصبحت بورما جمهورية مستقلة في عام ١٩٤٨، وفي العام

التالي انتهى القتال الذي كان مستمرًا في إندونيسيا -منذ عودة الهولنديين- بظهور جمهورية إندونيسيا الجديدة. ومنحت أراضي مَلَقا البريطانية السابقة حريَّتها بشكل اتحاد مستقل في عام ١٩٥٧.

الهند الصينية

كان الفرنسيون في -ذلك الحين- قد غادروا الهند الصينية، المكونة من كمبوديا ولاوس وجمهوريتين ڤيتناميتين. ولعبت الحرب الباردة ومصالح القوى الكبرى دورًا كبيرًا في إطالة آلام المخاض لولادة النظام الجديد. لقد لعب الشيوعيون دومًا دورًا هامًا في حركات الاستقلال في الهند الصينية، وكان هذا الدور أقلّ أهميَّة في كمبوديا ولاوس منه في ڤيتنام – أي القسم الجنوبي والساحلي من الهند الصينية – حيث قاومهم الفرنسيون مقاومة شديدة حتى عام ١٩٥٤. وقد هزمت في ذلك العام حامية فرنسية في دين-بين-فو في معركة ضارية، فكانت تلك هزيمة معنوية لا تقلّ أهميّة عن الهزيمة في سنغافورة قبلها باثنتي عشرة سنة وهي التي حطّمت إرادة الفرنسيين في الدفاع عن إمبراطوريتهم، فانسحبوا -عندئذ- تاركين وراءهم ڤيتنام الشمالية الشيوعية تسعى لتقويض ڤيتنام الجنوبية غير الشيوعية. وراحت الولايات المتّحدة تُقدّم العون للجنوب، بينما راحت روسيا والصين تقدمان العون للشمال.

نهاية الاستعمار في أفريقيا

في عام ١٩٠٠ كان عدد سكان أفريقيا حوالى ١١٠ ملايين، أما بمعدَّلات النمو الحاليَّة فقد يبلغ عددهم في عام ٢٠٠٠ /٧٠٠ مليون/. إن هذا هو أهم تغيُّر في تاريخ أفريقيا، وقد حرف ميزان السكان فيها نحو أفريقيا السوداء وإلى الجنوب من الصحراء الكبرى، وإن المطالب والضغوط الناتجة عن نمو السكان هذا تمتد في كافة تاريخ أفريقيا السياسي والاقتصادي القريب. إلا أن زوال الاستعمار كان بلا شك تغيُّراً أكثر حدَّة. في عام ١٩١٨ كانت القارة بأسرها تحكم أو تدار من أوربا، وكانت الدولتان الأفريقيتان الوحيدتان المستقلتان استقلالاً حقيقيّاً هما ليبيريا وإثيوبيا- أما الآن- فتوجد فيها ثمان وأربعون دولة بما فيها الجزر القريبة منها ومدغشقر -وعند بداية القرن- لم تكن هناك في القارة صناعة حديثة تذكر إلا في منطقة الراند بجنوب أفريقيا، ولكن هذه الدولة قد أصبحت -الآن- قوة صناعية كبرى، بينما صارت روديسيا وزائير وزامبيا دولاً هامة في مجال التعدين -تنتج النحاس والفحم والمنغنيز والحديد واليورانيوم- أما الجزائر ونيجيريا وليبيا فهي دول أساسيَّة في إنتاج البترول. ورغم أن دول أفريقيا مازالت موضع تدخُّل واستغلال من الخارج فإن الدول الأخرى خارج القارة تتقرَّب منها من أجل مواردها وموقعها الاستراتيجي.

وتتصف قصة أفريقيا السوداء بنوع من الوحدة التي تجمعها خلال هذه الحقبة من التغيُّر، إذ إن غياب حضارة محليَّة واحدة مهيمنة ومتطوِّرة -مثل حضارة الهند أو

الصين- قد سمح للأوربيين بلعب دور كبير في إحداث التغييرات فيها. وقد ظهرت جماعات بيضاء في المناطق التي يشجّع مناخها على استيطانهم — خاصة في جنوب أفريقيا - وسبَّبت هذه الجماعات تعقيدًا في سياسات التحديث. وكانت الجغرافية عاملاً هامًا أيضًا، فرغم اهتمام الأجانب الكبير بها لم يكونوا جميعًا قادرين على دخولها بسهولة، ومع أن روسيا كانت -منذ القرن التاسع عشر- تلعب دورًا استعماريًا أساسيًا في آسيا فإنها لم تتدخَّل في أفريقيا حتى كانت حركة الاستقلال قد بلغت فيها شوطًا متقدِّماً. ولم يكن للشيوعية أهمِّية تذكر خارج مدن البيض الصناعية في جنوب أفريقيا إلى أن جاء المستشارون الشيوعيون من الاتحاد السوفييتي والصين في الستينيات والجنود الشيوعيون من كوبا في السبعينيات.

لقد حرَّكت الحربان العالميتان الأمور، ولكن يبدو أن ظهور القادة السياسيين السود الأوائل يدين أكثر لتأثيرات التعليم -عن يد البعثات التبشيرية التي أنشأها البيض عادة- وأعمال الحكومات الاستعمارية بخيرها وشرِّها. ولم تغيِّر هذه الحكومات الشيء الكثير بين عامي ١٩١٨ و١٩٣٩ في المناطق التي كانت تسيطر عليها، عدا عن أن المستعمرات الألمانية السابقة قد حلَّت محلَّها انتدابات. وفي حرب ١٩٣٩- ٤٥ أعيدت إثيوبيا بعد أن أطاح بها الإيطاليون في عام ١٩٣٦، واختفت الصومال وإرتيريا الإيطاليتان من على الخريطة، أما إلى الجنوب من السودان والصحراء الكبرى فلم يطرأ تغيُّر هام على الخريطة بين عامي ١٩٣٩ و ١٩٤٥. كانت المناطق ذات اللون الوردي تابعة للكومنولث البريطاني -وكان البريطانيون قد بدؤوا باستخدام هذه التسمية لأنهم فقدوا الرغبة والحماس لحكم الإمبراطورية- وكانت بينها منطقتان ليستا جزءًا منها إلا بصورة شكليَّة، وهما روديسيا الجنوبية واتحاد جنوب أفريقيا، إذ كانت روديسيا الجنوبية قد ألفت -منذ عشرينيات القرن-

أن تحكم نفسها كدولة مستقلّة ضمن الكومنولث ولم يكن المستوطنون البيض فيها يتوقّعون تدخُّلاً من لندن، أما اتحاد جنوب أفريقيا فقد راح ناخبوه من البور يدفعونه باطّراد نحو استقلال كامل -تقريبًا- وكان يبدو في عام ١٩٤٥ أن خريطة أفريقيا لن تتغيَّر لزمن طويل، بل أنها قد لا تتغيّر أبدًا.

أمم أفريقية جديدة

إلا أنها تغيَّرت بالفعل وبسرعة عجيبة. ففي عام ١٩٥٧ ظهرت أول دولة سوداء «جديدة» إلى الجنوب من الصحراء الكبرى وهي دولة غانا. وبعد أقل من عشرين سنة، لم تبق مستعمرة أوربية واحدة ما خلا بعض الجيوب الإسبانية الصغيرة. كما أن جنوب أفريقيا أصبحت جمهورية مستقلّة استقلالاً كاملاً في عام ١٩٦١، وكانت روديسيا قد انفصلت عن الكومنولث ونشبت فيها صراعات داخلية ضارية حول اختيار حكامها. ورغم أن إراقة الدماء كانت تحدث عادة بعد انتهاء الحكم الاستعماري فإنها لم تلعب في أكثر الحالات دورًا هامًا في إسقاطه -إلا في الجزائر حيث لم تتحرَّر البلاد إلا من بعد ثورة كبيرة انتهت بطرد الفرنسيين- إن الصراع المتكرِّر كان دليلاً على الأخطار التي تواجه أفريقيا الجديدة. في الكونغو البلجيكية سابقًا -أي زائير الحالية- اندلعت الحرب الأهلية -في عام ١٩٦٠- في منطقة كاتَنغا* الغنيَّة بالمعادن، وسرعان ما تدخَّل الروس والأمريكان بصورة غير مباشرة فوصلت الحرب الباردة بذلك إلى أفريقيا. وبعد ذلك صارت الحركات الثورية في مستعمرتي أنغولا وموزمبيق البرتغاليتين تحاول الحصول على دعم الدول الشيوعية، فأدى هذا إلى الحرب الأهلية بعد الاستقلال الذي منحته البرتغال -إثر

---

* مقاطعة في جنوب شرقي زائير اسمها الحالي شابا — المترجم.

ثورة داخلية في عام ١٩٧٤)؛ وهكذا كانت أول قوة استعمارية رسَّخت قدميها في أفريقيا هي أيضًا آخر قوة غادرتها.

عند نهاية عام ١٩٦٠ اندلعت الحرب الأهليَّة في نيجيريا أيضًا، وسوف تتلوها حروب وثورات وانقلابات كثيرة في مناطق أخرى، بل إنها مازالت مستمرة. وقد كان على السياسيين أن يناضلوا لكي يمكِّنوا الديمقراطية من العمل بين شعوب ليست لديها خبرة بها، ولكن لديها ولاءات وعداوات تقليدية تدفعها إلى الاقتتال من أجلها. وكانت بعض الدول الأفريقية تشبه الدول الجديدة التي ظهرت في البلقان وأمريكا الجنوبية في -القرن التاسع عشر- وقد توجَّهت إلى زعمائها العسكريين. وكثيرًا ما لم يكن عدد الأفارقة كافيًا لتزويد الأنظمة الجديدة بالإداريين والتقنيين، فكان عليها أن تعتمد على البيض في المناصب الحسَّاسة، بينما كانت البنى الداعمة للحكم الاستعماري – من تعليم واتصالات وقوات مسلحة – أضعف بكثير منها في الهند مثلاً. كانت معدَّلات التعلم منخفضة وكانت الدول الأفريقية الجديدة أكثر اعتمادًا بكثير على المساعدات الأجنبية من الدول الآسيوية التي استقلت حديثًا. وكانت هذه العوائق تدفع زعماءها إلى البحث عن الشعبية والنجاح عن طريق إثارة الحقد على الأعداء الخارجيين. وكان من الصعب على الدول الأفريقية أن تتعاون إلا في هجماتها الكلامية والدبلوماسية على العنصرية البيضاء. وساهمت في الاضطرابات السياسية -أيضًا- المصاعب الاقتصادية والاجتماعية الهائلة التي كانت تواجه تلك الدول، فالكثير منها لم تكن لها وحدة اجتماعية أو جغرافية حقيقية، بل كان سبب وجودها أن الدبلوماسيين الأوربيين قد رسموا -منذ زمن بعيد- تلك الحدود بين مستعمراتهم. وكانت بعضها تعاني من مشكلة التخصص في الاقتصاد، إذ كان الكثيرون من المزارعين في أفريقيا قد تحوَّلوا

خلال حرب ١٩٣٩-١٩٤٥، إلى زراعة محاصيل معيَّنة تصلح للتصدير على نطاق واسع وتدرُّ الأرباح الكبيرة، ولكن نتائج هذا التحوُّل كانت عميقة في -بعض الأحيان- لأن انتشار هذا النوع من الاقتصاد قد يولِّد تغيُّرات اجتماعية عنيفة بشكل نمو غير متوقَّع في المدن وفي مناطق معينة. كما أن ربط الدول الأفريقية بأنماط معينة من التنمية قد أدى -فيما بعد- إلى ضعفها الاقتصادي وجمودها. وحتى الجهود الطيِّبة للأجانب عن طريق برامج التنمية في المستعمرات أو عن طريق المساعدات الدولية فيما بعد، كانت تنتهي أحيانًا بزيادة تقييد المنتجين الأفارقة بالأسواق العالمية الحسَّاسة لأي انخفاض في الطلب.

ومع ارتفاع أعداد السكان بصورة متسارعة بعد عام ١٩٦٠ وخيبة الأمل «بالحرية» بات الاستياء محتَّمًا وأدَّى إلى عدم الاستقرار. واندلع النـزاع الضاري خصوصًا في كاتَنغا ونيجيريا -وهي أكبر الدول الجديدة والتي بدت من أكثرها ثباتًا وأملاً بالمستقبل وكانت تتمتَّع بميزة وجود مخزون كبير من البترول فيها- كما حصلت نزاعات أخرى أقل منها عنفًا. وفي الدول الأخرى -أيضًا- أدَّت الصراعات الضارية بين الجماعات والمناطق والقبائل بالنخب السياسية الصغيرة ذات التفكير الغربي إلى التخلي عن المبادئ الديمقراطية والليبرالية التي كَثُرَ الحديث عنها في أيام النشوة العارمة عندما كان الاستعمار في انحسار. لقد شهدت أفريقيا المستقلَّة بين عامي ١٩٥٧ و ١٩٨٥ اغتيال ثلاثة عشر زعيم دولة وحربين كبيرين، وكانت الحاجة لمنع التمزُّق وتقويَّة السلطة المركزيَّة — سواء كانت حاجة حقيقية أم وهمية — تدعم الاتجاه نحو الحكم الاستبدادي ذي الحزب الواحد ونحو استخدام العسكريين للسلطة السياسية. وظهرت شخصيات مستبدَّة بعضها عبارة عن قطاع طرق ولو أن بعض المهتمين بالشؤون الأفريقية قد رأوا فيهم ورثة سلطة الملوك

القديمة التي كانت في أفريقيا قبل عصر الاستعمار. وكانت الانقلابات والثورات كثيرة فانهارت -حتى أكثر الدول الأفريقية عراقة- ففي عام ١٩٧٤ نشبت ثورة في إثيوبيا قضت على أقدم ملكية مسيحية باقية في العالم وعلى سلسلة من الملوك يقال إنها تعود إلى ابن الملك سليمان وملكة سبأ، وبعد عام واحد بدا العسكريون الذين استلموا السلطة فاقدين للمصداقية والثقة مثل الحكام الذين كانوا قبلهم.

ولكن متاعب السياسيين الأفارقة لم تمنعهم من إلقاء اللوم على العالم الخارجي، بل إنها في الحقيقة قد شجَّعتهم على ذلك. فظلّوا يضربون على وتر المأساة التي سبَّبتها تجارة الرق الأوربية القديمة كمثل أقصى على الاستغلال العنصري -وأنكروا مشاركة الأفارقة فيها أو تجاهلوها كما تجاهلوا تجارة العرب بالرقيق- أما الأسباب المباشرة للسخط والاستياء فكانت العجز عن حلّ المشاكل الاقتصادية والاجتماعية العنيدة، وشعورًا دائمًا بالدونية السياسية في قارة مكّونة من دول لا حول لها ولا قوة ولا يزيد عدد سكان بعضها عن المليون. وقد حدثت في عام ١٩٥٨ محاولة فاشلة للتغلُّب على هذا الضعف الناجم عن الانقسام وكانت تريد أن تؤسِّس ولايات متحدة أفريقية، ثم جاءت بعدها تحالفات واتحادات جزئيَّة وتجارب متعدِّدة لإقامة ترتيبات فدرالية، نتجت عنها أخيرًا منظّمة الوحدة الأفريقية في عام ١٩٦٣، خاصة بفضل جهود إمبراطور إثيوبيا هايلي سيلاسي.

أما السجل الاقتصادي لأفريقيا السوداء فقد كان يتراجع من سيء إلى أسوأ. إن أفريقيا هي القارة الوحيدة التي كان فيها نمو الناتج المحلي الإجمالي السنوي للفرد الواحد في حالة انخفاض -منذ عام ١٩٦٠- وذلك بمعدل -٠,١% في أواخر السبعينيات و-١,٧% بين عامي ١٩٨٠ و ١٩٨٥. وكان تراجع الزراعة منتشرًا في السبعينيات، كما تخرَّبت السياسات التجاريَّة والصناعيَّة بسبب اهتمام السياسيين

بالناخبين في المدن وبسبب الفساد والاستثمارات الوهميَّة. أما أعداد السكان فكانت ترتفع بلا هوادة والمجاعة تعاود بلا هوادة أيضًا. ثم جاء الركود الاقتصادي العالمي إثر ثورة النفط في عام ١٩٧٣ فكانت له تأثيرات مدمِّرة، وتفاقمت الأوضاع أكثر خلال -بضع سنين- بفعل القحط المتكرِّر. وتفشَّت على هذه الخلفيَّة الريبة بالسياسة كما ضلّ أبطال حقبة الاستقلال طريقهم. وأدىّ غياب النقد الذاتي -أو التعبير عنه على الأقل- إلى أشكال جديدة من السخط والاستياء فاقمتها الحرب الباردة. ومع هذا لم يكتب للثورة الشيوعية قدر هام من النجاح، والمفارقة أن الأنظمة الماركسية لم تتمكّن من ضرب جذورها إلا في إثيوبيا وهي أكثر الدول الإقطاعية تخلُّفاً بين دول أفريقيا، وفي المستعمرات البرتغالية السابقة وهي أقل المستعمرات تطُّورًا، بينما كانت المستعمرات الفرنسية والبريطانية السابقة أقل تأثُّرًا بهذا المذهب.

نظام الفصل العنصري (الأبارتايد)

وراح الناس بالطبع يبحثون عن أكباش فداء سهلة لمصائبهم، فضعف التركيز على الحكّام الاستعماريين السابقين وتحوَّل إلى موضوع التقسيم العرقي في أفريقيا إلى سوداء وبيضاء، الذي كان تقسيمًا صارخًا في أكبر دول القارة، أي اتحاد جنوب أفريقيا. لقد كان البور المتحدِّثون باللغة الأفريقانية هم المهيمنين سياسيًا، وكانوا دومًا يغذون مظالمهم القديمة ضد البريطانيين والتي ازدادت حدَّة بسبب حرب البور. أما روابط جنوب أفريقيا بمجموعة الكومنولث البريطانية فكانت تضعف باستمرار. ورغم أن جنوب أفريقيا قد دخلت حرب عام ١٩٣٩ ضد ألمانيا وقدَّمت قوات هامة للمحاربة فيها، فإن «الأفريقانيين» المتشددين — كما صاروا يسمون أنفسهم - كانوا يدعمون حركة تميل للتعاون مع النازيين، وقد أصبح

قائدها رئيسًا للوزراء في عام ١٩٤٨. وفي عام ١٩٦١ خرجت جنوب أفريقيا من رابطة الكومنولث وأصبحت جمهورية، وكان الأفريقانيون -في ذلك الحين- قد بنوا لأنفسهم مكانة اقتصادية في قطاعات الصناعة والمال فضلاً عن معاقلهم التقليدية في الأرياف، وفرضوا -في الوقت نفسه- نظامًا من الفصل بين العرقين هو نظام الأپارتايد، الذي كان يسعى سعيًا حثيثًا ومنهجيًا لتقييد الأفارقة السود بالمرتبة المتدنِّية التي تقتضيها إيديولوجية البور.

وتكمن جذور معتقدات البور في فكرة أن الله نفسه ضد التزاوج بين العرقين، وفي مفهوم دارويني فظ عن الدونية الوراثية للعرق الأسود، وقد اجتذبت أفكارهم -أحيانًا- البيض الآخرين في أفريقيا. وعندما انفصلت روديسيا الجنوبية عن الكومنولث في عام ١٩٦٠ صار يخشى أن يرغب حكَّامها بمجتمع أشبه بمجتمع جنوب أفريقيا. واحتارت الحكومة البريطانية ولم يكن بإمكان الدول الأفريقية أن تفعل شيئًا -في ذلك الحين- ولا استطاعت الأمم المتَّحدة أن تأتي بشيء هام عدا عن أنها فرضت على أعضائها أن يقاطعوا هذه المستعمرة السابقة مقاطعة تجارية. ولكن الكثير من دول أفريقيا السوداء تجاهلت المقاطعة كما غضَّت الحكومة البريطانية الطرف عن تلك الخروق، ولم تشعر أنها قادرة على التدخُّل العسكري لقمع ثورة صريحة مثل التي حدثت في عام ١٧٧٦، والتي كانت بالطبع سابقة مؤلمة.

كانت جنوب أفريقيا أغنى دول المنطقة وأقواها، وكانت هي وروديسيا والمستعمرات البرتغالية موضع غضب الأفارقة السود المتزايد في بداية السبعينيات. ولم تخفِّف من شدَّة هذا الصراع بين العرقين التنازلات الزهيدة التي قدَّمت للسود في جنوب أفريقيا، ولو أن بعض الدول السوداء كانت تعتمد على روابطها الاقتصادية

بالجمهورية. ولكن بعد أن انسحب البرتغاليون من أنغولا استلم السلطة فيها نظام ماركسي، فجعل هذا التطوُّر حكومة جنوب أفريقيا تحسب حسابًا له. كما أن مستقبل روديسيا بدا مظلمًا إذ صار بالإمكان خوض حملة عصابات ضدها من موزمبيق التي زال منها حكم البرتغال. وراحت الحكومة الأمريكية تتأمل برعب عواقب الحرب الباردة إذا ما انهارت روديسيا على أيدي الوطنيين السود المعتمدين على الدعم الشيوعي. فضغطت على جنوب أفريقيا، التي ضغطت بدورها على روديسيا. وفي أيلول (سبتمبر) ١٩٧٦ أخبر رئيس وزراء روديسيا مواطنيه بأسى أن عليهم القبول بمبدأ حكم الأكثريَّة السوداء. وهكذا فشلت المحاولة الأخيرة لتأسيس دولة أفريقية يسيطر عليها البيض. وظلَّ الوطنيون الأفارقة يسعون لتحقيق استسلام غير مشروط، ولكن روديسيا عادت إلى الحكم البريطاني -لفترة وجيزة في عام ١٩٨٠- قبل أن يعود إليها استقلالها تحت اسم زمبابوه. وبذلك صارت جنوب أفريقيا هي الدولة الوحيدة التي يسيطر عليها البيض في القارة.

صين جديدة

عند نهاية الحرب العالمية الثانية كانت الصين مشغولة بعد في صراعات حول طريقة الاستمرار بعملية تحديث البلاد. ولا تدين هزيمة اليابان بالكثير لها، عدا عن الأعباء التي فرضها احتلالها على قوة اليابانيين. كان حزب الكومينتانغ متحالفًا بالاسم مع الشيوعيين، ولكنه كان يدَّخر قوته ليوم الحساب معهم، بينما راح القائد الشيوعي ماو تسه تونغ يحث رفاقه على تعميق جذورهم في الأرياف عن طريق كسب الفلاحين إلى طرفهم. أما حزب الكومينتانغ فكان عادة يمارس القمع من جديد في المناطق التي يسيطر عليها، ويرهب الفلاحين لدفع ضرائب أعلى وتسديد الأجور التي يطالبهم بها أصحاب الأراضي الذين يدعمون هذا الحزب. فعندما انهار اليابانيون بأسرع من المتوقَّع كان الشيوعيون في أماكن كثيرة مؤهَّبين لاستلام أسلحتهم واستلام السلطة أيضًا. وساعدتهم في الشمال وفي منشوريا القوات السوفييتية، بينما رسا الأمريكان بالمقابل في بعض المرافئ الأساسيَّة بأسرع ما يمكن واحتفظوا بها حتى وصلت إليها قوات الكومينتانغ.

ثم بدأت -ثلاث سنوات- من الحرب الأهليَّة، وضعفت قبضة حكومة الكومينتانغ بسرعة وصار جنودها وإداريوها يعتقدون أن الشيوعية قد تكون السبيل الأفضل لمستقبل الصين. وكان الأمريكان قد سئموا من عدم فعَّالية هذا النظام وفساده، فسحبوا قواتهم في -عام ١٩٤٧- وبدؤوا يقلِّصون مساعداتهم له. وفي عام ١٩٤٨ اضطرَّت الحكومة أن تنسحب إلى تايوان -وما زالت خليفتها هناك حتى

اليوم- فصار بإمكان الشيوعيين أن يرسّخوا أقدامهم على البر الرئيسي. وفي الأول من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٩ أعلن عن تأسيس جمهورية الصين الشعبية الشيوعية في بكين، التي عادت لتصبح عاصمة البلاد من جديد، وأعيد توحيد الصين أخيرًا تحت حكم نظام لا غبار على ثوريته.

الصين الشيوعية

كان الاتحاد السوفييتي أول دولة اعترفت بالنظام الجديد في الصين، وأتت بعدها بزمن قصير المملكة المتحدة والهند وبورما. ولم يكن أمام قادة الصين أي خطر حقيقي من الخارج، فأمكنهم التركيز على مهمَّة صعبة وهائلة كانت تنتظر الاهتمام بها -منذ زمن بعيد- ألا وهي مهمة تحديث البلاد. فقد كان الفقر في كل مكان، وكانت الأمراض وسوء التغذية واسعة الانتشار، وكانت البلاد -منذ زمن طويل- بحاجة لبنائها ماديًا، وكان ضغط السكان على الأرض شديدًا كالعادة، كما لم يكن هناك بد من ملء الفراغ المعنوي والإيديولوجي الذي خلفه انهيار النظام القديم على مدى القرن السابق. وكانت الأرياف هي نقطة البداية، فأطيح بزعماء القرى وأصحاب الأراضي بصورة عنيفة -وقال ماو تسه تونغ نفسه إن ٨٠٠,٠٠٠ صيني قد تمَّت «تصفيتهم» خلال -السنوات الخمس الأولى- من عمر الجمهورية الشعبية، وهذا الرقم هو حتمًا أقل من العدد الحقيقي- بينما دفعت عمليَّة التصنيع إلى الأمام بمساعدة سوفييتية.

إن الوحدة السطحيَّة التي كانت تبدو في الكتلة الشيوعية والمعاهدة الصينية السوفييتية لعام ١٩٥٠ قد فسرتا كدليل على أن الصين الجديدة تدخل الحرب الباردة، خاصة في الولايات المتحدة التي كانت تُصِرُّ على عدم انضمامها إلى منظمة

الأمم المتحدة. صحيح أن حكّامها كانوا يتحدّثون عن الثورة وعن مناهضة الاستعمار وأن خياراتهم كانت محكومة بمعايير الوضع الدولي، ولكنهم كانوا -منذ البداية يبدون الكثير من الهموم التقليدية لسياسة الصين، خاصة في سعيهم لإعادة ترسيخ الدائرة التاريخية لنفوذها. إن احتلالهم للتبت -في عام ١٩٥١- يذكر بأنها كانت تحت السيادة الإمبراطورية -طوال قرون عديدة- كما أن كوريا كانت هي أيضًا واحدة من المناطق القديمة التي تهمّ الصين، ولم تكن استجابة الصينيين حول نهر يالو -الواقع بين منشوريا وكوريا- إزاء التهديد الأمريكي -في عام ١٩٥٠- بالأمر الغريب. ولكن -منذ البداية- كان الصخب الأعلى يدور حول تايوان، التي احتلها اليابانيون من الصين في عام ١٨٩٥ ولم تعد إلى سيطرتها إلا لفترة وجيزة في عام ١٩٤٥. وكانت الحكومة الأمريكية ملتزمة التزامًا عميقًا بنظام الكومينتانغ، فأعلنت في عام ١٩٥٥ أنها سوف تحمي هذا النظام التابع لها. وقد استحوذ موضوع الكومينتانغ على السياسة الأمريكية -طوال أكثر من عقد كامل- فكان مصدر إزعاج واستثارة لها في بعض الأحيان. وبالمقابل ساندت كل من الهند وروسيا بكين -خلال الخمسينيات- حول موضوع تايوان، وكانتا تصران على أن هذا الموضوع هو موضوع صيني داخلي بحت، ولم يكن هذا التأييد يكلفهما شيئًا.

التعقيدات الدولية

إلا أن العقد التالي قد أتى بتوتُّرات بين الصين وبين هاتين الدولتين – أي الهند وروسيا – اللتين كانتا تبدوان صديقتين لها. فعندما زاد الصينيون من إحكام قبضتهم على التبت في عام ١٩٥٩ بدأت النـــزاعات على الأراضي مع الهند. ولم يقبل الصينيون بالاعتراف بالحدود التي رسمتها المفاوضات بين البريطانيين وأهل

التبت والتي لم تقبلها أي حكومة صينيّة بصورة رسميّة، أما كون تلك الحدود موجودة بحكم العرف -منذ أكثر منذ أربعين سنة- فلم يكن له وزن يذكر أمام تاريخ الصين الذي -يعد بآلاف السنين- ونشب الاقتتال على الحدود في خريف عام ١٩٦٢.فلم يبل الهنود فيه بلاء حسنًا ولم ينسحب الصينيون -وفي بداية عام ١٩٦٣- أذهلت الصين العالم عندما أعلنت شجبها لقطع الاتحاد السوفييتي مساعداته الاقتصادية والعسكرية عنها ومساعدته للهند. وكان لهذا العداء تاريخ قديم، فقد كان الشيوعيون الصينيون يذكرون حصول توترات بين النفوذ السوفييتي والنفوذ المحلي على قيادة الحزب الصيني -منذ العشرينيات- وكان ماو يمثّل الفريق الثاني. ولكن هذا الموضوع قُدّم لبقية العالم بتعابير ومصطلحات ماركسية محيّرة. وبينما كانت القيادة الجديدة في روسيا تحاول تبديد الأسطورة الستالينية كان الصينيون يتحدّثون بلهجة ستالينية ويمارسون في -الوقت نفسه- سياسات مناهضة للاتحاد السوفييتي.

الحقيقة أن للخلافات الصينية السوفييتية جذورًا عميقة جدًا، فقبل تأسيس الحزب الشيوعي الصيني -بزمن طويل- كانت الثورة الصينية مدفوعة بالسخط على الأجانب، وكان الروس دومًا من أهمّهم. كان بطرس الأكبر قد بدأ بالاعتداء على دائرة نفوذ الصين، ثم استولى خلفاؤه في -القرن التاسع عشر- على أراض صينية أوسع مما أخذته أية قوة أجنبيّة أخرى. ولم تنقطع الاستمرارية التاريخية بسقوط النظام القيصري، فقد أعلن الروس عن محميّة لهم في منطقة تانو توفا في عام ١٩١٤، ثم قام الاتحاد السوفييتي بضمها في عام ١٩٤٤. وفي عام ١٩٤٥ دخلت الجيوش السوفييتية منشوريا وشمال الصين فاستعادت بذلك الشرق الأقصى الذي كان بيد

القياصرة، في عام ١٩٠٠، وقد بقيت في سين كيانغ -حتى عام ١٩٤٩- وفي بورت آرثر حتى عام ١٩٥٥، أما في منغوليا فقد ترك السوفييت وراءهم جمهورية شعبية تابعة لهم. ولما كانت تفصل بين روسيا والصين حدود مشتركة طولها حوالى ٤,٥٠٠ ميل (٧٢٠٠ كم) إذا ضممنا إليها منغوليا فإن احتمال النـــزاع بين هاتين الدولتين الشيوعيتين كان كبيرًا جدًا، وسرعان ما بدأت المناوشات والخلافات بعد إعلان تأسيس الجمهورية الديمقراطية الشعبية.

كان ماو تسه تونغ يعرف كيف يكون متوحِّشًا كما تقتضي النظرية البلشفية، ولكن كان لديه مع ذلك إيمان راسخ بالحلول العملية وبالعبر التي يتعلّمها المرء بالخبرة، وكان ينادي بشكل من الماركسية خاص بالصين. ولهذا لم يكن لديه احترام كبير للآراء السوفييتية في الستينيات. كان موقفه من المعرفة والأفكار موقفًا عمليّاً ونفعيّاً تمامًا، فكان في هذا الأمر يسير على التقاليد الصينية. وكان ذلك من الأسباب التي منعت علاقته بالحزب الشيوعي الصيني من أن تسير بصورة سلسة. وهو لم يبلغ قمة السلطة إلا عندما تغلّبت الكوارث على الشيوعية في المدن بينما كان هو يرى في الفلاحين طريق المستقبل. وإن فكرة الحرب الثورية المديدة التي تبدأ في الأرياف وتمتد إلى المدن قد صارت تبدو فكرة واعدة في أنحاء أخرى من العالم، حيث لم يقتنع الناس بالعقيدة الماركسية الأصليّة التي تقول إن التطوُّر الصناعي ضروري لدفع البروليتاريا إلى الثورة.

صعود ماو

لقد تزامن سحب السوفييت لمساعداتهم الاقتصادية والتقنيّة للصين -في عام ١٩٦٠- مع تأثير الكوارث الطبيعية التي حلّت بالبلاد، وتقول المصادر الرسميّة

الصينيَّة إن الفيضانات أغرقت ١٥٠ مليون أكْر -٦٠ مليون هكتار- من الأراضي الزراعية. وقد جاءت هذه الكوارث إثر الفشل الذريع «للقفزة الكبرى إلى الأمام»، وهي عبارة عن عملية اقتصادية كاسحة أطلقها ماو بهدف إبطال المركزيَّة الاقتصادية ونبذ التخطيط المركزي على النمط الروسي بما يحمل من أخطار إدارية. وقد قلبت هذه «القفزة الكبرى» حياة الريف رأسًا على عقب، وحفرت أثلامًا عميقة في التقاليد الزراعية وفي الحياة الاجتماعية للعائلة والقرية وكانت كارثة حقيقية. وقد تأثَّرت مكانة ماو بذلك أيما تأثر، وأعاد خصومه الاقتصاد إلى طريق التحديث - ومن المظاهر البارزة لذلك تفجير القنبلة الذريَّة الصينيَّة في عام ١٩٦٤، وهي بطاقة اشتراك مكلفة في هذا النادي المقتصر على عدد قليل جدًا من الأعضاء- وقد تمكَّنوا من تجنُّب المجاعة والاحتفاظ بولاء الشعب، وبينما كان عدد سكان الصين يتابع ارتفاعه بلا هوادة كان قادتها يتحدَّثون دون انفعال عن احتمال نشوب حرب ذريَّة، إذ إن الصينيين سوف ينجون منها بأعداد أكبر من سكان أي دولة أخرى. إلا أن الصين ظلَّت متأخِّرة في مجال التحديث.

وظلَّت الأحداث الجارية في الاتحاد السوفييتي تؤثِّر في صياغة سياسة الصين. فبعد موت ستالين كان الفساد ومقاومة التجديد واضحين في الإدارة السوفييتية، وإن الخوف من حدوث أمر مشابه في الصين قد دفع ماو للقيام بمحاولته الأخيرة لكي يهيمن بأفكاره على الجيل الجديد من خلال «الثورة الثقافية» التي أتى بها بين عامي ١٩٦٦- ١٩٦٩. فقد خشي أن تبرد الثورة وتفقد زخمها المعنوي وقرَّر أن حمايتها تقتضي القضاء على الأفكار القديمة. وحاول أن يوازن نشوء الطبقة الحاكمة الجديدة، فأغلق الجامعات وفرض العمل الجسدي على جميع المواطنين من أجل تغيير مواقفهم التقليدية نحو المثقفين، وتجدَّد التشديد على التضحية بالذات وعلى فكر

الرئيس ماو، وفي عام ١٩٦٨ كانت البلاد قد زُعزِعَتْ من رأسها حتى قدميها. لقد كان ماو في البداية مؤيِّدًا «للحراس الحمر» الذين قادوا الثورة الثقافية، ولكنه في النهاية بات مضطرًّا للتسليم بأن الأمور قد تجاوزت حدَّها، وأخيرًا وبعد -ثلاث سنوات- من الهيجان تدخَّلَ الجيش ليعيد النظام ويضع ملاكات -كوادر- جديدة. وكان ماو قد فشل ولو أن مؤتمرًا للحزب قد أعاد تثبيت قيادته، وربما قتل في تلك الأثناء نصف مليون إنسان أو دفعوا إلى الانتحار، عدا عن الذين قتلوا في السابق.

لقد كانت الثورة الثقافيَّة حدثًا شاذًا، ولكنها واحدة من أوسع الثورات في تاريخ العالم من حيث مداها ورغبتها بتغيير الأوضاع. كان المجتمع والحكم والاقتصاد دومًا متداخلة ومتشابكة -فيما بينها- في الصين بصورة لا تجد مثيلاً لها في أي بلد آخر، وكانت المكانة التقليدية للمثقفين والأدباء تجسِّد النظام القديم، وكانت الهجمات المقصودة على سلطة العائلة هجمات على أكثر مؤسَّسات الصين محافظة. وإن دفع المرأة إلى الأمام ومناهضة الزواج الباكر كانت اعتداءات على الماضي لم تقم بمثلها أي ثورة أخرى من قبل، لأن دور المرأة في الصين كان دومًا متدنِّياً ودون دورها في المجتمعات الأخرى قبل أن تعرف الثورة، مثل مجتمع أمريكا أو فرنسا أو حتى روسيا. ولم يكن الهجوم على قادة الحزب واتهامهم بالتعاطف مع الأفكار الكونفوشية مجرد إهانة وتعيير لهم، بل إنه كان -في الوقت نفسه- هجومًا على تاريخ الصين الهائل الذي كانت تسعى لقهره والتغلُّب عليه.

ويمكننا اعتبار الثورة الصينية واحدة من الاندفاعات الكبرى في التاريخ، وهي تقارن بانتشار الإسلام وهجوم أوربا على العالم في -بداية الأزمنة الحديثة- ولكن المفارقة أن هذه الثورة لم تكن ممكنة من دون توجيه مقصود، فقد كانت الحكومة في الصين تتمتَّع بالمكانة السحريَّة التي كانت للسلالات الإمبراطورية من قبلها والتي

كانت تحمل انتدابًا بالحكم من السماء. ومازالت التقاليد الصينية تؤيِّد السلطة تأييدًا معنويًّا اختفى في الغرب -منذ زمن بعيد- ولن تجد مجتمعًا مثلها زرع في أبنائه فكرة أن الأفراد أقل أهميَّة من الجماعة، وأن السلطة يحق لها أن تفرض الخدمات على ملايين الناس مهما كلفهم ذلك من أجل النهوض بأعمال كبرى لمصلحة الدولة، وأن تلك السلطة لا تخضع للمساءلة إذا كانت تمارس من أجل المصلحة العامة. إن مفهوم المعارضة مكروه في الصين لأنه يوحي بخطر التمزُّق الاجتماعي، وقد كان ماو جزءًا من هذا التقليد فاستفاد من ماضي الصين لكي يحطِّمه، وكان دكتاتورًا لعقيدة أخلاقية قُدِّمتْ على أنها قلب المجتمع وروحه، تمامًا، مثلما كانت الكونفوشية من قبلها.

شرق آسيا جديد

منذ زمن موت ستالين، كانت تزداد صحة تنبّؤ قام به رجل دولة من جنوب أفريقيا هو سماتس -قبل أكثر من ربع قرن -من ذلك عندما قال «إن مسرح الأحداث قد انتقل من أوربا إلى الشرق الأقصى والمحيط الهادي». وبعد كوريا ظهر -الآن- دور الهند الصينية. كانت الهند الصينية تتبع تقليديًا للصين، وقد تباعدت فيها السياستان السوفييتية والصينية مخفّفة بذلك من حدّة التباين بين الشرق والغرب في الحرب الباردة. وبعد دين-بين-فو تمّ عقد مؤتمر في جنيف اتُّفق فيه على تقسيم ڤيتنام بانتظار إجراء انتخابات قد تعيد توحيد البلاد، ولكن تلك الانتخابات لم تحدث قط. وبدلاً من ذلك جرت في الهند الصينية أشرس مرحلة -منذ عام ١٩٤٥ - من حرب آسيا ضد الغرب التي -ابتدأت في عام ١٩٤١- ولكن الطرف الغربي في هذا الصراع لم يعد مكوَّناً من الحكام الاستعماريين السابقين بل من الأمريكان، وفي الطرف الآخر كان هناك مزيج من الشيوعيين والوطنيين والمصلحين من أهل الهند الصينية بدعم من الصين والاتحاد السوفييتي. إن عداء الولايات المتَّحدة للشيوعية وإيمانها بالحكومات المحليَّة جعلاها تدعم الڤيتناميين الجنوبيين مثلما كانت تدعم الكوريين الجنوبيين والفلبينيين. ولكن لم يظهر في ڤيتنام الجنوبيَّة أنظمة لا غبار على شرعيتها في أعين مواطنيها، بل صارت هذه الأنظمة تعتبر تابعة للعدو الغربي المكروه في شرق آسيا كرهًا شديدًا. وكانت الطبقة الحاكمة تبدو فاسدة ولكنَّها استمرت رغم تبدُّل الحكومة المرة تلو المرة. أما الشيوعيون فقد كانوا يسعون

لتوحيد البلاد عن طريق دعمهم من الشمال لحركة سريَّة في الجنوب هي حركة الفيت كونغ. وفي عام ١٩٦٢ قرَّر الرئيس الأمريكي جون كندي إرسال ٤,٠٠٠ «مستشار» أمريكي لمساعدة حكومة فيتنام الجنوبية. وكانت تلك خطوة واضحة نحو تورُّط أمريكي في حرب كبرى على البر الرئيسي لآسيا، وهذا ما كان ترومان يخشاه من قبل ويسعى إلى تجنُّبه.

فكرة العالم الثالث

كانت الحياة الدولية -في ذلك الحين- قد ازدادت تعقيدًا، ومن مظاهر هذا التعقيد ظهور دول تقول إنها دول محايدة أو «دول عدم الانحياز». وقد اجتمع ممثلو تسع وعشرين دولة أفريقية وآسيوية في باندونغ بإندونيسيا في عام ١٩٥٥، وكانت أكثرها -ما عدا الصين- أجزاء من الإمبراطوريات الأوربية القديمة -وسرعان ما انضمت إليهم يوغسلافيا، مع أنها لم تكن تابعة لإمبراطورية منذ عام ١٩١٨- كانت هذه البلاد فقيرة وبحاجة للمساعدة، وكان ارتباطها بالولايات المتحدة أكبر من ارتباطها بروسيا، وكانت أكثر ميلاً إلى الصين. وقد سُمِّيَت -فيما بعد- دول «العالم الثالث»، ويبدو أن هذه التَّسمية قد وضعها صحفي فرنسي لكي يذكر «بالطبقة الثالثة»، التي كانت هي الطبقة المحرومة من الحقوق في فرنسا في -عام ١٧٨٩ - والتي أعطت الثورة الفرنسية الكثير من زخمها واندفاعها. وكانت هذه الدول تشعر أنها مهملة من قبل القوى العظمى ومحرومة من المزايا الاقتصادية التي تتمتَّع بها الدول المتطوِّرة وأنها تستحق كلمة أكبر في إدارة شؤون هذا العالم، وقد قيل الكثير عن هذا الموضوع في الأمم المتحدة. إلا أن تعبير «العالم الثالث» يخفي وراءه فروقًا هامة فيما بينها، وإن أعداد الناس الذين قتلوا في حروب العالم الثالث وحروبه الأهلية -منذ عام ١٩٥٥- أكبر من أعداد الذين قتلوا في صراعات خارجة عنه.

وراحت كل من روسيا والصين تسعى لقيادة دول عدم الانحياز النامية، وقد ظهر هذا الأمر -في البداية- بصورة غير مباشرة. فقد اختلفت الدولتان حول يوغسلافيا -وبمرور الزمن- صارت باكستان أقرب إلى الصين -بالرغم من معاهدتها مع الولايات المتّحدة- وصارت روسيا أقرب إلى الهند -التي كانت المساعدات الاقتصادية التي تمنحها لها الولايات المتحدة حتى عام ١٩٦٠ أكبر مما تمنحه لأي دولة أخرى- وعندما رفضت الولايات المتحدة تزويد باكستان بالأسلحة في عام ١٩٦٥ طلبت هذه مساعدة الصين. وكانت هذه التغيُّرات دليلاً على ميوعة جديدة في العلاقات الدولية.

لقد سبَّبت إندونيسيا -أيضًا- المصاعب للقوى العظمى. كان امتدادها الشاسع يضم شعوبًا كثيرة ذات مصالح متباعدة جدًا، وكان رحيل الهولنديين قد حرَّرها من قسوة الحكم الأجنبي ولكن -في الوقت نفسه- بدأت تظهر مشاكل ما بعد الاستعمار المألوفة، مثل فرط عدد السكان والفقر والتضخُّم. وكان الاستياء يتزايد من حكومتها المركزيَّة في الخمسينيات، وبحلول عام ١٩٥٧ كانت قد واجهت ثورة مسلحة في سومطره وقلاقل في أنحاء أخرى. وقد جرَّبت الطريقة القديمة المعتمدة على إلهاء المعارضة عن طريق تهييج المشاعر الوطنيَّة ولكنها لم تنجح طويلاً. كان الرئيس سوكارنو قد ابتعد عن الأساليب الليبرالية التي تمّ تبنيها عند ولادة هذه الدولة الجديدة وحل البرلمان في عام ١٩٣٠. وفي عام ١٩٦٣ عين رئيسًا مدى الحياة. وكان كل من الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة يخشى أن يميل سوكارنو إلى الصين فوقفا إلى جانبه -زمنًا طويلاً- فمكّنه هذا الوضع من فرض قوَّته والهجوم على ماليزيا، التي كانت اتحادًا فدراليًا شُكِّلَ في -ذلك العام نفسه- من أجزاء من الإمبراطورية البريطانية في جنوب شرقي آسيا. ولكن ماليزيا تمكّنت من

التغلُّب على هجمات إندونيسيا بمساعدة بريطانيا، ويبدو أن هذه النكسة كانت هي نقطة التحوُّل في سلطة سوكارنو. لقد أدَّى نقص الطعام والتضخُّم إلى محاولة انقلاب قام بها الشيوعيون – أو هذا ما قاله العسكريون – في عام ١٩٦٥، ووقف الجيش يتفرَّج بينما راحت المجازر الشعبية تقضي على الشيوعيين الذين كان بإمكان سوكارنو أن يعتمد عليهم. ثم أزيح هو أيضًا في العام التالي واستلم السلطة نظام معاد للشيوعية عداء راسخًا، وقطع علاقاته الدبلوماسية بالصين.

كانت استعادة الصين لقوَّتها -بحلول عام ١٩٦٠- هي الحقيقة الاستراتيجية الأساسيَّة في الشرق الأقصى. وحتى كوريا الجنوبية واليابان استفادتا من الثورة الصينية، لأنها أعطتهما قوة في التعامل مع الغرب. وقد كان أهل شرق آسيا يعززون استقلالهم بأشكال مختلفة سواء كانوا شيوعيين أو غير شيوعيين، ونادرًا ما استسلموا لمحاولات الصين المباشرة في التدخُّل بشؤونهم. ولا ريب أن هذا الأمر مرتبط بالنـــزعة المحافظة العميقة في مجتمعاتهم، إذ يتميَّز الآسيويون الشرقيون بانضباطهم وقدرتهم على القيام بمجهود اجتماعي بناء، وتقليلهم من قيمة الفرد، وتبجيلهم للسلطة والتسلسل الهرمي ووعيهم العميق لانتمائهم إلى حضارات يفتخرون بتميُّزها عن الغرب، وكانت هذه كلّها أسسًا يعتمدون عليها في حماية استقلالهم وصونه.

تعافي اليابان

كان استسلام اليابان قد أخذ ستالين على حين غرَّة. ورفض الأمريكيون بشدَّة مطالبه بحصَّة في احتلال لم يفعل الاتحاد السوفييتي شيئًا لتحقيقه، وبدؤوا وحدهم آخر المراحل الكبيرة للسيطرة الغربيَّة في آسيا. ولكن اليابانيين أظهروا من

جديد موهبتهم المدهشة في تعلُّم ما يريدون من الآخرين وترك ما لا يريدون. وكان عام ١٩٤٥ خطًّا فاصلاً بالنسبة لهم. لقد أقحمتهم الهزيمة نفسيًّا في القرن العشرين الذي لم يدخلوه سابقًا إلا من الناحية التقنيَّة، وواجهتهم بسببها مشاكل عميقة ومؤرِّقة حول هويَّتهم القوميَّة وأهداف بلادهم. وقد تبدَّد حلم «آسيا للآسيويين» وترك انسحاب الاستعمار الياباني من دون دور واضح في آسيا، كما أن الحرب قد كشفت عن ضعفها فكانت تلك صدمة كبيرة. وكان اقتصاد البلاد مخربًا، إذ دمر أكثر من - ثمانين بالمئة - من قطاع الشحن وحده فيها، وفوق كل هذا سبَّبت لها الهزيمة فقدان الأراضي والاحتلال.

ولكن الصورة لم تخل من بعض العناصر الإيجابية. لقد مكَّنت الملكية البلاد من الاستسلام فصار الكثيرون من اليابانيين يرون في الإمبراطور مخلِّصهم من الفناء. وكان القائد الأمريكي في المحيط الهادي الجنرال ماك آرثر حريصًا على أن يتبنَّى اليابانيون دستورًا ملكيًّا جديدًا قبل أن يتدخَّل المتحمِّسون الجمهوريون في الولايات المتحدة. وكان تماسك المجتمع الياباني وانضباطه ميزتين أخريين، ولو أن تصميم الأمريكان على جعل البلاد ديمقراطية قد بدا خطرًا عليها لفترة من الزمن. إن ما قامت به اليابان من إصلاح كبير للأراضي وديمقراطية التعليم ونزع للأسلحة بعناية كبيرة قد اعتبرت كلها في عام ١٩٥١ كافية لعقد معاهدة سلام بينها وبين أكثر خصومها السابقين - ما عدا الوطنيين الصينيين والاتحاد السوفييتي، الذي عقد معاهدة خلال بضع سنوات - فاستعادت اليابان سيادتها الكاملة وسيطرتها على شؤونها ولو بقيت القوات الأمريكية في أراضيها؛ وكانت أوضاعها تبدو على ما يرام ولو أنها كانت تواجه في الصين بلدًا أقوى وأشد تماسكًا بكثير مما كان عليه طوال قرن سابق.

وسرعان ما بدأت نتائج الاحتلال الأمريكي بالتغيُّر. إن بين اليابان والصين ٥٠٠ ميل - ٨٠٠ كم - من المياه، ولكن كوريا وهي منطقة التنافس الإمبراطوري القديمة لا تبعد عنها إلا بمسافة ١٥٠ ميلاً - ٢٤٠ كم - وتبعد عنها الأراضي السوفييتية مسافة عشرة أميال فحسب - ١٦ كم. وقد جلبت الحرب الباردة في آسيا مكاسب حقيقية لليابان، فسرعان ما ارتفع إنتاجها الصناعي إلى مستويات ما قبل الحرب، كما كانت الدبلوماسية الأمريكية تُعزِّز مصالح اليابان في الخارج، ولما كان ممنوعًا على اليابان - حتى عام ١٩٥١ - أن تكون لها أية قوات مسلحة فلم يكن لديها أي تكاليف دفاع بل كانت تتمتَّع بحماية المظلَّة النووية الأمريكية.

وسرعان ما برزت اليابان كجزء أساسي من نظام الأمن الأمريكي في آسيا والمحيط الهادي. وكان هذا النظام يرتكز أيضًا على معاهدات مع أوستراليا ونيوزيلندا والفلبين - التي أصبحت مستقلة في عام ١٩٤٦- ثم تلتها معاهدات أخرى مع الباكستان وتايلند - وهما الحليفتان الآسيويتان الوحيدتان للأمريكيين عدا عن تايوان - أما إندونيسيا والأهم منها الهند فقد بقيتا بعيدتين. وكانت هذه التحالفات جزئيًا انعكاسًا للظروف الجديدة في المحيط الهادي وللعلاقات الدولية الجديدة لآسيا. لقد بقيت قوات بريطانية في الشرق لفترة قصيرة، ولكن أوستراليا ونيوزيلندا اكتشفتا أثناء الحرب أن بريطانيا غير قادرة على الدفاع عنهما وأن الأمريكان قادرون على ذلك. صحيح أن البريطانيين قادرون على دعم ماليزيا ضد إندونيسيا، ولكنهم كانوا يعلمون أن هونغ كونغ لا يمكن أن تستمر إلا لأن وجودها مناسب للصين. إلا أنه لم يكن بالإمكان ترتيب الأمور في منطقة المحيط الهادي على أساس الحرب الباردة وحدها؛ فصحيح أن الأمريكيين كانوا يرون في اليابان قوة قد تتصدَّى للشيوعية، إلا أن أوستراليا ونيوزيلندا ظلَّتا تتذكَّران عام

١٩٤١ وتخشيان انتعاش قوَّتها، لهذا لم تكن سياسة أمريكا مبنيَّة على الإيديولوجية وحدها، ولو أن نجاح الشيوعية في الصين ورعايتها للثورات في أفريقيا وأمريكا الجنوبية ظلاَّ يستحوذان على تفكير الأمريكان - زمنًا طويلاً - والحقيقة أن بزوغ الصين قد بدل تمامًا نظام الحرب الباردة الثنائي، فأصبحت روسيا زاوية في مثلث كما فقدت بروزها الفريد في الحركة الثوريَّة العالمية. إن الحرب الباردة لم تكن بالأمر البسيط - في يوم من الأيام - وقد أصبحت - الآن - أكثر تعقيــدًا من أي - وقت مضى - وإن الدعايات السياسية الفجَّة التي كانت تصدر عنها قد جعلتها أشبه بالصراعات الدينية المعقَّدة في أوربا في القرنين السادس عشر والسابع عشر، عندما كانت الإيديولوجية تُحرِّض على العنف وتُهيِّج العواطف وقد تؤدي إلى الإقناع - أحيانًا- ولكنَّها لم تكن قط قادرة على احتواء التعقيدات والتيارات الكثيرة الناشئة من المصالح المختلفة، خاصة مصالح القوميَّات. إلا أن الخطابات الطنَّانة والأوهــام الكبيرة تستمر - طويلاً - بعد أن يكون الواقع قد تغيَّر، ومن هذه الناحيــة -أيضًا- تبدو الحرب الباردة شبيهة بالصراعات الدينية في الأيام الغابرة.

الحرب الباردة تصل إلى نصف الكرة الغربي

بعد حصار برلين صار كل من الطرفين في أوربا أكثر حرصًا على تجنُّب المجازفات التي قد تزعزع الأمور وتحمل الخطر لهما. عندما حدثت ثورة في هنغاريا ضد نظامها الشيوعي في عام ١٩٥٦ سحقتها قوات حلف وارسو - وفي عام ١٩٦٢ - تحرَّكت الدبلوماسية من جديد عندما قامت الجمهورية الألمانية الديمقراطية (الشرقية) بدعم من السوفييت بعزل برلين الشرقية عن الغربيَّة فجأة وبسرعة عن طريق بناء سور منع تسرب القوَّة العاملة الثمينة إلى أوربا الغربيَّة، وقد خفَّف هذا الأمر التوتُّر على المدى البعيد لأنه أزال شوكة من جنب ألمانيا الشرقية. وعندما نشبت أزمة تحمل خطر الحرب النوويَّة - في العام نفسه - لم تكن في أوربا بل على عتبة باب الولايات المتحدة.

أما أمريكا اللاتينية فلم تتأثَّر كثيرًا بسياسات الحرب الباردة - وكان القرن العشرون - يسير فيها على إيقاعات مختلفة عنه في أوربا وآسيا. في عام ١٩٠٠ كان الجزء الأكبر من أمريكا اللاتينية ثابتًا ومزدهرًا، وتشهد على ذلك حداثة مدنها الكبرى واحتذاؤها للمهاجرين الأوربيين. وكانت أكثر دولها تصدر المنتجات الزراعية أو المعدنية، أما قطاعاتها الصناعية فكانت ضئيلة ولم تتأثَّر على ما يبدو بالمشاكل الاجتماعية والسياسية في أوربا، مع أن الصراعات الطبقيَّة كانت كثيرة في المناطق الريفية.

ثم أتت الحرب العالميــة الأولى بتغيُّرات هامــة. لقــد كانت الولايات المتحدة - قبل ذلك - هي القوة السياسية المهيّمنة في منطقة الكاريبــي، ولكنها لم تكن تمارس وزنًا اقتصاديًا كبيرًا في شؤون أمريكا الجنوبية. إلا أن هذا الوضع تغيَّر عند تصفية الاستثمارات البريطانية - خلال الحرب - فصارت الولايات المتحدة بحلول عام ١٩٢٩ تؤمِّن حوالى - أربعين بالمئة من رأس المال الأجنبي في أمريكا الجنوبية - ثم أتى الكساد العالمي فتخلّفت كثير من دول القارة عن تسديد دفعاتها للمستثمرين الأجانب وصار من شبه المستحيل عليها أن تقترض من الخارج. إن انهيار الرفاهية هذا قد أدَّى إلى اشتداد المشاعر الوطنيــة، وكانت هــذه موجهــة - أحيانًا - ضد الدول المجاورة - وأحيانًا - ضد أمريكا الشمالية وأوربا، وقد صودرت أملاك شركات النفط الأجنبية في المكسيك وبوليفيا. واهتزت صورة الأقليّات الحاكمة التقليدية بسبب عجزها عن حل المشاكل الناجمة عن هبوط الدخول، فحدثت - منذ عام ١٩٣٠ - انقلابات عسكريّة في جميع الدول ما عدا المكسيك. ولكن -عام ١٩٣٩- أعاد الازدهار بسبب ارتفاع أسعار سلع التصدير، ثم استمرَّ الأمر على هذه الحال بفعل الحرب الكورية. وقد تقرَّب حكّام الأرجنتين من ألمانيا النازية، ولكن أكثر الجمهوريات كانت متعاطفة مع الحلفاء الذين تقرَّبوا منها، وانضمت أكثرها إلى جانب الأمم المتّحدة قبل أن تنتهي الحرب، كما أرسلت البرازيل قوة صغيرة إلى أوربا فكانت تلك إشارة لافتة. إلا أن أهم تأثيرات الحرب على أمريكا اللاتينية كانت تأثيرات اقتصادية، إذ راح الاندفاع الشديد نحو التصنيع يستجمع زخمه في دول عديدة، وشكّلت عملية التصنيع هذه قوات عاملة في المدن سوف يُبنَى عليها شكل جديد من السلطة السياسية تنافس السلطة العسكرية والنخب التقليدية في حقبة ما بعد الحرب، كما ظهرت في دول عديدة حركات جماهيرية شعبية دكتاتورية وأشبه بالفاشية.

وقد حصل تغيُّر هام أيضًا - ولكن ليس نتيجة للحرب - في استخدام الولايات المتَّحدة لسلطتها المهيمنة على منطقة الكاريبـــي. كانت القوات المسلَّحة الأمريكية قد تدخَّلت مباشرة هناك - عشرين مرة خلال السنوات العشرين الأولى من القرن - وفي حالتين منها وصل بها الأمر إلى تأسيس محميَّات لها. أما بين عامي - ١٩٢٠ و١٩٣٩ - فلم تقم إلا بتدخُّلين من هذا النوع، كما انخفض ضغطها غير المباشر فيها. وفي - الثلاثينيات - أعلن الرئيس روزفلت عن سياسة «حسن الجوار» التي كانت تشدِّد على عدم التدخُّل. لقد كانت المشاغل الأوربيَّة تسيطر على السياسة الأمريكيَّة في - السنوات الأولى بعد الحرب - ولكنها بعد كوريا صارت تتَّجه نحو الجنوب رويدًا رويدًا، ولم تهتم واشنطن اهتمامًا زائدًا بتظاهرات المشاعر الوطنية في أمريكا اللاتينية التي كانت تميل لإيجاد كبش فداء في السياسة الأمريكية، ولكن قلقها ازداد من احتمال أن يصبح نصف الكرة الغربي مأوى للنفوذ الروسي، وهكذا وصلت الحرب الباردة إلى القارة الأمريكية، وفي عام ١٩٥٤ أطيح في غواتيمالا بمساعدة من الأمريكان بحكومة كانت تحظى بدعم الشيوعيين.

إن قلق الولايات المتحدة من أن يشكِّل الفقر والاستياء مواطئ أقدام للشيوعية قد جعلها تُقدِّم المساعدات الاقتصادية وتهلل للحكومات التي تقول إنها تسعى للإصلاح الاجتماعي. ولكن المؤسف أنه كلما كانت برامج تلك الحكومات تسير نحو القضاء على السيطرة الأمريكية على رأس المال عن طريق التأميم كانت السياسة الأمريكية تبتعد عنها من جديد. وهكذا وجدت الحكومة الأمريكية نفسها بالإجمال مؤيدة للمصالح القديمة في أمريكا اللاتينية كما في آسيا، ولو أنها قد تستنكر الأعمال المتطرِّفة التي تصدر عن أحد الأنظمة الدكتاتورية.

كوبا

إن الثورة المظفَّرة الوحيدة التي حدثت في أمريكا اللاتينية هي ثورة كوبا، وهي جزيرة تبعد مسافة قصيرة نسبيًّا عن الولايات المتحدة. لقد أصيبت كوبا بالذات إصابة جسيمة خلال الكساد الكبير، وكانت معتمدة على محصول واحد هو السكّر الذي لم يكن له إلا مستورد واحد هو الولايات المتحدة. ولم تكن هذه الرابطة الاقتصادية إلا واحدة من روابط عديدة جعلت لكوبا «علاقة خاصة» بالولايات المتحدة هي أقرب وأكثر إزعاجًا من علاقة أي دولة أخرى في أمريكا اللاتينية بتلك القوة العظمى - وحتى عام ١٩٣٤ - كان دستور كوبا يضم بنودًا خاصة تحدُّ من حريتها السياسية وكان الأمريكان يحتفظون بقاعدة بحرية في الجزيرة - وما زالوا - كما كانت هناك استثمارات أمريكية واسعة في مجال الأملاك والخدمات العامة، وإن فقر كوبا وانخفاض أسعارها قد جعلا منها دومًا منتجعًا جذابًا للسواح الأمريكان.

كانت الولايات المتحدة تعتبر هي القوة الحقيقية الكامنة وراء حكومات كوبا المحافظة في - فترة ما بعد الحرب - ولكن الحقيقة أن الأمر لم يعد على هذه الصورة، إذ لم تكن وزارة الخارجية الأمريكية راضية عن دكتاتور كوبا باتيستا وقد قطعت عنه المساعدات في عام ١٩٥٧. وكان الطبيب الوطني الشاب فيدل كاسترو قد بدأ حملة عصابات ضد النظام، وقد نجح - خلال سنتين - وأصبح أشبه بالبطل في نظر الولايات المتحدة. وبينما كان رئيسًا للوزراء في كوبا الثورية الجديدة وصف نظامه في عام ١٩٥٩ بأنه «إنساني» وبالتحديد بأنه غير شيوعي. وكان يعمل مع طيف واسع من الأطراف الراغبة بالإطاحة بباتيستا من الليبراليين

إلى الماركسيين، وكانت الولايات المتحدة ترعاه وترى فيه سوكارنو منطقة الكاريبـــي. ولكن هذه العلاقة سرعان ما تردَّت حالما تحوَّل كاسترو إلى الإصلاح الزراعي وتأميم شركات السكر واتهام تلك العناصر الأمريكية في المجتمع الكوبي التي كانت تدعم النظام القديم. وكانت العداوة لأمريكا وسيلة منطقيَّة أمامه – بل ربما كانت الوسيلة الوحيدة – لتوحيد الكوبيين وراء الثورة. وسرعان ما قطعت الولايات المتحدة علاقاتها الدبلوماسية بكوبا وبدأت بفرض الضغوط الاقتصادية أيضًا. وبعد -زمن قصير- قرَّرت أن تساعد على الإطاحة بكاسترو عن طريق القوة، وكان المنفيون يتدرَّبون بدعم أمريكي في غواتيمالا قبل أن يستلم الرئيس كندي منصبه في عام ١٩٦١. ولم يكن كندي حذرًا ولا عميق التفكير بحيث يمنع إرسال حملة ضده ما لبثت أن فشلت فشلاً ذريعًا. فتحوَّل كاسترو الآن بحرارة نحو روسيا وأعلن في -نهاية العام- أنه ماركسي لينيني -ومنذ ذلك الحين- صارت كوبا بؤرة للثورة في أمريكا اللاتينية. وقد وضع كاسترو جلاَّديه محلَّ جلادي باتيستا وراحت حكومته تدفع بسياسات ألحقت بالاقتصاد ضررًا كبيرًا، ولكنها كانت تسعى لتشجيع المساواة والإصلاح الاجتماعي -وقالت كوبا في السبعينيات إن لديها أخفض معدَّلات لوفيَّات الأطفال في أمريكا اللاتينية- وظلَّت أمور البلاد تسير بفضل المساعدات الاقتصادية الروسية.

الأزمة

وسرعان ما حدثت -بعد ذلك- أخطر المواجهات في الحرب الباردة كلِّها، وهي التي كانت على الأرجح نقطة التحوُّل فيها. فقد قرَّرت الحكومة السوفييتية أن تضع في كوبا صواريخ قادرة على بلوغ أي ركن من أركان الولايات المتحدة،

وأكّدت الصور الفوتوغرافية الاستطلاعية الأمريكية في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٢ أن الروس يبنون مواقع لها، فعندما تبيَّنت حقيقة هذا الأمر بما لا يدع مجالاً للشك أعلن الرئيس كندي أن بحرية الولايات المتحدة سوف توقف أي سفينة تحمل المزيد من الصواريخ إلى كوبا، وأن الصواريخ الموجودة فيها يجب أن تسحب. وتمّ تفتيش سفينة لبنانية في الأيام التي تلت، أما السفن الروسية فكانت تراقَب فقط، وقد جُهِّزت القوة الضاربة النوويَّة الأمريكيَّة من أجل الحرب -وبعد مرور بضعة أيام- وتبادل عدد من الرسائل الشخصيَّة بين كندي والزعيم السوفييتي خروتشيف وافق الأخير على ضرورة سحب تلك الصواريخ.

لقد كان تأثير هذه الأزمة على العلاقات بين القوتين العظميين وعلى تقييم كل منهما للأخرى تأثيرًا عميقًا. كانت تقنيَّة الفضاء السوفييتية قد أشعرت الأمريكيين بالخطر -منذ أواخر الخمسينيات- ولكن الذي بدا -الآن- هو أن لدى الولايات المتحدة بالرغم من ذلك قوة راجحة لا يمكن تحدِّيها. وقد قام الاتحاد السوفييتي بجهود جبَّارة وناجحة لتقصير المسافة التي تفصله عن أمريكا -خلال السنوات القليلة التالية- إلا أن الحرب الباردة كانت قد تجاوزت أخطر نقاطها، ورغم أنها استمرَّت فسوف تأتي مرحلة من الاتصال والتفاوض بصورة أوثق ولو أنها متقطِّعة بين هاتين القوتين العظميين في كافة أنواع المسائل. وبحلول -منتصف السبعينيات- كان هناك شعور متزايد بأن أيام الأفكار العامة والبسيطة قد انقضت. صحيح أن هذين العملاقين الكبيرين ظلاّ يهيمنان على العالم مثلما كانت الحال -منذ عام ١٩٤٥- وأنهما كانا في -بعض الأحيان- يتحدَّثان وكأنهما يقتسمانه إلى أتباع وأعداء، إلا أنهما كانا قد واجها احتمال الحرب النوويَّة كنتيجة أخيرة للتوسُّع الجغرافي للحرب الباردة ووجداه احتمالاً غير مقبول.

العلاقة الجديدة بين القوتين العظميين

ولم ينته سباق التسلّح، إذ قام السوفييت في -أواخر الستينيات- بمجهود هائل للتفوُّق على الولايات المتحدة وقد نجحوا فيه بعض الشيء، إلا أن هذين العملاقين النووين صارت تربط بينهما -الآن- رابطة قويَّة لأنهما باتا يعلمان أن التفوق في القوة النووية أمر له حدوده، وتلخص هذه الحقيقة في عبارة بليغة هي عبارة MAD -أي شيء جنوني- المكوّنة من الحروف الأولى من عبارة Mutually Assured Destruction أي «الدمار المضمون للطرفين». فكان كل منهما يعلم أنه حتى إذا بادر بهجوم مفاجئ حرم فيه خصمه من زبدة أسلحته النووية فإن ما سيبقى منها سوف يكون كافيًا لكي يرد ذلك الخصم ويحوِّل مدن الطرف المعتدي إلى أقفار يتصاعد منها الدخان، فيفرغ انتصاره بذلك من كل معنى.

وبدأت في عام ١٩٧٣ المحادثات حول موضوع الحد من الأسلحة وحول إمكانية إجراء ترتيبات أمنية شاملة في أوربا. ومقابل الاعتراف الرسمي بالحدود في أوربا ما بعد الحرب -خاصة الحدود بين ألمانيا الشرقية والغربيَّة- وافق المفاوضون السوفييت أخيرًا في -عام ١٩٧٥- في هلسنكي على زيادة العلاقات الاقتصادية بين أوربا الشرقية والغربيَّة وعلى ضمان حقوق الإنسان والحريَّة السياسية على الورق. ومع أن هذه الضمانة لم تكن قابلة للتنفيذ فقد تبيَّن أن لها أهمية كبيرة جدًا كمصدر إلهام للمنشقّين في أوربا الشيوعيَّة وفي روسيا، وأيضًا، لأن تدفّق التجارة والاستثمار بين شطريّ أوربا قد أدَّى شيئًا فشيئًا إلى اتصالات أخرى. ويمكننا اعتبار هذه المعاهدة هي معاهدة السلام التي طال انتظارها من أجل إنهاء الحرب العالمية الثانية، وقد أعطت الاتحاد السوفييتي ما كان يريده قبل كل شيء، أي الاعتراف بحقه في الأراضي كنصيب من غنائم النصر.

التغيرات في الاتحاد السوفييتي

لقد أزيح نيكيتا خروتشيف من منصبه في عام ١٩٦٤ بعد أن كان الشخصية المسيطرة في الحكومة السوفييتية منذ عام ١٩٥٩، وربما كان سبب إزاحته هو أزمة كوبا. وكانت مساهماته الشخصيَّة في تغيير الاتحاد السوفييتي واضحة في أمور عديدة، مثل عمليَّة إعادة التنظيم الجذريَّة التي أجراها في الحزب، وتخفيف آثار ستالين في حياة البلاد إلى حد ما، والفشل الذريع في مجال الزراعة، والتركيز الجديد في القوات المسلحة على الصواريخ الاستراتيجية التي صارت أهم الأسلحة وأفضلها. وقد بيَّن سقوطه أن الاتحاد السوفييتي يتحسَّن من ناحية إحداث تغييرات سياسية من دون سفك دماء، إذ لم يُقتل خروتشيف ولم يسجن ولم يرسل حتى لإدارة محطة توليد طاقة في منغوليا. لقد كان الخطاب الذي ألقاه في المؤتمر العشرين للحزب -في عام ١٩٥٦- حاسمًا حيث شجب فيه وحشيَّة ستالين وأخطاءه، ولم يكن بالإمكان الرجوع عن هذا الكلام. وفي حركة رمزيَّة تمَّ رفع جثمان ستالين من ضريح لينين الذي كان المزار المقدَّس للأمة. وقد حصل -خلال السنوات القليلة التالية- ما اعتبره البعض تحلحلاً في الأوضاع، عندما سُمح للكتَّاب والفنانين بهامش أوسع -قليلاً- من حريَّة التعبير. إلا أن الطبيعة الدكتاتورية للحكم السوفييتي لم تتغيَّر من حيث المبدأ، ولو أن بعض المتفائلين في الستينيات والسبعينيات كانوا يغالون ويقولون إن الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي يزدادان شبهًا أحدهما بالآخر.

لقد كانت نظريَّة التقارب هذه ترتكز على حقيقة أن الاتحاد السوفييتي اقتصاد متطوِّر، ولكنها كانت تغفل تشوهاته وغياب الفعاليَّة فيه. فقد كانت الزراعة في روسيا تطعم ذات يوم مدن أوربا الوسطى وتغذي عميلة التصنيع على

عهد القياصرة، أما على عهد الشيوعية فكانت في حالة من الفشل المستمر، والمفارقة أن الاتحاد السوفييتي بات في مرات كثيرة مضطرًا لشراء الحبوب من أمريكا. كما ظلَّ الدخل القومي للفرد في -السبعينيات- متأخرًا جدًا عنه في الولايات المتحدة، وعندما منح المواطنون السوفييت تعويضات الشيخوخة في عام ١٩٥٦ كانوا متأخِّرين في ذلك عن بريطانيا -بنصف قرن تقريبًا- صحيح أنهم كانت لديهم خدمات صحيَّة على امتداد البلاد كلها، إلا أن نوعيتها ما برحت تتراجع عن الخدمات المتوفرة في الغرب.

ولكنْ في نظر العالم الثالث كانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي كلاهما دولتين غنيتين. وكان ملايين المواطنين السوفييت أكثر وعيًا لتحسُّن أوضاعهم عن الأربعينيات عندما كانت بلادهم مخرَّبة وفقيرة منهم للفرق بينهم وبين الولايات المتحدة. وكان لديهم تاريخ طويل من الفوضى لا بد من التغلُّب عليه، و لم تعد الدخول الحقيقية إلى مستوى عام ١٩٢٨ حتى عام ١٩٥٢. و لم يكن المواطنون السوفييت ميَّالين للشعور بالأسى لأحوالهم، كما أن بلادهم كانت لها بحلول عام ١٩٧٠ قاعدة علميَّة تضاهي في أفضل نواحيها قاعدة الولايات المتحدة، وكانت تقنيَّة الفضاء السوفييتية تبرِّر الثورة وتبيِّن أن الاتحاد السوفييتي قادر على القيام بأي شيء تستطيع أي دولة أخرى القيام به، وبأشياء كثيرة لا تستطيع القيام بها إلا دولة واحدة غيره.

ولكن هذا لا يعني أن شعب الاتحاد السوفييتي كان راضيًا أو أن زعماءه أصبحوا أكثر ثقة وأقل ارتيابًا بالعالم الخارجي، فقد بقي دولة بوليسية وظلَّت الحريَّات الأساسيَّة فيه محدودة عمليًا وخاضعة لجهاز تدعمه السلطة الإدارية القمعية والسجون السياسية. وكانت طبقته الإدارية تميل بصورة متزايدة للحفاظ على

الترتيبات القديمة والفساد لمصلحة الطبقة الحاكمة، وبدأت تسمع الانتقاد بوضوح في الستينيات خاصة انتقاد القيود المفروضة على الحريَّة الفكريَّة. كما صرت تسمع عن أشكال من السلوك الضار بالمجتمع مثل عمليَّات التخريب والتعامل بالسوق السوداء والإدمانَ على الكحول، مثلما هي الحال في غيرها من الدول الكبرى. ولكن -ربما- كانت الحقيقة الأهم هي أن المتحدِّثين باللغة الروسية كلغة أمّ صاروا في السبعينيات للمرة الأولى أقليَّة ضمن الاتحاد السوفييتي.

التغيرات في الولايات المتحدة

كانت التغيُّرات في الولايات المتَّحدة أسهل على التقييم. لم يكن ثمَّة شك في النمو المتزايد لقوة أمريكا وثروتها، -ومنذ أواسط الخمسينيات- كانت تنتج أكثر من نصف البضائع المصنَّعة في العالم. وقد تجاوز عدد سكانها الـ ٢٠٠ مليون في عام ١٩٦٨، ولم يكن إلا واحد من كل عشرين أمريكيًا مولودًا خارجها -ولو أن القلق من الهجرة الهائلة للمتحدِّثين باللغة الإسبانية من المكسيك ومنطقة الكاريبي سوف يبدأ خلال السنوات العشر التالية- وكانت أعداد الأمريكيين الذين يعيشون في المدن وضواحيها أكبر من أي زمن مضى كما كانوا يعيشون حياة أطول، وارتفع احتمال أن يموتوا من أحد أنواع السرطان بمقدار -ثلاث مرات منذ عام ١٩٠٠ - والمفارقة أن هذا الارتفاع يعتبر علامة أكيدة على تحسُّن الصحة العامة إذ يشير إلى السيطرة على الأمراض الأخرى. ولم يعد ثمَّة - شك في عام ١٩٧٠- في قدرة الجمهورية على دعم قوَّتها العسكرية الهائلة التي ترتكز عليها سلطة أمريكا العالمية - ولو كانت هناك شكوك كثيرة حول طريقة استخدام تلك السلطة.

ورغم تغيُّر رؤساء الجمهورية استمرت أهمّيّة الحكومة بل ازدادت كزبون أول للاقتصاد الأمريكي، وكان الإنفاق الحكومي محفّزًا أساسيًا للاقتصاد يحبط دومًا آمال تحقيق ميزانية متوازنة وإدارة قليلة التكاليف. كانت الولايات المتحدة بلدًا ديمقراطيًا وتقدّمت فيها دولة الرفاهة رويدًا رويدًا لأن الناخبين كانوا يريدون ذلك، وقد ساهم هذا في إطالة عمر ائتلاف الحزب الديمقراطي. صحيح أن رئيسين جمهوريين قد انتخبا في عامي ١٩٥٢ و ١٩٦٨ بسبب إنهاك الناس من الحرب، إلا أن أيًا منهما لم يتمكّن من إقناع الأمريكيين بانتخاب كونغرس جمهوري أيضًا. ولكن من ناحية أخرى كانت علامات التوتُّر بادية في الكتلة الديمقراطية قبل عام ١٩٦٠ - فقد اجتذب أيزنهاور الكثير من ناخبي الجنوب - وبحلول عام ١٩٧٠ كان قد ظهر ما يشبه حزبًا محافظًا وطنيًا تحت راية الحزب الجمهوري*. فكانت تلك بداية زوال حقيقة ظلّت ثابتة في الحياة السياسية -منذ الحرب الأهلية- هي تصويت الجنوب المستمر للحزب الديمقراطي وبنسبة راجحة أيضًا.

المشكلة العرقية في أمريكا

لقد انتخب الرئيس كندي بهامش قابل للجدل من أصوات الناخبين في عام ١٩٦٠، وأتى انتخابه في البداية بشعور كبير بالتجديد، والحقيقة أن -السنوات الثماني من الحكم الديمقراطي الجديد بعد عام ١٩٦١ سوف تأتي بتغيُّرات كبيرة في الولايات المتحدة في الشؤون الخارجية والداخلية على السواء، ولو أنها لم تكن التغيُّرات التي ارتآها كندي أو نائبه ليندن جونسون عندما استلما منصبيهما. أحد

* يقول المؤلف في كتابه الأكبر إن السبب كان استياء بعض أهل الجنوب من تشريعات الحزب الديمقراطي لمصلحة السود — المترجم.

تلك التغيُّرات هو حالة المواطنين السود. ففي عام ١٩٦٠ أي -بعد قرن كامل- من التحرر من العبودية بقي السود في أمريكا (ومازالوا) أكثر فقرًا وبطالة واعتمادًا على معونات الدولة من البيض، كما ظلّت مساكنهم وصحتهم أقل جودة منهم. وقد كانت هذه في السابق مشكلة محليَّة وجنوبيَّة، ولكنها تحوَّلت إلى مشكلة وطنية بسبب الهجرة، فبين عامي ١٩٤٠ و ١٩٦٠، ارتفع عدد السكان السود في الولايات الشماليَّة بمقدار -ثلاثة أمثال تقريبًا- وأصبح التجمُّع الأكبر لهم في ولاية نيويورك. وبات من الواضح -أيضًا- أن المشكلة لم تكن مشكلة حقوق قانونية ودستورية فحسب، بل كانت مشكلة حرمان اقتصادي وثقافي. وفي هذه الأثناء كان العالم الخارجي قد تغيَّر، وكانت كثير من الدول الجديدة التي أصبحت أغلبية في الأمم المتَّحدة مكوَّنة من شعوب ملونة، كما أن الدعاية السياسيَّة الشيوعيَّة كانت تعرف كيف تستفيد من محنة السود في أمريكا.

لا ريب أن الوضعيَّة القانونيَّة والسياسيَّة للسود قد تبدَّلت تبدُّلاً جذريًا نحو الأفضل. كان الصراع من أجل "الحقوق المدنية" قد ابتدأ في الخمسينيات، وأهم تلك الحقوق هو القدرة على ممارسة حق التصويت من دون عقبات -وكان هذا الأمر متوفِّرًا دومًا بصورة شكليَّة ولكن ليس بصورة عمليَّة في بعض ولايات الجنوب- وقد حكمت المحكمة العليا بأن الفصل العرقي في المدارس العامة أمر مخالف للدستور ويجب إلغاؤه حيث وجد ضمن، فترة معقولة، فوسعت هذه القرارات الموضوع وصارت خطرًا على التقاليد الاجتماعية في الكثير من الولايات الجنوبية، ولكن بحلول -عام ١٩٦٣- كان الأطفال السود والبيض يذهبون إلى بعض المدارس العامة معًا في كل ولاية من ولايات الاتحاد، ولو أن الاندماج مازال بعيدًا عن الاكتمال.

واستهل كندي -أيضًا- برنامجًا من الإجراءات -بلغ بها خليفته مرحلة النضج- التي تجاوزت موضوع التصويت إلى مهاجمة التمييز والحرمان بمختلف أنواعه. إلا أن التشريعات بدت عاجزة عن تخفيف الفقر والاستياء المترسِّخين بين السود، فانفجرت هذه المظالم بشكل أحداث شغب وحرق متعمَّد فيما سمي - أحياء "الغيتو" في المدن الأمريكية الكبرى في -أواخر الستينيات- لقد كانت هذه المناطق تتَّصف بالفقر وبيوتها ومدارسها التعيسة، وكانت هذه علامات على وجود خلل عميق ضمن المجتمع الأمريكي، كما ازدادت بشاعة هذا الظلم بتأثير الغنى المتزايد الذي كان يحيط به. وقد بذل ليندن جونسون جهودًا أكبر حتى من جهود كندي لإزالتها، وهو الذي خلفه في الرئاسة عندما اغتيل في عام ١٩٦٣. لقد كان جونسون مؤمنًا «بالمجتمع العظيم» الذي كان يدعو إليه ويرى فيه مستقبل أمريكا، وربما كان واحدًا من أعظم الرؤساء المصلحين في أمريكا، ولكنَّه تعرَّض لفشل مأساوي لأن الحرب الكارثية في آسيا قد طغت على فترة رئاسته.

السياسة الأمريكية في آسيا

كانت السياسة الأمريكية في جنوب شرق آسيا تفترض أن الهند الصينية ضرورية لضمان الأمن في الحرب الباردة، وأنه لا بد من الاحتفاظ بجنوب ڤيتنام في المعسكر الغربي كيلا تنقلب على الغرب دول أخرى حتى البعيدة منها مثل الهند وأوستراليا. وكان الرئيس كندي قد بدأ بدعم المساعدات العسكرية الأمريكية بواسطة «مستشارين»، وقد بلغ عددهم ٢٣,٠٠٠ في جنوب ڤيتنام عندما توفي، وكان الكثيرون منهم منخرطين في القتال في ساحة المعركة. وسار الرئيس جونسن على النهج نفسه إذ كان يؤمن بضرورة أن يبيِّن سلامة التعهّدات الأمريكية. ولكن

الحكومات المتتالية في سايغون كانت ضعيفة لا يعتمد عليها -وفي بداية عام ١٩٦٥ - نُصح جونسن بأن جنوب ڤيتنام قد ينهار ما لم تُقدِّم أمريكا مساعدة إضافية، وسرعان ما أُرسِلتْ أولى وحدات القتال الأمريكية إلى هناك بصورة رسميَّة. وهكذا خرجت المشاركة الأمريكية في الحرب عن السيطرة، وبحلول -عيد الميلاد عام ١٩٦٨- كان وزن القنابل التي ألقيت على شمال ڤيتنام أكبر من وزن ما ألقي على ألمانيا واليابان معًا -خلال الحرب العالمية الثانية كلها- كما كان عدد القوات الأمريكية التي تخدم في الجنوب قد تجاوز ٥٠٠,٠٠٠ رجل.

وكانت النتيجة كارثة شاملة، فقد خرَّبت تكاليف الحرب الباهظة ميزان المدفوعات الأمريكي واستهلكت الأموال التي كانت الحاجة ماسة إليها في مشاريع الإصلاح الداخلية. وتعالت صيحات الاحتجاج المريرة داخليًا مع ارتفاع أعداد الضحايا وفشل محاولات التفاوض في الوصول إلى أي نتيجة. وازداد الحقد وازداد معه خوف العناصر المحافظة في أمريكا. ولم يقتصر الغضب على الشباب الذين كانوا يتظاهرون احتجاجًا وارتيابًا بحكومتهم، أو على المحافظين الغاضبين الذين روَّعتهم الحالات المتكرِّرة من تدنيس الرموز الوطنية والتهرُّب من الخدمة العسكرية. لقد غيَّرت ڤيتنام طريقة نظر الأمريكيين إلى العالم الخارجي، وأدرك الذين يفكِّرون بينهم أن الولايات المتحدة رغم قوَّتها لا تستطيع الحصول على كل نتيجة تبغيها، فما بالك أن تحصل عليها بكلفة معقولة. وكان هذا هو أفول الوهم الذي يرى في أمريكا قوة لا حدود لها. في آذار (مارس) ١٩٦٨ كان الرئيس جونسن قد استنتج أن الولايات المتحدة لا يمكنها أن تكسب الحرب، فحدَّ من حملة القصف وطلب من الشمال أن يبدأ المفاوضات. كما أنَّه أعلن بصورة دراميَّة أنه لن يُرشِّحَ نفسه لفترة رئاسية ثانية.

وبعد أربع سنوات -فقط- من إعادة انتخاب جونسون بأكثرية ديمقراطية هائلة تم انتخاب رئيس جمهوري هو رتشارد نيكسون، الذي سرعان ما بدأ في عام ١٩٦٩ بسحب القوات البريَّة من ڤيتنام وافتتح في عام ١٩٧٠ مفاوضات سريَّة مع شمال ڤيتنام، مع أنه حدَّد قصف الشمال بل زاده شدَّة. ولم تعترف الولايات المتحدة بأنها تخلَّت عن حليفتها ولكنها كانت في الواقع مضطرَّة لذلك، وبعد مفاوضات صعبة تم توقيع وقف إطلاق النار في باريس في كانون الثاني (يناير) من عام ١٩٧٣.

لقد كلَّفت ڤيتنام الولايات المتحدة مبالغ طائلة و٥٧,٠٠٠ قتيل، كما أصابت مكانتها إصابة فادحة وقوَّضت نفوذها الدبلوماسي وخرَّبت سياساتها الداخليَّة وأحبطت جهود الإصلاح فيها، فضلاً عن أنها أفسدت اقتصادها. ولم تنجح أمريكا في الحفاظ على جنوب ڤيتنام إلا بصورة متقلقلة ولفترة وجيزة بالرغم من المعاناة الرهيبة التي ألحقتها بشعوب الهند الصينيَّة. وقد حصد الرئيس نيكسن فوائد الارتياح الذي حصل في الداخل، وتدل على اعترافه بمدى تغيُّر العالم -منذ قضية كوبا- جهوده التي لا سابق لها في تأسيس علاقات طبيعية مع الصين، فقد زارها في شباط (فبراير) ١٩٧٢ لكي يبني جسرًا يحاول به أن يربط ما وصفه بـــ «١٦,٠٠٠ ميل واثنتين وعشرين سنة من العداء» -وكان بإمكانه أن يضيف «و٢,٥٠٠ عام من التاريخ»- فصار بذلك أول رئيس جمهورية أمريكي يزور البر الرئيسي لآسيا. وبعد أشهر قليلة سوف يكون أول رئيس يزور موسكو، ثم تبعت هذه الخطوة الاتفاقية الأولى على الحدّ من التسلح، وهكذا زال تمامًا التقسيم السابق والبسيط للعالم إلى قطبين متعاكسين الذي ساد -خلال الحرب الباردة- ثم جاءت تسوية الأمور في ڤيتنام، وزال الجنوب على الفور في خضمِّ

الحرب الأهليّة التي اندلعت في البلاد، ولكن الشعور بالارتياح في الولايات المتحدة للخروج من هذا المستنقع كان كبيرًا جدًا فلم تهتم كثيرًا بدقة التزام الڤيتناميين الشماليين بشروط السلام.

ثم حصلت فضيحة سياسية أكرهت نيكسن على الاستقالة، وواجه خليفته كونغرسًا مرتابًا بالمغامرات الخارجيَّة ومزمعًا على إحباط أي مغامرة جديدة. ولم تحدث أي محاولة للمحافظة على الضمانات التي قُدِّمَتْ لنظام جنوب ڤيتنام، وبحلول ربيع عام ١٩٧٥ كانت جميع المساعدات الأمريكية لسايغون قد انتهت. وكما كان الأمر في الصين في عام ١٩٤٧، أوقفت الولايات المتحدة خسائرها على حساب الذين اعتمدوا عليها -ولو أن ١١٧,٠٠٠ ڤيتنامي قد غادروا مع الأمريكان- وربما كان المتشدِّدون في موضوع السياسة الآسيويَّة على حق -منذ البداية- في أن لا شيء يمكنه أن يضمن مقاومة أنظمة ما بعد الاستعمار للشيوعية إلا معرفتها أن الولايات المتَّحدة مستعدَّة للقتال من أجلها إذا اقتضى الأمر. إلا أن تحسين العلاقات مع الصين كان أهم من فقدان ڤيتنام.

بنهاية السبعينيات كانت أمريكا وحلفاؤها مرتبكين وقلقين، وكان الوضع صعب التفسير. لقد كان الأمريكيون قلقين مما اعتبروه ضعفًا عسكريًّاص لبلادهم -خاصة في مجال الصواريخ- وكانت القيادة التقليدية لرئيس الجمهورية في مجال الشؤون الخارجية قد تقوَّضت بسبب الريبة التي أحاطت بالسلطة التنفيذيَّة. وعندما انهارت كمبوديًا ثم تبعها جنوب ڤيتنام بدأت تسمع أسئلة حول انحسار سلطة أمريكا وإلى أي حد يمكن أن يصل، فإذا لم تعد الولايات المتحدة راغبة بالقتال من أجل الهند الصينية، فهل يمكن أن تقاتل من أجل تايلند؟ أو من أجل إسرائيل؟ أو حتى من أجل برلين؟

تحديات جديدة

في عام ١٩٧٩ أطيح بشاه إيران من عرشه بعد أن كان حليفًا موثوقًا للولايات المتحدة -منذ زمن طويل- وكان هذا حدثًا لم يخطر ببال أحد وضربة قاسية للسياسة الأمريكية، كما أنه كان يشكّل خطرًا على استقرار العالم الإسلامي المتقلقل أصلاً. وكان الذين حلّوا محلّ الشاه ائتلافًا من المحافظين الغاضبين من ليبراليين وإسلاميين، وسرعان ما طغى الأخيرون على الأولين. كانت سياسة التحديث التي سار فيها الشاه على نهج أبيه الأكثر حذرًا منه قد زعزعت تقاليد إيران ومجتمعه، وسرعان ما عادت البلاد إلى تقاليد قديمة بالية -تظهر بصورة لافتة في معاملة المرأة- فكان هذا دليلاً على أنها لم تنبذ حاكمها فحسب. وقد ظهر النظام الجديد بصورة جمهورية إسلامية شيعية يقودها رجل دين عجوز ومتعصب، وكان هو وأتباعه يمقتون الأمريكان لأنهم رعاة الشاه السابق، ويرون فيهم طغمة المادية الرأسماليّة، إلا أنهم سرعان ما وصفوا الشيوعيّة السوفييتية -أيضًا- بأنها «شيطان» ثان يُهدّد نقاوة الإسلام.

الثورة الإسلامية

كان هذا النظام الجديد يعبر عن غضب يشترك به الكثيرون من المسلمين في كافة أنحاء العالم. وكان سببه الخوف من التغريب العلماني وخيبة الآمال بالتحديث الذي لم يُحقّق وعوده. ففي الشرق الأوسط بالذات كانت كل من القومية والاشتراكية والرأسمالية قد فشلت في حلّ مشاكل المنطقة، أو على الأقل

في إرضاء العواطف والرغبات التي أثارتها، بل إنها في الحقيقة قد زادتها استعاراً. وكان الملايين من المسلمين يعتقدون أن المحدّثين — حتى عبد الناصر نفسه — قد قادوا شعوبهم في طريق خاطئ، وكانوا يخشون أن تصاب مجتمعاتهم بعدوى الغرب الخطيرة.

كانت جذور هذه المشاعر متنوِّعة وعميقة وقد غذّتها -قرون طويلة- من الصراع مع المسيحية. وتجدَّدت ابتداء من الستينيات بسبب المصاعب المتزايدة للقوى الغربيَّة -والاتحاد السوفييتي أيضًا- في الشرق الأوسط والخليج الفارسي جراء الحرب الباردة. لقد مرَّت مرحلة ملائمة للمنطقة تزامن فيها ارتباك القوى العظمى بوجود عامل النفط، ولكن من ناحية أخرى كانت التجارة مع الغرب والاتصالات به وعوامل الجذب فيه تشكِّل في الدول الغنيَّة بالنفط خطرًا على الإسلام قد يكون أكبر من الأخطار السياسية والعسكرية السابقة. فعندما كان العرب المسلمون يسعون لتعلُّم التقنيَّة الغربيَّة وتحصيل التعليم الأكاديمي كانوا معرَّضين لخطر أن تجتذبهم القيم الغربيَّة أيضًا. ولهذا السبب كانت حركة البعث الاشتراكية التي احتذبت الكثيرين من الراديكاليين العرب -والتي كانت راسخة في العراق وسورية في عام ١٩٧٠- مقيتة لدى الإخوان المسلمين الذين يستهجنون «كفرها» حتى في الصراع الفلسطيني. وكان الأصوليون الإسلاميون يرفضون فكرة سيادة الشعب ويسعون لفرض سيطرة الإسلام على المجتمع في كافة نواحيه، وما لبث العالم أن بدأ يسمع أن الباكستان تمنع الرجال والنساء من الاختلاط في لعب الهوكي، وأن المملكة العربية السعودية تعاقب الجرائم بالرجم حتى الموت وبتر الأطراف، وأن عُمان تبني جامعة يستمع فيها الذكور والإناث إلى المحاضرات بصورة منفصلة، وأشياء كثيرة غير ذلك. وحتى في مصر "المتغرِّبة" نسبيّاً كان الطلاب يصوِّتون في

انتخاباتهم للأصوليين، بينما راحت الفتيات في كليات الطب يرفضن تشريح جثث الذكور ويطالبن بتعليم ثنائي منفصل.

لقد كان تقييم هذه الظاهرة (ومازال) أمرًا صعبًا جدًا. ولما كانت ثورة إيران بؤرة تلتقي فيها مشاعر المسلمين على نطاق واسع فقد لاح في عام ١٩٨٠ أنها بدَّلت قواعد اللعبة في الشرق الأوسط. إلا أن هذه الفورة الإسلامية كانت إلى حد ما مجرد واحدة من تلك الموجات المتكرِّرة من التزمُّت التي طالما هيَّجت مشاعر المؤمنين عبر القرون، وقد لعبت الظروف أيضًا دورًا فيها، مثل احتلال إسرائيل للقدس التي تضم ثالث الأماكن المقدَّسة في الإسلام، وهذا ما قوَّى الشعور بالتكافل والتضامن بين المسلمين إلى حد كبير. لقد استغلَّت دولة العراق السنيَّة -والبعثية بالاسم- ما بدا من ضعف في إيران الشيعية بسبب ثورتها، فهاجمتها في عام ١٩٨٠ وأدّى ذلك إلى -ثمانية أعوام- من الحرب الداميَّة ومقتل مليون إنسان، وإلى انقسام الشعوب المسلمة انقسامًا طائفيًا كما كان الأمر في الماضي البعيد. ولكن رغم أن الثورة كانت تزعج القوى العظمى وتخيفها فإن إيران لم تكن قادرة على إحباط جهودها، وعند نهاية عام ١٩٧٩ وجدت نفسها تتفرَّج عاجزة بينما دخل الجيش الروسي إلى أفغانستان ليدعم نظامًا عميلاً له فيها. ورغم أن الإيرانيين احتجزوا رهائن أمريكيين -وفرضوا فدية لتحريرهم بعد أن فشلت محاولة أمريكية لتخليصهم بعملية مباغتة- فإنهم لم يقدروا على إحضار الشاه السابق لكي يَمثُلْ أمام العدالة الإسلاميَّة.

لقد أعلن الرئيس كارتر في عام ١٩٨٠ أن الولايات المتحدة تعتبر الخليج الفارسي منطقة ذات أهمية حيوية، وكانت تلك علامة هامة إذ لم يكن بإمكان قوة عظمى أن تتجاهل الخطر الذي يشكِّله عدم استقرار المنطقة على النظام الدولي. لقد

زال الحكم المنظّم في لبنان الحزين في -الثمانينيات- وانهارت البلاد في الفوضى، ومنح هذا الوضع منظّمة التحرير الفلسطينية في -البداية- قاعدة أفضل من السابق لاستخدامها ضد إسرائيل، لذلك راحت هذه الأخيرة تقوم بعمليات تزداد عنفًا على حدودها الشمالية ووراءها، ونتج عن ذلك بالمقابل ارتفاع التوتُّر ضمن إسرائيل، حيث جلب هذا العقد المزيد من الصراع والعنف بين اليهود والفلسطينيين وأدّى في النهاية إلى الانتفاضة في المناطق التي تغلب فيها المستوطنات الفلسطينية.

ولم تكن الولايات المتحدة الدولة الوحيدة التي أرّقتها هذه الاضطرابات. فعندما أرسل الاتحاد السوفييتي جنوده إلى أفغانستان -حيث سيبقون حوالى عشر سنوات- كان من المحتّم أن يؤثّر غضب المسلمين في الأحداث الجاريّة ضمن الاتحاد السوفييتي، لأن فيه أعدادًا كبيرة جدًا من المسلمين. وظن البعض أن التطرُّف الإسلامي قد يدعو القوتين العظميين إلى الحذر. لقد اغتال الأصوليون رئيس جمهورية مصر في عام ١٩٨١ لأنه عقد سلامًا مع إسرائيل قبل عامين، وظلّت حكومة الباكستان تفرض الإسلام التقليدي وتغضُّ الطرف عن مساعدة الثوار المسلمين المضادين للشيوعيّة في أفغانستان. وفي شمال أفريقيا كنت تجد أدلّة على الطموحات الإسلاميّة الراديكاليّة في النـزوات والتصريحات العجيبة لدكتاتور ليبيا -فقد دعا الدول الأخرى المنتجة للنفط إلى التوقّف عن تزويد الولايات المتحدة به بينما ظلّ ثلث إنتاج ليبيا يذهب إليها، وفي عام ١٩٨٠ وحدَّ بلاده لفترة وجيزة بسورية البعثية- كما كنت تجد اتجاهات مشابهة في دول أخرى إلى الغرب أيضًا. لقد تعثّرت الخطوات الأولى الواعدة للجزائر نحو الاستقلال وبدا أن الهجرة إلى أوروبا هي المنقذ الاقتصادي الوحيد للكثيرين من شبابها، وللمرة الأولى في أي بلد عربي كسب فيها حزب إسلامي أصولي أغلبيّة الأصوات في انتخابات عام ١٩٩٠.

وفي العام السابق حصل انقلاب في السودان أتى بنظام إسلامي عسكري نشيط ما لبث أن قمع من فوره الحريّات المدنيّة القليلة الباقية. إلا أن هناك علامات كثيرة تشير إلى أن التيار لم يكن يجري في اتجاه واحد، فقد صار من الصعب على دول المنطقة أن تستغل التنافس السوفييتي الأمريكي السابق بسبب انشغال هاتين القوتين وتغيُّر الظروف في أنحاء أخرى من العالم. والأنكى من هذا أن العراق وإيران - وكلتاهما دولة مسلمة وغنيّة - قد اشتبكتا طوال القسم الأكبر من الثمانينيات في صراع مميت وباهظ التكاليف.

العراق

لقد تربّى حاكم العراق صدام حسين تربية إسلامية، ولكنه يقود نظامًا علمانيًا بالاسم -بعثيًا- ومبنيًا في الحقيقة على المحسوبيّة والعائلة ومصالح العسكريين. وكان يسعى إلى القوة وإلى التحديث التقني كوسيلة إليها. وعندما خاض حربه مع إيران كان الحكّام العرب التقليديون مرتاحين لاستطالتها وتكاليفها الباهظة إذ بدا لهم أنها تقيّد -في الوقت نفسه- قاطع الطرق هذا والثوار الإيرانيين الذين يخشونهم؛ ولو أرّقهم أن تحوّل تلك الحرب الاهتمام عن المسألة الفلسطينية.

كانت الأحداث الجارية في الخليج في -الثمانينيات -تحمل من -وقت لآخر- خطر عرقلة الإمداد بالنفط، وقد هدّدت في بعض الأحيان باندلاع صراع صريح بين إيران والولايات المتحدة. وفي هذه الأثناء كان الوضع في بلاد الشام يسير من سيء إلى أسوأ. فقد ضمّت إسرائيل مرتفعات الجولان، وراحت تقوم بعمليات شديدة في لبنان ضد الميليشيات الفلسطينية ورعاتها، وراحت حكومتها تُشجّع على المزيد من هجرة اليهود -خاصة من الاتحاد السوفييتي- وساهم هذا كله في تقويتها تحسبًا ليوم

قد تجد نفسها فيه من جديد بمواجهة الجيوش العربيَّة متحدة. ولكن عند -نهاية عام ١٩٨٧- اندلعت أول ثورة طويلة بين الفلسطينيين في الأراضي التي تحتلها إسرائيل وما لبثت أن نمت وتحوَّلت إلى الانتفاضة. وقد كسبت منظمة التحرير الفلسطينية المزيد من التعاطف الدولي لأنها اعترفت رسمياً بحق إسرائيل في الوجود، ولكنها كانت في وضع صعب في عام ١٩٨٩ أي عندما انتهت الحرب العراقية الإيرانية أخيرًا. وفي العام التالي مات حاكم إيران، آية الله، وبدا خليفته راغبًا باتِّباع سياسة أقل مغامرة وعنفًا، ولو أنه كان يدعم القضيتين الفلسطينية والإسلامية.

كانت الولايات المتَّحدة أثناء الحرب العراقية الإيرانية تعتبر إيران عدوَّها الأكبر، ولكنها عندما وجدت نفسها في الحرب وجهًا لوجه مع عدو صريح في الخليج كان ذلك العدو هو العراق. فبعد عقد السلام مع إيران أخذ صدَّام حسين يثير موضوع نزاع حدودي قديم مع مشيخية الكويت، وكان على خلاف مع حاكمها حول حصص النفط وأسعاره. ولكن يبدو أن دافعه الأقوى كان رغبته بالاستيلاء على ثروة النفط الهائلة في الكويت. وما برحت تهديداته تتصاعد إلى أن غزت جيوش العراق الكويت في ٢ آب (أغسطس) ١٩٩٠ فأخضعتها -خلال ست ساعات.

وتحرَّك الرأي العام العالمي تحرُّكًا لافتًا من خلال الأمم المتحدة. وحاول صدَّام حسين أن يخلط أطماعه بحقد العرب ضد إسرائيل لكي يلعب الورقتين الإسلاميَّة والعربيَّة، ولكن تبيَّن أن هاتين الورقتين لم تكن لهما قيمة كبيرة، إذ لم تدافع عنه إلا منظَّمة التحرير الفلسطينية والأردن، ولا ريب أنه فوجئ مفاجأة مؤلمة عندما وجد كلاً من المملكة العربية السعودية وسورية ومصر شركاء غير متوقَّعين في التحالف الذي تشكَّل ضده بسرعة كبيرة. ولا بد أن يكون قبول الاتحاد السوفييتي

بما حدث بعد ذلك قد فاجأه أيضًا. ولكن أكثر النتائج مفاجأة كانت إصدار مجلس الأمن -بأغلبيات ساحقة- سلسلة من القرارات التي تدين عمليَّات العراق وتجيز أخيرًا استخدام القوة من أجل ضمان تحرير الكويت. وفي يوم ١٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٩١ بدأت القوات الأمريكيَّة والبريطانيَّة والفرنسيَّة والسعوديَّة والمصريَّة عملياتها الحربية، واستسلم العراق، خلال شهر واحد.

لقد كانت تلك حربًا أخرى من حروب اقتسام التركة العثمانية، ولكن أمورًا كثيرة في الشرق الأوسط ظلَّت غير محسومة، ولو أن بعض الأشياء قد تغيَّرت. فرغم محاولات صدَّام حسين لإثارة حملة إسلاميَّة ضد إسرائيل لم يجد من يأخذ بها. وكان الخاسر الأكبر هو منظَّمة التحرير الفلسطينية والمنتفع الحقيقي هو إسرائيل، وبات من المستحيل أن ينتصر عليها العرب عسكريّاً في المستقبل القريب. كانت مواقف كل من سورية وإيران قبل أزمة الكويت تشير إلى أنهما تنويان لأسبابهما الخاصة محاولة تسويَّة مشكلة إسرائيل عن طريق التفاوض، ومن الواضح أن هذه كانت -أيضًا- أولوية ملحَّة لدى الولايات المتحدة، وقد حرَّك هذا الآمال بأن تخفّف إسرائيل أخيرًا من عنادها وتصلُّبها. وفي عام ١٩٩١ بدأت المحادثات بين الحكومة الإسرائيلية والدول العربية وكان بين الحاضرين ممثلون عن منظمة التحرير الفلسطينية، ثم توقَّفت المحادثات وعادت لتتجدَّد بعد تغيُّر الحكومة في إسرائيل في عام ١٩٩٢، وظلَّت مستمرة رغم فورة جديدة من القسوة والجور الإسرائيليين نحو الفلسطينيين الذين طردتهم من أراضيها.

في ذلك الحين، كان شبح الحركة الإسلاميَّة الراديكاليَّة والأصوليَّة في العالم قد بهت إلى حد ما. ورغم كل الهيجان والاستياء في الدول الإسلامية ورغم استمرار استفزاز العراق فإنه لم يعد ثمَّة أمل في تنسيق هذه القوى ضد الغرب

بصورة فعّالة. كما أن الدول الإسلاميَّة صارت أكثر ميلاً لتقبُّل التحديث التقني الغربي رغم تأثيراته المخرِّبة الخفيَّة. وقد بيَّنت أزمة الخليج أن سلاح النفط قد خسر الكثير من قدرته على إيذاء العالم المتطوِّر أو حتى تخويفه، فخلال عام واحد، كانت آبار النفط الكويتيَّة التي أشعلتها قوات صدَّام حسين عند انسحابها قد أخمدت. إلا أن الوضع المتفجِّر ظلَّ على حاله، ومازال مستقبل الشرق الأوسط يبدو متقلقلاً ومجهولاً مثلما كان دائمًا.

أمريكا اللاتينية بعد أزمة كوبا

حالما انتهت أزمة الصواريخ وعدت الولايات المتحدة بألا تغزو كوبا، ولكنها كانت تحاول عزلها عن بقيَّة نصف الكرة الغربي قدر الإمكان خشية أن تجتذب ثورتها الشباب في غيرها من دول أمريكا اللاتينية. أما كاسترو فكان يسعى لكي يصوِّر كوبا مركزًا ثوريًا لبقيَّة القارة، إلا أن الثورة لم تحدث فيها، وقد كانت ظروف كوبا ظروفًا خاصة جدًا. لقد تبيَّن أن الآمال بحدوث ثورات فلاحيَّة كانت أوهامًا، وإذا كانت ثمَّة تربة صالحة للثورة فهي في المدن لا في الأرياف. إن الوحشيَّة التي عاملت بها الحكومات الدكتاتورية الإرهابيين في بعض الدول قد أبعدت عنها دعم الطبقات الوسطى، بينما ظلَّ الشعور المناهض لأمريكا في تصاعد. وقدَّمت الولايات المتَّحدة مبادرة جديدة للإصلاح الاجتماعي سمَّتها «الحلف من أجل التقدُّم» ولكنَّها لم تحرز أي نجاح. والأسوأ من ذلك أن النـــزعة الأزليَّة نحو التدخُّل غلبت عليها من جديد في عام ١٩٦٥، وكان ذلك في جمهورية الدومينيكان هذه المرَّة، حيث ساهمت المساعدة الأمريكية -قبل أربع سنوات- في الإطاحة بنظام دكتاتوري. ولكن العسكريين تدخَّلوا دفاعًا عن الفئات التي شعرت بخطر الإصلاح

على مصالحها وأزاحوا خليفة ذلك النظام، فما لبث الأمريكيون أن قطعوا مساعداتهم، وبدا -عندئذ- أن هذا الحلف من أجل التقدُّم إنما يستخدم بصورة منحازة. إلا أن المساعدات المقدَّمة لجمهورية الدومينيكان - ولغيرها من الأنظمة اليمينية أيضًا — قد تجدَّدت عندما استلم الرئاسة ليندن جونسون، ثم حصلت ثورة ضد هذا النظام العسكري في عام ١٩٦٥ أدَّت إلى وصول ٢٠,٠٠٠ عسكري أمريكي لإخمادها.

في عام ١٩٧٠ كان ذلك الحلف قد نُسي وبدا أن الوطنية في أمريكا اللاتينية تدخل مرحلة جديدة ونشيطة. وإذا كانت الميليشيات المتأثِّرة بكوبا قد شكَّلت خطرًا ما في الماضي فهي لم تعد تبدو كذلك. وما إن زال الخوف من حدوث اضطرابات في الداخل حتى راحت الحكومات تحاول استغلال المشاعر المناهضة لأمريكا، فأمَّمت التشيلي أكبر شركة نحاس أمريكية، وأخذ البوليفيون شركات البترول والبيرويون المزارع التي يمتلكها الأمريكان. وعندما قام ممثل لرئيس جمهورية الولايات المتَّحدة -في ذلك العام- بدورة على دول أمريكا اللاتينية نشبت الاحتجاجات وأعمال الشغب وتفجيرات الأملاك الأمريكية والمطالبات بابتعاد الولايات المتحدة عن شؤون بعض الدول.

في هذه الأثناء بقيت المشاكل الحقيقيَّة في أمريكا اللاتينية معلَّقة. لقد كشفت سنوات السبعينيات والثمانينيات- عن متاعب اقتصاديَّة مزمنة، وفي عام ١٩٨٥ صارت الأزمة -تبدو- غير قابلة للحل. وكانت هناك أسباب عديدة لها، فرغم عملية التصنيع السريعة في القارة كانت تواجه نموًا فظيعًا في عدد السكان. فقد كان عدد سكان أمريكا اللاتينية وجزر الكاريبـــي حوالى -مئة مليون في عام ١٩٥٠-

ويُتوقّع أن يصل عددهم إلى ٥٠٠ مليون -في عام ٢٠٠٠- وبدأت هذه المشكلة تتّضح في نفس الوقت، الذي صارت فيه المشاكل الاقتصادية تبدو عصيّة على الحل. وفشل برنامج المساعدات المسمى بالحلف من أجل التقدُّم فشلاً واضحًا في معالجة هذه المشكلات، وأنتج فشله هذا خلافات كثيرة حول استخدام الأموال الأمريكية. وبقيت الفروق الاجتماعية خطيرة، فحتى أكثر دول أمريكا اللاتينية تقدُّمًا كانت فيها فروق شاسعة في الثروة والتعليم. وحتى في بعض الدول التي عرفت عمليات دستورية وديمقراطية بدت هذه عاجزة عن مواجهة مشكلاتها. وقد خضعت كل من البيرو وبوليفيا والبرازيل والأرجنتين والباراغواي في الستينيات والسبعينيات إلى حكم دكتاتوري طويل على يد أنظمة عسكرية، ولا ريب أن بعضها كانت تؤمن إيمانًا صادقًا بأن الدكتاتورية قادرة على إحداث التغييرات المطلوبة التي عجزت عنها الحكومات المدنية.

وظهرت العواقب للعالم بصورة حيَّة في قصص التعذيب والقمع الوحشي التي صارت تسمع في دول مثل الأرجنتين والبرازيل والأوروغواي، والتي كانت كلها تعتبر ذات يوم دولاً متحضِّرة ودستورية، بل حتى في التشيلي التي كان لها تاريخ من الديمقراطية الدستورية أكثر استمرارًا من الدول الأخرى في أمريكا اللاتينية، إذ حصل فيها في عام ١٩٧٣ انقلاب عسكري أطاح بحكومة كان الكثيرون من التشيليين يعتقدون أنها خاضعة للسيطرة الشيوعيَّة. ونالت حركة الثورة المضادة دعم الولايات المتحدة كما كان الكثيرون من أهل البلاد مستعدين لتأييدها من شدَّة تخوّفهم من الميول الثوريَّة لدى النظام المنتخب السابق. وقد أعاد النظام الجديد في النهاية بناء الاقتصاد، بل بدا في أواخر الثمانينيات أنه قد يكون قادرًا على تحرير نفسه من تشدّده.

في هذه الأثناء كانت أزمة النفط في السبعينيات قد جعلت مشاكل الديون الخارجيَّة في دول أمريكا اللاتينية المستوردة له تخرج عن السيطرة. وفي عام ١٩٩٠ كانت أكثر العلاجات الاقتصاديَّة التقليديَّة قد جُرِّبَتْ في هذا البلد أو ذاك، ولكن تبيَّن أنها غير عمليَّة أو غير قابلة للتطبيق في معالجة مشاكل التضخُّم السريع ورسوم الفوائد على الديون المؤجَّلة والتشوُّهات الحاصلة في تخصيص الموارد بسبب الحكم الرديء في السابق، ومشكلة ضعف القدرة الإداريَّة والثقافيَّة اللازمة لدعم سياسات ماليَّة سليمة. ومازال من المستحيل أن يُخَمِّنْ المرء كيف يمكن التغلُّب على هذه الأزمة الاقتصاديَّة المعقَّدة، ومادام الأمر كذلك فسوف تظلُّ أمريكا اللاتينية قارة مضطربة ومشحونة ومكوَّنة من دول تزداد تباينًا بعضها عن بعض إلا في محنتها. وإن أكثر الناس في أمريكا اللاتينية هم اليوم أفقر مما كانوا -منذ عشر سنوات- إذا كان المقياس هو دخل الفرد.

أفريقيا

لم تبلغ أفريقيا مرحلة الاستقرار بعد -في عام ١٩٩٢- مثلها مثل أنحاء أخرى من العالم. في عام ١٩٧٤ كانت الجمعيَّة العامة للأمم المتحدة قد منعت جنوب أفريقيا من حضور جلساتها بسبب سياسة الفصل العنصري التي تمارسها، وفي عام ١٩٧٧ تجنَّبت مفوضيَّة الأمم المتَّحدة لحقوق الإنسان ببراعة المطالب المقدَّمة للتحقيق في الفظائع التي ارتكبها السود ضد السود في أنغولا، بينما أدانت جنوب أفريقيا -مع إسرائيل والتشيلي أيضًا- على أعمالها الشريرة. وكانت بريتوريا تنظر نحو الشمال بشعور متزايد من الخطر، إذ إن وصول قوات كوبيَّة إلى أنغولا وعمليَّاتها الاستراتيجية قد بيَّن وجود تظاهر جديد لسلطة الاتحاد السوفييتي والدول العميلة والتابعة له ضد

جنوب أفريقيا. كما كانت هذه المستعمرة البرتغاليَّة السابقة مع موزمبيق قاعدتين للمنشقّين عن جنوب أفريقيا الذين راحوا ينشرون القلاقل والاضطرابات في مناطق السود ويدعمون الإرهاب في المدن، خلال سنوات الثمانينيات.

وتغيَّر موقف حكومة جنوب أفريقيا بفعل الضغوط الممارسة عليها. فقد شعر الكثيرون من الأفريقانيين بالذعر عندما استلم رئيس وزراء جديد منصبه في -عام ١٩٧٨- وراح يسير شيئًا فشيئًا على سياسة من التنازلات، وبدا أخيرًا أن علامة الاستفهام حول مستقبل جنوب أفريقيا لم تعد في موضوع احتمال إلغاء نظام الفصل العنصري -الأبارتايد- بل صارت تدور حول الشروط التي يمكن بها التنازل عن الحكم للأغلبية السوداء. ولكن هذه المبادرة سرعان ما تباطأت، وتزايدت الريبة بين المؤيدين الأفريقانيين للسيد بيتر بوتا فدفعته إلى العودة نحو القمع، ومع هذا فقد استهل في عام ١٩٨٣ دستورًا جديدًا أثار غضب الزعماء السياسيين السود بسبب نقصه كما أثار اشمئزاز البيض المحافظين لأنه سلَّم بمبدأ تمثيل السود. في هذه الأثناء كانت الضغوط الناتجة عن العقوبات الاقتصادية المطبَّقة ضد جنوب أفريقيا من الدول الأخرى تتزايد، وحتى الولايات المتحدة فرضتها ولو بشكل محدود في -عام ١٩٨٥- ومع هبوط الثقة باقتصاد جنوب أفريقيا دوليّاً بدأت الآثار تظهر في الداخل، وبدأت علامات تَحوُّلْ الرأي العام الداخلي قبل رياح التغيير القادمة، وقد سلَّمت الكنيسة الهولندية المُصلَحة بأن الأبارتايد هو "غلطة" على الأقل، وبأنه لا يمكن تبريره من خلال الكتاب المقدَّس كما كان يقال. وازدادت الانقسامات بين السياسيين الأفريقانيين، ويبدو أيضًا أن نجاح العمليَّات العسكريَّة لجنوب أفريقيا في السيطرة على الأخطار الماثلة على الحدود كان عاملاً مساعدًا بالرغم من عزلتها المتزايدة. وقد عقد السلام مع أنغولا في عام ١٩٨٨.

في هذه الأجواء تنازل السيد بوتا -الذي كان رئيس الجمهورية منذ عام ١٩٨٤- عن منصبه باستياء وتذمُّر في عام ١٩٨٩ وخلفه السيد فردريك دوكليرك، الذي أكّد أن الحركة نحو التحرير سوف تستمر وتبلغ مدى أبعد مما كان الكثيرون يعتقدونه ممكنًا، ولو لم ينته نظام الأپارتايد بكافة جوانبه. فسمح بحرية أكبر بكثير للاحتجاج والمعارضة السياسيين وأطلق سراح الزعماء الوطنيين السود المسجونين. وفي عام ١٩٩٠ بزغت من السجن أخيرًا الشخصيَّة الرمز السيد نلسون مانديلا زعيم المجلس الوطني الأفريقي والمحرِّك الأساسي في المعارضة السوداء، وسرعان ما دخل في مناقشات مع الحكومة حول مستقبل البلاد. ورغم التصلُّب البادي في كلامه كانت هناك علامات تُبشِّر بواقعيَّة جديدة في ضرورة محاولة طمأنة الأقليَّة البيضاء حول مستقبلها تحت حكم الأغلبيَّة السوداء. وكانت هذه العلامات تدفع السياسيين الآخرين إلى المطالبة بالمزيد وبسرعة أكبر. وفي نهاية عام ١٩٩٠ كان السيد دوكليرك قد قال إنه سوف يلغي القوانين المتعلّقة بالأراضي والتي تُشكِّل حجر الأساس في نظام الأپارتايد. وهكذا لم يعد انتباه العالم مركّزًا على مدى إخلاص الزعماء البيض بل على مدى واقعية الزعماء السود ومدى قدرتهم على التحكُّم بأتباعهم، فكان هذا دليلاً لافتًا على سرعة تبدُّل الأمور في جنوب أفريقيا. إلا أن الآمال التي عُلِّقَتْ على مانديلا في -وقت إطلاق سراحه- قد زالت وحلَّت محلّها الشكوك، وكانت هناك علامات كثيرة على الانقسام بين أتباعه، وكان من الواضح أن الطريق أمام جنوب أفريقيا مازالت طريقًا صعبة وشاقّة.

بزوغ نظام عالمي جديد

الصين تبدل مسارها

رغم تقلُّب السياسة في الصين كان فيها تيَّار ثابت وواضح نحو إرخاء التشدُّد في بعض قطاعات الاقتصاد -منذ وفاة ماو في عام ١٩٧٦- وخلال بضع سنوات بدأت تسمع التحفُّظات حول إنجازاته في التصريحات الرسميَّة، وأصبحت الشخصيَّة المهيمنة في حكم الشيوخ هذا هي شخصيَّة تنغ سياو بينغ الذي ارتبط اسمه بالتحرُّر الاقتصادي. وصار التحديث يقدم شيئًا فشيئًا على الاشتراكية ولو أن الشعارات الماركسيَّة الطنَّانة ظلَّت على حالها، كما لم يكن ثمَّة احتمال في أن يتنازل الحزب الشيوعي عن شيء من سلطته السياسيَّة. وفي الثمانينيات بدأت سياسات تنغ تعطي أخيرًا تغيُّرات بارزة في الأداء الاقتصادي للصين.

ولكن هذه التغيُّرات لم تتم عن طريق إفلات السيطرة على الأمور، بل إن زعماء الصين كانوا مصمِّمين على إبقاء قبضتهم محكمة. لقد ساعدهم في كسب تأييد الناس ودعمهم استمرار قواعد الانضباط الاجتماعي القديمة، وارتياح الملايين للتخلِّي عن الثورة الثقافيَّة، والسياسة الاقتصاديَّة القائمة على إعادة توزيع المكاسب على الفلاحين -بعكس الماركسية كما ظل ينادى بها في موسكو حتى عام ١٩٨٠- وحصل تحوُّل أساسي في السلطة من الوحدات الريفيَّة التي أنشئت في الخمسينيات والتي لم تعد لها أهميَّة عمليَّة، إلى المزرعة العائلية التي عادت بحلول عام ١٩٨٥ لتصبح الشكل السائد من الإنتاج الزراعي في أكثر أنحاء الصين. وصار الكثيرون من

الصينيين يرون أن بلادهم باتت تتمتَّع باحترام ومكانة جديدين، ومن العلامات اللافتة على ذلك الزيارة الرسميَّة التي قامت بها الملكة إليزابث الثانية في عام ١٩٨٥، والتي جاءت بعد نجاح المفاوضات مع المملكة المتَّحدة والبرتغال حول عودة سيادة الصين على هونغ كونغ وماكاو.

ولكن المصاعب بدأت تظهر -خلال سنوات قليلة- إذ ارتفع الدين الخارجي ارتفاعًا كبيرًا وبلغ التضخُّم في نهاية العقد معدّلاً سنويّاً قدره حوالى ٣٠%. وازداد الغضب بسبب انتشار الفساد، كما كان من المعروف وجود انقسامات ضمن القيادة نفسها. وبدأ الراغبون بإعادة تثبيت السيطرة السياسيَّة يكسبون المزيد من النفوذ، وراحوا يناورون لاستمالة تنغ سياو بنغ. كانت سياسة التحرُّر الاقتصادي قد دفعت المراقبين الغربيِّين إلى توقُّعات متفائلة للغاية وغير واقعيَّة بأن يتبعها تحرُّر سياسي، وكانت التغيُّرات الجارية في أوربا الشرقية -وفي الصين نفسها أيضًا- تُغذّي هذه الآمال، إلا أن هذا الوهم ما لبث أن تلاشى.

في الأشهر الأولى من عام ١٩٨٩ كان سكان المدن يشعرون بالضغوط الناجمة عن التضخُّم الحاد وبالإجراءات التقشفيَّة التي فرضت لمعالجة أمره. وفي هذه الأجواء تعالت مطالب الطلبة من جديد بالإصلاح السياسي. وقد شجَّعهم وجود متعاطفين مع التحرُّر بين الأقليَّة الحاكمة، فطالبوا بأن يفتح الحزب والحكومة حوارًا مع اتحاد الطلبة - وهو تنظيم غير رسمي شكِّل حديثًا - حول مواضيع الفساد والإصلاح. وراحت الملصقات والتجمُّعات تنادي بقدر أكبر من "الديمقراطية"، وشعرت القيادة بالخطر ورفضت الاعتراف باتحاد الطلبة لأنها خشيت أن يكون نذيرًا بحركة جديدة مثل حركة الحراس الحمر. فحصلت المظاهرات -عندئذ- ومع اقتراب الذكرى السنويَّة السبعين لحركة الرابع من أيار (مايو) راح الطلاَّب

يستحضرون ذكراها من أجل أن يضفوا على حملتهم صبغة وطنيَّة واسعة. ولم يقدروا على استثارة تأييد كبير في الريف ولا في المدن الجنوبيَّة، إلا أن التعاطف الواضح من المراكز العليًا في الحزب قد شجَّعهم على بدء إضراب جماعي عن الطعام حظي بتعاطف وتأييد شعبيين واسعين في بكين.

يبدو أن أعلى أعضاء الحكومة بمن فيهم تنغ سياو بنغ قد شعروا بتخوُّف شديد وكانوا يعتقدون أن الصين تواجه أزمة كبرى، وكان بعضهم يخشون ثورة ثقافيَّة جديدة -وكان ابن تنغ سياو بنغ مصابًا بإعاقة بسبب الأذى الذي أصابه على يد الحرَّاس الحمر أثناء تلك الثورة- كما كان آخرون يشعرون بالخوف بسبب الأحداث الجارية في الاتحاد السوفييتي. فأُعلِنَتْ الأحكام العرفيَّة في ٢٠ أيار (مايو)، وبعد تردُّد قصير تمَّ قمع الحركة بلا رحمة. لقد كان زعماء اتحاد الطلبة مخيمين في بكين في ساحة تيان آن من، حيث أعلن ماو -قبل ثلاثين سنة- تأسيس جمهوريَّة الصين الشعبيَّة، وكانت هناك صورة ضخمة له معلَّقة على إحدى بوابات المدينة المحرَّمة القديمة وكأنه ينظر إلى الرمز الذي يحمله المحتجون، وهو تمثال شامخ من الجص "لإلهة الديمقراطية" التي توحي عمدًا بتمثال الحريَّة في نيويورك. وفي الثاني من حزيران (يونيو) دخلت أولى الوحدات العسكرية ضواحي بكين، فأزاحت المقاومة والحواجز، وبعد يومين فرَّقت الطلاَّب والمتعاطفين معهم بنار البنادق والغاز المسيل للدموع وبسحق وحشيّ للمخيَّم تحت جنازير الدبابات التي اكتسحت الساحة. واستمر التقتيل والاعتقالات الجماعيّة بضعة أيام -وربما بلغ عدد المعتقلين الكامل عشرة آلاف- وقد جرت أكثر هذه الأحداث أمام نظر العالم بفضل وجود المصوِّرين الذين كانوا ينقلون أخبار مخيَّم المتظاهرين لمشاهدي التلفزيون، ولقيت شجبًا واستنكارًا عالميين.

ولكن المعنى الحقيقي لهذه الحادثة مازال غير واضح - مثلما كانت الحال دومًا في الصين. من الواضح أن زعماءها شعروا أنهم يواجهون خطرًا جسيمًا، إلا أن الجماهير الريفيَّة لم تتعاطف مع المحتجِّين. وقد تلت ذلك تغييرات في الهرم الحاكم ومحاولات حثيثة لفرض السياسة التقليديَّة كما تمَّ كبح التحرُّر الاقتصادي وبدأت تسمع الشعارات الماركسيَّة الجديدة مرَّة ثانية. وكان من الواضح على الأقل أن الصين لا تسير على درب أوربا الشرقيَّة أو الاتحاد السوفييتي، الذي كان موته أبلغ علامة على نهاية حقبة كاملة.

نهاية الحرب الباردة

كان عام ١٩٨٠ عام الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة، وقد استغلَّ فيه المرشح الجمهوري السيد ريغان مخاوف الأمريكيين من الاتحاد السوفييتي. وعندما استلم منصبه كرئيس جمهوريَّة ورث عجزًا هائلاً في الميزانية -وسوف يزيده- وخيبة آمال الناس بالمبادرات الأخيرة للروس في أفريقيا وأفغانستان والتي كانت تبدو مبادرات ناجحة، كما استغلَّ خوفهم مما اعتبروه انقلابًا في توازن الأسلحة النووية الذي كان سائدًا في الستينيات. وقد أعاد ريغان معنويات مواطنيه -خلال السنوات الخمس التالية- عن طريق أعمال قياديَّة بارزة -وأكثرها تجميلية- وجرت حادثة تحمل معنى رمزيًا في يوم تولِّيه لمنصبه هي إطلاق الإيرانيين سراح الرهائن الأمريكان، فكانت تلك خاتمة حادثة مهينة ومحبطة، كما أنه أنهى الحرب الباردة.

لقد أثار انتخاب السيد ريغان العداء والشكوك بين القادة المحافظين في الاتحاد السوفييتي، إذ بدا أن هذا الرئيس الجديد قد يطرح جانبًا الخطوات الواعدة نحو نزع

الأسلحة بل -ربما- أكثر من ذلك. وقد أبدت الإدارة الأمريكية نزعة عملية واضحة في الشؤون الخارجية، بينما كانت التغيُّرات الداخليَّة الجاريَّة في الاتحاد السوفييتي تُمهِّدُ الطريق لمزيد من المرونة. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٢ توفي ليونيد بريجنيف بعد أن ظلَّ أمينًا عامًّا للحزب -طوال ثماني عشرة سنة- وجاء بعده خليفتان لم يستمرا إلا فترة وجيزة قبل أن يستلم المنصب في عام ١٩٨٥ رجل في الرابعة والخمسين كان أصغر أعضاء المكتب السياسي، ألا وهو السيد ميخائيل غورباتشيف. كانت خبرة السيد غورباتشيف السياسيَّة كلها -تقريبًا- من حقبة ما بعد ستالين، ومازال تأثيره على بلاده وعلى تاريخ العالم بحاجة لتقييم صحيح - وكذلك دوافعه الشخصيَّة وتفاعل القوى التي دفعته إلى الخلافة- إلا أنه كان بلا ريب تأثيرًا هائلاً. وسرعان ما بيَّنت أعماله وخطاباته مقاربة جديدة للأمور. وقد اعتبر لمحه في الغرب لمحًا تحرُّريًا liberalization إذ لم يكن ثمَّة مصطلحات تُعبِّرُ عن الكلمتين اللتين طالما استخدمهما، أي الغلاسنوست -الانفتاح- والبيريسترويكا -إعادة الهيكلة- وسوف يؤدِّي هذا إلى نتائج عميقة وحادة، فها هو ذا أخيرًا زعيم سوفييتي يعترف بأن اقتصاد بلاده لم يعد قادرًا على دعم قوَّته العسكريَّة السابقة والتزاماته نحو حلفائه في الخارج، ولا على تحسين مستويات المعيشة في الداخل ولو ببطء، ولا على تأمين التحدُّد التقني الذاتي. وفوق كل هذا كانت الحكومات الأمريكية تعد مواطنيها بمشروع جديد من الإجراءات الدفاعية في الفضاء الخارجي هو أشبه ما يكون بالعجائب، ورغم أن آلاف العلماء قالوا إنه غير واقعي فإن الحكومة السوفييتية لم تكن قادرة على مواجهة التكاليف المترتبة على منافسة مشروع كهذا. لقد بات الاتحاد السوفييتي بحاجة للتحديث من جديد، وسوف تترتَّب على ذلك نتائج هائلة.

وسرعان ما ظهر النهج الجديد للسيد غورباتشيف في لقاءاته مع السيد ريغان، التي كانت أهمها في إيسلندا في عام ١٩٨٦. فتحدَّد النقاش حول تخفيض الأسلحة كما تمَّ التوصُّل إلى اتفاقيات حول مواضيع أخرى، خاصة موضوع انسحاب القوات السوفييتية من أفغانستان حيث كانت غائصة في مستنقع من حرب العصابات، وقد غادرتها في عام ١٩٨٩. أما الولايات المتحدة فكانت تعاني من عجز هائل في الميزانية واقتصاد واهن، ولكن هذه الأزمات غابت عن الأنظار في خضم البهجة العارمة الناتجة عن التبدُّلات المتسارعة في المشهد الدولي. وكبر التفاؤل مع ظهور علامات الانقسام المتزايد ضمن الاتحاد السوفييتي وصعوبة إصلاحه لشؤونه. لقد عجز السيد ريغان عن إقناع مواطنيه بأهميَّة التركيز على مصالح الولايات المتحدة في أمريكا الوسطى، ولكنه كان على درجة عالية من الشعبيَّة عندما أنهى رئاسته، ولم يتَّضح للأمريكيين إلا بعد أن ترك منصبه أن هذا العقد قد سبَّب لهم تراجعًا في دخولهم، والحقيقة أن سياسة السيد ريغان لم تسمح إلا للأغنياء بأن يزدادوا غنى.

في عام ١٩٨٧ أعطت المفاوضات حول الحدِّ من الأسلحة ثمارها في اتفاقيَّة حول الصواريخ المتوسطة المدى، وسوف تتلوها اتفاقيَّات أخرى. وكان التوازن النووي قد صمد بالرغم من الصدمات الكثيرة التي مرَّ بها ومن ظهور بؤر جديدة من القوَّة النوويَّة، فقد بيَّنت القوتان العظميان أنهما قادرتان على تدبير صراعاتهما وأزمات العالم من دون حرب شاملة، ويبدو أنهما كانتا تدركان أن الحرب النووية إن حدثت فهي تحمل خطر إفناء البشرية كلها، ولو لم تدرك هذه الحقيقة الدول الأخرى الساعية للحصول على تلك الأسلحة. وهكذا اتفق الطرفان في عام ١٩٩١ على تخفيض جديد وكبير جدًا في مخزون الأسلحة الموجودة.

الثورة في أوربا الشرقية

إن هذه التغيُّرات الواسعة في المشهد العالمي كانت لها نتائج واسعة أيضًا. كان يبدو في نهاية عام ١٩٨٠ أن قبضة السوفييت على أوربا الشرقيّة ما زالت محكمة تمامًا، ولكن وراء هذه الصورة كانت تجري -منذ زمن طويل- تغيُّرات اجتماعيَّة وسياسيَّة ضمن دول حلف وارسو. كانت تلك الدول كلها تبدو متشابهة للوهلة الأولى، فالحزب الشيوعي هو السلطة العليًا في كل منها، والوصوليون يبنون حياتهم ومسيرتهم المهنيَّة من حوله مثلما كان الأمر في عصور أقدم حين كان الطامعون بالمال والسلطة يتحلّقون حول الملوك والسادة. وكان في جميع هذه الدول -خاصة في الاتحاد السوفييتي نفسه- ماض فظيع لم يقم أحد بفحصه والحديث عنه من أجل كشف عيوبه ونقدها، بل ظلّ ينوء بكلكله على الحياة الفكريَّة ويفسدها. أما اقتصادات أوربا الشرقيَّة فقد حصل فيها استثمار في الصناعات الثقيلة والبضائع الرأسماليَّة أدى في البداية إلى نمو سريع -كان أنشط في بعضها منه في بعضها الآخر- ثم جرت ترتيبات تجاريَّة مع الدول الشيوعيَّة الأخرى قيَّدت نشاطها على المستوى الدولي، وقد هيمن عليها الاتحاد السوفييتي وجمَّدها محاولات التخطيط المركزي، فصارت تزداد عجزًا عن تلبية حاجات شعوبها إلى بضائع تعتبر عادية في أوربا الغربيَّة. وبقي الإنتاج الزراعي منخفضًا فظلّت المردودات الزراعية في أكثر دول أوربا الشرقية تعادل نصف إلى ثلاثة أرباع مردودات الغرب فقط. وفي الثمانينيات كانت كلها بدرجات مختلفة في حالة من الأزمة الاقتصادية ربما باستثناء ألمانيا الشرقيَّة، التي كان الإنتاج المحلي الإجمالي السنوي للفرد فيها ٩,٣٠٠ دولار في عام ١٩٨٨، مقابل ١٩,٥٠٠ دولار في ألمانيا الغربيَّة.

كان بريجنيف يُصِرُّ على أن التطوُّرات الجارية في دول الكتلة الشرقيَّة قد تستدعي تدخُّلاً مباشرًا من أجل حماية المصالح السوفييتية كما حدث في تشيكوسلوفاكيا في عام ١٩٦٨، وربما كانت هذه نظرة واقعيَّة للأمور واعترافًا بالأخطار التي يشكِّلها الاضطراب والانشقاق في أوربا الشرقيَّة على الاستقرار الدولي. أما الدول الغربيَّة فلم تكن التغيُّرات الداخليَّة الجارية فيها تُشكِّل خطرًا على السلام، إذ كانت تزداد غنى وازدهارًا باطراد وكانت قد ابتعدت عن ذكريات أواخر الأربعينيات وعن احتمال حدوث خراب في مجتمعاتها. وبحلول عام ١٩٨٠ كانت قد حصلت تغيُّرات ثوريَّة في إسبانيا والبرتغال، فلم تبق ثمَّة دكتاتورية إلى الغرب من الخط الواصل بين مدينتي تريستا* وشتيتن* بل كانت الديمقراطية قد انتصرت في كل مكان. وظلَّت ثورات العمَّال الصناعيين ضد السلطة السياسيَّة مقتصرة -طوال ثلاثين سنة- على ألمانيا الشرقيَّة وهنغاريا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا، وكلُّها دول شيوعيَّة -واللافت أنه عندما حدثت اضطرابات طلابيَّة في باريس في عام ١٩٦٨ وحطَّمت أعمال الشغب التي قاموا بها هيبة الحكومة لم تتحرَّك الطبقة العاملة في باريس- ومع ازدياد الوعي في الكتلة الشرقيَّة للفروق الحادَّة عن الغرب ظهرت فيها جماعات منشقة وتمكَّنت من الاستمرار بل حتى من تقوية مواقعها بالرغم من القمع الشديد. وقد ساعدت اتفاقيَّة هلسنكي -لعام ١٩٧٥- في ذلك، وكذلك البث الإذاعي والتلفزيوني الآتي من ألمانيا الغربيَّة. وشيئًا فشيئًا بدأ بعض المسؤولين الإداريين والمختصِّين بالاقتصاد وحتى بعض أعضاء الحزب يشكُّون بمبدأ التخطيط المركزي. إلا أن مفتاح الاستقرار في الشرق ظلَّ الجيش السوفييتي، ولم يكن ثمَّة ما

---

* مرفأ إيطالي على خليج تريستا في الأدرياتيك.

* مدينة في شمال غرب بولندا قريبة من ألمانيا.

يدعو إلى احتمال حدوث تغيُّر أساسي في أي من دول حلف وارسو ما دام هذا الجيش موجودًا هناك لدعم الحكومات الخاضعة للاتحاد السوفييتي.

الدور الرائد لبولندا

لقد ظهرت أولى بوادر التغيير في الثمانينيات في بولندا. لطالما كان البولنديون يتطلّعون إلى الكنيسة الكاثوليكية في روما لتأييدهم والتعبير عنهم، وقد ازدادت ثقتهم بها بعد أن جلس على الكرسي البابوي رجل بولندي في عام ١٩٧٨. وكانت الكنيسة الكاثوليكية تؤيّد العمّال الذين احتجُّوا في السبعينيات على السياسة الاقتصاديَّة وتدين معاملتهم على يد السلطات. ثم جاء عام ١٩٨٠ الذي كان عامًا متأزّمًا في بولندا حصلت فيه سلسلة من الإضرابات بلغت ذروتها في صراع ملحمي في مركز بناء السفن بمدينة غدانسك -دانتزيغ- وبرزت من -خلال ذلك- نقابة عماليّة جديدة تنظّمت بصورة عفويّة هي نقابة التضامن، فأضافت مطالب سياسيَّة إلى الأهداف الاقتصاديَّة للمضربين، ومنها المطالبة بنقابات عماليَّة حرَّة ومستقلَّة. وكان زعيم نقابة التضامن هذه رجلاً بارزًا ذا شخصيَّة جذّابة ومثيرة هو ليش ڤاليسا، الذي سجن مرارًا وكان كاثوليكيًا ورعًا وعلى صلة وثيقة برجال الكنيسة البولندية. وكانت بوابات مركز بناء السفن هذا مزيَّنة بصور البابا وقد أقام المضربون صلوات في الهواء الطلق.

وتزعزعت الحكومة البولنديَّة فأقدمت على تنازل تاريخي هام عندما اعترفت بنقابة التضامن كنقابة عماليَّة مستقلة ذات حكم ذاتي. إلا أن الاضطرابات ظلّت مستمرَّة وازدادت الأزمة عمقًا بحلول الشتاء، وصرت تسمع تهديدات باحتمال تدخُّل الجيش السوفييتي إلا أنه لم يتدخَّل، وقد كانت هذه واحدة من أولى علامات

التغيُّر في موسكو ومقدِّمة لكل ما جرى بعد ذلك. وما برح التوتُّر يتصاعد، وقد جاء القائد الروسي لقوَّات حلف وارسو خمس مرات إلى وارسو. وفي المرَّة الأخيرة خرج راديكاليو نقابة التضامن عن سيطرة ڤاليسا وراحوا ينادون بإضراب عام، وأعلنت الأحكام العرفيَّة في ١٣ كانون الأول (ديسمبر)، ثم قمعت الحركة بصورة ضارية -ربما- بيَّنت أن لا حاجة للغزو السوڤييتي. فتحوَّلت نقابة التضامن -عندئذ- إلى العمل السري، وبدأت -سبع سنوات- من زيادة التدهور الاقتصادي ومن التنظيمات والمنشورات السريَّة والإضرابات والمظاهرات والإدانات الكنسيَّة المستمرَّة للنظام. ولكن بعد عام ١٩٨٥ بدأت التغيرات الجارية في موسكو تعطي تأثيراتها على الدول الأخرى في حلف وارسو، وقد بلغت ذروتها في عام ١٩٨٩.

لقد ابتدأ -ذلك العام- بقبول الحكومة البولنديَّة بمشاركة الأحزاب والمنظمات السياسيَّة الأخرى بما فيها نقابة التضامن في العمليَّة السياسيَّة. وجرت الانتخابات في حزيران (يونيو) وكانت بعض المقاعد فيها معروضة للمنافسة الحرَّة ففازت بها نقابة التضامن فوزًا ساحقًا. وسرعان ما شجب البرلمان الجديد الاتفاق الألماني الروسي العائد لشهر آب (أغسطس) ١٩٣٩ وأدان غزو تشيكوسلوڤاكيا في عام ١٩٦٨ ونظَّم التحقيقات في جرائم القتل السياسي المرتكبة -منذ عام ١٩٨١- وأعلن ڤاليسا في آب (أغسطس) أن نقابة التضامن سوف تؤيِّد قيام حكومة ائتلافية، وأصدر السيد غورباتشيف تصريحًا حاسمًا بأن هذا الأمر مشروع، وكانت الوحدات العسكريَّة السوڤييتية قد غادرت البلاد -في ذلك الحين- وفي شهر أيلول (سبتمبر) استلم الحكم ائتلاف تسيطر عليه نقابة التضامن ويرأسه أول رئيس وزراء غير شيوعي -منذ عام ١٩٤٥- وسرعان ما وعد الغرب بتقديم مساعدات

اقتصادية، وبحلول عيد الميلاد كانت جمهورية بولندا الشعبية قد زالت من التاريخ وبُعثت جمهورية بولندا التاريخية من قبرها.

لقد قادت بولندا أوربا الشرقيَّة إلى الحريَّة، وشعر الزعماء في الدول الشيوعيَّة الأخرى بالخوف من الأحداث الجاريَّة هناك، كما أن أوربا الشرقيَّة كلها كانت قد تعرَّضت بدرجات مختلفة لسيل متنام من المعلومات حول الدول غير الشيوعيَّة، خاصة من خلال التلفزيون -الذي كانت له أهميَّة بارزة في ألمانيا الشرقيَّة وازدياد حريَّة التنقل وزيادة الحصول على الكتب والصحف الأجنبيَّة بعد معاهدة هلسنكي. أي أن الوعي كان قد بدأ بالتغيُّر قبل أن يستلم الرئيس غورباتشيف السلطة. وسرعان ما تبيَّن أنه أطلق تغيُّرات دستوريَّة ثوريَّة في الاتحاد السوفييتي. لقد كانت الخطوة الأولى هي سحب السلطة من الحزب الشيوعي، فانتهزت هذه الفرصة قوى المعارضة الجديدة الناشئة خاصة في جمهوريات الاتحاد التي بدأت تطالب بقدر من الحكم الذاتي. إلا أن النتيجة الاقتصاديَّة كانت مروِّعة، وبات من الواضح أن الانتقال إلى اقتصاد السوق سواء كان بطيئًا أو سريعًا فإنه سوف يفرض على المواطنين السوفييت مشاق أكبر بكثير مما كانوا يتصوَّرون. وفي عام ١٩٨٩ كان الاقتصاد السوفييتي قد خرج عن نطاق السيطرة وما برح يتدهور. لقد كانت عمليَّات التحديث -طوال تاريخ روسيا- تنطلق من المركز إلى المحيط من خلال البنى الدكتاتورية، إلا أن هذا الأمر لم يعد ممكنًا -الآن- بسبب مقاومة بيروقراطيي الاقتصاد الموجَّه.

نهاية النظام الشيوعي

مع توافر المزيد من المعلومات عن الاتحاد السوفييتي صار بالإمكان تشكيل أفكار تقريبيَّة عما يجري داخله. وكان من هذه الأفكار أن فقدان الثقة بالحزب

والطبقة الحاكمة عميق جدًا وأن الانهيار الاقتصادي يطغى على تحرير العمليّات السياسيَّة مثل غيمة ثقيلة، وبدأ المواطنون السوفييت يتحدَّثون عن احتمال نشوب حرب أهليَّة. إن ارتخاء القبضة الحديدية قد كشف عن قوة المشاعر الوطنيَّة والمحليَّة عندما يهيجها الانهيار الاقتصادي والفرص السانحة، فبعد سبعين سنة، من بذل الجهود لصنع مواطنين سوفييت انكشف الاتحاد السوفييتيّ فجأة كمجموعة من الشعوب المتباينة مثلما كانت من قبل. وكان بعضها سريعًا في التعبير عن استيائه من أوضاعه خاصة في جمهوريات البلطيق الثلاث لاتفيا وإستونيا وليتوانيا. وازدادت مشاكل آذربيجان وأرمينيا تعقيدًا بسبب شبح القلاقل الإسلامية الذي كان يلوِّح في كافة أنحاء الاتحاد. والأسوأ من كل هذا أن البعض صاروا يخشون حدوث انقلاب عسكري.

وكثرت علامات التفكُّك بينما تمكّن السيد غورباتشيف من البقاء في مكانه بل حصل -أيضًا- على بعض التعزيزات الرسميَّة لسلطته الاسمية -ولكنها ألقت بمسؤوليَّة الفشل على كاهله أيضًا- وفي آذار (مارس) ١٩٩٠ أعاد البرلمان الليتواني تثبيت استقلال ليتوانيا وجرت مفاوضات معقَّدة جنَّبت هذه الجمهورية القمع المسلح على يد القوات السوفييتية، ثم تبعتها لاتفيا وإستونيا بشروط مختلفة اختلافًا بسيطًا. وقبل السيد غورباتشيف تعهُّدات بأن تضمن هذه الجمهوريات الثلاث استمرار خدمات عملية معيَّنة للاتحاد السوفييتي، ولكن -بنهاية العام- كانت حتى هذه التعهُّدات قد فات أوانها ولم تعد ممكنة عمليّاً. وكانت برلمانات تسع جمهوريات أخرى -في ذلك الحين- قد أعلنت عن أنفسها كدول ذات سيادة أو ثبتت قدرًا كبيرًا من الاستقلال عن الاتحاد السوفييتي. فكانت بعضها قد جعلت لغاتها المحليَّة لغات رسميَّة وبعضها قد نقلت الوزارات والهيئات الاقتصادية السوفييتية

إلى أيدي السلطات المحليَّة. وراحت الجمهورية الروسية – وهي أهم الجمهوريات – تدير اقتصادها بصورة منفصلة عن اقتصاد الاتحاد السوفييتي. وعزمت الجمهوريَّة الأوكرانيَّة على تأسيس جيش خاص بها وقالت في عام ١٩٩١ إنها تسيطر على كافة القوات السوفييتية الموجودة على أراضيها وعلى أسلحتها النوويةً أيضًا. ووقف العالم يتابع هذه الأحداث بذهول وقلق.

وأدركت بقيَّة دول حلف وارسو بسرعة أن هذا الاتحاد السوفييتي الذي ما برح ينخره الانقسام والشلل لن يتدخَّل –وربما لا يقدر أن يتدخَّل– لدعم الكيانات التي اصطنعها في الإدارات الشيوعيَّة. كان الهنغاريون قد ساروا في طريق التحرُّر الاقتصادي بسرعة مثل البولنديين حتى قبل التغيُّرات السياسية الصريحة، إلا أن أهم مساهمة لهم في انحلال أوربا الشيوعيَّة أتت في آب (أغسطس) ١٩٨٩، عندما سمحوا للألمان القادمين من ألمانيا الشرقيَّة بدخول هنغاريا بحريَّة كمنفذ إلى الغرب. وقد تمَّ فتح حدود هنغاريا بشكل كامل في أيلول (سبتمبر) ثم تبعتها تشيكوسلوفاكيا وما لبث التيَّار أن تحوَّل إلى طوفان. وقد علَّق الروس على هذه الأحداث بأنها «غير مألوفة»، وكانت هذه بداية النهاية لألمانيا الشرقيَّة التي كانت على وشك الاحتفال بأربعين عامًا من «النجاح» كدولة اشتراكية في احتفال خطَّطت له بعناية كبيرة وتبجَّحت به أيما تبجح. وفي عشيَّة هذا الاحتفال وأثناء زيارة السيد غورباتشيف –الذي أجفل الشيوعيين الألمان إذ بدا أنه يستحثُّ الألمان الشرقيين على انتهاز هذه الفرصة– اشتبكت شرطة مكافحة الشغب بمظاهرات معادية للحكومة في شوارع برلين. وابتدأ شهر تشرين الثاني (نوفمبر) بالمزيد من المظاهرات في مدن كثيرة ضد هذا النظام الذي بات فساده أمرًا واضحًا، وفي التاسع من الشهر تمَّ أعظم حدث رمزي، ألا وهو اختراق سور برلين، فاستسلم المكتب

السياسي للحزب الشيوعي في ألمانيا الشرقيَّة وما لبث أن تلا ذلك تدمير بقيَّة السور.

لقد تبيَّن -الآن- أن الحكومات الشيوعيَّة في كافة أنحاء أوربا الشرقيَّة ليست لها شرعيَّة في نظر رعاياها، وكانت النتيجة هي المطالبة بانتخابات حرَّة، فمنح البولنديون أنفسهم دستورًا جديدًا وفي عام ١٩٩٠ أصبح ليش ڤاليسا رئيسًا للجمهورية. وكانت هنغاريا -قبل ذلك بقليل- قد انتخبت برلمانًا انبثقت عنه حكومة غير شيوعيَّة وبدأ الجنود السوڤييت ينسحبون من هذا البلد. وفي حزيران (يونيو) ١٩٩٠ أعطت الانتخابات في تشيكوسلوڤاكيا حكومة حرَّة وسرعان ما اتُّفق على أن تغادرها القوات السوڤييتية بحلول شهر أيار (مايو) ١٩٩١. أما في بلغاريا فكانت التطوُّرات أقل حسمًا لأن أعضاء الحزب الشيوعي تحوَّلوا إلى مصلحين وكسبوا الأغلبيَّة، بينما مرَّت رومانيا بثورة عنيفة انتهت بقتل دكتاتورها الشيوعي السابق بعد انتفاضة في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٩ كشفت عن انقسامات داخلية كانت تنبِّئ بقدوم المزيد من النـــزاع.

إلا أن التغيُّرات التي جرت في ألمانيا كانت أهمَّها على الإطلاق. لقد كشف اختراق السور أن ليس من إرادة سياسيَّة لدعم الشيوعيَّة ولا حتى لدعم الدولة، ولاح فجأة موضوع توحيد ألمانيا، فجرت انتخابات عامة هناك في آذار (مارس) ١٩٩٠ أعطت الأغلبيَّة لائتلاف يسيطر عليه الديمقراطيون المسيحيون - وهم الحزب الحاكم في جمهورية ألمانيا الفدراليَّة الغربيَّة، فلم يعد ثمَّة شك بموضوع الوحدة بل بقي أن تحدَّد تفاصيل العمليَّة وتوقيتها. ففي تموز (يوليو) انضمت ألمانيا الشرقيَّة والغربيَّة في اتحاد مالي اقتصادي اجتماعي، وفي تشرين الأول (أكتوبر) أصبحت الجمهورية الألمانية الديمقراطية -الشرقية- جزءًا من الجمهورية الفدراليَّة.

والغريب أن أحدًا لم يُعبِّر عن تخوُّف صريح من هذا التغيُّر العظيم ولا حتى في موسكو، ولكن لا ريب أن التخوُّف كان موجودًا. وسوف تكون ألمانيا الجديدة أكبر قوة أوربيَّة إلى الغرب من روسيا، التي انكسفت سلطتها -الآن- كسوفًا لم تعرفه -منذ عام ١٩١٨- وقد كافأ السيد غورباتشيف ألمانيا الجديدة هذه بمعاهدة تعدها بمساعدات اقتصادية وتحديث سوفييتي. ويمكننا أن نضيف هنا، طمأنة لأولئك الذين يذكرون أحداث ١٩٤١- ١٩٤٥، أن هذه الدولة الألمانية الجديدة لم تكن نفسها ألمانيا القديمة، بل كانت مجرَّدة من الأراضي الألمانيَّة الشرقيَّة القديمة التي تخلَّت عنها رسميًا، ولم تكن تسيطر عليها پروسيا مثلما كانت الحال في إمبراطورية بسمارك وجمهورية ڤايمار. وإن ما يدعو أكثر إلى الاطمئنان -خاصة لدى المتخوِّفين في أوربا الغربيَّة- هو أن هذه الجمهوريَّة دولة فدراليَّة دستوريَّة وناجحة على الصعيد الاقتصادي وتحمل -حوالى أربعين عامًا- من الخبرة في السياسة الديمقراطيَّة الناجحة لتبني عليها مستقبلها، كما أنها مندمجة تمامًا ضمن أوربا الغربيَّة الديمقراطيَّة.

إلا أن المشهد لم يكن مطمئنًا في البلاد الأخرى، وسرعان ما لاحظ بعض المراقبين أن ظهور الانقسامات القوميَّة الجديدة والقديمة بات متفشيًا في أوربا الشرقيَّة بصورة عداوات لدودة، فقد تباعد التشيك والسلوفاك، وراح البلغار يغتمُّون لوجود مواطنيهم الأتراك -فيما بينهم- وكذلك الهنغاريون والرومانيون حول ترانسلڤانيا. والأهم من هذا أن المنطقة برمتها كانت ترزح تحت عبء الفشل الاقتصادي الثقيل الذي يهدِّدها. فربما أتى التحرُّر إليها ولكنه أتى إلى شعوب ومجتمعات على مستويات متباينة جدًا من حيث الرقي والتطوُّر ومن أصول تاريخية مختلفة جدًا أيضًا. وفي عام ١٩٩١ أصيب المتفائلون بإمكانية التغيير السلمي بصدمة رهيبة عندما أعلنت اثنتان من الجمهوريات المكوِّنة ليوغسلاڤيا أنهما قرَّرتا الانفصال

عن هذه الدولة الفدراليَّة، وقد كانت وراء هذا القرار عداوات قومية قديمة ظلّت مكبوتة على عهد الجمهورية الشيوعيَّة. وفي شهر آب (أغسطس) بدأ القتال بصورة متقطِّعة بين الصرب والكروات، واتَّخذت الدول الأخرى مواقف مختلفة من هذا الصراع لأن محاولات التدخُّل الخارجيَّة السابقة في الصراعات الأهليَّة لم تكن تُبشِّر بالخير. وقد أصبحت هذه الحقيقة أكثر وضوحًا عندما أصبح مسلمو البوسنة هدفًا لهجمات الصرب. وفي عام ١٩٩٢ وافقت الأمم المتَّحدة على إرسال قوات من الدول الأعضاء فيها لضمان وصول المساعدات الإنسانية، بينما راحت وحشيَّة الأحقاد القديمة تتظاهر بصورة متزايدة، ففي أية مرحلة يمكن استخدام القوة العسكريَّة من أجل السيطرة عليها؟

نهاية الاتحاد السوفييتي

في هذه الأثناء، حصلت في شهر آب (أغسطس) ١٩٩١ محاولة لإزاحة نظام غورباتشيف بالقوة، ورغم أنها فشلت فقد كانت ضربة للسياسة السوفييتية ساهمت في تفككُّها. إن الظروف التي حدثت فيها محاولة الانقلاب قد أعطت السيد بوريس يلتسين زعيم الجمهورية الروسية - وهي الأكبر في الاتحاد السوفييتي - الفرصة لكي يظهر على أنه الرجل القوي على المسرح السوفييتي والذي لا يمكن فعل شيء بدونه. ولم يتحرَّك الجيش ضده، وهو المصدر الوحيد الذي كان يمكن أن يشكِّل خطرًا عليه وعلى مؤيِّديه. وبينما كان العالم ينتظر توضيح الأمور جرت عمليَّة تطهير للذين دعموا الانقلاب أو سكتوا عنه، ثم تحوَّلت هذه إلى عمليَّة استبدال حثيثة لمسؤولي الاتحاد السوفييتي على كافة المستويات، وإعادة تحديد أدوار جهاز استخباراته وإعادة توزيع السلطة فيه بين الاتحاد والجمهوريات. كما بدأ -في الوقت نفسه- حل الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي على الفور، وهكذا زال هذا العملاق الذي نشأ من انتصار البلاشفة في عام ١٩١٧ من دون سفك دماء، أقله في البداية. وكانت هناك أسباب وجيهة تدعو للابتهاج بهذا التطوُّر، ولكن لا يمكن أن يقال إن النتائج ستكون كلّها خيرًا. ففي يوم ٣١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩١ أنزل علم الاتحاد السوفييتي من على الكرملين وحلَّ محلَّه علم روسيا، وزال الاتحاد السوفييتي من التاريخ لتحلَّ محلَّه مجموعة من الدول المستقلة المرتبطة بمصالح مشتركة، إلا أن الشيء الوحيد الواضح كان المشاكل الاقتصاديَّة والسياسيَّة العميقة والمعقَّدة التي تواجهها جميع جمهورياته -تقريبًا- وبدرجة كبيرة جدًا.

أورُبا الغربيّة

بينما كانت الوحدة التي فرضتها الهيمنة السوفييتية على أوربا الشرقية تنحل، بدت أوربا الغربيّة تقترب من ذروة عمليّة اندماج تعود جذورها إلى المفكّرين المثاليين الذين كانوا مقتنعين في عام ١٩٤٥ بأن الوحدة السياسيّة وحدها قادرة على حفظ القارة من الكوارث في المستقبل. وقد أيّدت الحرب الباردة تلاميذ أولئك الرواد، وعندما ينظر المرء إلى الماضي يرى أن خطة مارشال وحلف الناتو كانا من أولى الخطوات العمليّة التي شجّعت على ظهور وحدة أوربيّة جديدة.

وبعد خطة مارشال جاء تأسيس منظّمة التعاون الاقتصادي الأوربي في – عام ١٩٤٨– والتي كانت مكوّنة في البداية من ست عشرة دولة ثم توسّعت بعد ذلك– وفي العام التالي وبعد شهر واحد، من توقيع معاهدة الناتو اجتمع ممثلو عشر دول أوربية مختلفة في أول «مجلس أوربي». إلا أن الأمور الاقتصاديّة كانت هي الأكثر أهميّة، إذ كانت قد خلقت اتحادات جمركيّة في –عام ١٩٤٨– بين دول البينيلوكس –أي بلجيكا– ونيدرلند –هولندا– ولوكسمبورغ– وبين فرنسا وإيطاليا ولكن بشكل مختلف. ثم ظهرت في عام ١٩٥١ وبناء على اقتراح فرنسي مجموعة الفحم والفولاذ التي كانت تضم فرنسا وإيطاليا ودول البينيلوكس والأهم منها دلالة انضمام ألمانيا الغربيّة، فكانت تلك أول خطوة كبرى نحو دمج هذه الدولة في بنية دوليّة جديدة.

في هذه الأثناء كان الضعف السياسي في فرنسا وإيطاليا والذي تدل عليه أحزابها الشيوعيَّة المحليَّة قد تراجع بفضل التعافي الاقتصادي، وبحلول عام ١٩٥٠ كان قد زال خطر أن تصاب الديمقراطية في فرنسا وإيطاليا بمصيرها في تشيكوسلوفاكيا. كان الرأي المناهض للشيوعيَّة في أوربا الغربيَّة يلتم حول أحزاب يجمع شملها السياسيُّون الكاثوليك أو الديمقراطيون الاجتماعيون الواعون تمامًا لمصير رفاقهم في أوربا الشرقيَّة. وقد أدَّت هذه التغيُّرات بصورة إجمالية -باستثناء إسبانيا والبرتغال- إلى وجود حكومات أوربيَّة غربيَّة ذات صبغة يمينية معتدلة كانت تسعى خلال الخمسينيَّات نحو الأهداف نفسها من تعاف اقتصادي وتأمين لخدمات الرفاهة ودمج لدول أوربا الغربيَّة في الأمور العمليَّة المختلفة.

وظلَّ الدافع الأساسي نحو الوحدة الأوربية في ذلك العقد هو الدافع الاقتصادي. وقد أتت الخطوة الحاسمة في عام ١٩٥٧ عندما ولدت المجموعة الاقتصادية الأوربية EEC أو «السوق المشتركة» من انضمام فرنسا وألمانيا وبلجيكا وهولندا واللوكسمبورغ وإيطاليا في توقيع معاهدة روما، وراح بعض المتحمِّسين يتحدَّثون عن إعادة بناء ميراث شارلمان. أما الدول التي لم تنضمَّ إلى هذه المجموعة الاقتصادية فقد وضعت لنفسها تنظيمًا فضفاضًا ومحدودًا هو جمعيَّة التجارة الحرَّة الأوربية EFTA بعد -عامين ونصف العام- ثم تحوَّل اسم المجموعة الاقتصاديَّة الأوربيَّة إلى المجموعة الأوربية EC وكان إسقاط كلمة «الاقتصاديَّة» ذا دلالة هامة، وبحلول عام ١٩٨٦، كانت الدول الست الأصليَّة فيها قد أصبحت اثنتي عشرة دولة، بينما خسرت جمعيَّة التجارة الحرَّة جميع أعضائها ما عدا أربعة منهم -وبعد خمس سنوات- كانت الدول الباقية منها تفكِّر بالانضمام إلى المجموعة الأوربيَّة.

كانت أوربا الغربيَّة تسير إذًا بصورة وئيدة ولكن متسارعة نحو الوحدة السياسيَّة، فكان هذا دليلاً على نهاية حقبة الحروب بين دولها والتي تعود جذورها إلى بدايات عهد الدول القوميَّة. وقد أدرك حكام بريطانيا هذه الحقيقة، ولكن المؤسِّف أنَّهم لم ينتهزوا -منذ البداية- فرصة المشاركة في وضع مؤسَّساتها، وسوف ترفض طلبات خلفائهم للانضمام إلى المجموعة الاقتصادية الأوربية مرتين قبل أن ينضمُّوا إليها أخيرًا. وفي هذه الأثناء كانت مصالح المجموعة تتماسك -فيما بينها- وتتوطَّد عن طريق السياسة الزراعيَّة المشتركة، وهي عمليّاً عبارة عن رشوة ضخمة للمزارعين والفلاحين الذين يشكِّلون جزءًا هامًا من جماهير الناخبين في ألمانيا وفرنسا، وبعد ذلك للدول الفقيرة التي صارت تنضمُّ إلى المجموعة.

وما برحت تظهر مؤسَّسات جديدة في المجموعة الأوربيَّة، كما سارت الحكومة البريطانية في عام ١٩٩١ مسافة بعيدة نحو تقريب بلادها من الاندماج في أوربا. إلا أن المناخ الاقتصادي كان مظلمًا وكئيبًا، فألمانيا وهي أغنى عضو في المجموعة قد وجدت في عام ١٩٩٢ أن الأعباء الاقتصاديَّة لعمليَّة إعادة التوحيد أثقل بكثير مما كان متوقّعاً. وزاد الطين بلة انضمام دول جديدة أفقر إلى المجموعة في الثمانينيات وتقديم دول أخرى من أوربا الشرقية طلبات انضمامها أيضًا، فكانت هذه مصادر جديدة للتخوُّف والحذر. ولكن الحقيقة الأسوأ هي أن المجموعة لم تتمكّن من تحقيق الأمل بسياسة خارجيَّة مشتركة، وقد ظهرت هذه الحقيقة بفعل الأحداث الجارية في يوغسلافيا السابقة، حيث أدَّى تداخل الأحقاد القوميَّة بعد انهيار الدولة الفدراليَّة الشيوعيَّة السابقة إلى سفك الدماء على مستوى هدَّد بتجاوز حدود البلاد، بل إن البعض كانوا يخشون أن يهدِّد السلام الدولي،

وعاد اسم سراييفو ليحمل شهرة مشؤومة كما في -عام ١٩١٤- ولو لأسباب مختلفة جدًا. إن الفظائع الوحشيَّة التي شهدتها البوسنة والأسئلة السياسيَّة التي طرحت فيها تحمل الذكرى المريرة للمشاكل التاريخيَّة العميقة التي ظلَّت بلا حل بينما راحت نشوة «التحرير» تفتر في الشرق؛ أما نهاية التاريخ التي هلَّل لها البعض فقد تبيَّن أنها ليست إلا وهمًا مثلما كانت دائمًا.

الخاتمة

ما زال مستقبل العالم اليوم في -منتصف عام ١٩٩٣- يبدو بعيدًا كل البعد عن الاستقرار، وليس في الأفق -ثمَّة- نهاية لمعاناة البشر ولا ما يدعو إلى التفاؤل بقدومها يومًا ما. ومن حسن حظ المؤرِّخين أن ليس عليهم التنبُّؤ بما قد يحدث في المستقبل؛ كما أن هذه الأحداث التاريخية لا تدهشهم، لأنهم يعلمون -تمامًا- أنها مهما كانت مذهلة فإن لها دومًا تاريخًا وراءها. إن جذورها جديرة بالدراسة لأنها تساعد في تفسير الأحداث التي تبدو منفصلة وربطها ربطًا منطقيًا بما جاء قبلها؛ وإن رؤية الأشياء بأبعادها الصحيحة ومرور الزمن عليها يساعدان في ضمِّها بصورة أوضح إلى نسيج التاريخ.

إن الحاجة ماسَّة لتذكُّر هذا الأمر في هذا العالم السريع التغيُّر الذي نعيش فيه اليوم. فالعذابات التي تعيشها اليوم شعوب يوغسلافيا السابقة ليست ناجمة -فقط- عن زوال دكتاتور قوي، ولا عن أعمال الأنصار وقوَّات الاحتلال في الحرب العالمية الثانية، ولا عن سياسة الهابسبرغ قبل ذلك نحو شعوبها، ولا حتى عن نمو الإيديولوجية والأساطير القوميَّة -منذ الثورة الفرنسية- بل إن القصَّة تنطوي -أيضًا- على قرون من الحكم العثماني، وعلى الخصومة بين الكاثوليك والأرثوذكس في القرون الوسطى، وربما حتى على العداوة بين الإفرنج والسلاف. وإذا انتقلت إلى الطرف الآخر من الكرة الأرضيَّة وجدت أن آسيا قد بدأت تشعر بالتأثيرات الأولى

لبزوغ الصين من بعد كسوف مؤقّت لتستعيد أهميتها الثقافيّة والسياسيّة التي شكّلتها -آلاف السنين- من الخبرة التاريخية. أما الظواهر الأخرى التي تسود في عالمنا، مثل تزايد أعداد السكان وما يشكّله من ضغوط، والأضرار التي تعاني منها البيئة، والهزّات القويّة التي تمرُّ بها المجتمعات التقليديّة المضطّرة للتأقلم مع التطوُّر التقني المتسارع والعنيف، فليس بينها ظاهرة واحدة إلا ويشكّل فهم التاريخ فيها بداية الحكمة.

إلا أن هذا لا يعني أننا سوف نتوصّل إلى حلول لمشاكلنا، لأن قدرتنا على مواجهة هذه التحدّيات الهائلة محكومة -أيضًا- بالتاريخ، ولأن لحيز المناورة حدودًا. ثم إن التاريخ قد يساء فهمه أيضًا - أو يُصوَّر بطريقة خاطئة - وقد يؤدّي هذا إلى كوارث؛ فالتاريخ الخاطئ سلطان خطير، ولم تكن الحاجة إلى تاريخ صحيح ماسّة كما هي اليوم.

محتويات الجزء الثاني

الصفحة

الفصل الثامن:

الصفحة

الفصل التاسع

الصفحة

الفصل العاشر

الصفحة

الصفحة

الفصل الحادي عشر:

الصفحة

الفصل الثاني عشر:

الصفحة

الصفحة

الفصل الثالث عشر:

الصفحة

الفصل الرابع عشر:

الصفحة

الصفحة

الفصل الخامس عشر:

الصفحة

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠٠٤

عدد الطبع ١٥٠٠ نسخة



سعر النسخة داخل القطر ٢٠٥ ل.س في الأقطار العربية مايعادل ٤١٠ ل.س
٢٠٠٤